

د. رفعت السعيد

الزعامات السياسية المصرية

الزعامات السياسية المصرية

د. رفعت السعيد

الزعامات السياسية المصرية

- مصطفى كامل
- محمد فريد
- سعد زغلول
- مصطفى النحاس
- محمد محمود
- احمد ماهر
- مكرم عبيد
- حسن البنا

لعمرك ما أرقت لغير مصر

وما لى دونها أملٌ يُرام

ذكرت جلالها أيام كانت

تصول بها الفراعنة العظام

وأيامُ الرجال بها رجالٌ

وأيامُ الزمان لها غلام

فأ قلق مضجعى ما بات فيها

وما باتت عليه فهل أُلامُ؟

بداية

ثمة سؤال محير، لم يحيرنى وحدى، بل لعله بعث كثيراً من الأرق إلى كل من تأمل خريطة العمل السياسى المصرى وعمقها العميق. أقصد أن الأرق خيم ولم يزل لدى كل محاولة لشق طريق نحو الوجدان المصرى كى يتعرف على إدوات تحريك مشاعره بالرفض أو القبول.

المصريون هذا الشعب الذكى، المتظاهر بعكس ذلك، المتحرك فى سكون، القابض على الجمر فى إحتمال يغلفه الملل، المتقبل لما يجرى فى رفض، المتحدث دوماً ولكن فى صمت.

هذا الشعب كيف يحب، ولماذا يكره؟ كيف يتكون وجدانه تجاه الاحداث، والاحزاب، والزعامات ؟

وبإختصار كيف يسلط محبته،وقبوله وربما إنتماءه لشخص محدد؟ ولماذا هذا الشخص بالذات؟

ولعلى أخطئ كثيراً إذ تصورت أن هذا النوع من الأرق مسألة مصرية، بل هى مسألة أو لغز لم يزل يحير الباحثين فى علوم السياسه والاجتماع والمجتمعات.

ولكى أحاول أن أشق طريقاً عبر غابة المشاعر المصرية قررت ان أبدأ هذه الكتابة.

الزعامات المصرية كيف تكونت، ولماذا أحاطها المصريون بهذا القدر من القبول أوالرفض؟. ولماذاهذا الشخص بالذات الذى إختاره المصريون «زعيماً» لهم، أو إختاره حزبه أو جماعته قائدا لهم؟

هذا الخيط السحرى الذى لا نراه، لانمسك به، لكنه يتسلل الينا، يحتوينا، يحتل وجداننا، ثم إذا بنا نخضع له قابلين مهللين بل وتابعين لشخص ما، أو رافضين له مستنكرين وساخطين.

هذا الخيط المفترض الذى يقسمنا إزاء فكرة أو حزب أو موقف، البعض يقبل، والبعض يرفض، قد يكون متكوناً من رؤية أو موقف أو حتى إلتزام. لكن «الشخص» حتى لو إنتمى إلى هذه الفكرة أو إنتمت هى إليه، يظل ممتلكاً جاذبية خاصة، أو حتى مبررات النفور منه.

ويبقى الامر مغلفاً بسحره الخاص، وغموضه الشديد.

وعبر ضباب الغموض تتمايز معطيات تدفعنا للتأمل.

فالفارق متسع، بل لعله متسع بأكثر مما نتوقع بين سحر الموقف الفردى، وغموض الاندفاع الجماعى.

فالسؤال الذى يبدو بريئاً فى علاقات الأفراد، لماذا يأتى الحب أو العشق إلى قلب ما؟ لاإجابة علمية عليه.

فلا الجمال ولا الرشاقة ولا الذكاء ولا الأنوثة يمكنها جميعاً ولا لأى منها، أن تقدم تفسيراً صحيحاً، أو حتى معقولاً أو مقبولاً، لحالات الحب التى تخترق كل الحواجز بلا منطق، وتظل متربصة بنا بلا منطقيتها.

ولان الأمر لا منطق فيه، فإنه يخضع لمقولة منطقية قديمة «من غير المنطقى أن نستخدم المنطق فى فهم أشياء غير منطقية».

لكن حالة الجموع تختلف. فالسهم السحرى الذى يسترخى فى قلب الفرد، يختلف عن ذلك الغلاف الذى هو

سحرى أيضا والذى يحتوى جماعات أو جموع، أو ربما المجموع، فيندفع بها شخص بعينه تختاره من بين العديد ليكون من تحبه، أو حتى من تكره. هذا الغلاف سحرى، لكنه موضوعى. قد لا نعرف كيف يتسلل، لكننا وعبر دراسات عديدة فى علوم عدة: السياسه – الاجتماع – السلوك الانسانى – التكوين المجتمعى– السلوك النفسى الجماعى – المؤثر التاريخى والجغرافى، إستطعنا الامساك – أو لعلنا تواطأنا على أن ندعى ذلك – بمكونات الزعامة وبواعثها.

وهذا صحيح من الناحية العلمية.

فالفرد قد تتجه مشاعره إتجاهات تنبع من مكونة الفردى، وهو مكون لا يمكن ومهما حاولنا ان نلم بكل مفرداته، لكن المجموع الذى تجتاحه هذه المشاعر أو تلك، بحيث تشكل فى توافق مثير للدهشة دوافعه الجماعيه، لابد وأن يتشكل، وتتشكل مشاعره هذه عبر محددات يمكن الامساك بها.

ولهذا فلقد نعجز عن الاجابة المحددة عن أسباب محبة تجتاح شخصا فتدفع به نحو عشق ملتهب، لكننا نستطيع الاجابة عن: لماذا إختار الشعب هذا الزعيم؟ ولماذا إختارت هذه الجماعة قائدها، وبإختصار، فإن الدراسة المتأنية إستطاعت أن تفك رموز هذا الغموض السحرى لتمنحنا القدرة على التعرف على مكونات الزعامة والقيادة.

* * *

عشرات من العلماء إنغمسوا في محاولة فك طلاسم هذا المكون السحرى. وقد بدأوا بالتفريق بين المعانى الكامنة فى أعماق كلمات تعاملنا معها – وبشكل سطحى – على أنها مرادفات ، لكنها ليست كذلك، كلمات مثل زعامة، قيادة، كاريزما..

ونحاول ان نرسم الحدود الفارقة.

* الزعيم: هو ذلك البطل القومى الذى إستطاع وفق مكونات وممارسات خاصة أن يجسدأو يعبر عن الاتجاه العام للأمة، أو غالبيتها أو حتى قطاعاً كبيراً منها، وأن يستشعر هذا المجموع أن الزعيم يمثل – أو هو الأقرب لأن يمثل – إرادة وطموحات ومواقف ومشاعر جماعية أو شبه جماعية. ولأننا نتحدث عن الزعيم السياسى فإن هذه الارادة ، وتلك المواقف غالباً ما تكون متعلقة أساساً بمشروع أو أفعال أو هدف قومى.

* القائد السياسى: هو ذلك الذى يمكنه أن ينسج حلولاً سياسية، أو تحالفات سياسية بما يمنحه قدرة على التميز على أقرانه أو مخالفيه. وفى أحيان كثيرة يبرز القائد السياسى فى مرحلة يختفى فيها الزعيم القومى، وإن تواجد فى ظله. فإنه سيبدو كشجرة قصيرة القامة إلى جوار نخلة عملاقة. ولقد يجد القائد السياسى فرصته عبر كونه المؤسس لحزب أو تيار سياسى، أو هو القادر على قيادته ، أو مواجهة خصومه، أو حتى فى حالة وجودإنقسام فى صفوف المواطنين، أو فى صفوف الجماعة أو الحزب فيبرز هو بموهبة تفاوضية قادرة

على معالجة الجرح مبدياً كفاءة خاصة فى إدارة الصراعات أو التحالفات، أو متميزاً بدور تنظيمى أو فكرى عن أقرانه أو منافسيه.

* الكاريزما: أو القياده الآمره أو الملهمة. ولأن الكلمة ليست عربية، ولا تمتلك ترجمة دقيقة فإننا مضطرون إلى اللجوء لتعريف قاموسى لها: كاريزما(CHARISMA) هى مميزات لشخصية يتميز بها عن الاشخاص العاديين بما يمنحه نفوذاً أو قوة إستثنائية، والمميزات الكاريزميه يمكنها ان تتحقق فى قيادات سياسية أو دينية، أو ثورية ، أو فنية. ويقال أن لقائد ما «كاريزما» يمكنها ان تتحقق فى قيادات سياسية أو دينية، أو ثورية، أو فنية. ليس فقط أو ما أنجز عملاً هاماً، وإنما أيضا لأنه يستمتع بإعتقاد من أتباعه بإنه يمتلك مميزات أو قدرات غير عادية، وهو إعتقاد ينبع من مشاعر دافقة تبدو وكأنها تتدفق بشكل سحرى، عبر مجرى غير مرئى.

ولفظ كاريزما لا يرتبط بالموقف ولا بالقضية التى وهبت الشخصية الكاريزمية نفسها لها، فلقد يكون هذا الموقف مقبولا منا أو غير مقبول ، لكن الشخصية تبقى كاريزمية فى حدود أتباعها مثل هتلر أو تشرشل.. الخ[١]

والشخصية الكاريزمية «تعتمد على كفاءات وقدرات شخصية تتخطى القواعد المألوفة بل هى تترسخ فى أذهان الجماهير التابعة له من خلال براهين وقدرات لا يستطيعها الآخرون ، فالنبى لابد أن يأتى بمعجزات لا يستطيعها البشر، والقائد العسكرى يجب أن يحقق نصراً خارقاً، أو أن يظهر قدراً كبيراً من البطولة».[٢]

وبعد هذا الايضاح الضرورى يمكننا أن نسأل عن مصادر ومظاهر ومكونات الزعامة، والقيادة السياسية.

* * *

وهنا يختلف علماء الاجتماع الذين كرسوا جهدهم لهذه الساحة. ولعلهم كلما تعمقوا فى البحث عن مكونات هذه التركيبة السحرية، كلما إزدادوا إختلافاً عن بعضهم البعض، ومع بعضهم البعض.

ماكس ڤيبر وهو أكثر من إهتم بهذا الموضوع يرى«ضرورة النظر إلى ظاهرتى الزعامة والقيادة السياسية بإعتبارها نوع من ممارسة «النفوذ» داخل التجمعات الاجتماعية، سواء أكانت حزباً أو جماعة أو مجتمعاً محلياً أو أمة»[٣]

والشئ المثير للدهشة أن هذا التعريف «قد تسلط على أغلب الابحاث والدراسات التى حاولت وضع تعريف لهذا المصطلح»[٤]

لكن ماذا تعنى «ممارسة النفوذ» عند ماكس ڤيبر ؟ «تعنى» الامكانية التى تتاح لفرد لكى يفرض إرادته على

1 - Encyclopedia Americana - Vol.6-P296.

2 - Gerth and Mills - The power Elite - (1959) P.248.

3 - International Encyclopedia of Social Seince- VOL .9 -p.101.

4 - Dornbusch, Sanford - Evaluation of the exercise of outharity.(1975)P.31.

5 - Weber MAX - Essays in Sociology - (1958)p.180

الآخرين بصورة متعاكسة مع مظاهر المقاومة التى قد يبديها المشاركون فى ذات الفعل»[٥].

وبرغم ما مارسه تعريف ماكس ڤيبر من نفوذ ، فإننى أعتقد أن ثمة تعريفاً آخر أكثر دقة، وربما أكثر صحة. فالباحث دال (DALL) يقول «ان علاقة الزعامة بالجماهير تأتى عبر ما يمكن تسميته بالتداخل الشخصي(interpersonal Situation) أى ذلك التداخل الذاتى بين الشخص والجموع فهى ليست نابعة عن إكراه أوعن نفوذ قسرى، بل هى أقرب ما تكون إلى التأثير السحرى الآتى من الزعيم إلى من يؤمنون بزعامته»[٦]

ويستكمل تعريف «دال» هذا برؤية موضوعية تقول «إن الزعماء فى نظر تابعيهم هم أصحاب القوة التجديدية القادرة على تقديم تصور للبناء، ولخلق أهداف جديدة للمجتمع، وإبداع آفاق تتلاءم مع هذه الأهداف، وإمتلاك قدرات خاصة على صياغة منظومة من القيم الاجتماعية الجديدة. فالزعيم هو شخص يتميز عن الآخرين بما يمتلكه من مكانة ورؤى خاصه وحسم وشجاعة وذكاء وقدرة»[٧]

ولعله من المثير للدهشة أن نكتشف محاولة مصرية بالغه العمق والدقة فى هذا الصدد. الزعيم محمد فريد يتحدث عن الفضائل التى يتعين توافرها فى الزعيم «وهذه الفضائل كثيرة نذكر منها قوة الارادة والتعويل على النفس مع الصدق والشجاعة والأمانة والسعى في الخير والنشاط، وسرعة الخاطر مع العلم الصحيح، وقوة الخطابة، مع الصراحة التامة، والإفصاح بلغة صحيحة، وسهلة ومؤثرة»[٨] ولعل هذا التعريف يقدم لنا واحداً من حلول هذا اللغز. فهو يلفت إنتباهنا إلى أن الزعامة وهى علاقة بين الزعيم والشعب، يجرى نسجها عبر مفردات محلية، تؤثر فيها طبيعة كل شعب، ومكوناته الفكرية والمعتقدية، وأخلاقياته والقيم التى تترسخ فى وجدانه.

وإذ يلفت محمد فريد أنظارنا إلى هذه الخصوصية المصرية، فإنه يوجه إلينا دعوة كى نتأمل ولو بشكل متعجل موضوع الزعامة السياسية فى مصر.

* * *

والزعامة السياسية المصرية إنقطعت أمامها السبل عبر فترة ممتدة. ويمكن القول أنها لم تستطع أن تقفز فوق موانع عديدة إلا أثناء الحملة الفرنسية . «ومن المؤكد أن مصر لم تشهد الزعامة السياسية بمضمونها الأصيل وبملامحها المتفق عليها إلا منذ الحملة الفرنسية على مصر. وإن كان هذا لا ينفى ان عصور ما قبل

---

٦ – نبيل السمالوطى – بناء القوة والتنمية السياسية ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى – (١٩٧٨) – ص٣١.

7 - TANNAEBUI,.ARNOLD- LEAERSHIP - (INTERNATIONAL ENCYLOPCDIA) - IBID - P.105.

٨ – على فهمي كامل – سيرة مصطفى كامل، فى أربعة وثلاثين عاما – جـ١ – ط٢ –(١٩٢٧) – ص١٠

هذه الحقبة قد شهدت قيادات وليست زعامات سياسية، وخاصة قيادات الطوائف الحرفية، والطرق الصوفية فى القرنين ١٧و١٨، وقاده الاحياء كحى الحسينية وحى العطوف وباب زويله وباب الشعرية، ولقد إرتبطت الحركات الشعبية بهذه الاحياء وطوائفها، ورؤساء هذه الطوائف، ولا سيما طائفة الجزارين الذين تزعموا – أو بالدقة قادوا – العديد من الحركات الشعبية».[٩]

والمثير للدهشة هنا هو تميز دور رؤساء طائفة الجزارين فى مجال القيادة. وهو ما يفسره أندريه ريمون بقوله «لانهم أقوياء البنية، حادوا الطباع، وذوى علاقات طائفية متنية»[١٠]

أما فى الريف فقد كانت هناك زعامات ذات طابع خاص تستند إلى الملكية العقارية المحدودة وإلى الصفات الشخصية ودور العائلة فى القرية أو المنطقة، ودور رئيس العائله كزعيم لهذه القرية «ففى قرية البتانون [أحدى قرى مركز شبين الكوم]، كان هناك الحاج ناصف الذى يلجأ إليه أهل البلدة عندما يشتد بهم الكرب، فهو مرهم الجلد، كريم اللحية، طعَّام عيش، لا يحب فساداً، يتلقى كل أمور البلدة بصدره، ومضيفته مفتوحة للشارد والوارد، وهو عين البلد»[١١]

وثمة سؤال حول البواعث المصرية لتكوين هذه الزعامات؟ والاجابة واضحة تماماً «يبدو أن الظلم كإفراز طبيعي لنمط الحكم الذى ساد مصر أيام حكم المماليك والاتراك العثمانيين، قد ساعد كثيراً على خلق مواقف الاحتجاج التى كان يتزعمها بعض الافراد المتميزين فى المجتمع. ولولا هذه المواقف – فيما يبدو – ما كان لهذه الشخصيات أن تظهر كقيادات جماهيرية، وإن بقيت تعامل كشخصيات متميزة فى مجتمعها»[١٢]

ولعل أبرز نماذج الزعامات المصرية فى قيادة الجماهير ضد الظلم قد تمثل فى شيوخ الأزهر الذين تميزوا كصفوة إستندت الى المهابة الدينية التى حلقت دوماً فوق الأزهر الشريف، وإلى كونهم مثقفى ومتعلمى هذا الزمان، وإلى حقيقة أن الحكام والولاه كانوا كثيراً ما يتراجعون أمام ضغطهم كمؤسسه دينية مهيبة مدعومة بحركة جماهير غفيرة، خاصة وأن هؤلاء الحكام كانوا يستندون فى تبرير شرعية حكمهم إلى الدين»[١٣]

ثم كانت هناك الزعامة المهيبة التى تحققت لأحمد عرابى . وقد إستندت هذه الزعامة إلى المؤسسة العسكرية التى كانت إذ تحركت ولأول مرة تحت قيادة ضباط مصريين عنصر حسم إستطاع ان يعوض المصريين عن

٩ – د. عاطف أحمد فؤاد – الزعامة السياسية فى مصر – عرض تاريخى، تحليل سسيولوچى (١٩٨٠)– ص٧٣

١٠ – أندرية ريمون – فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية – ترجمة زهير الشايب – (١٩٧٤) – ص٢٧٥.

١١ – احمد شلبى بن عبد الغنى المصرى – أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات، الملقب بالتاريخ العينى – تقديم وتحقيق وضبط وتصحيح د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم –(١٩٧٨) – ص٤١٦.

١٢ – د. عاطف أحمد فؤاد – المرجع السابق – ص٧٥.

١٣ – لمزيد من التفاصيل راجع كلا من :– عبد العزيز الشناوى – صور من دور الازهر في مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى القرن الثامن عشر (١٩٧١).

– عبد الرحمن الرافعى – مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية – (١٩٧٩).

غياب دور علماء الأزهر بعد أن خضع قادتهم لاغراءات حكام مصر من أسرة محمد على، وأن يعوض غياب المؤسسات التى تمثل رأياً عاماً موحداً أو حتى شبة موحد. وتتجمع فى أحمد عرابى مواهب ومزايا عدة . مصرى . فلاح. شجاع. متعلم. أزهرى النشأة والثقافة. خطيب مفوه، ليبرالى التفكير. وهو ليس ممثل للفلاحين وإنما هو واحد منهم «ان عرابى نموذج للقائد الفلاحى. طويل، عريض المنكبين، بطيئ الحركة نوعاً ما. يشبه فى مشيته مشايخ البلد. أسمر الوجه إلى الحد الذى كان يجعل الأتراك ينفرون منه، ذا نظرة غريبة قد تبدو جامدة، وقد تبدو حالمة. لكنه كان مبتسماً على الدوام، وما أن يتكلم حتى يكتشف الانسان طيبته وذكاءه، ولعل أهم ما يميز عرابى هو أنه فلاح من طبقة الفلاحين، واحد من هذه الطبقة وليس مجرد قائد لها، هو قطعة من الفلاحين يتصف بنفس صفاتهم».[١٤] هكذا تحدث عنه بلنت.

وفى رسالة وجهها نينت إلى بلنت يقول «إن عرابى ليس مجرد قائد للفلاحين، ولكنه قطعة مجسدة من الطمى الأسمر الذي يحمله النيل»[١٥].

والحقيقة أن زعامة عرابى الآسرة لم تأت مصادفة، بل صاغها هو عبر خطة إستمرت عدة سنوات نجح خلالها أن يكون لنفسه رصيداً كبيراً داخل الجيش المصرى، وأن يجمع حوله نواة واسعة وصلبة من الضباط المصريين الرافضين للتسلط التركى والشركسى على الجيش. «ففى سنة ١٢٩٢ هجرية (١٨٧٥م) دخل أحمد عرابى إلى أحد الآلايات المرابطة بناحية رشيد، فأخذ فى ذلك الوقت فى تأليف قلوب الضباط أولاد العرب، وجمع كلمتهم على ولائه، واظهار الأسف لحرمانهم من الترقيات، فى حين أن الضباط الترك والشراكسة مغمورين بها»[١٦]

فهل يكون غريباً بعد كل هذه المميزات أن يتميز عرابى بزعامة مهيبة، وان يلتف حوله المصريون وان يسمونه «الوحيد»؟[١٧]

* * *

«الوحيد» ربما كانت هذه التسمية هى الأكثر دقة. فهو الوحيد الذى أتى بعد زمان طويل ليقود المصريين من

---

14 - BLUNT WILFRID - SECRET HISTORY OF THE ENGLISH OCCUPATION OF EGYPT (1987) - P.23

١٥ – سليم خليل نقاش – مصر للمصريين – الطبعة الاولى (١٨٨٤) –جـ٤ – ص٢٨١.

١٦ – محمود باشا فهمى – البحر الزاخر فى سيرة الأوائل والأواخر – الطبعة الاولى – جـ١– ص٢٠٦.

١٧ – لمزيد من التفاصيل حول مكونات الزعامة العرابية راجع كلا من : د. رفعت السعيد الاساس الاجتماعى للثورة العرابية.

– داڤيد لاندز – بنوك وباشوات – ترجمة د. عبد العظيم أنيس.

– د. طه شرف – الاحداث العربية في تاريخها الحديث.

– عبد الرحمن الرافعى – الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى.

أجل الحرية والعدل. لكن «الوحيد» يهزم، وتبقى مصر زماناً طويلا وهى تلعق جراح الهزيمة المريرة، ونكبة الاحتلال .

ولأن «الوحيد» لا يمكن أن يهزم فان المصريين وجدوا لأنفسهم المبرر «الولس هزم عرابى». فالخيانة هى السبب، وليس الزعيم.

وتظل مصر نائمة، أو بالدقة متناومة.

صحا كل شعب فإسترد حقوقه

فمتى يا مصر يصحو شعبك المتناوم

* * *

ثم تستيقظ مصر على صيحات مصطفى كامل.

وكان ذلك فى مطلع القرن العشرين، حيث نشأ جيل جديد «هذا الجيل، جيل اليقظة والوعى هو ذلك الجيل الذى نال حظاً وافراً من العلم والثقافة، وهو الجيل الذى بشَّر بتخلق الزعامات السياسية العلمانية [أى الزعامات غير الدينية وغير العسكرية] المثقفة [تثقيفا عصريا فى الأغلب] وقد مثل هذا الجيل الشيخ محمد عبده، د. محمد حسين هيكل – طه حسين – عباس العقاد – أمين الرافعى – سلامه موسى – المازنى»[18]

ومن الملاحظ أن زعامات وقيادات هذه الفترة قد تميزت بحسها الثقافى، وبإستيعابها لخبرات الماضى [وعلى رأسها هزيمة الثورة العرابية] مع مشاعر وطنية واضحة، وربما ملتهبة فى بعض الاحيان.

وهكذا بدأت عناصر هذا الجيل فى الكتابة والترجمة ونشر التعليم والافتاء المستنير، وإطلاق الشعارات الوطنية وإصدار الصحف، وإفتتاح المدارس، والدعوة لانشاء الجامعة.. ثم إقامة الاحزاب السياسية وكانت هذه الاحزاب هى الخطوة الحاسمة فى ميلاد الزعامات والقيادات السياسية.

ومن بين صفوف هذا الجيل برز مصطفى كامل الذى مثل بالنسبة لمصر والمصريين أول زعيم مصرى علمانى مثقف ثقافة عصرية، فتحظى بذلك دور الزعيم ذو الخلفية الدينية [عمر مكرم مثلا] والزعيم ذو الانتماء العسكرى [احمد عرابى].

وإذا تأملنا مصطفى كامل لنكتشف مكونات زعامته نجدها تستند إلى أنه مصرى . من أصل فلاحى – إسلامى التوجه – مثقف فرانكفونى – خطيب بارع – شجاع – رومانسى التوجه الوطنى [يذوب شوقا فى حب مصر] ويستطيع بخطبه الملتهبة، وبمحبته العميقة لمصر ان يوقظ الحجر المصرى من سباته.

وبرغم التوجه الاسلامي الواضح، ورغم حديثه عن الجامعة الاسلامية كان مصطفى كامل حريصاً أشد

١٨ – د. عاطف أحمد فؤاد – المرجع السابق – ص١٠٥.

الحرص على الوحدة الوطنية وعلى توجيه رسالته الى المصريين جميعاً، الذين إستجابوا له جميعاً مسلمين ومسيحيين على السواء.

وكان مصطفى متميزاً عن الكثيرين من أبناء هذا الجيل بإنه كان يعتبر أن معركة مصر الاولى هى التحرر الوطنى، بينما كان الآخرون أو أغلبيتهم يدعون إلى التعليم ونشر الاخلاق كخطوة أولية ضرورية تسبق المطالبة بالاستقلال .

هكذا صعد مصطفى كامل نحو زعامة مصرية مهيبة . ليس هذا فحسب، بل لعله أيضا حدد بما توفر فى شخصه من مزايا ومواهب، وبما منحه المصريون إياه من حب ووفاء مواصفات الزعيم الذى تقبله مصر. ولا تقبله زعيماً بدونها.

والآن ، نستطيع ان نبدأ.

د. رفعت السعيد

القاهرة فى : ١١اكتوبر ٢٠٠٢

المراجع:

* مراجع عربية ومترجمة.

– احمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى – أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات، الملقب بالتاريخ العينى. تقديم وتحقيق وضبط وتصحيح د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم.

– أندرية ريمون – فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية – ترجمة زهير الشايب.

– داڤيد لاندز – بنوك وباشوات – ترجمة . د. عبد العظيم انيس.

– د. رفعت السعيد – الاساس الاجتماعى للثورة العرابية.

– سليم خليل نقاش – مصر للمصريين.

– د. طه شرف – الاحداث العربية فى تاريخها الحديث.

– د. عاطف احمد فؤاد – الزعامة السياسية فى مصر – عرض تاريخى وتحليل سسيولوچى.

– عبد الرحمن الرافعى – مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية.

– عبد الرحمن الرافعى – الثورة العرابية والاحتلال البريطاني.

– د. عبد العزيز الشناوى – صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر.

– على فهمى كامل – سيرة مصطفى كامل فى أربعة وثلاثون عاما .

– محمود باشا فهمى – البحر الزاخر فى سيرة الأوائل والأواخر.

– نبيل السمالوطى – بناء القوة والتنمية السياسية ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى.

* مراجع اجنبية

- ARNOLD,TANNEBUIN - LEADERSHIP .

- BLUNT,WILFRID - SECRET HISTORY OF THE ENGLISH OCCUPATION OF EGYPT.

- DORNBUSCH,SANFORD - EVALUATION OF THE EXERCISE OF AUTIHORITY.

-ENCYCLOPEDIA AMERICANA.

_GERTH AND MILLS - THE POWER ELITE.

_ INTERNATIONAL ENCYCLOPEDIA OF SOCIAL SEINCE.

WEBER,MAX - ESSAYS IN SOCIOLOYY.

الشقيقان: مصطفى كامل ومحمد فريد

توأمان أم نقيضان؟

● لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصريا.

مصطفى كامل.

● مصر للمصريين.

محمد فريد.

منذ الزمان القديم عرف المصريون كيف يحبون وطنهم.كان «حابى» [نهر النيل] مقدساً عند الفراعنة. «أنا لم ألوث ماء النهر» هكذا كان الفرعونى القديم يقسم أمام الآلهة كى يضمن رضاءها. وكان هذا الوادى الممتد حول ضفتى «حابى» من الشمال [حيث بحر الظلمات] وحتى أقصى الجنوب [حيث الجنادل التى تعوق الملاحة فى النهر] هو حدود هذا الوطن «إيجيبت».

وقد عرف المصريون كيف يحبون هذه الارض التى يرويها حابى، وكيف يدافعون عنها ضد غزاة عديدين [الشعوب الصفراء، والهكسوس، والغزاة القادمون من الجنوب] وعرفوا كيف يجعلون من كل شئ فيها معياراً للحقيقة.

فعندما قاد رمسيس الثانى جنوده حتى ضفاف الفرات، وجد الماء يتدفق من الشمال إلى الجنوب، أى عكس ما يفعل حابى، صاح مندهشاً، وربما غاضباً «هذا الماء يجرى خطأً». فالحقيقة الوحيدة عند الفراعنة كانت ما يحدث على أرضهم. وأى شئ آخر خطأ.

* * *

لكن ثمة رؤية فلسفية ترى أن الوطن شئ مادى ملموس، يمكن الامساك به من بحر الظلمات شمالا، إلى «الجنادل» جنوباً. بينما «الوطنية» شئ نفسى، وجدانى، أو كما يقول الفلاسفة شئ «مُتخيل» فموضوعات مثل «الوطنية»، و«الأمة» هى أمور وجدانية وليست محسوسة، صحيح أنها تؤثر في حياة الناس، لكنهم يرونها وفق رؤى مختلفة، قد تختلف بإختلاف الظروف، أو حتى بإختلاف الآراء ، وبرغم الاختلافات فإن هذه الاشياء المتخيلة هى أكثر العناصر قدرة على التأثير فى البشر، وأكثرها قدرة على دفعهم للتضحية فى سبيلها حتى بحياتهم.[١]

ومن هنا يمكن فهم كيف أن عناصر «متخيلة» أخرى يمكنها أن تطمس أو تموه الصورة الأصلية، والتى هى متخيلة أيضاً.

كمثال على ذلك فأن فكرة «الخلافه» الاسلامية وهى أيضا فكرة متخيلة، إستطاعت بحكم إرتدائها ثياباً دينية، ان تطيح بفكرة «الوطنية» المصرية إلى الظل، وأن يكتفى المصريون ولأمد ليس بالقصير بفكرة متخيلة

---

١ – لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع الهام راجع:

- Benedict, Anderson - lmagined Communities : Reflections on the origin and Spread of Nationalism - (1919).

-WiLLiams, Raymond - Marxism and Literature - (1977).

– زكارى لوكمان – خطاب الافندية الاجتماعى، ١٨٩٩ – ١٩١٤ – ترجمة بشير السباعى (١٩٩٧).

أخرى هى «الخلافه».

ويظل الأمر على هذا الحال. تتكاثر المظالم العثمانية المتسترة بالخلافة وبالاسلام، ويتقبلها المصريون أو يرفضونها، يستسلمون لها أو يثورون في وجهها وفى وجه مرتكبيها، دون أن يستعيدوا ذلك الكامن فى تراب الوطن المسمى مصر.

وعندما يأتى وال ظالم أولص أو مخادع[ولعلهم كانوا جميعاً كذلك بشكل أو بآخر] فإن الأبصار تتطلع إلى «حامى حمى الاسلام ، خاقان البرين والبحرين» السلطان العثمانى في الآستانة، فقد يرسل فرماناً يحمله «أبو طبق» [كان المصريون يسمونه كذلك لأنه كان يلبس قلنسوة أو طرطوراً قاعدته على شكل طبق مستدير] ليصعد إلى القلعة يطوى سجادة تكون ممتدة على الارض أمام «الأريكة» التى كان يجلس عليها الوالى، ثم يقول «إنزل ياباشا» فينزل، ليصعد مكانه باشا تركى آخر، عادة ما يكون أكثر ظلماً من سابقه. وإذا ضاقت صدور المصريين وإنقطع حبل صبرهم، هاجوا، وخرجت جموعهم إلى بيت القاضى أو بالدقة قاضى القضاه وهو أيضاً عثمانى، ويصعب تصور أنه سوف ينصفهم. ومن ثم يتجهون بجمعهم الغفير إلى الازهر مستنجدين بشيوخه، وسرعان ما يصعد المؤذنون إلى مآذنه، فترتج القاهرة لهذا الأذان الآتى فى غير موعد صلاة.

وكثيراً ما كان الباشا يتراجع، ويعاقب شخصاً أوشخصين يتهمهما بالظلم – لكن هذا الخروج كان يستدعى مخيلة أخرى، ويعيش تخيلا آخر غير الوقفة المصرية ضد التسلط التركى.

كان الطموح باقياً فى إطار السعى لاستبدال تركى بتركى آخر. وبقيت فكرة المصرية منزوية في أعماق الذاكرة المصريه.

* * *

حتى كان رفاعة الطهطاوى.

أبانا الذى لقننا طقوس الوطنية، وفنون محبة الوطن.

«إن البركة فى هذه الدنيا قسمت إلى عشرة أقسام، إختصت مصر بتسعة منها»[٢]

وعندما حاول أساتذته وأصدقاءه من الفرنسيين إقناعه بأن «منافع مصر تقع موقع التحقيق لو دامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية» فإنه يرفض ذلك مؤكداً أن ذلك «مبنى على شبهة واهية، وهى أن مصر يسوغ أن تصلحها فرنسا أو أى مملكة لها مضاهية، فإعتقاد ذلك من الإيغال المدهى، ومن باب التشبهات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهى»[٣]. ثم هو يقول شعراً

ياصاح حب الوطن .. حلية كل فطن

---

٢ – رفاعة الطهطاوى – مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية – ط٢ – ص٢٢.
٣ – المرجع السابق.

فمحبة الاوطان.. من شُعب الايمان.

وأيضا:

مال المصرى كذا دمه .. مبذول فى شرف الوطن

تفديه العين بناظرها .. والنفس بخير ذخائرها.

كان ذلك فى زمن يقول فيه أحد شيوخ الأزهر البارزين «إن شعب مصر كتب عليه الذله والمسكنه، والخضوع لغيره فى مختلف العصور»(٤) ويرد رفاعة قائلا «إن الأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب»(٥).

ولعل رفاعة هو أول من إستخدم تعبير «الامة المصرية».

وفيما كان مشايخ الازهر يسبون الفراعنة، وينظرون إلى آثارهم نظرة أحتقار مؤكدين أن تماثيلهم كانت بشراً سخطهم الله حجارة بسبب كفرهم. فإن رفاعة يكتب قائلا «لم يكن بين الامم مثل قدماء المصريين فى قوتهم، وكانت خيولهم تسبق سالفاً خيول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم»(٦)

ويتجاسر رفاعة فينتقد سماح محمد على بنقل إحدى المسلات المصرية إلى باريس قائلا «حيث ان مصر أخذت الآن بأسباب التمدن والتعلم على منوال أوربا، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينه والصناعة » وهكذا فإن المؤرخين المحدثين يعتبرون رفاعة «أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر القديم على حقيقته فى ضوء ما وصلت إليه الكشوف الأثرية ، وما كتبه المؤرخون الأوربيون فى عصره، وهو أول مؤرخ مصرى آمن بأمجاد هذا التاريخ المصرى الفرعونى القديم، ولم يلعنه، ولم يُنقص من قدره»(٧). ويواصل رفاعة تلقين المصريين فن محبة مصر «مصر أم الدنيا، وكانت شوكة سلاحها قوية، وهيبتها فى القلوب متمكنة علية» و«مصر أم الحضارات، لم تسبقها أمة فى ميدان المدنية، ولا فى حرفة تقنين القوانين، وتشريع الاحكام، ولم تجحد نعمة إقتباس علومها أمة عاقلة»(٨).

وبرغم كل العراقيل التى وضعها محمد على وخلفاؤه بهدف إخماد جذوة الوطنية المصرية، تنامى ذلك الشرر الذى غرسه رفاعة ليشتعل لهيباً فى أتون الثورة العرابية، والتى بدأت كمعركة بين الضباط المصريين من جانب وكبار القيادات العسكرية من الأتراك والشركس من جانب آخر ثم تحولت إلى مواجهة بين مصر والخديوى

---

٤ – جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة.

٥ – رفاعة الطهطاوى – تخليص الابريز فى تلخيص باريز – ص٢٩٧.

٦ – المرجع السابق – ص٢٩٩.

٧ – د. جمال الدين الشبال – التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر – ص٧١

٨ – رفاعة الطهطاوى – أنوار توفيق الجليل، فى أخبار مصر وتوفيق بنى إسماعيل – ص١٧ . ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع ايضا: د. رفعت السعيد – عمائم ليبرالية – كتاب اليوم (٢٠٠٢) ص٤٥ وما بعدها.

وقوات الاحتلال..

ثم كان ماكان.

* * *

وإذ يهزم الضباط العرابيون، ويحتل الانجليز مصر، ويسيطرون علي الجيش ويضعفون أدواته وقواته، ويحولونه إلى مجرد فرق للتشريفات وحراسة «المحمل» المتوجه حاملا كسوة الكعبة [التى إعتادت مصر أن تصنعها سنويا وترسلها هدية لتتم كسوة الكعبة بها]، فقدت مصر قوتها الضاربة التى نسجتها عبر سنين عدة من إبنائها فى فى «الجهادية»، ولم يبق أمامها سوى أن تبحث عن أدوات نهوض جديد. جيل جديد هو ما أصطلح على تسميته جيل «الأفندية».أى الابناء المتعلمين للفئات الوسطى والشرائح العليا من البرجوازية الصغيرة.

بإختصار كانت مصر تتلفت باحثة عن طريق جديد لتحررها، وبدأت تتطلع نحو أدوات جديدة.

وكان المفكر الفرنسى أدمون ديمولان قد أصدر عام ١٨٩٧ كتاباً عنوانه «سر تقدم الانجليز السكونيين» وسرعان ما قام بترجمته [في عام ١٨٩٩] الى العربية أحمد فتحى زغلول [شقيق سعد زغلول] وكان قاضياً في المحاكم الاهلية. وكتب المترجم مقدمة حاول فيها تطبيق تحليلات ديمولان على مصر، محدداً ما تصور أنه عيوب الشخصية المصرية وهى اللامبالاة والجهل.[٩] ويبدو أن هذا الكتاب قد لعب دوراً هاماً فى تحريك الراكد من الفكر المصرى مستحثاً المصريين للتفكير فى مصير بلادهم، والنهوض بها عبر البحث عن المقومات التى تقف فى طريق تقدمهم. «لقد أثر كتاب ديمولاند فى الفكر الاجتماعى للكثير من المصريين المنتمين إلى الطبقات الوسطى والعليا»[١٠]هكذا أكد ألبرت حوارنى. بينما يقرر ذلك أيضا باحث آخر قائلا «لقد أثرت ترجمة زغلول لكتاب ديمولاند تأثيراً قوياً على كثيرين من الأفندية المصريين، حيث أثارت مناقشات واسعة لعيوب المجتمع المصرى وللحاجة إلى إصلاح شامل»[١١]

وإذ كان كتاب ديمولان قد ركز أساساً على إعتبار أن التعليم كان سر نهضة إنجلترا، فإن كثيرين من المصلحين المصريين تشبثوا بهذه المقولة أيضا مؤكدين أن طريق مصر نحو تقدمها هو التعليم . والحقيقة أن مراجعة متأنية للكتابات وممارسات ومواقف العديد من المفكرين والسياسيين كانت تنطلق من أهمية التعليم وتطويره. ولعل معركة الامام محمد عبده من اجل تطوير التعليم فى الأزهر، ومن أجل انشاء مدرسة القضاء

---

٩ - أدمون ديمولان - سر تقدم الانجليز السكونيين - ترجمة أحمد فتحى زغلول (١٨٩٩) - مقدمة المترجم.

10- Hourani, ALBert - Arabic thought in the LibraL age - p.181

١١ - زكارى لوكمان - المرجع السابق - ص.١٠.

١٢ - راجع للتفاصيل: د. رفعت السعيد. عمائم اليبرالية - المرجع السابق.

الشرعى كانت واحدة من هذه المظاهر.[١٢] كذلك كان إنغماس سعد زغلول فى معركته ضد مشروع دنلوب لجعل التعليم فى مصر باللغة الانجليزية ، ثم معركته من أجل إنشاء الجامعة الأهلية أحد هذه التجليات.[١٣]

وكذلك عشرات المقالات والكتب التى عبرت عن طموحات مصريين من أمثال قاسم امين واحمد لطفي السيد ومصطفى كامل ومحمد فريد والتى تحدثت جميعا عن ضرورة الاهتمام بنشر التعليم.

ولعله من المهم أن نتوقف أمام واحد من أهم التداعيات المصرية لنشر ترجمة فتحى زغلول لكتاب ديمولان.

فبعد ثلاث سنوات من صدور الترجمة، نشر كتاب مصرى عنوانه «حاضر المصريين،أو سر تأخرهم» وقال مؤلفه [محمد عمر – الموظف بمصلحة البريد] في المقدمة «إن كتابى هذا على مثال كتاب «سر تقدم الانجليز السكسونيين» المعرب بقلم سعادة العالم القانونى الفاضل أحمد فتحى زغلول بك، لكنه مع الأسف يشرح تأخر المصريين لا تقدمهم»[١٤]

وقد حاول المؤلف ان يقدم لنا تحليلا أو بالدقة رؤية تحليلية لأوضاع وحالة الطبقات الاجتماعية فى مصر.ولعلها كانت المحاولة المصرية الأولى فى هذا الصدد. ونقرأ«أغنياء مصر زمرة منحطة إلى حد كبير، وهم مختلفون تماماً عن أسلافهم ذوى الجدارة والاستحقاق» هم «فى الأساس كسالى وعديمى الشعور بالمسئولية ومبذرون ومبتذلون. والرجال الأغنياء لا يعرفون شيئا عن الحب أو المودة أو الاحترام المتبادل مع زوجاتهم،وهم فاشلون كآباء فهم يسيئون معامله أبنائهم، وتأدب هو الاولاد ناشئ فقط عن الخوف، وعن إستبداد الآباء. كما انهم يهملون فى أحيان كثيرة تربية أولادهم، ويتروكونها للخدم الذين قد يكونون في بعض الاحيان من الاجانب المنحلين خلقياً. ونتيجة لذلك فإن أبناء الأغنياء عديموا التربية، ويفتقرون إلى الاحترام الذاتي لأنفسهم ولمسلكهم، ولا يحترمون التعاليم الدينية، وبسبب سوء تعليمهم فإنهم لا يكادون يتحدثون بالعربية السليمة، محاولين إظهار إنتمائهم الثقافى الاجنبى باستخدام مكثف لكلمات مثل ميرسى، باردون، رانديڤو. وهم لا يقرأون كثيراً، فأن قرأوا فهناك مجلات مليئة بالهراء الذى لا جدوى منه، ومكتوبة بالعامية المصرية. وقد صدرت [فى عام ١٩٠٠] سته عشر مجلة «بالعامية المصرية، والحقيقة أن واحدة منها كافية، بل أكثر من كافية»[١٥]

وفى الناحية الأخرى يشن محمد عمر هجوما شديداً علي الفقراء الذين إعتبرهم «الشريحة الأكثر فساداً من الناحية الاخلاقية، وذلك نتيجة لجهلهم العميق. ولحياتهم العائلية المنحطة ، وإهمالهم الجسيم للتربية والأخلاق ولصحة أولادهم، وهم كسالى وبلا إرادة أو رغبة فى تحسين أحوالهم، وغارقون فى الخرافة والتعصب ، وهم

١٣ – راجع للتفاصيل: د.رفعت السعيد . الليبرالية المصرية، المثقفون – حزب الوفد . (٢٠٠٢)
١٤ – محمد عمر – حاضر المصريين أوسر تأخرهم – (١٩٠٢) – المقدمة.
١٥ – المرجع السابق – ص٣٧.

يسـهرون فى القـهاوى منخـرطين فى ثرثرة عقيمـة وغبية». والذين يعرفون القراءة منهم يقرأون كتباً بذيئة كتبـها حمقى وحشـاشـون ومليئة بصـور هزلية وقبيحـة تفسد أخـلاق قـارئها مثل كتـاب «رجوع الشيخ إلى صباه» و«الايضاح فى علم النكاح» و «الفلاح مع الثلاث نساء» و«المره اللى حبّلت جوزها»[١٦]

أما الطبقة الوسطى «فـهى زهرة الأمة وزينتـها وهى تتكون من هـؤلاء الذين يعملون لنفع الأمـة سواء بالتـجارة أو الزراعة والصناعة، وفى ميدان العلم والكتابة والخدمة بالحكومة. ويقولون عنها أنها متـحررة من الكسل الذى يصيب الاغنياء، والجهل الذى يصيب الفقراء. لذلك كثيراً مـا أرسل الله الرسل الذين جعلهم أعلام الهدى للخلق من الطبقة الواسطى»[١٧]

ولان التعليم يحتاج إلى مساحة من الوقت كى يغير الافكار والمواقف والسلوك فان محمد عمر كان من ذلك الصنف الذى كان يعتقد ويروج لفكرة إن مصر ليست مستعدة بعد للمطالبة باستقلالها السياسى[١٨]

وهو موقف شاركه فيه أمثال احمد لطفى السيد وغيره من اليمينيين. من رجال حزب الامة.

ولعل باحثاً آخر قد يفسر لنا سر عزلة هؤلاء «الافندية» عن الشعب، وسر ترفعهم عليه، ومن ثم سر ترددهم إزاء المطالبة بالاستقلال، وإصرارهم على أن مصر لم تكن قد إستعدت له بعد، فهو يقول «كان الافندية المثقفون في نهاية القرن ١٩ ينظرون الي أنفسهم على أنهم نخبة مثقفة ومستنيرة وذات ميول غربية، تعيش بمعزل وربما تطل من علٍ على طبقة دنيا من الجهلة مكونة من مجموعات غفيرة من الفلاحين وفقراء المدن يشكلون مستودعاً للرزيلة والجهل. والمخرج المتاح أمام مصر هو إعادة صياغة هؤلاء «الافندية» عبر نشر التعليم والاخلاق كى يصبحوا وبحق أفندية على النسق الاوربى قادرين على أن ينهضوا بمصر»[١٩]

ومن هؤلاء الافندية بمختلف توجهاتهم، وبتنوع مواقفهم من مصر وشعبها وحقوقها في الاستقلال تكونت الحياة الحزبية الحديثة فى مطلع القرن العشرين. ثلاثة أحزاب دفعة واحدة تكونت فى عام واحد هو عام ١٩٠٧.

حزب الأمة . وهم على الأغلب يمين جماعات الافندية الذين تتلمذوا على يدى الامام محمد عبده، والذين أسماهم رشيد رضا «حزب الامام» ويتكونون في أغلبهم من أبناء الاعيان الذى كانت أسرهم من الثراء بحيث إستطاعت ان ترسلهم للخارج للتعلم هناك.

الحزب الوطنى – ويمثل أبناء الفئات الدنيا من الطبقه الوسطى، الذين كان مصطفى كامل وعبد الرحمن

١٦ – المرجع السابق – ص٧٠.
١٧ – المرجع السابق – ص٨٣.
١٨ – المرجع السابق – ص١٦٧.

19 - Timothy Mitchell - Colonising Egypt - 1988.

الرافعى والشيخ عبد العزيز جاويش نموذجاً لهم، وان كان هذا لم يمنع انضمام افراد من ابناء الاعيان إليهم مثل محمد فريد.

حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية – وقد أسسه الشيخ على يوسف، ولعله كان حزباً صغيراً ، وربما صغيراً جداً، وان كان قلم وكفاءة مؤسسة الشيخ على يوسف قد منحاه قدرة فى التأثير عبر جريدة «المؤيد».

وهكذا فإننا إذ نخصص هذا الفصل لمصطفى كامل ومحمد فريد فانما نخصه بالاساس للحديث عن النشاط الوطنى والفكرى والسياسى لنموذج للافندية من أبناء الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى، والشرائح العليا من البرجوازية الصغيرة. وهى مجموعة من الافندية كانوا يعتبرون أن سبب تخلف مصر ليس سوء خلق أغنيائها ولاجهل فقرائها ولا نقص التعليم، وانما هو الاحتلال ، والاحتلال وحده.

* * *

وفيما كانت مصر تنسج وبدأب جيلاً من «الافندية» العصريين، لمع نجمان من هذا الجيل فى السماء المصرية، مصطفى كامل حفيد أحد تجار الريف المصرى، ومحمد فريد حفيد أحد الارستقراطيين الاتراك. إلتقيا. عملا معاً. وتفاوتت مواقفهما ربما بسبب هذا التفاوت فى الانتماء الطبقى.

* مصطفى كامل

الافندى البرجوازى الصغير

كتب محمد فريد «إجتمعت فى المغفور له مصطفى كامل كل الصفات الواجب أن تتوافر فى ذوات قادة الأمم، وإلا كان السعى بغيرها عقيماً. فهو أول مصرى رن صدى صوته فى الشرق والغرب، وأول مصرى ثبت على المطالبة بجلاء الاحتلال، وأول مصرى بعث فى المصريين هادياً إلى طريق النجاة والحياة، وأول مصرى رفع رأسه مفاخراً بالانتساب إلى الوطن المصرى والدعوة العامة إلى الدفاع عن سمعته وكرامته، وأول مصرى أقام الأعياد الوطنية والمواسم الأهلية مذكراً ومحذراً وبشيراً ونذيراً»[٢٠]

ولعل هذه المبالغة، وتكرار «أول مصرى» هى التى دفعت مؤرخاً مدققاً إلى التأكيد « أود أن أقول أن الحركة الوطنية فى مصر كانت موجودة، وكانت كامنة، وأن مصطفى كامل لم يكن له فضل بعثها بعد ممات، ولكن كان له فضل الدعوة إليها وإيقاظها، وبث الحماسة، وإعادة الثقة، والتطلع إلى المستقبل»[٢١]

وأياً كان الأمر . وسواء إتفقنا على «أول من ..» أو لم نتفق فالشئ المؤكد أن هذا الفتى الذى لمع سريعاً كالشهاب، ورحل سريعاً مثله، قد ترك أثراً لا يمحى على الوجدان المصرى، وعلى الحركة الوطنية عموماً.

٢٠ – على فهمى كامل بك – المرجع السابق – ص٢٧.

٢١ – مصطفى كامل – بحوث ألقيت فى ندوة بمناسبة العيد المئوى لميلاده [١٨٧٤ – ١٩٧٤] – الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – دراسة بقلم د. احمد عزت عبد الكريم – ص٨.

فمن هو؟

الأب إبن أحد تجاركتامه الغاب مركز طنطا. درس القرآن فى كتاب القرية. ثم إنضم فى عهد محمد على باشا إلى مدرسه المهندسخانه فى طره، وتخرج مهندساً برتبة يوزباشى وترقى فى سلك العسكرية حتى إختاره سعيد باشا ضمن أركان حرب معيتة. وفى منزل هذا الضابط المهندس إبن التاجر الريفى المتواضع الثروة والكائن بدرب الميضة بشارع الصليبة قسم قاسيون [الخليفة حاليا] ولد مصطفى كامل.[٢٢]

سريعاً ينضج الفتى. وتروى عنه حكايات لعل فى بعضها مبالغة مثل إقتحامه مكتب ناظر المعارف العمومية [على باشا مبارك] وإشتباكه معه فى مناظرة حامية وهو بعد طالب فى السنة الاولى التجهيزية. وأيا كان الامر فإن الفتى كان لامعاً حقاً، وشجاعاً حقاً.

وعندما زار على باشا مبارك المدرسة التجهيزية [الخديوية حاليا] ودخل الفصل الذى كان به مصطفى كامل، تعرف عليه الوزير وطلب منه أن يرتجل خطبة يتحدث فيها عما يريد أن يفعل بعد نيله الشهادة الثانوية فقال «إستنتجت مما كان يرويه لى المرحوم والدى، وما درسته على يد أستاذى معلم التاريخ من سير الفاتحين الأبطال ما أيقنت معه أن أعظم الرجال شأنا هو من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربقة الذل والاسترقاق، وأنا سأكون ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب مبشراً بما فى الحرية من العزة والحياة، ومنذراً بما فى الذل من الموت والصغار» بعدها قال الوزير دعني أطلق عليك لقب إمرئ القيس إيذاناً بنجابتك وبلاغتك»[٢٣].

ونمضى سريعاً مع خطوات عمر مضى سريعاً.

* دخل مدرسة الحقوق الخديوية وهو لم يزل فى السادسة عشرة.

* إنضم إلى مدرسة الحقوق الفرنسية وواصل الدراسة فى المدرستين. صباحاً فى الحقوق الخديوية، وبعد الظهر فى الحقوق الفرنسية .

* أسهم بحماس فى عدة جمعيات «الاعتدال» و«الهدى» و« العلم المصرى».

* تعرف على الشيخ العلامة على الليثى الذى قدمه بدوره الى سمو الخديوى عباس حلمى فى يوم الجمعه ١٨ مارس ١٨٩٢، ودفعه إلى التعرف بعديد من كبار القوم مثل أمين فكرى باشا مدير الدائرة السنية، وإسماعيل صبرى وكيل وزارة الحقانية.

* فى عام ١٨٩٢ بدأ الكتابة فى الاهرام موقعاً «مصرى أمين» و«مصرى صادق» و«مصرى» .

* عندما بلغ السابعة عشرة ألف كتيباً صغيراً عنوانه «أعجب ما كان فى الرق عند الرومان»[٢٤].

---

٢٢ – على فهمى كامل – المرجع السابق – ص٣٢.
٢٣ – المرجع السابق – ص٦٣.
٢٤ – المرجع السابق – ص٦٨.

* وفى ١٨ فبراير ١٨٩٣ أصدر مجلة أسماها «المدرسة» [مجلة أدبية تهذيبية وطنية علمية تصدر فى غرة كل شهر عربى - الاشتراك السنوى ثمانية قروش صحيحة] وفى هذه المجلة [التى يقال أن الخديوى هو الذى مولها] بدأ تألق الطالب مصطفى كامل .

فقد كتب عشرات المقالات الوطنية ، وإن كان قد أوردها بذكاء ولنقل بدهاء . ونقرأ «ليس الغرض من دراسة التاريخ مثلا حفظ مدة حكم الملوك وتاريخهم، بل التبصر فى سياستهم، وفي حقيقة أعمالهم فذلك مثلا محب لوطنه غيور عليه ، وذاك خائن لئيم، فنقتدى بالأول، ونبغض من شاكل الثانى»[٢٥]

* ويكتب مقالا بعنوان « الأناشيد الوطنية والتهذيبية» يتحدث فيه عن أهمية هذه الأناشيد، ثم.. وإلى القراء نشيداً جادت به القريحة:

هلموا يا بنى الأوطان طراً.. لنرجع مجدنا ونعز مصراً

هلموا كى نوفى القطر حقاً .. نسيناه فضاع بذاك قدراً

هلموا أدركوا العلياء حتى .. تنال بلادنا عزاً وفخراً[٢٦]

* وعندما بلغ التاسعة عشرة حصل على شهادة الحقوق من جامعة تولوز الفرنسية، ويكتب لأخيه قائلا:

«لقد أصبحت حاصلا على شهادة الحقوق، ولو أتيح لى الخير، وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم، لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالاقدام، ونصبح فيها نحن أبناءها ممتهنين»[٢٧]

* ويتألق الفتى على صفحات الأهرام فى مقال بعنوان «حديث ذو شأن» جاء فيه «جمعتنى مع الكولونيل بارنج [شقيق لورد كرومر] مصادفة من أحسن مصادفات الحياة، وقد بدأني حضرته بالكلام على خلاف عادة الأنكليز

- هل أنت مصرى؟

- مصرى عثمانى.

- وهل تجتمع الجنسيتان فى أحد؟

- ليس فى الأمر جنسيتين بل فى الحقيقة جنسية واحدة، لأن مصر بلد تابع للدولة العلية، والتابع كما لا يخفى على جنابك لا يختلف عن المتبوع فى شئ من أحكامه».

ويمضى الحوار حاداً كما أورده مصطفى كامل الذى قال متحمساً فى أحد مراحلة «إن وزراءكم وكبار

---

٢٥ - المرجع السابق - ص٧٧.

٢٦ - المرجع السابق - ص٦٤.

٢٧ - المرجع السابق - ص١١٩.

رجالكم قالوا المرة بعد الأخرى إن إحتلاكم لمصر ليس إلا إمتلاك مؤقت ينتهى بعد إصلاح الحال، وتأييد سلطة الأمير، مما يؤيد حقوق الدولة العثمانية على مصر، المؤيده من قبل بالمعاهدات الدولية، والفرمانات الشاهانية» وعندما يذكره بارنج بأن مصر بلد ضعيف ولا يقوى على مقاومة الانجليز. يجيب مصطفى كامل بحماس «معنا أوربا التى تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا، على أنها إن لم تنصرنا فإن لنا من حقنا وإتحادنا بوصف اننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة مانبلغ بها ما نصبوا إليه من حرية واستقلال» فرد بارنج عليه قائلا «إصرفوا عن أوربا أملكم فإننا نرضيها بالأراضى الكثيرة، والأملاك الواسعة، ونضمن لها فى مصر منافعها وديونها»[٢٨]

ولعل هذا المقال، أو هذه المقابلة تقودنا إلى مناقشة أمر هام. هو موقف المناضل المتحمس، بل المشتعل حماساً بينما يعجز عن مواجهة العدو، الذى كان الأقوى في العالم.وفيما شعبه ضعيف،وخارج لتوه من هزيمة مؤلمه للثورة العرابية. وسنرى كثيراً فيما بعد كيف كان مصطفى يشكو من قلة الانصار، وربما إنعدامهم، لكننا نكتفى هنا بعبارة من رسالة بعث بها إلى أخيه حيث كان ضابطاً فى الأورطة المصرية فى سواكن بالسودان يطلب اليه فيها أن يبعث بتحياته لزملائه الضباط و «قل لهم إن الوطن المصرى موجود، ولكن الوطنيين الصادقين قليلون، حتى يكادوا أن يكونوا عدماً»[٢٩] وكان هؤلاء الضباط قد وجهوا له رسالة تقول «إلى الشهم الغيور الوطنى المصرى مصطفى كامل أفندى: إن قلمك الحق أمضى من سيوفنا، وحججك القوية أفعل من رصاصنا، فإن قصرنا فى شكرك فلنا من عملنا أكبر عذر، وفى عفوك أعظم أمل. فإقبل شكرنا، وإعلم أن أرواحنا طوع إشارتك فى خدمة بلادنا العزيزة»

لكن شبح الهزيمة العرابية، وفشل تحرك الضباط المصريين ونتائجه المريرة كان لم يزل محلقاً. فيسرع مصطفى برسالة خائفة تقول «من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا، بل نجتهد في توجيه السهام إليه مع إحتراسنا من سهامه. وإنى لا أود أن يدخل الضباط فى حركتنا السياسية دخولاً ظاهراً، لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضرراً بليغاً حيث يجد الاحتلال مسوغاً لإختلاق التهم الثورية بمصر»[٣٠]

وهكذا كان الأمر. المدنيون لا يتحركون، وهو يخشى من أى تحرك للعسكريين، بينما تعتمل في نفسه روح الوطنية الدافقة «إننى أريد أوقظ فى مصر الهرمة، مصر الفتاة. إننى أجد حياتى فى هذه العقيدة الوطنية،و بغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة. اننى لا أترك لحظة تمر من حياتى دون أن أغرس حب مصرنا العزيزة

٢٨ – الأهرام – ٢٨ يناير ١٨٩٥.
٢٩ – على فهمى كامل – المرجع السابق – ص٣١١ – والرسالة مؤرخة فى ٢١ فبراير ١٨٩٦.
٣٠ – المرجع السابق – رسالة مصطفى كامل للضباط مؤرخة فى ٣ أغسطس ١٨٩٥.
٣١ – عبد الرحمن الرافعى – مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية – ص٤٢٣.

في قلوب مواطني. إن روحى تتغذى من حب الوطن وبغيره لا أستطيع الحياة »[٣١]

وهكذا يتشكل المأزق. الفتى المتقد حماساً لا يستطيع الحياة لأن روحه لا تتغذى إلا من حب الوطن.

والمصريون ساكتون أو نائمون أو بالدقة متناومون.

صحا كل شعب فإسترد حقوقه

فمتى يا مصر يصحو شعبك المتناوم.

هنا يلجأ البرجوازى الصغير إلى الاستعانة بالخارج.

الخليفة العثمانى، وإذ يفشل يلجأ إلى أوربا وفرنسا، ولا يجد من ذلك سوى الاحباط.

فكيف كان ذلك؟

فى ٢٧ اكتوبر ١٨٩٦ إلتقى مصطفى كامل بالسلطان العثماني وهو أمر مثير للدهشة ، فالخليفة [أمير المؤمنين، خاقان البرين والبحرين] كان يضع ألف حاجز بينه وبين كبار القوم، فما بالنا بشاب صغير السن، بلا نفوذ وبلا حسب ولا نسب؟

«قال السلطان إنى كنت أظنك رجلا مسناً، ولكنك لا تزال فى حداثة العمر فبارك الله فيك. فأجاب مصطفى : ان شعور المسلمين جميعا نحو الخليفة والخلافة كبير جداً، ويستوى فيه الصغير والكبير».

ويمضى الحوار..

– الخليفة : أنت محام؟

– مصطفى: نعم يا مولاى إنى محام فى قضيتين مهمتين، قضية مصر خصوصاً، وقضية المسلمين عموماً.

أما قضية مصر فالعالم الأوربى مستعد ليساعدنا (!) على حلها، ولكنها مسأله يعرف كل المصريين أن جلالتكم صاحبها وسيدها، وأملنا عظيم فى أن خليفتنا المحبوب يبدأ بما يحقق آمالنا»

ولم ينس الخليفة الماكرأن يدعو مصطفى كامل إلى «تتريك» نفسه كما كان يحاول تتريك كل العرب، فقد قال له:تعلم اللغة التركية حتى لا تحتاج فى مقابلتنا إلى مترجم»[٣٢]

وعندما كان مصطفى فى فرنسا [ابريل ١٨٩٧] إشتعلت الحرب العثمانية – اليونانية. فجمع من المصريين فى فرنسا ٣٥٠ فرنكا تبرعاً لدعم تركيا، وأرسلها إلى لجنة جمع التبرعات ومعها رسالة تقول « وقد رأينا ان نرسل تحياتنا وتشجيعاتنا بصفتنا مصريين عثمانيين إلى الجيش العثمانى» وفور عودته إلى مصر أرسل برقية إلى عطوفة باشكاتب المابين الهمايونى يقول فيها:«أرجو منكم أن ترفعوا إلى جلالة مولانا أمير المؤمنين أجل وأصدق تهانينا بعيد الأضحى، وإنتصار الجنود الشاهانية الظافرة [في حربها ضد اليونان] وإن جميع

---

٣٢ – على فهمي كامل – المرجع السابق – ص٢٩٢.

٣٣ – المرجع السابق – ص٣٣٦.

المتعلقين بعرش الخلافة العظمى يؤملون أن يحن السلطان لأنين مصر المسلوبة الحقوق بسلطة الاحتلال، فيشترط على دول أوربا جلاء الانكليز عن مصر، مقابل جلاء العساكر الشاهانية عن بلاد اليونان، ليتم بذلك فوز تركيا وخلاص مصر.»[٣٣] . وطبعا لم يستجب له السلطان.

وتشن «المقطم» وغيرها من الصحف الاحتلالية حملة عنيفة على مصطفى كامل متهمة إياه بأن يريد ان يسلم مصر للاحتلال العثماني.

ويرد مصطفى كامل فى خطبة [٨ يونيو ١٨٩٧] «إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية، هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى، وإشتراك أفراد الأمة على إختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو إقتراع عام ضد الانجليز»[٣٤]

وعندما تعود مسألة علاقة مصطفى كامل بتركيا للاشتعال، مسببة حرجاً شديداً لمصطفى وخاصة وسط مناصريه من الأقباط، ودعاة الحرية الكاملة لمصر، يلقى مصطفى كامل خطاباً في الاسكندرية [٢٢ أكتوبر ١٩٠٧] يقول فيه «رمانا الطاعون بأننا نريد أن نخرج الانجليز مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية، فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال، ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الارض كلها. وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا، ونتبع ناموس الطبيعة بأن من إتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون»[٣٥]

ويعود مرة أخرى وعلى صفحات «اللواء» مؤكداً فى رد على مقال يهاجمه «لقد أخطأ المحرر خطأ كبيراً بقوله اننا نريد حرية مصر لاعادتها إلى حكم الاتراك، فقد صرخنا آلاف المرات بأننا نريد مصر للمصريين، وبأن إنعطافنا أونفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا »[٣٦].

وكانت هذه الايضاحات كافية تماماً كى تنقطع الصلة مع تركيا.

اما الظهير الآخر.. فرنسا فقد خذلته أيضا. لقد أجهد نفسه فى إجراء اتصالات ، ولقاءات مع شخصيات فرنسية عديدة، بل لقد توجه [٤ يونيو ١٨٩٥] إلى الجمعية الوطنية الفرنسية حيث قدم إلى رئيسها لوحة عليها رسم يمثل فرنسا وكتب تحته «عاشت فرنسا محررة الامم» [٣٧]

ثم قصيدة تقول:

أفرنسا يا من رفعت البلايا

---

٣٤ – الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – المرجع السابق – دراسة د. محمد محمود السروجى – ص٥٤.
٣٥ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص٥٠٨.
٣٦ – اللواء – ٦ أكتوبر ١٩٠٧.
٣٧ – على فهمى كامل – المرجع السابق – ص١٥١.

عن شعوب تهزها ذكراك

إنصرى مصر إن مصر بسوء

وإحفظى النيل من مهاوى الهلاك

وإنشرى فى الورى الحقائق حتى

تجتلى الخير أمة تهواك

وتبدو فرنسا وكأنها تستجيب، وتنشر جريدة «لى جولوا» «إن العريضة التى قدمها مصطفى كامل المصرى مع اللوح الذى يمثل فرنسا فى عظمتها وتحريرها للأمم الضعيفة، أصبحت موضوع الحديث فى كل أنحاء فرنسا. إن هذا العمل جليل فى ذاته وهو يعد بمثابة تاريخ لظهور الأمة الحية التى تشعر بكرامتها. والمسألة المصرية لم تكن مسألة الامة المصرية فقط، بل مسألة العالم المتمدين بأسره، وفى مقدمته فرنسا التى غرست شجرة العلم العصري في مصر، وأول الحكومات ذات المصالح فيها مادياً وأدبياً»

وينال مصطفى كامل هجوماً شديداً هذه المرة أيضاً، وتنشر جريدة «ذى ستاندرد» الانجليزية مقالا تهاجمه فيه بشده «ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعى أنه مصرى، والحقيقة أنه تركى، وقد كان أبوه موظفاً فى سراى الخديويين. وقد قدم هذا المهيج المغرور إستنجاداً لفرنسا من الاحتلال، ونسى ما عليه انكلترا من القوة والحق فى إحتلال مصر»[٣٨]

لكن نبوءة الكولونيل بارنج لا تلبث أن تتحقق.

فحادثة فاشوده وإتفاق سايكس - بيكو كشفا النقاب عن الوجه الحقيقى لفرنسا. ووجد مصطفى نفسه وحيداً إلا من تأييد نفر محدود من المصريين له لكنه مع ذلك يصمم على مواصلة الطريق الصعب.

ويصرخ البرجوازى الصغير بأعلى صوت « ظن الساسة الانجليز أنهم إذا إتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة. وخفت كل صوت، ومات كل أمل، ولكنهم أخطاوا لأن العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها، ولا حياة لأمة بغيرها، وهى أن الأمم لا تنهض الا بنفسها، ولا تسترد إستقلالها إلا بجهودها»[٣٩].

بل أن مصطفى كامل يبعث برسالة تهديد واضحة لأوربا. ففى حديث له مع جريدة «لاكورييرى» الايطالية يقول «أننا لم نعول إلى الآن على الدم فى تحرير بلادنا، بل عولنا ،وسنعول ما دام فى الوجود إنصاف على القلم واللسان. واليوم الذى نرى فيه آذان أوربا المتمدينة قد أصبحت صماء عن سماع شكوانا، وتلبية ندائنا،

---

٣٨ - المرجع السابق.

٣٩ - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - المرجع السابق - دراسة د. محمد محمود السروجى - ص٥٩.

نكون مضطرين إلى تغيير خطتنا وإتخاذ وسائل أخرى فعالة أساسها الاعتماد على عقلنا ومالنا وساعدنا.

هنا تخرج الأمة المصرية للعالم عملا من أعمال الأمم المستميته فى التمسك بحقوقها . هنا تندم أوربا وتقول ليتني سمعت، ليتنى فعلت، ليتني أيدت أمة مظلومة سألتني نصرتها ورد حقوقها إليها. هنا تكتب الدماء البريئة إننا لم نظلم أنفسنا ولكن الانسانية ظلمتنا، فحاربناها لخلاص أمتنا من جورها، وقدمنا أرواحنا فداء لها »[٤٠]

.. وهكذا نكون قد إقتربنا من ملامح صورة البرجوازى الصغير، حفيد التاجر الفلاح. فماذا عن حفيد الارستقراطية التركية؟

* * *

محمد فريد

الافندى الأرستقراطى.

ولم يكن غريباً أن يتقدم الفتى الارستقراطى سليل الأسرة العريقة ليخوض معركة السياسة، فقد تقدم كثيرون غيره من أبناء الارستقراطية عبر هذا الطريق. عبد الخالق ثروت باشا، عدلى يكن باشا، محمد محمود باشا وغيرهم كانوا زعماء من أصل أرستقراطى، وكذلك كان فريد أيضاً.

لكن الغريب هو أن فريد وبرغم انه أكثر أرستقراطية من هؤلاء جميعاً إلا أنه تخطى حاجز الطبقة، وإنطلق ليتفانى بصدق وإخلاص ليضحى من أجل قضية وطنه وشعبه.

وشتان بين أرستقراطى يمتطى حركة الجموع الشعبية ليخدم مصالح طبقته، وبين آخر يضحى بكل ماله وينفلت من إسار المصالح الطبقية الضيقة بل ويشن الحرب على طبقته. ولا يستشعر مصلحة إلا مصلحة الوطن، ولا محبة إلا محبة الوطن، ولا مستقبلاً إلا مستقبل الوطن.

الجد الأول مثل أغلب الأسر الارستقراطية فى مصر تركى أتى عقب الغزو العثمانى.عثمان افندى «كاتب العملة» وهو منصب من أرفع المناصب يتولاه صاحبه بموجب فرمان ، وظلت وظيفة كاتب العملة تنتقل بالوراثة حتى إستقرت عند أحمد افندى إبن أيوب أفندى جد محمد فريد.

أما فريد باشا والد محمد فريد فقد كان فى عام ١٨٦٣ ناظراً لقلم التحريرات بمصلحة السكة الحديدية، ثم أنعم عليه بالرتبة الثالثة، ثم عين فى ٢٥ يونيو ١٨٧٧ عضواً بمجلس الاحكام، وفى السنة نفسها عين مديراً للشرقية، ثم نقل مفتشاً لحسابات دوائر العائلة الخديوية، ثم مديرا للقليوبية ، ثم عاد مديراً للشرقية، وأنعم عليه برتبة الباشوية.

«إنه بناء على أهليتكم ودرايتكم وقيامكم بتأدية الخدمات المهمة التى أحيلت على عهدتكم فقد أنعمنا عليكم

---

٤٠ – على فهمى كامل – المرجع السابق – ص٣٨٥.

٤١ – مجموعة الأوامر العالية لعام ١٨٨٦ – ص٤٤٢.

برتبة الميرمان الرفيعة وعيناكم مديراً للشرقية»

وفى يوليو ١٨٨٦ صدر أمر عال بتعيينه ناظراً للدائرة السنية [٤١].

وفى فبراير ١٨٩٢ صدر الامر العالى التالى «انعم الجناب الخديوى المعظم بصفة إستثنائية بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى على سعادة أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية مكافأة له على ما حصل عليه فى خلال سنة ١٨٩١ من النتائج التى لم يسبق لها نظير»[٤٢]

ويورد محمد فريد الخبر فى مذكراته الخطية بإعتزاز ظاهر «وفى ١٧ منه (فبراير سنة ١٨٩٢) أنعم الخديوى بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى على سعادة أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية (والدى) والمراقبين بها وهما إنكليزى وفرنساوى (بطريقة إستثنائية مكافأة لهم على ما حصلوا عليه فى خلال السنة الماضية من النتائج التى لم يسبق لها نظير) هذه هى الالفاظ التى وردت فى الجريدة الرسمية»[٤٣]

ولقدظلت الارستقراطية تلاحقه طفلاً وشاباً. وعندما يتزوج تكتب «الوقائع المصرية» في إنبهار ما لم تعتد كتابته الا عن أفراح البيت المالك.

وتحت عنوان «الافراح عند سعادة فريدة باشا» تقول: «من نحو اسبوعين أقيمت الافراح فى دار صاحب السعادة أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية إحتفاءاً بتأهيل نجله الأول محمد بك فريد ووزعت تذاكر الدعوة على المدعوين لحضورهم فى ليلتى الاحد والاثنين من هذا الاسبوع. وكان منزل سعادة الباشا فى شبرا مجتمعاً لوفود المهنئين ومنتدى سرور للحاضرين.

ولما كانت ليلتا الدعوة توافد فى الأولى العدد العديد من حضرات العلماء الاعلام وتجار العاصمة، وكثير من أعيانها وجم غفير من ذوى الرتب والوجاهة من البلاد الريفية. وفى الليلة الثانية توافد على المنزل كل أكابر العلماء الفضلاء وأعاظم الامراء وأوائل الوجوه والاعيان وفى مقدمة الجميع دولتلو ياض باشا رئيس مجلس النظار وحضرات النظار الكرام، وبالجملة لا يحسب مبالغاً من يقول انه وفد في تلك الليلة جميع كبراء موظفى الحكومة السنية بين وطنيين وأجنبيين ، ومشاهير الذوات والأمراء والاعيان. أما الليالى فكانت بضوءها نهاراً وبرونقها كمال الجمال،باهت بزينتها، وفاقت بمسرتها أمثالها من ليالى الافراح، وقد كانت الموسيقى تستقبل الضيوف على إختلاف درجاتهم بتلحين الابتهاج. والذى زاد سرور ذوى الفرح عموماً وسعادة فريد باشا خصوصاً أن صدرت الارادة السنية بتكليف بعض رجال المعية السنية العظام أن يبلغ سعادة فريد باشا تهانى

٤٢- عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد - الطبعة الثالثة (١٩٦٢) ص١٧.

٤٣ - مذكرات محمد فريد - القسم الأول - تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ . مسيحية . حققه وقدم له د. رؤوف عباس (١٩٧٥)، ص١١٢.

٤٤ - الوقائع المصرية - ١٨٨٨/٧/٢.

الحضرة الفخيمة. فكان لهذا النبأ الموقع الجميل فى أفئدة العموم. لا زال الجناب العالى مصدراً للجميل مسدياً المخلصين من رعاياه كريم خيره ورضاه آمين».[٤٤]

ولعل فى هذا الوصف ما يغنى عن أى حديث آخرللنشأة الارستقراطية لفريد، ولعل هذه الارستقراطية قد ظلت تلاحقه دوماً، فحتى عندما إندمج فى خضم النضال الوطنى ، ونادى بالدفاع عن حقوق العمال والفلاحين، ووهب حياته لخدمة الشعب، بعد ذلك كله نجد فريداً وهو لايزال أرستقراطياً فى بعض مواقفه ونزعاته.

وعندما يموت خصمه اللدود الشيخ على يوسف يكتب فى مذكراته «توفى الشيخ على يوسف بداء القلب، فإنهد بموته ركن النفاق والذبذبة. وهذا الرجل نشأ فقيراً حقيراً فى بلصفورة بصعيد مصر. تعلم قليلاً بالازهر ثم دخل فى خدمة رجل أديب من رجال الحكومة إسمه على بك رحمى بصفة خادم. ثم أخذ يقول الشعر للاستجداء»

ويواصل فريد حديثه الملئ بالكبرياء والأرستقراطية فيقول «ولما توفى الشيخ السادات والد صفية زوجته عينه الخديو شيخ سجادة السادة الوفائية ولقبه بالسيد وجاء أمر تعيينه رغماً من حكم المحكمة الشرعية بأنه وضيع وليس من الاشراف».[٤٥]

إلى هذا الحد كان الزعيم مترفعاً متعالياً وأرستقراطياً.

ولعله ظل كذلك حتى فى السنوات الاخيرة من حياته. وحتى الحزب الذى أسهم مصطفى وفريد فى تأسيسه والذى خاض فريد على رأسه أروع صفحات كفاحه لم يكن بعيداً هوأيضاً – فى قياداته– عن الارستقراطية.

فعندما تأسس الحزب عام (١٩٠٧) كانت لجنتة الادارية مكونة من ٣٠ عضواً منهم أربعة باشوات، و٢٤ من البكوات، وإثنان فقط من غير حملة الالقاب.[٤٦]

وفى ٢٠ يناير ١٩١١ عندما إجتمعت الجمعية العمومية للحزب لتنتخب اللجنة الادارية . إنتخبت لجنة من واحد وثلاثين عضواً منهم «باشا» واحد وستة وعشرون «بك»[٤٧]

ويعتبر د. يونان لبيب رزق مثل هذا التركيب كافياً لتفسير الانسحابات والانشقاقات التى طرأت على الحزب بمجرد أن تعرض لضغوط حكومية أو إحتلالية.[٤٨]

---

٤٥ محمد صبيح. مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية – المجلد الثانى – (١٩٦٤) ص٢٧١ (ويتضمن هذا الكتاب بعض نصوص القسم الثانى من مذكرات محمد فريد).

٤٦ – الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – المرجع السابق – دراسة د. يونان لبيب رزق – ص٩٦.

٤٧ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص٢٧٢.

٤٨ – الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – المرجع السابق.

ونعود إلى محمد فريد الذى لم يلبث بعد أن تخرج من مدرسة الادارة (الحقوق) أن عين بوظيفة بقلم قضايا الدائرة السنية. وبعدها بعام واحد رقى وكيلاً لهذا القلم، ثم أصبح رئيساً للقلم، وبعدها بعامين أنعم عليه بالرتبة الثانية (البكوية)، وفى اليوم التالى نقل إلى النيابة العمومية. كل ذلك وهو لم يزل في الثالثة والعشرين من عمره.

الفتى الارستقراطى المترف تتفتح أمامه الابواب شأنه شأن كل أبناء المترفين.

ويسجل فريد فى مذكراته هذا الحدث قائلاً «فى يوم ٣ أغسطس ١٨٩١ أنعم جناب الخديو على كاتب هذه الاسطر بالرتبة الثانية مع لقب بك. وفي يوم ٤ منه نقلت من الدائرة السنية حيث كنت رئيساً لقلم قضاياها إلى قلم النائب العمومى، وأعطى لى متوسط الدرجة وإنتدبت بنيابة محكمة مصر الابتدائية»[٤٩].

ولقد يلاحظ البعض أن هذه المنحة الخديوية لمحمد فريد قد تواكبت مع صدور كتابه «البهجة التوفيقية وتاريخ مؤسس العائلة المحمدية» والذى صدر فى نفس العام (١٨٩١).

وتعلق المؤيد على الكتاب ومؤلفه فتقول «انه الكاتب البليغ، والباحث المدقق، الشاب الأبى، الاديب الاريب، محمد بك فريد وكيل قلم قضايا الدائرة السنية، صاحب المباحث المفيدة والمقالات الرنانة. وهو الشاب الذى تخلى منذ نعومة أظفاره عن علائق نشأة الفتوه، وشغف بالفضائل والآداب فأدرك منها النصيب الاوفر، والقدح المعلى، وتربى على تهذيب الافكار وحرية الضمير»[٥٠]

بل إن الخديو يحاول أن يواصل إهتمامه بابن ناظر دائرته السنية، وربما يحاول أن يتجاوز الحد فى هذا الاهتمام إلى درجة أثارت إعتراض كرومر ، ليس رفضاً لمبدأ المحاباة، وإنما خوفاً من إستجماع الخديوى لقلوب عدد من الشباب المصريين الذين بدت بوادر الوعى والحماس تطل من كتاباتهم وتصرفاتهم. ومرة أخرى نعود لمذكرات فريد «أمر جناب الخديو بتعيين كاتب هذه الاسطر بوظيفة وكيل مستشار لقلم قضايا الاوقاف، ولما علم الانكليز بذلك إعترضوا على التعيين. وأرسل كرومر إلى مصطفى باشا يحتج على ذلك، فأوقف التعيين للآن ولم أدر ماذا تم بعد ذلك»[٥١].

وتكتمل مراسم الارستقراطية بإنضمام محمد فريد إلى الحركة الماسونية التى كانت فى ذلك الحين ملتقى كبار القوم.ويقول فريد فى مذكراته «فى مساء اليوم (١٢ من ديسمبر ١٨٩٢) تم تكريس كاتب هذه الأسطر أخا ماسونياً فى محفل الثبات الموقر التابع للمحفل الأكبر الوطنى وأعطيت ليس أسرار درجة مبتدئ» وكعادته

---

٤٩ – مذكرات محمد فريد – المرجع السابق ص٩١.
٥٠ – المؤيد – ١٨٩١/٣/٢٨.
٥١ – مذكرات محمد فريد – المرجع السابق ص٢٩٢.
٥٢ – المرجع السابق . ص١٣٥.

يصعد سريعاً فبعد أشهر قليلة يسجل فى مذكراته «وفى مساء هذا اليوم (٥ مارس ١٨٩٣) ترقى كاتب هذه المذكرات إلى درجة شغال فى الماسونية الشريفة وأعطيت له أسرارها»[٥٢]

ولكن الارستقراطية ورغم إغراءاتها لا تحتفظ بهذا الشاب فى قفصها الذهبى، فإذ يواجه بالخيار الصعب، يختار طريقة الجديد وهو طريق التصادم المستمر والمتواصل مع الاحتلال ومع كل أذناب الاحتلال.

وكان التحدى مجرد جنين، لكن عينى كرومر الشرسة إلتقطت المغزى ورفضته، وقررت التصدى له بالشراسة المعروفة عن الاحتلال وعن كرومر بالذات.

كانت المؤيد قد نشرت أخباراً قيل أنها سرية عن حملة السودان، وقُدم الشيخ على يوسف رئيس التحرير وتوفيق أفندى كيرلس عامل التلغراف الذى نقل الخبر للمؤيد للمحاكمة.

وإتخذت القضية طابع التحدى بين الاحتلال والعناصر والقوى الوطنية. وعندما قضت المحكمة ببراءة الشيخ على يوسف، وحملة الجمهور على الاعناق معرباً عن مشاعر وطنية دافقة، قرر كرومر أن يرهب هذا الجنين وأن يرفع فى وجهه سوط الاحتلال.

ويروى فريد بقية القصة فى مذكراته:

«وحضر المرافعة كثير من وكلاء النيابة والقضاة وبالجملة كاتب هذه الأحرف، فزاد هذا التجمهر الانكليز حنقاً وطلبوا من النائب العمومى يوم الاربع الجارى نقلى إلى إحدى المحاكم القبلية فصدع بالامر وطلب من الحقانية نقلى إلى نيابة بنى سويف، وجاء تصديق الوزارة فى صباح الخميس ١١ منه ولما علمت به صممت على الاستقالة من وظيفتى وعدم قبول هذا النقل المقصود منه إهانتى والتأثير على عواطفى وإحساساتى الوطنية، ولما توجهت السبت إلى نيابة الاستئناف بلغت ما تقرر رسمياً فقدمت إستعفائى للنائب العمومى، وجنابه إستحسن إبقائه بطرفه إلى يوم الاحد ربما أعدل عن فكرى مع أنى اخبرته بتصميمى على ذلك قطعياً. وفى يوم الاحد توجهت إليه وأخبرته باصرارى فكتب على ورقة الاستقالة للنظارة، وهى جاوبته بالقبول فى اليوم بعنيه. وبذلك تخلصت من خدمة الحكومة التى لا تقبل إلا كل خاضع لأوامر الانكليز ميت الاحساس غير شريف العواطف.[٥٣]

كانت الاستقالة هى الخطوة الاولى التى أعلن بها الفتى الارستقراطى رفضه لتبعات الارستقراطية فى وطن محتل، وكانت خطوة شجاعة، وكانت أيضا مجرد بداية لرحلة بالغة المشقة على طريق ملئ بالشوك والعذاب. وكانت ايضا تعبيراً عن موقف صمم عليه الحزب الوطنى فيما بعد إذ كرس جهده لحض الشباب المتعلم على رفض الوظيفة الحكومية، ولما كانت مصر تفتقر فى ذلك الحين إلى مجالات توظف أخرى، فقد ترك هذا الموقف

٥٣ - مذكرات محمد فريد - المرجع السابق - ص٢٧٣.

الشباب الوطنى فى حيرة بالغة، انتهت بالبعض منهم الى الهجرة للخارج.

* * *

وإشتغل فريد بالمحاماة فى عام ١٨٩٧. ونشر المؤيد الخبر قائلة:

«قد إتخذ العالم الفاضل القانونى محمد بك فريد المحامى أمام محكمة الاستئناف والمحاكم الاهلية محلاً للاشتغال بالمحاماه فى ملك المرحوم ثاقب باشا أمام الاجزاخانة الطليانية بشارع محمد على. وما نعهده فى كفاءة حضرة الفاضل وسعة علمه وقوة حجته سيكون خير كفيل لنجاحه في مهنته الجديدة. فيخدم بذلك وطنه ويخدم الحقوق الشخصية والعمومية أجل خدمة، ويكون لحضرات الفضلاء من أبناء كبراء مصر منه خير قدوة وأشرف مثال»[٥٤]

«وكان فريد أول شاب يشتغل بهذه المهنة من الأثرياء. وقد إتخذ فيها سلوك ذوى الضمائر الحرة فكان لا يقبل قضية إلا إذا أيقن أن الحق فى جانب صاحبها. وبلغ من حرصه على هذا المبدأ أن أحدى الأميرات من أسرة محمد على عرضت عليه أن يترافع عنها فى قضية أقامتها بموجب سندات، ولان محمد فريد كان يعلم ان سبب هذه المستندات غير مشروع فقد رفض القضية وأبي ان يوكل فيها»[٥٥]

ومع ذلك فقد «كان الباشا والد فريد يبكى من فرط الاهانة التى لحقت بالاسرة العريقة لأن أحد أبنائها إفتتح دكان أفوكاتو»[٥٦]

وأصدر فريد وهو محام عدة كتب بعضها لاسباب سياسية مثل كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» (١٨٩٤) وبعضها للتنوير العام مثل «تاريخ الرومان» (١٩٠٢).

وفى نوفمبر ١٨٩٨ أنشأ مجلة الموسوعات بالاشتراك مع الاستاذ أحمد حافظ عوض ومحمود بك أبو النصر وكانت مجلة علمية نصف شهرية.

وقد كرس فريد معظم مقالاته في الموسوعات للحديث المباشر وغير المباشر عن الاستعمار وأساليبه وأهدافه. بل لعله كان يصدر الموسوعات خصيصاً لهذا الهدف.

---

٥٤ – المؤيد – ١٧ / ١٨٩٧/٧.
٥٥ – محمد على غريب – محمد فريد ، الفدائى الأول – (١٩٦٨) – ص١٦.
٥٦ – محمد صبيح – المرجع السابق – ص٢١١.
٥٧ – الموسوعات – ٢٦/ ٤ / ١٨٩٩.
٥٨ – الموسوعات – ١٨٩٩/٨/٨.
٥٩ – الموسوعات – ١٨٩٩/٩/٢١
٦٠ – الموسوعات – ١٩٠٠/٣/٣٠.
٦١ – الموسوعات ٣٠ / ٣ / ١٩٠٠.
٦٢ – المؤيد – ١٠ / ٣ / ١٩٠١.

ولنتابع قائمة مقالاته.. «انجلترا وفرنسا بافريقيا»[٥٧] و «الانجليز فى غرب افريقيا»[٥٨] و«انجلترا والترنسفال»[٥٩] و«روسيا فى آسيا»[٦٠] و«الشركة الانجليزية الافريقية»[٦١]وهكذا.

وفى ١٩٠١ يموت والده وتنعيه المؤيد قائلة:

«توفى إلى رحمة الله اليوم المغفور له أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية سابقاً ووالد حضرتي الفاضلين محمد بك فريد المحامى الشهير، وابراهيم بك القاضى بمحكمة مصر الابتدائية الاهلية. وكان رحمة الله من كبار أركان الحكومة وقد خدمها بالصدق والهمة الشماء»[٦٢].

وقد ترك الباشا ثروة ضخمة «نحو الف ومائتى فدان منها ٩٥٣ فدانا موقوفة وقد خص فريد من هذا الوقف ١٥٠ فداناً وخصه من الاملاك ١٥٠ فداناً أخرى. وترك له والده قصراً بشارع شبرا مساحة أرضه وحدها خمسة افدنة»[٦٣].

وفي السنوات القليلة التى أعقبت وفاة والده كان فريد قادراً على أن ينمى هذه الثروة ، وأن يحسن إدارتها، وأن يمارس مهنة المحاماة بنجاح كبير فأضاف إلى ما ورثه من أبيه عمارتين كبيرتين فى شارع حمدى بالظاهر.

* * *

ولسنا نستطيع أن نتحدث عن الشاب الانيق الارستقراطى النزعة، المهيب الطلعة دون أن نتخيل علاقته بشقيق نضاله . مصطفى كامل. ودون حديث طويل يكفينا أن نقتبس بعضاً من الكلمات المليئة بالحرارة والدفء، والدافقة بالمودة والحب والتى كانت تغمر كل رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد وهما في مطلع شبابهما ينسجان من صداقتهما الوطيدة أملاً لمصر كلها.

* فى ٣ نوفمبر ١٨٩٦ كتب مصطفى من إستانبول إلى فريد قائلاً «أتلذذ حقاً بمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز».

* وفى ٩ يوليو ١٨٩٨ كتب إليه مصطفى من باريس يقول «دمت لى أخاً وفياً صادقاً ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب».

* ومن نابولى يكتب إليه «إني لو أردت أن أشكر لك صدق إخائك وتفانيك فى خدمة المبدأ الذى وهبنا حياتنا له لما إستطعت إلى ذلك سبيلاً، وحسبى أن أقول انك خير سلوى لى فى هذه الحياة التى كثرت متاعبى وهمومي بها فكنت الاخ الممتاز والعون فى الشدائد».

* ورسالة أخرى من مصطفى إلى فريد مؤرخة فى ١٩ أغسطس ١٨٩٨ يقول له فيها «غاية رجائى من الله – أن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا – أن يحفظ لى ودك الصادق وحبك الطاهر. تقبل ألف ألف سلام من خير

---

٦٣ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص٥٤٠.

٦٤ – المرجع السابق.

صديق لك، ومن أخيك الشاكر العارف للجميل»

* ورسالة تقول «ما بيننا من الود والاخاء يجعل مالك مالى، ومالى مالك، وحياتى حياتك، وحياتك حياتى، هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت، فروحى روحك بالود والاخلاص فى كل لحظة وكل آن . ودمت لى أخاً وفياً صادقاً ودمت معى خادمين صديقين للوطن المحبوب»(٦٤).

ولقد كانت صداقة فريد ومصطفى بداية المرحلة الطويلة الشاقة التى خاضها الزعيمان معاً على رأس الحركة الوطنية، يوقظان مصر، ويقاومان الاحتلال، ويتحديان روح اليأس والهزيمة. ويرحل مصطفى سريعاً ويبقى فريد شامخاً دوماً، رافضاً أية مساومة ولويسيرة، مصمماً على أن يضرب المثل والقدوة فى كل موقف.

يسجن ، ويطارد ، ويهاجر، ويفقد كل ثروته لكنه يبقى شامخاً، ينفض الكثيرون من حوله ويصمد هو، يمرض فلايجد الدواء ويرفض أية مساومة.وعندما يطلبون منه أغلاق جريدة الحزب بسبب نقص المال، ينفق من ماله ويظل ينفق حتى يشفق عليه المخلصون فيخرج ساعته الذهبية من جيبه قائلا:سنصدر الجريدة حتى أبيع هذه الساعة(٦٥)

وعندما تلتفت حوله البقية الباقية من رجاله وهو يحتضر يبتسم فى شجاعة قائلاً «اني أنا وأولادي وكل عزيز لدى فداء لمصر، لقد قضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات، فان مت فضعونى فى صندوق وإحفظونى فى مكان أمين حتى تتاح الفرصة لنقله إلى وطنى العزيز الذى أفارقه وكنت أود أن أراه»(٦٦)

لكننا لم نزل بالاضافة إلى كل ما سبق بحاجة إلى أن نقترب أكثر من فريد، وأن نتعرف عليه وعلى أفكاره وأسلوبه فى الحياة وصفاته الشخصية.

يصفه فتحي رضوان فيقول «ففريد عصبى المزاج، عنيف إذا غضب، وهو لا يعرف أنصاف الامور، ولا أشباه الحلول ولا يتوسط فى الحكم على الأشياء والاشخاص، فالناس عنده والاحداث إما بيضاء ناصعة وإما سوداء حالكة السواد»(٦٧)

بهذا وصفه أحد حوارييه. فماذا قال فريد نفسه وأية صفات حث تلاميذه وأتباعه على التمسك بها.

فى مقدمته الطويلة لكتاب على فهمي كامل بك «سيرة مصطفى كامل» قدم فريد وصفاً تفصيليا لصورة الزعيم كما يجب أن يكون، ولعله فى هذا الوصف كان يسرد لنفسه – قبل ان يسرد لغيره – ما يتعين عليها أن تلتزم به كى تصبح الزعامة قادرة على أن تحقق أهدافها وأهداف الوطن.

---

٦٥ – د. رفعت السعيد – محمد فريد، الموقف والمأساه – ص٦٨.
٦٦ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص٤٤٤.
٦٧ – فتحى رضوان – مصطفى كامل – (١٩٧٤) ص١٣١.
٦٨ – المصور – ١٤/ ١٩٦٩/١١ – مقال لفتحي رضوان بعنوان «محمد فريد صورة قلمية».
٦٩ – على فهمي كامل بك – سيرة مصطفى كامل – المرجع السابق – ص١٠

ويمضى فريد فى مقدمته التعليمية ليحدد الفضائل التى يتعين توافرها في الزعيم فيقول «وهذه الفضائل كثيرة نذكر منها قوة الارادة والتعويل على النفس مع الصدق والشجاعة والامانة والسعى فى الخير والنشاط وسرعة الخاطر مع العلم الصحيح وقوة الخطابة، مع الصراحة التامة والافصاح بلغة صحيحة سهلة و مؤثرة»[٦٨]

انها تلك الصفات التى تحلى بها وتمسك بها فريد وظل متمسكاً بها برغم كل شئ، وكأنه يدرك أن الانتقاص من هذه الصفات هو إنتقاص من الزعامة ذاتها. ثم هو يقول «كل هذه الفضائل إذا تحلى بها رجل لا يدخل اليأس على فؤاده، بل يعتصم بالصبر والثبات غير ملتفت إلى ما يقف فى طريقه من تهديد العدو إو نفاق المنافق أو خيانة الخائن»[٦٩]

وهكذا كان فريد أيضاً.

ثم يقول فريد «وليست عظمة الرجال مقصورة على فتح المدائن وتحرير الاوطان بالسيف والنار، فان هناك رجلاً أعظم من كل الرجال، ذلك هو الذى يفتح القلوب ويرسم عليها ما شاء من ضروب الوطنية، ذلك هو الرجل العظيم بالمعنى الصحيح. فالرجل الذى يستطيع بقلمه ولسانه وما بينهما من همة لا تعرف الملل وعزيمة أمضى من السيف، أن يكونَّ قلوباً حساسة تدرك ماهية حب البلاد، وتضحى بكل نفيس فى نصرتها، لهو فى مرتبة أجل وأسمى من مراتب القائمين بالسيف والسنان.

لان من يعتمد على النار والحديد فى تحرير بلاده إنما إعتمد على القوة الساحقة بصواعقها المبيدة، على ما تستدعى من إراقة دماء بريئة ربما ذهبت دون الوصول إلى الاستقلال المحبوب، والحرية المنشودة والحق المغصوب»[٧٠]

* * *

وتمضى الرحلة بالزعيم طويلة، مريرة، شاقة. لكنه يحتمل. ويبقى كما كان دواماً، وكما أراد لنفسه شامخاً لا يهن ولا يعرف الضعف أو التردد .

وطوال هذه الرحلة المجيدة كان فريد يعرف مكانه ومكانته على رأس حركة شعبة، مدركاً ما يلقيه عبء الزعامة على كاهله من تبعات. لقد ساوم الكثيرون وناوروا مع الاحتلال وعملاء الاحتلال وصعدوا بذلك قليلاً أو كثيراً أما هو فقد ظل رافضاً أية مساومة . ظل مدرسة للإباء الوطنى ولشموخ الزعامة عندما تترفع عن الصغائر والمغريات مهما كانت شديدة الاغراء.

---

٧٠ - المرجع السابق ص٩.

٧١ - المرجع السابق - ص١٣.

شئ واحد كان يضعف أمامه، هو الوطن .

«هذه الارض المقدسة التى لو حللت أجزاءها لكان لك فى كل ذرة منها ميراث كبير هو عظام أبائك وأجدادك الأولين . هذه الأرض التى لو ضحكت لأضحكت الوطنى، ولو بكت لأبكته، فخيرها خيره وشرها شره، فهى أمه وأبوه وبنوه، بل إنه قطعة منها قامت لتدفع عنها الضرر الحتمى .وإذا ما أدت لها واجباً وأحسنت عملاً عادت إلى مكانها منها لتلقى من ربها الجزاء الأوفى»[٧١].

سبع سنوات مضاها فريد بعيداً عن أرض أحبها وذاب وجداً فى هواها، سبع سنوات يعمل ويضحى وينفق ويفلس ويمرض ويتعذب من أجل إيقاظ مصر.

وتستيقظ مصر، فجأة تنتفض وتثور وتلتهب بالغضب، ويبقى الزعيم منفياً، ليس فقط عن الأرض، ولكن المأساة أن ينفى عن الثورة ذاتها. وينكره الزعماء الجدد أو يخشونه، يخشون زعامته المهيبة، ورفضه لأية مساومة، وتتراكم الاحداث ويبقى المنفى بعيداً لكنه يظل متشبثاً بمحبته لوطنه وبإيمانه بشعبه.

وتكون رسالته إلى شعب مصر التى وجهها فى ذكرى ١٤ سبتمبر ١٩١٩ أي قبل وفاته بشهرين أشبه «بالوصية» أو رسالة الوداع من زعيم لشعبه

فماذا قال فريد فى وصيته؟

«إخوانى المصريين الاعزاء. إن الصوت الذى يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف من الارتفاع فى صحف مصر من نحو سبع سنوات. ولكن منعه من الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبه تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية. إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوماً، ولم يتأخر بما تفرضه عليه الوطنية طرفه عين بل كان يزداد قوة ونشاطاً كلما تراكمت أمامه الموانع وتكدست العقبات. إن هذا الصوت يناجيكم من وراء البحار ليهنئ الامة المصرية على تضامنها وتضافرها، والمطالبة بحق أمنا المظلومة مصر لا فرق فى ذلك بين أبنائها وبناتها مسلمين وأقباطاً.»

وفريد يدرك أو لعله يذكر الآخرين بأنه ليس غريباً عن الثورة بل هى ثمرة من ثمار كفاحه، وكفاح حزبه فيقول «ونشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التى دلت على أن ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور في تلك الأرض الخصبة قد نبت وترعرع ساقه، ثم أزهر وظهرت ثماره الشهية التى قد قرب زمن جنيها»[٧٢]

وعندما يتوقف القلب الذى أحب بلاده كل الحب، يلتف حوله عدد قليل من الرجال ويقف الشيخ عبد العزيز جاويش ليلقى كلمة قبل أن تتحرك جنازة لم يحضرها سوى بضعة أفراد.

---

٧٢ – محمد صبيح – المرجع السابق ص٣٨٩ وأيضاً : المصور ١٩٦٩/١١/١٤ – صبرى أبو المجد، مقال «الحركة الوطنية المصرية بقيادة محمد فريد».

٧٣ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق . ص٤٤٥.

«أيها السادة: أمام جثة هامدة وميت لا يعى نحن واقفون؟ كلا ثم كلا! نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر فى سبيل الحرية البشرية، فى سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الانسانية، في سبيل مصارعة الامم القوية ذوات المطامع الأشعبية.نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير الذى كانت حياته مثالاً كاملاً للمتشبهين، وقدوة صالحة للعاملين فيها، هى تلك صفحاتها الناصعة ترينا كيف جمع فقيدنا العزيز إلى صلابة العزم جهداً لا يوهنه الملل، ولا يرهبه الكلال. كما ضم إلى الصراحة البالغة فى كتابته وكلامه إقداماً يستهزئ بالغوائل ويسخر من كارثات النوازل»[٧٣]

وقدوصل نعيه إلى مصر وهى فى غمار ثورتها.

وتريثه الاهرام قائلة «مات محمد فريد فأحياه موته – وهو غريب مجاهد – فى قلب كل مصرى وكل محب لمصر، وخلده وجهاده لانقاذ هذا الوطن في التاريخ إلى جانب كل رجل عظيم ووطنى كبير. إستمات في حب الاستقلال فمات وحياة أمته في عنفوان الشباب، وخفت صوته، وصوت أمته اليوم هتافه يرتفع إلى الجوزاء»[٧٤]

اما الاجيبسيان ميل الجريدة ذات الولاء للاحتلال فقد كتبت تقول «ولا حاجة إلى القول بأن فريد كان مخلصاً فى مبدئه الذى لم يتوان عن العمل على تحقيقه في العشر سنوات الاخيرة. وكان فوق ذلك أول زعيم وطنى بذل ماله في سبيل مبدأه المحبوب فكان بذلك مثالاً نادراً في الشرق وفى مصر على الخصوص لمن يفدى مستقبل وطنه بكل ما يملك»[٧٥]

وتمضى الاجيبسيان ميل قائلة «ولسنا نحن من رأى الزعيم الوطنى الراحل في مذهبه السياسى ولكننا لا نتمالك أن نبدى إعجابنا بخلقه وصدق شعوره بالوطنية، ولا سيما أنه حين بذل كل ما يملك لم يكن ينتظر أى مكافأة من أبناء وطنه»[٧٦]

.. لكن الكلمات لا تكفى. كل المعانى تعجز . ولا يجد حافظ ابراهيم سبيلاً لرثائه إلا بيتاً من الشعر يلخص كل المأساة

ها هنا قبر شهيد فى هوى
أمة أيقظها ثم رقد

---

٧٤ – الأهرام ١٩/١١/ ١٩١٩.
٧٥ – اجبيسيان ميل ١٩/١١/١٩١٩.

هذان هما الشقيقان مصطفى وفريد فماذا عن الحزب الذى أفنى كل منهما كل قطرات حياته من أجل تحقيق مبادئه؟

*   *   *

* الحزب

كانت مصر فى حالة تشبه الاحتضار، هكذا تركتها هزيمة الثورة العرابية.

ويتطلع الجيل الجديد فى ثمانينات القرن التاسع عشر إلى مصر وهى راقدة بلا حراك مستسلمة بلا قدرة.

لكن المصريين كعادتهم وبرغم حديثهم الكثير عن اليأس، يستطيعون بقدرة غريبة وبصبرنادر أن ينسجوا من خيوط اليأس أملاً جديداً .

لكن الاحتلال لا يريد لمصر أن تستقيظ. سلطاته وبوليسه وخونته يملأون كل مكان، يهيمنون على كل شئ، يرصدون كل حركة. وعندما يلتقطون أى خيط فيه شبهة تحرك أو مقاومة، يضربون بشدة ثم يمدون يداً بقفاز من حرير تحنو على أصحاب المحاولة ثم تستوعبهم. هكذا فعلوا مع «جماعة الانتقام» التى تكونت فى أعقاب الهزيمة» ضربوها بشدة [٧٦] ثم إذا بأحد أقطابها «سعد زغلول» يلمع سريعاً فى صالون الاميرة نازلى الذى أعده كرومر خصيصاً كمصيدة للمعتدلين من المصريين. يتعرف فيه على الفرائس الجديدة وينتقى من يشاء ليتعاون معه.

ومحاولة أخرى تكتشف، وترسل دار المندوب السامى برقية سرية عاجلة إلى وزارة الخارجية البريطانية لتتهم الشيخ محمد عبده وآخرين بتدبير مؤامرة هدفها الاغتيالات، ثم لا تلبث هذه البرقية أن تلغى، ولا يلبث الشيخ محمد عبده أن يظهر هو الآخر فى صالون الاميرة نازلى.

ولسنا نود أن نلقى ظلالاً من الشك على رواد صالون نازلى من المصريين. فهم وطنيون – بهذا القدر أو ذاك من الوطنية – ولعل بعضهم كان يتقدم إلى المصيدة طائعاً مختاراً، ولعل البعض كان يقتحمهما مؤملاً ان يجد فيها فرجة أمل لمصر، فهذا هو دوماً منطق «الاعتدال» فى الوطنية.

ولم يكن صالون نازلى هو الصالون الوحيد.

كان هناك صالون لطيف باشا سليم الحجازى.

وتعود بنا الذاكرة سريعاً إلى البكباشى لطيف سليم الحجازى على زمن الخديو اسماعيل.

وكان هذا الضابط أحد «همزات الوصل» بين الخديوى وحلقات الضباط الثائرين. وعن طريقة إستطاع الخديوى أن يلقن وزيره المتمرد عليه والضالع مع الانجليز نوبار باشا درساً قاسياً وعلقة ساخنة، عندما حشد

---

٧٦ – زكى فهمى – صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر – الجزء الأول – مطبعة الاعتماد (١٩٢٦). ص١٣٥.

البكباشى مظاهرة من الضباط الغاضبين بسبب وقف صرف رواتبهم لمدة ١٨ شهراً وضربوا الوزير الاول(٧٧)فكانت نهايته.

لكن لطيف سليم شأنه شأن كل «همزات الوصل» لا يشارك فى الثورة،ويبقى محافظاً على الهامش الدقيق والمريح والمأمون العواقب، ويصبح باشا، ويشيد قصراً، ثم يفتح صالون قصره أمام بقايا الثورة المهزومة مثل عبد الله النديم العائد حديثاً من المنفى، ومعهم جيل جديد من الشبان إقتحموا صالون الباشا المخضرم عن طريق إبنه الطالب «محمد فؤاد سليم». وسوف نرى فيما بعدعلاقة هذا الصالون بالخديوى الذى كان هو أيضاً غاضباً من النفوذ المهيمن للاحتلال ولمعتمده كرومر، راغباً فى أن يستجمع عدداً من العناصر الوطنية يتقوى بها فى مجابهة كرومر.

وربما كان «الباشا» يواصل نفس الدور الذى لعبه «البكباشى» دور «همزة الوصل» بين القصر والعناصر الوطنية. المهم أن هذه المجموعة من الشبان إالتقت مع النديم وإستمعت اليه. وتعملت منه السياسة والخطابة والحماس الدافق و الجرأة المتحدية.

وبارشاد من النديم يصدر مصطفى كامل مجلة «المدرسة» وبتوجيه منه يقتحم مصطفى كامل ميدان النضال السياسى والوطنى ضد الاحتلال.

ولابد لنا أن نشير إلى أن الخطوات الاولى لمصطفى لم تكن بعيدة عن الخديوى ولا عن تمويله. ولسنانجد فى ذلك عيباً. فالخديوى كان فى ذلك الحين ضد كرومر، ربما ليس بنفس الدرجة التى يتطلبها «الوطنى المخلص»، لكن هذا هو المتاح الوحيد فى ظل حالة الاحتضار التى كانت تعيشها مصر.

وتكونت مجموعة سرية يرأسها الخديوى. وتضم قطبين سياسيين مصطفى كامل واحمد لطفى السيد، وكانت هذه المجموعة تتخذ لنفسها أسماء سرية، الخديوى (الشيخ) ومصطفى (ابو الفدا) ولطفى (ابو مسلم)(٧٨)

وسوف نرى فيما بعد كيف ان هذه المجموعة قد إنقسمت. مصطفى سار فى طريق العداء المستمر للاحتلال وأسس الحزب الوطنى. وأحمد لطفى سار فى طريق الاعتدال والتهادن، وأسس حزب «الامة»، وكان إنسلاخ لطفى السيد عن الجماعة يأساً من إمكانية التصادم مع الاحتلال وخاصة بعد تراجع فرنسا أمام الانجليز فى حادثة فاشوده.

ولعل مصطفى كامل كان على حق عندما كتب فى عام ١٩٠٧ يقول «إن الحزب الوطنى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته إستقلال مصر ورد حقوقها إليها، موجود فيها فعلاً من ثلاثة عشر عاماً مضت، فهو وإن لم يظهر بشكل نظامى وبلائحه ولجنة إدارة فأنه منذ زمن طويل ظهر بأعمال. فقد إتفق أعضاؤه على خدمة

٧٧- د رفعت السعيد الأساس الاجتماعى للثورة العرابية - الطبعة الثانية - (١٩٧٧) ص١٤٧.
٧٨- د حسين النجار- أحمد لطفى السيد- ص١٠٣.

البلاد بكل قوة، وقاوم الاحتلال فى أوربا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وإرتبط بروابط أكيدة مع ساسة أوربا. ولما حدثت حادثة فاشودة أضعفت همم بعض الرجال من الحزب ، كما إنفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم. وإنى من ساعة وصولى من أوربا إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم.»[٧٩]

إن مراجعة وثائق هذه المرحلة ومنها مراسلات مصطفى كامل والمذكرات الخطية لفريد توحى بأن هذه الجماعة السرية التى إلتقت تحت راية الخديوى، ثم إنقسمت بعد حادثة فاشودة كانت تعتمد فى جناحها الوطنى المتطرف على عدد محدود جداً من الاشخاص، ربما أربعة أو أكثر قليلاً يتلقون عوناً مالياً من الخديوى لتمكين مصطفى كامل من السفر لأوربا، للدعوة ضد الأنجليز وإصدر بعض المجلات والنشرات المناوئة للاحتلال.

ونستجمع هذه الاسماء من وثائق متناثرة.

يقول محمد فريد فى رثائه لمحمود لبيب«انه (فريد) قد وطد صداقته بمصطفى كامل حين إلتقى به فى باريس عام ١٨٩٥ قبل أن يلقى مصطفى خطبته السياسية بمدينة تولوز (٤ يوليو ١٨٩٥)».

ثم يقول انه «تعاهد معه ومع محمود لبيب محرم فى عام ١٨٩٦ على خدمة الوطن حتى الممات»[٨٠]

ويقول «إن أول عمل شرعت فيه المجموعة (مصطفى – فريد –لبيب محرم) بعد أن تعاهدت على خدمة الوطن هو تأسيس مجلة أسبوعية باللغتين الفرنسية والالمانية وكان يديرها شاب ألمانى هو هانس رزنر وتولى تحرير الجزء الاكبرمنها محمود لبيب بدون توقيع، وإستمرت الجريدة فى الظهور حتى مات رزنر فترجم ثلاثتهم الكتاب الذى كان قدألفه رزنر بالفرنسية عن المسألة المصرية»[٨١].

. لدينا الآن ثلاثة اسماء اما الرابع فنلتقطة من وثيقة اخرى . إنها رسالة من مصطفى كامل مؤرخة فى ١٦ يونيو ١٨٩٥ ومرسله الى الشخص الرابع فى هذه المجموعة «محمد فؤاد سليم».

«حمداً لله على إنبعاث روح جديدة فى نفوس أبناء مصر ولكنى مع ذلك عالم بأنى لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى، وإنى إذاتصورت يوماً بأى صورة كانت لا أجد من أمتى عضداً ونصيراً إلا إن كان منك يا أعز أبناء النيل عندى، هذا ما يحزننى كثيراً فإني مع إرتياحى للمهمة التى عرضت نفسى للقيام بها والغرض الشريف السامى الذى أعمل له، أرى ان غيرى من الذين أحب التشبه بهم كفرانكلين وغيره، كان يعمل ووراءه

---

٧٩ – اللواء – ١٠ / ١٩٠٧/١٠.
٨٠–مذكرات محمد فريد– المرجع السابق – مقدمة د رؤوف عباس – ص٦٠.
٨١– المرجع السابق – ص٦١.
٨٢– فتحى رضوان – المرجع السابق – ص١٣٢.

أمة تعزز مطالبه وتدافع عنه، بعكس ما أنا فيه فالذين ينصفونني ويوافقون على أعمالى، إنما يقولون بذلك فى مجالسهم الخاصة، وربما خافوا المجاهرة في المجالس العامة. والذين يعترضون على ويطعنون فىّ، يقولون ذلك جهاراً ولا يخافون أحداً»[٨٢].

والآن لنراجع التواريخ بدقة.

رسالة مصطفى إلى محمد فؤاد سليم مؤرخة فى ١٦ يونيو ١٨٨٥. وفيها يشكو مصطفى من أنه لا يجد «عضداً ونصيراً إلا ان كان منك يا أعز ابناء النيل عندى»

وفى ٤ يوليو ١٨٩٥ يلتقى مصطفى بفريد فيصبحون ثلاثة . وفى ١٨٩٦، يتعاهدون مع محمود لبيب محرم فيصبحون أربعة.

هكذا كانت الرحلة فى بدايتها شاقة وصعبة ومريرة تتكاتف ضدها أعاصير عدة. الاحتلال ومعتمدة الشرس، والخديوى الذى يدفع المال ويطلب الثمن ولاءً له وليس للوطن، والاستسلام المستشرى فى صفوف الصفوة.

لكن مصطفى كان مصمماً على المضى فى طريقه. فيقول فى رسالته لمحمد فؤاد سليم «وعلى أية حال فليست هذه الافكار مما يضعف عزمى أو يثبط همتى، فأنا أعمل الليل والنهار بعزم وهمه حقيقيتين متوكلاً على الله واثقاً بالمستقبل»[٨٣]

وسرعان ما إتسعت الدائرة لتشمل الكثيرين.

* * *

ويبدو أن مصطفى كامل لم يكن متعجلاً فى إعلان حزبه السرى. ربما إنتظاراً لظرف سياسى أفضل، وربما أملاً فى إستجماع عدد أكبر من الانصار والمؤيدين.

لكن جماعة «المعتدلين» سارعت باعلان حزب الامة بتأييد ومباركة من كرومر.

ويكتب مصطفى إلى فريد رسالة عاجلة يقول فيها «إن ظهور حزب الامة من أولئك الذين خبرنا نفسيتهم وميلهم إلى مسايرة المحتلين، وإن ما علمته كذلك عن عزم صاحب المؤيد على تأليف حزب باسم الاصلاح لخدمة سياسة السراى، هذان الامران يحتمان علينا كل التحتم أن نظهر حزبنا الوطنى بالرغم منا فى مظهره الحقيقى، حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصرى حزباً يطلب بعزيمة صادقة الجلاء والدستور»[٨٤].

وسريعاً يحتشد الانصار، وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ يقف مصطفى كامل فى مسرح زيزينيا بالاسكندرية وسط

٨٣- المرجع السابق.

٨٤- أنور الجندى - عبد العزيز جاويش - سلسلة أعلام العرب - الدار المصرية للتأليف والترجمة - ص٢٧.

حشد من ستة آلاف شخص. يقف مصطفى فى هذا الحشد الهائل الذى تعالت هتافاته «تحيا مصر»، ليصب فى آذان مصر كلها أنغاماً من الحماس الدافق والوطنية الصادقة لم تعتد عليها من قبل «بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى ولسانى، لك لبى وجنانى، فأنت أنت الحياة، ولا حياة الا بك يا مصر».

ويمضى مصطفى كامل معلناً منهاج حزبه «إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا كونوا أسعد حظاً منا وليبارك الله فيكم ويجعل النصر على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الاهلية والاستقلال المقدس».

وكان إعلان قيام الحزب الوطنى نقطة تحول في تاريخ الحركة الوطنية المصرية، كان فيصلا بين الوطنية الصادقة وبين العمالة أو التهادن او المناورة.كان بالنسبة للوطنية الصحيحة نقطة إبتداء، وبداية إنطلاق.

لكننا مع ذلك نلاحظ أن خطاب مصطفى كامل فى مسرح زيزنينا كان معتدلا غايه الاعتدال بل لعله كان مؤهلاً فى ذلك الحين لكسب بعض العناصر التى توجهت نحو الحزب الوطنى والتى كانت ستغادره فى حالة بروز أية نزعة متطرفة فى شعارات مصطفى كامل ومنطلقاته . فقد كون رجال حزب الامة كل رصيدهم من إدعائهم بأن التطرف لن يفيد، ومن ثم فلا بأس من بعض المداراة أو الاعتدال. فمصطفى كامل فى خطابه الشهير لا يطلب الاستقلال الكامل لمصر لكنه يطلب وبشكل محدد «منح مصر الحكم الذاتى أو استقلالها الداخلى طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٩٠ وضمانات الفرمانات الشاهانية التى وعدت انجلترا باحترامها رسمياً»[٨٥] ولقد يكون مصطفى قد تقيد أيضا برغبته فى إرضاء العثمانيين الذين كانوا يساعدونه ضد.الاحتلال ولكن ليس إلى درجة إستقلال مصر عن الخلافة العثمانية.

وفى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ إجتمعت الجمعية العمومية للحزب بمقر جريدة اللواء، وحضر الاجتماع ألف مندوب وإنتخبوا لجنة ادارية من ثلاثين عضواً بالاضافة إلى الرئيس (مصطفى كامل).

وإجتمعت اللجنة الادارية لتنتخب بدورها أحمد فائق ومحمد فريد نائبين للرئيس، ومحمد فؤاد سليم سكرتيراً عاماً، وعمر سلطان أميناً للصندوق.

لكن مصطفى كان يخطب فى مسرح زيزينيا فى ٢٢ اكتوبر وهو يعانى من مرض خطير أنهك قواه، فأعلن قيام الحزب ثم لزم فراش المرض، حتى فارق الحياة.

وترك مصطفى كامل وصية يعرفها كل رجال حزبه «ان يخلفه محمد فريد فى رئاسة الحزب»[٨٦]

لكننا نخطئ كثيراً لو تصورنا أن مصطفى قد رحل تاركاً الحزب الوطنى وليداً صغيراً فى دور التكوين.

٨٥- أحمد رشاد- مصطفى كامل حياته وكفاحه مطبعة السعادة(١٩٥٨) ص٢٧١.

٨٦- محمد على غريب- المرجع السابق- ص١٠.

ففترة العمل السرى الطويلة، والنضال السياسى المستمر والشجاع كانت قد جعلت من الحزب الوطنى حتى قبل أن ينشأ علناً تنظيماً جماهيرياً حقاً، ومرهوب الجانب من خصومه، وحائزاً على ثقة ومحبة وإحترام مصر كلها.

لقد سجل الحزب الوطنى – حتى قبل أن يعلن – إنتصاره الساحق على سياسة كرومر.

وقد بلغ نشاط الحزب ذروته خلال حادث طابا(١٩٠٦)، وحادث دنشواى (يونيو في العام نفسه) إذ إستطاع أن يعبئ الشعور الوطنى ضد الاحتلال، ويجمع حوله صغار الملاك والفلاحين والحرفيين بالاضافة إلى التجار والمثقفين.

وإشتدت حملة مصطفى كامل على الاحتلال فى داخل البلاد وخارجها حتى إضطرت الحكومة البريطانية إلى تعديل سياستها فى مصر بالعدول – تدريجياً – عن سياسة الشدة، وإشراك العناصر المصرية من مثقفى الاعيان في الحكم الذى كان قاصراً – حتى ذلك الوقت – على الذوات الاتراك دون غيرهم، فكان تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف (اكتوبر (١٩٠٦) ثم تبع ذلك إستقالة كرومر (مايو٧ ١٩٠).[٨٧]

والحقيقة أن مصطفى كامل ورجاله وحتى قبل أن يعلنوا حزبهم كانوا قد نجحوا نجاحاً تاماً فى محاصرة خصومهم وإيقافهم امام الجمهور موقف المتهم .وعندما يلتقى مصطفى كامل بفتحى زغلول قاضى دنشواى فى منزل سعد زغلول يرفض أن يصافحه، فيكون رفضه هذا إشارة بدء بموقف شعبى شامل ضد قضاة دنشواى. موقف إلتزمت به مصر حتى أحمد شوقى بك شاعر الارستقراطية المصرية رفض أن يحضر حفل تكريم أقيم لفتحى زغلول، وأرسل إلى لجنة التكريم أربعة ابيات من الشعر يقول فيها:

اذا ما جمعتم أمركم وهممتموا
بتقديم شئ للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
لا تقرؤا شعرى عليه فحسبه
من الشعر حكم خطة بيمين
ولا تنشروه فى شبرد بل إنشروا
على ملأ فى دنشواى حزين

وكانت «اللواء» جريدة مصطفى كامل سلاحاً إعلامياً ماضياً إمتلك ناصية التأثير على المناخ السياسى

٨٧- مذكرات محمد فريد- المرجع السابق- مقدمة د رؤوف عباس ص٥٠.

المصرى، وأصبحت «اللواء» أداة تجميع وتنظيم للجماهير، وليس مجرد وسيلة إعلام. وتعليقاً على الدور التنظيمى الذى لعبته اللواء يكتب المؤرخ «لاندو» «ففى الوقت الذى تصدر فيه الجماعات والاحزاب فى أوربا جرائدها، نجد فى مصر ان الجموع تتبلور حول الجريدة التى أنشئت بالفعل، وبمضى الوقت تتكون الأحزاب وتتجسد الأهداف والانشطة والقيادات ولكنها تظل مركزة فى الجريدة، وقد فطن مصطفى كامل إلى أهمية إصدار جريدة كبرى يدعو فيها لمبادئه وآرائه وليقوى الروابط بينه وبين تلك العناصر التى ينوى فى المستقبل القريب أن يكوِّن منها الحزب الوطنى»(٨٨)

وبرغم أن «حزب الأمة» قد سبق تكوين « الحزب الوطنى» وسبقه كذلك حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية، فإن «لاندو» يقول «وكان الحزب الوطنى هو التنظيم الحزبى الاول الحقيقى فى مصر الحديثة »(٨٩) لماذا؟ ليس فقط لانه كان الحزب الأكثر شعبية والذى إنتهج سياسة وطنية أكثر راديكالية، وإنما – وهذا هو الأهم – لانه الحزب الذى نبع من وجدان مصرى، وبوازع وطنى، ولم يكن «صناعة أجنبية». فحزب الامة كان صناعة انجليزية فى نظر البعض على الاقل، ببل وبإعتراف الانجليز أنفسهم . يقول اللورد جورج لويد صراحة «وبفضل مجهود اللورد كرومر تأسس فى أكتوبر ١٩٠٧ حزب جديد هو حزب الامة، وصيحفته الجريدة. وقد كان أكثر أعضاء هذا الحزب بعثاً للأمل رجلاً أصبح إسمه فيما بعد من أهم الاسماء في تاريخ مصر الحديثة وذلك هو سعد زغلول».(٩٠)

بل إن كرومر نفسه لا يخفى هذه الحقيقة ويوردها فى تقرير رسمى مؤرخ فى ١٥ ابريل سنة ١٩٠٧ فيقول:

«إن الحزب الوطنى (لم يكن الحزب قد أعلن بعد) لن تكتب له الحياة لتعصبه من جهة، ولطموح أعضائه من جهة أخرى، فأعضاؤه يتصفون بالحماس الزائد وحبهم لاثارة القلاقل والاضرابات، ولذلك فانهم غير جديرين بالزعامة فى قيادة مصر».

ثم يمضي قائلاً فى صراحة غريبة «إن فى مصر أُناساً إتصفوا بالحكمة والروية، يعملون فى سكون وتؤده لتطور البلاد تطوراً بطئياً يؤتى بالثمرة المرجوة، وأولئك هم الذين يستطيعون حقاً تكوين حزب صالح يكون على رأسه سعد زغلول».(٩١).

.. كتب كرومر ذلك قبل إعلان حزب الامة بعدة أشهر

---

٨٨ – جاكوب لاندو – الحياة النيابية والأحزاب في مصر – ترجمة سامى الليثى – (دت). ص١١١.

٨٩ – المرجع السابق، ص١٧.

90 -Lloyd - Egypt Since Cromer - P,192.

٩١ – أحمد رشاد – المرجع السابق – ص٢٣٩.

* * *

ولكى نستطيع ان نقوم بتقييم دور الحزب الوطنى بشكل جدى سواء قبل إعلانه رسمياً، او بعد ذلك، يتعين علينا ان نلقى نظرة على البديل الذى أعده الانجليز، أى على سياسة «حزب الأمة» ولنأخذ هذا الحزب بأقوال جريدته ، وأقوال قادته: تقول الجريدة «ان الوقت لم يحن لمناقشة قضية الاحتلال، فالاستقلال لا يُنال إلا بتدريج، الطفرة محال. وعوامل التشبث بها خطرة جداً»[٩٢]

ويكتب لطفى السيد محدداً سياسة «الجريدة» فيقول «إن الجريدة لم تنشأ لكى تحابى السلطة الشرعية (الخديوى) أو السلطة الفعلية (الاحتلال) ولا لكى تعادى واحدة منهما، ولا لكى تنتصر لاحداهما على الاخرى».

ويكتب لطفى السيد أيضاً «سياستنا مع الانجليز لاتخلو من أحد وضعين: إما سياسة عناد وعداء، وإما سياسة مسالمة لا إستسلام، ولاشك أن سياسة المعاندة عقيمة، إذ كيف يقبل المعاند من مُعانِدَه حسابه على أعماله، بل كيف يرجو العدو من عدوه إصلاحاً له، فلم يبق الا سياسة المسالمة والمحاسنة مقرونة بالمحاسبة، وأول مظاهر المحاسنة، المجاملة فى المعاملة»[٩٣].

ويكتب قائد آخر من قادة الحزب هو على باشا عبد الرازق مؤكداً «ان الانجليز أرحم بالبلد، وأدنى إلى رعاية مصلحته من الخديوى»[٩٤].

أما حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية (الشيخ على يوسف) فكان يرى «ان حل قضية الاحتلال يكون بالاعتماد على الوعود والتصريحات التى بذلتها بريطانيا عند قيامها بإحتلال مصر، ومطالبتها بالوفاء بها»[٩٥]

وكان الحزب الوطنى الحر (وحيد بك الايوبى) يرى ان الخير يكمن فى مسالمة الانجليز إذ أن مصلحة الوطن تكمن فى «الاعتماد على الدولة المحتلة العادلة فى جميع شئونها المادية والأدبية»[٩٦]

أما الحزب المصرى (أخنوخ افندى فانوس) فقد تمادى في تراجعه إلى درجة مطالبته «بتنظيم علاقة مصر بانجلترا فى شكل معاهدة تتيح للمصريين إدارة الأمور الداخلية للبلاد تحت الحماية البريطانية».[٩٧] هذا هو المناخ السياسى الذى حاول «المعتدلون» و«الاحتلاليون» أن يشيعوه، وعلى ضوئه يمكننا أن نقدر حقيقة وأهمية

---

٩٢ - الجريدة ٣٠ / ٩ /١٩٠٧.

٩٣ - فتحى رضوان - المرجع السابق - ص٨٧.

٩٤ - آثار مصطفى عبد الرازق - تقديم على باشا عبد الرازق - دار المعارف (دت) المقدمة ص١٣.

٩٥ - المؤيد ١٢/٩ /١٩٠٧.

٩٦ - المقطم ١٩٠٧/٧/٥.

97 - Alexander - TheTruth About Egypt - London (1911) - p.174.

٩٨ - عبد العزيز فهمى - هذه حياتى - كتاب الهلال - أبريل ١٩٦٠ - ص٧٨.

الدور الذى لعبه الحزب الوطنى فى خلق مناخ وطنى حق، مصرى حق، معاد للاحتلال، ومستعد للنضال ضده.

تبقى بعدذلك شهادة مهمة لعلها تحدد ملامح دور كل هذه الاحزاب «المعتدلة» أو«الاحتلالية» بالمقارنة بدور الحزب الوطنى. يقول عبد العزيز فهمى باشا فى مذكراته «فلأجل إزالة الاعتراض الوارد على طريقة الحزب الوطنى قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف فى الاجراءات وأسسوا حزب الأمة»(٩٨)

نشأة حزب الامة، كانت إذن مرتبطة بالحزب الوطنى بل هى بالتحديد «من أجل إزالة الاعتراض الوارد على طريقته» وذلك رغم ان حزب الأمة أعلن قبل أن يقوم الحزب الوطنى رسمياً. المسألة اذن واضحة. كان الحزب الوطنى موجوداً ، قائماً، راسخاً، منتشراً وسط الجماهير. فقط لم يعلن عن وجوده رسمياً. وحاول كرومر أن يسحب البساط من تحت أقدامه باعلان قيام حزب الامة. فإضطر مصطفى كامل ورفاقه إلى الاعلان عن حزبهم.

ويقارن السير فالنتين شيرول بين الحزب الوطنى وكل الاحزاب الأخرى التى نشأت معه أو قبله – أو بالدقة – التى أُنشئت معه أو قبله كى تنافسه أو تناوئه فيقول «كان الحزب الوطنى هو الحزب الأكثر عدوانية ضد الانجليز، لقد كان يقاوم الانجليز بحدة وبمرارة، اما جريدته اللواء فقد إستطاعت برغم إمكانياتها القليلة أن تقض مضاجعنا بهجماتها العنيفة»(٩٩)

وعندما مات مصطفى تصور البعض أن الفرصة سانحة لاقتناص الحزب الوليد.

ويروى محمد فريد وقائع هذه المحاولات فى مذكراته فيقول «من يوم وفاته (مصطفى كامل) إبتدأ الخديوى يدس دسائسه لانتخاب رئيس يكون طوع أمره ليستعمله فى أموره الشخصية، فأرسل رجاله فى الجنازة والمأتم. وحتى الشيخ على يوسف عدو مصطفى والمنافس له فى جميع أموره. حضر المأتم فى الليالى الثلاث الاول، وكذا عرفى باشا ورجاله أيضاً وأخذوا يرشحون من يتوسمون فيهم الطاعة من الرؤساء مثل يوسف المويلحى أو عرفى باشا، وبعضهم رشح الشيخ على نفسه، كل هذا لم يفد. وفى يوم إنعقاد الجمعية العمومية التى كنت دعوتها يوم ١٤ فبراير أى بعد الوفاة بأربعة أيام إنتخبت بالاجماع، وممن لعبوا دوراً مهماً فى هذه المسألة بإيعاز من الخديوى، على بك فهمى كامل، فإنه كان يريد أن ينتخب بصفته أخاً للفقيد، وجهز أوراقاً مكتوب عليها إسمه ووزعها على بعض الحضور، وأدخل فى الاجتماع الكثيرين من غير الاعضاء بواسطة من

---

99 - Valantine Chirol (Sir) - The Egyptian Problem - London (1920) - p. 112.

١٠٠ - مذكرات محمد فريد - المرجع السابق.

وضعهم عند الباب من رجاله، ولكنه لما رأى التيار قوياً ضده ،حول الدفه وخطب فى الحضور مرشحاً لى بناء على جواب كان كتبه له أخوه من أوربا يوصيه فيه بإنتخابى رئيساً لو فاجأه القدر المحتوم. وكان رجال الخديوى أثناء هذه الحركات يشجعون على فهمى كامل، ويحثونه على السعى فى أن ينتخب واعدينه بمساعدة الخديوى المادية والادبية، وهو لطمعه وحبه للمال كان يميل إلى وساوسهم ولكنه خاب»(١٠٠)

وعندما إنتخب فريد بالاجماع وفشلت كل محاولات إقصائه، حاول الخديوى إحتواءه، أو بالدقة شراءه. ويتحدث فريد فى مذكراته قائلاً «يوم إنتخابى طلبنى الخديوى بالتليفون فتوجهت إلى سراى عابدين بعد الظهر فقابلنى على الفور وهنأنى بكل لطف مؤملاً الخير الكثير من وجودى في مركز الرياسة. ومن عبارته لى هذه الجملة أو معناها «إن وجود مثالك على رأس الحركة الوطنية مفيد جداً، لانك لست محتاجاً ولا طالباً للمال ولانك من عائلة خدمت البلاد ولا يمكن للانجليز ان يقولوا عنك طالب شهرة، أو مال، أو وظيفة » الخ من هذه العبارات اللطيفة ثم سألنى عن حالة الجرايد فأخبرته بانها ستسير بإذن الله. ثم عرض على إستعداده للمساعدة المالية فرفضت حتى لا أكون أسيره وطوع أمره وإنصرفت. و رأى الرجل عقب ذلك بأنى لست ممن يطيعون أوامره إطاعة عمياء ،فأخذ يدس الدسائس لاسقاطى من جهة، ويظهر لى التودد من جهة أخرى. (١٠١)

وهكذا فشلت محاولات إبعاد فريد وفشلت محاولات شرائه. ووقف فريد شامخاً يرثى مصطفى بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته فيقول « إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق الذى رسمه ومهده لنا، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وإمتلاك أبراجها وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانياً. إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليه روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت، وأن روحه إتحدت بروح واجب الاستمرار وواجب دعوة الاحياء إلى العمل »(١٠٢).

* * *

وقد حاول البعض أن يعقد مقارنة بين مصطفى كامل وبين فريد. يقول محمد على غريب «وهنا لابد أن نشير إلى الفوارق الواضحة بين الزعيمين، فالأول كان من عامة الشعب، والثاني كان من خاصته. وكان مصطفى كامل فى زعامته أقرب إلى الشعبية، وكان محمد فريد بعيداً عن الجماهير إلى حد ما، على أن الذى جمع بينهما هو الوطنية فكلاهما كان يحب مصر،وكلاهما كان يفتدى حريتها بروحه»(١٠٣)

---

١٠١ – محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٣٣ وراجع أيضاً مذكرات أحمد شفيق باشا – جـ ٢ – ص ١٤٥.
١٠٢ – أحمد رشاد – المرجع السابق – ص ٣٠٠.
١٠٣ – محمد على غريب – المرجع السابق – ص ١٠.
١٠٤ – أحمد رشاد – المرجع السابق – ص ٣٠٧.

ويورد احمد رشاد رأيين أحدهما للبارون «كراوى فو» يقول فيه أن مصطفى «لم يقع فى الافراط ولا فى العنف اللذين تجر الشهوة السياسية إليهما عادة. وظل محتفظاً طيلة كفاحه بصفاء وكرامة لم يستطيع خلفاؤه الاحتفاظ بهما دائماً بعد وفاته» والرأى الآخر للدكتور «ماكس مايرهف» «إن الحزب الوطنى لم يجد رئيساً فى كفاءة مصطفى كامل »[١٠٤]

ويقول المؤرخ ڤاتيكيوتس «إن فريد لم يكن يمتلك الحماس ولا الجاذبية الشخصية التى كان يتمتع بهما سلفه، ولأن فريد قضى معظم الوقت منفياً خارج البلاد فإنه لم يكن قادراً على أن يمارس قيادة فعلية على مؤسسات الحزب»[١٠٥]

وبرغم أنه لا يمكن المقارنة بشكل موضوعى بين قامتين شامختين، اللهم إلا إذا لجأنا للتفاصيل التى تكون المقارنة بينها غير مجدية وغير علمية.

وبرغم أننا أوردنا هذه المقارنات لمجرد إستكمال البعد الاكاديمى للبحث. إلا أننا نقرر أنها مقارنات ظالمة. وشكلية فى أغلبها. فالحديث عن شعبية زعيم دون آخر هو كلام يستند إلى ظواهر سطحية صرفة قد يغرى به الانتماء الطبقى والأسرى، لكن الاستقصاء التاريخى يؤكد العكس. ففريد كان صاحب خطوة الالتقاء مع القوى الاشتراكية العالمية والعمل معها، وهو صاحب فكرة الاتجاه بالنشاط الحزبى نحو العمال والفلاحين .. الخ أما المقارنات الأخرى فهى لا تستقر على قدمين حتى يمكن مناقشتها.

واذا كان مصطفى هو صاحب الخطوة الاولى التى إستطاعت أن توقظ مصر وأن تبعث بالحماس الوطنى من أعماقها، فإن فريد كان الأداة المنظمة التى إستطاعت أن تسير بعملية البناء التنظيمى للحزب الوطنى نحو الاكتمال.

فمصطفى إستنفذ كل طاقته، وكل رحلته القصيرة فى الحياة فى الاعداد لبناء الحزب. وبعد أن القى خطابه الشهير فى حفل إعلان تأسيس الحزب، آوى إلى الفراش المرض تاركاً كل شئ فى يد فريد . الذى أثبت بتفانيه المخلص أنه خير وريث لهذه المهمة الشاقة.

كانت سفينة الحزب المليئة بالمتناقضات تهتز دوماً بفعل الأمواج العاتية لكن فريد أثبت دوماً انه الربان الماهر..والحقيقة ان الحزب الوطنى الذى كان يفترض أن يكون حزب «الافندية» قد عانى كثيراً من ظروف موضوعية تتعلق بما ورثه من ركام الاحباطات المترتبة على هزيمة العرابيين. وكذلك بالتركيب الاجتماعى الذى أتى بغالبية من أبناء كبار الملاك، بينما كانت جماهير «الافندية» محاصرة بقيود الوظيفة الحكومية، وبالخوف من الاحتلال ومن العواقب. ثم انها فى ذات الوقت تمثل فئات إجتماعية ضعيفة إقتصادياً، مفككة إجتماعياً،

---

105 - P.J.Vatikutis - The Modern History of Egypt - London (1969) p.218.

ومحبطة سياسياً، ومن هنا فإن سياسة معتدلة، ترفض فكرة الثورة من حيث المبدأ، كانت تخيم على الحزب وتفرض نفسها عليه وعلى الزعامة معاً. ولهذا لم يكن مصادفة أن أكد مصطفى كامل أكثر من مرة رفضة لفكرة الثورة، وكرر فريد نفس الشئ. وقد حرص مصطفى منذ الايام الاولى لحركته أن ينفى عنها شبهه أى نزوع نحو الثورة. فهو يؤكد فى نوفمبر ١٨٩٦ فى حديث له مع مراسل نيويورك هيرالد «إن الحزب الوطنى في مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها، فرغائبه هى رغائبها، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث أى إضطراب، أو أى أمر من شأنه تكدير الامن العام. ولهذا قمنا نلفت أنظار أوربا بالقلم واللسان، ولسنا بغير القلم واللسان نريد أن نخاطب أوربا ونستفزها للنظر فى مصلحة بلادنا».

وعندما نشرت «الليبرتيه» الفرنسية مقالاً يتهمة بالتحريض على الثورة، حرص مصطفى كامل على أن يوجه لرئيس التحرير خطاباً يقول فيه «وإنى ارجو أن تسمح لى بأن أصرح جهاراً بأننا لم نفكر قط فى الطرق الثورية للوصول إلى تحرير وطننا العزيز»[١٠٦]

ومرة ثالثة يؤكد مصطفى على صفحات جريدة نمساوية «ولما كانت الامة المصرية متألمة ولها حقوق الخلاص من النير الانجليزى فنرى للوصول إلى غرضها سبيلين: سبيل الثورة والسبيل السلمى. فأما سبيل الثورة، فنحن لا نريده لاننا قبل كل شئ قوم مشهورون بالدعه وحب السكينه ونبغض المذابح والجرائم، ومن جهة أخرى فإن لأوربا عندنا مصالح تضر بها الثوره»[١٠٧]

والكلام ليس موجهاً لأوربا وحدها، بل لشعب مصر أيضاً.فمصطفى يعلم المصريين «ان الغيره التى تستعمل فى غير موضعها تكون دواماً أضر من البلاده والخمول فلذا أناديكم مناداة محب لبلاده أن تنفوا باعتدالكم وسكونكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب. ومثل مصر مثل مريض قارب الشفاء ينصح له الطبيب بزيادة التحفظ، وعدم التعرض للهواء، لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الاول فلنحترس جميعاً معشر المصريين من التعرض إلى ما من ورائه تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم».[١٠٨]

وهو عندما يناشد المصريين العمل ضد الاحتلال يحرص على أن يؤكد «لست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن إعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد، كلا ثم كلا. إن أقل الناس إدراكاً لمصلحة مصر يعلم علم اليقين أنها منافيه لكل ثورة ولكل هيجان»[١٠٩]

---

١٠٦ - على فهمى كامل - المرجع السابق - ص٣٠٠.
١٠٧ المرجع السابق - ص٣٣١.
١٠٨ - المرجع السابق - ص٢٨٧ وأيضاً أحمد رشاد - المرجع السابق ص٨٨
١٠٩ - أحمد رشاد - المرجع السابق ص٥ - ١١/
١١٠ - أحمد رشاد - المرجع السابق ص١٨٥.
١١١ - ليتندار اجيبسيان - ٣ - ٣ - ١٩٠٧.

وفى ٧ يونيو ١٩٠٤ ألقى مصطفى كامل خطبة فى مسرح زيزينيا بالاسكندرية قال فيها «ليس غرض المواطنين أن يسيلوا الدماء غزيرة فى ثورة تعم البلاد، ولكنهم يهدفون إلى إرشاد الشعب و إلى حفظ كرامته»(١١٠)

وفى إفتتاحية العدد الأول من «ليتندار إجيبسيان» كتب مصطفى كامل تحت عنوان «من أجل مصر» «إننا بفضل نور العلم والمعرفة والحق والطرق الشرعية سنحقق أمانينا القومية، لسنا ثوريين ولا مبغضين للاوربيين. فليس للبغضاء مكان فى قلوبنا . إنما نزدرى فقط الخونة»(١١١)

وربما كان فريد مختلفاً قليلاً عن مصطفى . لكنه ظل طوال الفترة الاولى من زعامته حريصاً على أن ينفى عن نفسه وعن حزبه «تهمة» العمل الثورى.

وهكذا كان الحزب الوطنى فى مأزق حقيقى.

– فهو ضد الثورة.

–وهو يرفع شعار «لا مفاوضة الا بعد الجلاء».

كيف إذن يتحقق الجلاء.؟

تلك هى المشكلة المعقدة التى تعثرت أمامها استراتيجية العمل الوطني للحزب، والتى أدت به إلى التأرجح بين القوى الخارجية محاولاً أن يتخذ منها سنداً أو عوناً.

ولعله من المثير للدهشة أن فريد قد سار حتى مع تغير الظروف، ومع مرارة الدرس، على ذات طريق التحالفات الذى سار فيه مصطفى. وكأن السير فى الطريق الملئ بالاشواك محتوم على «الافندية»، وحصاده المرير محتوم أيضاً.

فقد إتخذ فريد ذات الموقف الذى إتخذه مصطفى كامل من العثمانيين، ففى كتابة «تاريخ الدولة العلية» يقول فى المقدمة «وقد قصدت بهذه الخدمة أن أقوم بغرض يجب على كل انسان أداؤه لعرش الخلافة العظمى وملجأ الاسلام فى هذا الزمان مولانا أميرالمؤمنين السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى» (١١٢)

وعندما يصل الخديوى إلى الآستانة يبتهج فريد فى مذكراته «وردت الأخبار بما حصل لخديوينا بالأستانة من الاحتفالات الدالة على شدة الارتباط بين التابع والمتبوع مما لا يروق فى أعين الانكليز»(١١٣) ويكون للتوجه نحو الخلافة أثره على علاقة الحزب بالاقباط. لكن فريد كان واعيا بذلك، وبخطورته. ولقد تطل من مذكراته التى كتبها فى سنواته الاولى وقبل إنغماسه فى العمل السياسى وإشتغاله بالقضية الوطنية بعض فقرات ذات صبغة

---

١١٢ – محمد بك فريد المحامى – تاريخ الدولة العلية العثمانية – المرجع السابق – ص٧.
١١٣ – مذكرات محمد فريد – المرجع السابق – ص٢٠٨
١١٤ – محمد صبيح – المرجع السابق – ص٢٥٧.

طائفية، لكنه كسياسى وكزعيم وطنى قد إتخذ موقفاً صحيحاً تماماً. فقد قاوم «الطائفية» وشن عليها حرباً عنيفة.

وعندما عرض عليه عزيز المصرى فكرة إقامة «خلافة عربية على أساس إسلامى» وتأسيس «جمعية شبان العرب» يرفض فريد بشدة مقترحات عزيز المصرى « بعد أن بيناً له ضرر الانقسام بين عنصرى الامة»(١١٤)

كذلك كان فريد هو صاحب الموقف الشجاع الذى تصدى به لمقولات الشيخ عبد العزيز جاويش عن ضرورة التبعية لدولة الخلافة. ولم يكن الشيخ جاويش خصماً سهلاً. وقد تولى رئاسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل. وإقتحم ميدان الصحافة شاهراً سيفاً مسلولاً ذا صبغة إسلامية واضحة. فهو يعلن فى أول مقال له « بعونك اللهم قد إستدبرت حياة زادها الجبن، وخور العزيمة، ومطيتها الدهان والتلبيس، وفى أسواقها تشترى نفسيات النفوس بزيوف الفلوس،وبعونك اللهم أستقبل خاتمة حياتى الجديدة، حياة الصراحة فى القول، حياة الجهر بالرأى وحياة الارشاد العام.

حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة. فإما إلى الصدر واما إلى القبر»(١١٥)

والشيخ جاويش لا يخفى نفسه فهو إسلامي النزعة، وشعاره «لا وطنية فى الاسلام». ومن ثم فهو ضد شعار «مصر للمصريين» وضد الاستقلال التام لمصر. ويؤكد أن طريق مصر الوحيد الصحيح هو«تعزيز وحدة العالم الاسلامي ممثلة فى الدولة العثمانية، والعمل على بقاء هذه الوحدة ومقاومة تمزيقها إيماناً منه بأن فى تمزيقها ضياعاً للوطن كله وتمكيناً للنفوذ الاجنبى من إلتهامه»(١١٦)

وجاويش عنيف فى موقفه الاسلامي ولا يقبل حوله نقاشاً، فعندما ينتقد احمد لطفى السيد دعوة للتطوع لمساندة المسلمين فى طرابلس الغرب، يرد عليه جاويش، ونورد فقرة من هذا الرد ليس فقط لنعرف أفكار جاويش، وانما لنعرف ايضاً أسلوبه وطريقته فى التعامل مع مخالفيه «لقد خسر الذين فتنتهم وساوس صدورهم، وأعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم، يحاولون أن يصرفوا الامة المصرية الاسلامية عن تخفيف ويلات إخوانهم».

ثم يوجه حديثه إلى لطفى السيد قائلاً «أى عدو نفسه. هل نقمت منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين، وأن نستفز الموحدين لاغاثة الموحدين. فماذا كنت تريد؟ مكانك، مكانك أيها الجبان، فمالك بميادين تميتك صورتها؟ وتصعقك ذكراها؟ وإن تشأ، فخير لك أن تحفر الارض بأظافرك وان تتردى فيها، ثم إرطم رأسك بالحجاره حتى

---

١١٥ – اللواء – ١٠ – ٢ – ١٩٠٨.

١١٦ – أنور الجندى – عبد العزيز جاويش – المرجع السابق ص٨٣.

١١٧ – العلم ٣١ – ١٠ – ١٩١١.

١١٨ – فتحي رضوان – مشهورون منسيون – كتاب اليوم – (أكتوبر ١٩٧٠). – ص٣٦.

يخرج من دماغك ذلك المخ الذى كان سبب شقائك وأصل بلائك»[117]

وعندما يصرح شاه ايران فى نوفمبر ١٩٠٨ بأن المتعلمين من أفراد شعبه لا يرغبون فى مجلس نيابى أو دستور، وأن علماء الاسلام قد أفتوا بأن المجلس مخالف للشرع. يرد عليه جاويش بطريقته الخاصة «لم يبلغ الشاه بغيته بما أنزل بأمته من الكوارث الساحقة الماحقة، فثاب إلى تلك التكأه التى طالما توكأ عليها ضعاف الايمان من أمراء المسلمين، فجمع حوله من رجال الدين عمائم كالتمائم، ولحى كذيول الخيل، وجبباً كأنها أوراق الكرنب، وسبحاً لا تقل حباتها عن بيض الحمام، وألسناً لا تريح كاتب السيئات»[118]

هذا هو الرجل الذى قرر فريد أن يخوض ضده معركة قاسية تسببت فى تقسيم وحدة الحزب. والذى خاصمه مخاصمة عنيفة ومستمرة رفضاً لمنهجه «الطائفى» وحفاظاً على «نقاء» منهج الحزب الوطنى من أية شوائب طائفية. إن معركة فريد ضد جايوش تكفى بذاتها كى تنفى عن وجدان وتصرفات فريد أية بصمات طائفية، بل لعلها تمحو هنات طائفية أوردها وهو لم يزل بعد شاباً بعيداً عن السياسة.

لقد أيقن فريد بعمق وبحماس أن الحفاظ على وحدة الامة المصرية هو أسمى الغايات.

كذلك فان فريد قد أدرك بمرور الوقت ان العثمانيين لا يريدون الخير لمصر وانما يريدون مصر ذاتها.

وحتى عندما أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر، وبدأت تركيا تعد لارسال حملة عسكرية لفتح مصر شعر فريد بمناورات العثمانيين. وسجل فى مذكراته يوم ١٤ ديسمبر ١٩١٤.

«هذا دليل جديد يضاف إلى غيره مما سبق ذكره، على أن القوم هنا (العثمانيين) يداعبون الحزب الوطني ليساعدهم على فتح مصر وبعدها ينفذون إرادتهم الاستبدادية فى بلادنا» ويسجل فى اليوم التالى: «أخذت أفكر فى جميع هذه الامور فكاد يتأكد عندى عدم إخلاص القوم (العثمانيين) معنا »[119] بل إنه يقول «كل هذه الاعمال تنفر المصريين من الاتراك وتجعلنا نخشى أن يكون نصيبنا الشنق لو دخل جمال باشا مصر»[120]

وفى يناير ١٩١٦ وقبل ان تتضح كفة الغالب وكفة المغلوب في الحرب العالمية الاولى، حرص فريد على ان يحدد مركز مصر من كل الاطراف المتحاربة. فتحدث إلى الهر زمرمان وكيل الخارجية الألمانية قائلاً «انه لا يجوز للترك أن يتدخلوا فى إدارة مصر، لجهلهم البلاد وأهلها ، بل لجهلهم الادارة ايضاً، كما هو مشاهد فى سوريا وغيرها، ولانقبل ان نكون تحت إدارتهم بحال من الاحوال، لأننا أرقى منهم كثيراً ، وبلادنا أكثر إنتظاماً من قبل دخول الانجليز. وبالاختصار فإن الاتراك يريدون أن يأكلوا مصر، ولكننا لا نقبل أن تؤكل بسهولة»

وعندما هاجر فريد، وحاصره الخصوم، وإشتعلت الحرب العالمية الأولى ووقفت تركيا مع ألمانيا فى جانب،

---

١١٩ – محمد صبيح – المرجع السابق – ص٢٨٩

١٢٠ – المرجع السابق – ص٣١٩.

١٢١ – محمد صبيح – المرجع السابق ص١٢٣.

وانجلترا وفرنسا فى جانب آخر. يتعاون فريد بقدر محدود مع الألمان، مؤملاً فى أن يحصل منهم على عون ما ضد الانجليز. ويكتب فريد فى مذكراته فى ٢ ديسمبر ١٩١٥ «وصل مساء الثلاثاء إلى جنيف ماهر بك صدقى آتياً من برلين من قبل الشيخ جاويش ومنصور رفعت طالباً منا السفر إلى برلين للاتفاق على مشروع تأسيس لجنة مصرية هناك تمثل مصر خصوصاً عند الكلام فى الصلح. وأن أنور باشا موافق على المشروع ومستعد لدفع ما يلزمه من النقود . وأن المانيا موافقة أيضاً. فوافقنا على الرأى مبدئياً ووعدنا بالسفر»[١٢١]

وسنرى فيما بعد أن تعاوناً ما قد قام بين فريد والالمان إلى درجة بعثت الامل فى نفس فريد بامكانية ان تمده المانيا بالسلاح لاشعال ثورة فى مصر.

وتتعمق العلاقة إلى درجة تخيف الانجليز والفرنسيين، فيتصل به الفرنسيون ،يروى فريد الواقعة فى مذكراته عن يوم ١٦ فبراير ١٩١٥ «حضر إلى جنيف المسيو بوسنر أحد اعضاء مجلس النواب الفرنسى ووكيل لجنة الامور الخارجية والاستعمارية بدعوى زيارة روشبرون [مدام عزيزه روشبرون] ولكنه طلب مقابلتى وأخذ يحدثنى فى المسائل الحاضرة ويلومنى بلطف على إتفاقنا مع الالمان ضد إنجلترا وفرنسا. وأننا لو كنا بقينا على الحياد كنا نلنا كل ما نطلب من إنجلترا. وأسهب فى هذا الموضوع فأفهمته بأننا سرنا مع الاتراك ليساعدونا على الخلاص من الاحتلال الانجليزى، وسرنا مع المانيا لأنها حليفة الدولة العثمانية. وكل ذلك لأننا نرى الخلاص في نجاح الفريق الالمانى ونستبعد نجاح الفريق الآخر. واننا لا نخشى شيئاً زيادة عما خسرناه للآن هو الاستقلال فيما لو هزمت الدولة العلية وحلفاؤها بما أن إنجلترا قد وضعت حمايتها على بلادنا بموافقة محالفيها».

ثم قال وهل تتفقون مع انجلترا إن وعدتكم بالاستقلال مثل كندا فأجبته «اننا لا نثق بوعود انجلترا ولا بضمانتكم».[١٢٢]

كذلك يتعين علينا أن نشير إلى أن فريد قد غير من خطته، وخطة الحزب أكثر من مره تماشياً مع تطور الاحداث.

فالحزب تحت زعامته قد غير من خطة «العمل السلمى» البحت وإبتدأ سياسة إستخدام العنف الفردى المسلح ضد الاحتلال والخونة.وعندما إستنفذ فريد كل محاولات اللعب على الحبال الاجنبية، عندما فقد الثقة فى فرنسا ثم فى تركيا ثم فى المانيا ، لم يجد بداً من التفكير فى الثورة.

وكان ذلك بعد إعلان الحماية البريطانية على مصر.

وفى ٤ مايو ١٩١٤ يكتب فريد فى مذكراته الخطية ان إثنين من شباب الحزب الوطنى سألاه «وماذا سنفعل

---

١٢٢ - المرجع السابق - ص٣٠٠.

١٢٣ - فتحى رضوان - المرجع السابق - ص٢٧٨.

لو إنتصرت بريطانيا فى الحرب ؟ فأجاب «نجتهد حينذاك فى تجهيز الثورة فى مصر».

والحقيقة ان فريد كان قد حاول الحصول على بعض الاسلحة من الالمان فهو يقول فى مذكراته عن يوم ٣ مايو ١٩١٤ «قابلنا مسيو زميت سكرتير عام وزارة الخارجية الالمانية وتكلمنا بخصوص إرسال أسلحة لمصر»[١٢٣]

وقد حاول فريد أن يتخذ خطوات عملية في الاعداد للثورة المسلحة فأرسل أحد خلصائه (عبد العزيز عمران) ليبحث هذه الامكانية .ويكتب فريد عن هذه الرحلة فى مذكراته قائلاً «وصل عبد العزيز عمران وملخص أخباره أن الحالة الروحية فى مصر جيده جداً، وأن إخواننا مشتغلون بتنظيم أعمالهم إستعداداً للثورة عند سنوح الفرصة، ولكنهم ينتظرون منا أن نرسل لهم السلاح والذخائر ، وهم يجهزون اللازم لادخالها سراً، وحفظها فى أماكن آمنة لحين توزيعها. وقد إتفق هو مع الاخوان هناك على كيفية التخاطب بجوابات مفتوحة، ولكن بعبارات متفق عليها . وسيسافر قريباً إلى« برلين للسعى فى إرسال الأسلحة والذخائر»[١٢٤]

لكن لا الألمان قدموا سلاحاً، ولا الحزب كان قادراً على الثورة. وهكذا فان اللجوء إلى ترتيب تحركات مسلحة غير مدروسة ولا تستند إلى قاعدة تنظيمية حقيقية، يكون نوعاً من فقدان الصبر وفقدان الحيلة، وليس تمسكاً بمنهج صحيح.

فعندما إرتفعت موجه العمل الوطنى وكان الحزب ملئ السمع والبصركانت الهجمات تكال لفكرة الثورة. وكان هذا غريباً، لكن الأغرب هو أن تكون «الثورة» سبيل من ضاقت به السبل، وحيله من لم يجد مخرجاً آخر. و الأغرب أن نحذر الجماهير من الثورة عندما تكون مستعدة لها، ثم نستجديها منها عندما تكون عاجزة وغير قادرة على أية حركة.

* * *

وربما كان أحد الاسباب التى وقفت بالحزب الوطنى ضد الثورة هو إحساسه المستمر بوطأة الهزيمة التى حاقت بالثورة العرابية. ولقد ترسخ فى أذهان رجال الحزب الوطنى أن نكبة الاحتلال هى مجرد نتيجة «لجريمة» أخرى هى «الثورة العرابية»!

وكم كان غريباً أن يكون صعود الحركة الوطنية فى نهايات القرن التاسع عشر على يد مصطفى كامل فى تضاد تام مع إنتفاضة الشعب فى ظلال الثورة الوطنية الاولى، ثورة عرابى.

وكم كان غريباً أن يلتقى مصطفى بعبد الله النديم أحد أبطال الثورة العرابية، وان يتتلمذ على يديه، وأن يتلقن منه الطموح للنضال من أجل مصر، ثم إذا به ينقلب فى أول خطاه الوطنية على الثورة العرابية ويدين

---

١٢٤ - المرجع السابق - ص٣٠٤.

قادتها ومنهاجها.

ربما كـان السـبب أن قـادة الحـزب الوطنى بدأوا خطواتهم الاولى فى رحـاب الخـديوى، وربما لانهم إستشعروا أن دخول الانجليز إلى مصر كان بسبب العرابيين. وربما كان بسبب العلاقات الحميمة بين الحزب الوطنى – فى أيامه الاولى أيضاً – بالعثمانيين، وكان العثمانيون يحقدون على محاولة الثوار العرابيين الاستقلال بمصر عن الخلافة.

وربما كانت هذه الاسباب مجتمعة هى التى شكلت ذلك الموقف الغريب والغير مفهوم الذى إتخذه الحزب الوطنى من الثورة العرابية.

فمصطفى كامل لا يكتفى بإدانه عرابى، بل هو وياللغرابة يدافع عن الخديوى توفيق، ويبرر خيانته فيقول فى كتابه «المسألة الشرقية» إن توفيق «كان يود لا محالة إستقامة الاحوال بغير تداخل أجنبى، ولكنه أُفهم بعد ضرب الاسكندرية ان العرابيين يريدون خلعه أو الفتك به، فلما لم يجد نصيراً من قومه ينصره ضد العرابيين ألقى بنفسه بين أيدى الانجليز محافظة على ملكة وعلى حياته»[١٢٥]

وفى الوقت الذى يهاجم مصطفى كامل الثورة العرابية فانه لا يخفى انه يهاجمها لحساب «الاريكة الخديوية» . بل هو يدعو المصريين إلى «أن يُدافعوا عن أريكة الخديو، ولو ماتوا عن آخرهم. ففى سلامة الخديوية الجليلة سلامة الوطن العزيز يم وكل سوء يمس عزيز مصر يمس مصر نفسها. ليس الحزب الوطنى فى مصر ذا أميال مناقضة لأميال العزيز. بل أن الرئيس الحقيقى لهذا الحزب – أى للإمة كلها – هو سمو الخديو عباس حلمى باشا الثانى ، الذى أيقظ العواطف الوطنية فى بلاد مصر»[١٢٦]

وعندما سُمح لعرابى بالعودة إلى مصر من منفاه البعيد. يفاجأ الجميع بمصطفى كامل وهو يدَّعى أن الانجليز «قد أتوا بعرابى ليهددوا به الخديوى»[١٢٧]

يعود عرابى، كهلاً، يوشك أن يفقد بصره، فقيراً، محتاجاً إلى أى نصير فيستقبله مصطفى كامل بمقال في اللواء بعنوان «عرابى» يقول فيه «ما عار الاحتلال،وعار الجهالة والتأخر، وعار الفقر بشئ يذكر إذا قورن بالعار الذى يحمله عرابى، ويقرأه الناس على وجهه أينما سار وأينما حل. وأى عار أكبر من عار رجل تهور جباناً وإندفع جاهلاً، ساق أمته إلى مهواة الموت الأدبى، والاستعباد الثقيل، ثم فر هارباً من ميادين القتال، فإحمل

---

١٢٥ – مصطفى كامل – المسألة الشرقية – مطبعة الآداب بمصر (١٨٩٨) – ص٢٥٧.

١٢٦ – المرجع السابق – ص٥٩.

١٢٧ – اللواء – ٣٠ / ٥/ ١٩٠٧.

١٢٨ – اللواء – ٣٨ / ١٩٠٧/٩.

١٢٩ – على فهمى كامل – المرجع السابق – ص١٨.

١٣٠ – لمزيد من التفاصيل راجع: د رفعت السعيد – الأسس الاجتماعى للثورة العرابية – المرجع السابق.

عارك أيها القادم المشئوم، فهو نيشانك، وسر به فى شوارع المدائن ومسالك القرى ليقرأ فيه الناشئون عبرة العبر، ويردد أمثال الجهالة والغباوة والخيانة»[١٢٨]

وفريد هو أيضاً يشارك فى الحملة ضد الثورة العرابية فهو يتحدث فى مقدمته لكتاب على فهمى كامل عن حزن المصريين «لما جرته الثورة العرابية التى كانت بلاءً محضاً، وشراً صرفاً على البلاد»[١٢٩]

وأحد شباب الحزب الوطني يقابل عرابى فى الطريق فيبصق فى وجهه، ويتهمه بالخيانة ويحبس عرابى نفسه فى بيته حتى يموت[١٣٠]

لكن عرابى المقاتل الصلب لا يترك خصومه دون رد فيورد فى مذكراته فصلاً كاملاً بعنوان «الرد على الجرائد المأجورة» قال فيه «لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء رجوعنا إلى وطننا العزيز فأوعزوا إلى الجرائد المأجورة وفى مقدمتها جريدة اللواء فوجهت إلينا سهام جهلها وأماطت عنا لثام الوطنية وغمطت تأدية واجباتنا فى الدفاع عن الوطن ، وكأننا لم نقم لتحرير البلاد من ربقة الاستعباد ولم نخاطر بحياتنا وأملاكنا فى سبيل نيل الحرية والمساواة».

وثمة جزء من هذا الفصل بعنوان «عرابى والشعراء» وهو مجموعة من المعارضات الشعرية لقصائد شوقى – شاعر المعية الخديوية – التى نشرتها «اللواء» هجوماً على عرابى.

وإذ تنشر اللواء قصيدة شوقى التى جعل مطلعها.

صغار فى الذهاب وفى الاياب

أهذا كل شأنك يا عرابى

يعارضها الشاعر «الذى يرجح أنه عرابى نفسه) قائلاً:

نفاق فى الحضور وفى الغياب

وهذا شأن أولاد الكلاب

عفت أفكار مثلك ياجهول

ويعفو الله عن وطن مصاب

فعش فى مصر ذا جهل ولؤم

ذليل النفس معتل الشباب

بل إن عرابى يلجأ إلى نفس الاسلوب غير الموضوعى فيذكر مصطفى بأن أباه كان مجرد ضابط في خدمة القصر وقت أن كان هو وزيراً للحربية.

---

١٣١ – آفاق عربية – السنة الثانية – العدد ٧ آذار ١٩٧٧ – صلاح عيسى – مقال: الصراع بين مصطفى كامل وأحمد عرابى.

فمن ذا أورث الوغد اللواء

ففاخرنا وأتبعنا العداء

وكان أبوه يلبسنا الحذاء

ويسجد تحت رايتنا رغاما[١٣١]

* * *

وكان الموقفان مترابطان ومتفقان مع بعضهما فى خط منسق فالذى يرفض الثورة، ويعتبرها «جريمة» و«ضرراً» بالقضية الوطنية لا بد له وان يدين الثورة التى قامت بالفعل.

والذى يرفض عرابى ويدينه، لابد له ان يقبل لخديوى توفيق.

والذى يتحالف مع السلطان العثمانى علي أساس قبول مبدأ إنتماء مصر وتبعيتها للخلافه العثمانية لابد له إلا يتسامح تجاه ثورة أرادت أن تنتزع مصر من براثن الخلافة.

ولكن وتحت وطأه الاحداث، تتغير مواقف كثيرة.فالحزب ينسحب من معسكر الخديوى، وينتقده ثم يهاجمه ويعلن ضده العداء السافر وهو يستريب فى العثمانيين ثم يهاجمهم أيضاً.

موقف واحد ظل ثابتاً عليه هو الموقف من الثورة العربية.

أليس هذا غريباً؟

* * *

ويكون منطقياً تماماً بالنسبة لحزب يرفض الثورة كفكرة وكمنطلق، ويرفض ايضاً«المفاوضة مع الاحتلال إلا بعد الجلاء. ولا يجد من الحركة الشعبية صعوداً مغرياً بالاعتماد عليها.

ان يبحث عن «وسائط» أخرى للحركة والفعل.

فيضع نفسه بين نيران ثلاث: الخديوى، العثمانيون، أوربا، محاولاً ان يكسب شيئاً من المناورة بها.

فماذا كانت النتيجة ؟ لاشئ.

* * *

لكننا وقبل ان نطوى هذه الصفحة نريد أن نبرئ مصطفى وفريد معاً من هذه المسئولية فما حيلة الزعيم يقود حزباً تهيمن عليه قيادة معتدلة، وجماهير لم تزل بعد، غير مستعدة للتحرك الجدى. ولقد حاول كل منهما أن يحل هذه المعادلة الصعبة. حاول أن يتجه بالحزب نحو الفعل الثورى فاذا بزملائه فى القيادة يتساقطون هلعاًوخوفاً وإذا بالقاعدة الحزبية ليست فى مستوى هذا «الفعل الثورى» ولا فى مستوى التصدى لهلع القيادة، والطموح نحو قيادة بديلة وأساليب بديلة.

وبإختصار ، إنها مأساة طبقة وليست أخطاء زعامة.

* * *

وبعد وفاة مصطفى ، وبرغم كل العقبات إستطاع فريد ان يجعل من الحزب كياناً مهماً فى الحياة السياسية المصرية.

وتصل الموجة إلى أقصى إرتفاعها عام ١٩٠٩ - ١٩١٠ عندما يصبح الحزب الوطني الحقيقة الوحيدة في ميدان القوى السياسيه المصرية حقاً، والوطنية حقاً. وبدأت الجماهير المصرية إرهاصات اليقظة وأخذت تتحرك فى إطار هذه الحقيقة وتحت رايتها.

ويبدى السير الدن غورست معتمد بريطانيا فى مصر غضبة وخوفه من ذلك فى تقريره السنوى «عن المالية والادارة، والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩١٠»

فيقول «تناول تقريرى الماضى زمناً حرجاً فى عهد تقدم مصر السياسى، وصدر والناس لايزالون يتذكرون إقشعرارهم من قتل المرحوم رئيس النظار السابق بيد النذالة، ومن المظاهرات العنيفة التى جرت ضد الانجليز على سبيل الحماقة والجهالة، حتى بلغت شدتها برفض الجمعية العمومية لمشروع قنال السويس بلا مناقشة حقيقية فحال ذلك دون نظر الانجليز والمصريين إلى الحالة بسكون وروية»[١٣٢]

ويمضى غورست فى تقريره مهاجماً حتى «مجلس شوري القوانين» والجمعية العمومية قائلا انهما «أظهرا فى سنة ١٩٠٩ وفى النصف الاول من سنة ١٩١٠ ميلاً متزايداً إلى أن يكونا آلتين بأيدى الحزب الوطنى يستعملهما فى تحريضه وتهييجه على الاحتلال البريطانى.فإن طلبهما المتكرر لحكومة دستورية تامة، وحملاتهما المتكررة على الحكومة فيما يتعلق بالميزانية والسودان، والعداوة والريبة اللتين أظهرهما فى مشروع قنال السويس وتجاوزا فيهما حد الاعتدال، كانت كلها فى جوهرها مظاهرات ضد الانجليز طوعاً لتحريض الحزب الوطنى».

وهو يحدد فى تقريره هذا فهم دار المعتمد البريطانى للاستراتيجية التى حددها محمد فريد لمسيرة الحزب والحركة الوطنية. فيقول «إن الفكرة الكبرى عند هذا الحزب هى أن يبطل الاحتلال البريطانى بجعل قضائه لمهمته امراً مستحيلاً. والوسائط العظمى التى يستعملها لبلوغ غايته هذه هى تقويض أركان نفوذ الانجليز بدوام الطعن عليهم، وشتم كل المصريين الذين لا يعارضون المراقبة البريطانية، والتحريض على الاحتلال بانتظام

---

١٣٢ - ألدن غورست (السير) - تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩١٠. مرفوع من السر ألدن غورست إلى السير ادوارد المقدمة صفحة د.

١٣٣ - المرجع السابق صفحة و.

١٣٤ كتشنر (الفيكونت) - تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩١٢ مرفوع من الفيكونت كتشنر إلى السير ادوارد جراى - ترجم فى إدارة المقطم وطبع سنة ١٩١٣ - ص٣.

وكلما سنحت الفرصة. والجمعية ومجلس شورى القوانين جعلا نفسيهما مساعدين على قضاء تلك الاوطار»(١٣٣)

وعندما يأتى كتشنر فانه لا يملك هو أيضاً سوى الشكوي. من نفوذ الحزب الوطنى. وينقل فى تقريره رأى غرفة التجارة البريطانية فى مصر وما أبدته من قلق بسبب نشاط الحزب «إن لجنة غرفة التجارة البريطانية بمصر تنظر بهم وإنشغال بال إلى حاسات القلق وعدم الأمن التجارى فى مصر، لأن ذلك يؤثر فى مصالح البلاد التجارية كثيراً. والغرفة ترى أن هذه الحاله ناتجة بالأكثر عن أفعال المحرضين الوطنيين، فتلح مع مراعاة واجب الاحترام على حكومة جلالة الملك فى إتخاذ التدابير المبطلة لهذا التحريض ورد السكينة اللازمة لرواج التجارة ولخير مصر عموماً»(١٣٤)

إن كتشنر يرفع صوت المستثمرين البريطانيين فى مصر. مطالباً باسمهم بالتشدد لضرب الحزب الوطنى.

ثم هو يحذر حكومته من أنه إذا كانت خططها لمحاصرة الوطنيين الراديكاليين تحت زعامة محمد فريد بواسطة العناصر المعتدلة والمتهادنة قد فشلت، فإن خطة التفرقة بين المصريين المسلمين والمصريين الاقباط، فشلت هى أيضاً بفضل إستنارة محمد فريد وإيمانه العميق بوحدة المصير والنضال للمصريين جميعاً. وينعى كتشنر إلى حكومته سياسة التفرقة بين عنصرى الامة فيقول « ولنعد إلى تقصى أخبار الحوادث التى أدت إلى عقد مؤتمر قبطى فأقول: إن المحرضين من الاقباط غيروا فى أول هذه السنة خطتهم فى النزال والنضال فتظاهروا بأنهم أصبحوا على وئام وإتفاق تام هم وخصومهم فى الدين، وأداروا رحى الحرب الصحافية على الوزارة المصرية الحالية وعلى الاحتلال بحجة أنهما هما المسؤولان عن الحيف الذى يزعمونه واقعاً عليهم في مركزهم»(١٣٥)

ويكون هذا التقرير التحريضى بداية لسياسة التشدد البريطانية والتى دارت فيها ماكينة العنف إلى أقصى مداه ضد محمد فريد وضد الحزب. وكان الانجليز والخديوى قد إستنفذوا من قبل محاولات التقسيم والتفرقة والتشرذم فى صفوف الحزب. فبإيعاز من الانجليز إنقسمت عن الحزب الوطنى مجموعة من الاقباط بزعامة أخنوخ فانوس فى عام ١٩٠٨ وأسست لنفسها «حزب مصر المستقلة»، وبإيعاز من الخديوى وفى عام ١٩٠٨ أيضا إنقسمت مجموعة أخرى بزعامة حسن حلمى بك وفرج الجرجاوى لتكون حزباً أسموه «حزب النبلاء»(١٣٦) من العناصر التى تدين بالولاء للخديوى. ولكن هذه الفقاعات ذهبت وبقى الحزب صامداً يزداد

---

١٣٥ – المرجع السابق ص٦.

١٣٦.لاندز – المرجع السابق – ص ١٤٧ – ١٤٩.

١٣٧ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص٢٦٢.

قوة وجماهيرية تحت زعامة فريد [١٣٧].

وتستمر الموجه الوطنية فى الصعود وتتعزز معها مواقع الحزب الوطنى وصلاته بالجماهير وتتعدد أسلحته النضالية ، النقابات العمالية ، الجمعيات التعاونية الزراعية ، الجمعيات التعاونية الاستهلاكية، المسيرات والمظاهرات الشعبية، العرائض التى تضم عشرات الآلاف من التوقعات للمطالبة بالدستور، الصحافة الوطنية التى تحرض المشاعر الوطنية وتلهبها، وفى ٢٠يناير ١٩١١يتوج كل ذلك باجتماع الجمعية العمومية للحزب الوطنى بدار جريدة العلم وكان المجتمعون نحو ألفى عضو، ووقف فريد فى الجمع المتقد حماساً ليلقى خطاباً جاء فيه «مما يجعل لهذا الاجتماع شأناً خاصاً أنه ختام المدة التى إنتخبنى الاخوان فيها خادماً لهذه الحركة، كما إنتخبت اللجنة الادارية لتكون المديرة لها والمسددة لخطواتها فى طريق الخدمة الوطنية بقدر ما يصل إليها إجتهادها، ولقد أتممنا مهمتنا واليوم نسلم إلى حضراتكم إدارة الحزب الوطنى لتنتخبوا من ترون فيه الكفاءة والاستعداد للاستمرار فى خدمة البلاد. وكونوا واثقين أيها الاخوان أننا نكون دائماً إلى آخر نسمة من حياتنا وآخر قطرة من دمنا فى أول صفوف المجاهدين المدافعين عن حقوق الوطن المقدس»

وكالعادة.. يقف الخصم اللدود علي فهمى كامل بك، بعد أن يستنفذ كل مناورته ليلقى كلمة حماسية يدعو فيها الجمعية العمومية إلى إعادة انتخاب محمد فريد رئيساً للحزب.«وتقرر الجمعية العمومية بالاجماع إنتخاب محمد فريد رئيساً للحزب الوطنى مدى الحياة»[١٣٨]

* * *

لكن الاعاصير كانت تتجمع فى سماء مصر.

الحركة الوطنية المصرية تعانى من تحركها أو تمردها منفردة فى كل المنطقة، بحيث بدا تحركها هذا نغمة نشاز فى حالة السكون التى ترقد فيها المنطقة ككل.

وأوربا الاستعمارية تتفق معاً، الوفاق الانجليزى الفرنسى يحبط كل مخططات القوى الوطنية للاستعانة بفرنسا ضد انجلترا.

ويستشعر بعض المواطنين اليأس، فإذ كانوا يتصورون أن بالامكان الاعتماد على «الشعب» إذ يتحرك في ثورة عارمة، يجدون أن التحرك الثورى لم يبدأ بعد. وتركيا، دولة الخلافة، وباب الاسلام العالى تتخاذل وتعجز عن مجابهة الانجليز بل هى فى بعض الحالات تتآمر معهم ضد الحركة الوطنية المصرية التى تخشى من صعودها ومطالبتها بمصر للمصريين، ويصل بها الامر إلى تسليم الشيخ جاويش للانجليز لمحاكمته.

---

١٣٨ – عبدالرحمن الرافعى – مذكراتى ١٨٨٩ – ١٩٥١ . دار الهلال (١٩٥٢) – ص١٨.

والطبقة التى تنبع منها قيادة الحركة الوطنية طبقة ضعيفة غير متماسكة، فهى« تترنح بين معاداة الاحتلال والخوف من حركة الجماهير الشعبية. وتترنح بين الاحتلال والخديوى، وبين الانجليز والعثمانيين وبين شعار مصر للمصريين وشعارات الانتماء الاسلامى للخلافة التركية و«لا وطنية فى الاسلام». ثم هناك السبب المحورى فى هذا كله و هو الضعف الاقتصادى للطبقة.والشعارات التى تنسجها الحركة الوطنية تحت زعامة فريد تتطلب تفانياً خاصاً وإخلاصاً غير محدود لقضية الوطن، وقليلون هم الذين يحتملون.

وكنموذج نجد شعاراً واحداً من شعارات عديدة يضع كثيرين من كوادر وأعضاء وأصدقاء الحزب فى حرج شديد، ففريد يرى أن التوظف بالحكومة خضوع لارادة المحتلين، ولا يقبله الا من يقبل أن يبيع نفسه للاحتلال . وهونفسه ترك وظيفة كانت تؤهله لو إستمر فيها لأرقى المناصب ولكنه ألقى بإستقالته فى كبرياء ومضى. فكم من الوطنين يمكن أن يفعل مثله؟ وكان الاحتلال يتابع ذلك كله، ويدركه بعمق، ويدرك دلالاته ونتائجه، ولعله أدرك ذلك مبكراً وإستعد له إستعداداً جيداً.

وفى خلال الصعود العظيم للحركة الوطنية فى عام ١٩١٠ كان السير الدن غورست يكتب لوزير الخارجية البريطانية فى تقريره عن الحالة العمومية . وبعد أن أفاض فى شكواه من تصاعد نشاط الحزب الوطنى – يكتب قائلاً «فالسبيل الذى يلزمنا سلوكه فى المستقبل القريب بسيط واضح وهو تفهيم المصريين أن حكومة جلالة الملك لا تدع أحداً يزاحمها حتى تستعجل فى منح الحكم الذاتى بأكثر مما تقتضيه مصالح مصر إحتمالاً فى رأيها. وما لم يتعلم المصريون هذا الدرس الابتدائى حق التعليم ، فلا فائدة من إقتراح امور أخرى لترقية إختصاص مجلس شورى القوانين. فإن إختبار السنوات القليلة الاخيرة قد أثبت لنا أنهم لم يدركوا هذه الحقيقه الأولية، وهى أن السياسة البريطانية لا يمكن أن تحيد عن سبيلها المستقيم طوعاً لتحريض المحرضين من جهة، أو لتعدى المعتدين من جهة أخرى.

وبعد أن يطالب «المعتمد» حكومته بالتشدد، يقترح عليها الاهتمام «بالمعتدلين» لضرب الوطنيين فيقول «ومما يجعلنا نتفاءل ان الحالة أصبحت الآن أصح مما كانت عليه فى السنوات القليلة المضطربة التى مرت بنا. فقد تغيرت خطة الفئة المعتدلة من الأهالى تغيراً حسناً بالنظر إلى سياستنا وإدارتنا. وكذلك أعمال مجلس شورى القوانين. مما يبعث على الأمل بأن يكون الجو قد صفا فيه، وروح التعقل قد تغلبت عليه»[١٣٩]

ويمضى عام واحد، وبعدها يزف المعتمد الجديد الشرس كتشنر البشرى لوزير خارجيته قائلاً «ويسرنى أن أقول انه قد زادت الاميال السياسية أخيراً سكوناً وأن معظم الاهالى أصبحوا على ما يظهر يهتمون بالنظر فى

---

١٣٩ – ألدن غورست (السير) – المرجع السابق – ص ح.

١٤٠ – كتشنر (الفيكونت) – المرجع السابق – ص٣.

الاصلاحات التى تُعمل لخير بلادهم أكثر مما يهتمون بالمناقشة فى مسائل سياسية عويصة لا تؤدى إلى نتيجة نافعة ». ويقول «إن ترقية أخلاق الشعب وإعلاء سجاياه يتوقف معظمهما علي نمو قوة ضبطه لنفسه وتسلطه على نزق طباعه حتى لا يطاوع أول دافع له من نفسه. فجهاد الاحزاب فى مناظرة بعضها البعض لا يفيد إكتساب صفة من هذه الصفات التى ينال بها التقدم»(١٤٠)

وفى عام ١٩١٣ تكون الامور قد إستقرت من جديد بالنسبة للاحتلال، ويجد كتشنر الفرصة لاجراء مقارنة لصالح سياسته «مر مجلس شورى القوانين بعدة أطوار، طور يبعث على الأسف، وفيه سعى المجلس للتعرض لأمور يقتضى نفس تركيبة بأنها خارجة عما يعينه، وأنه غير صالح لابداء الحكم فيها مما دل على أن ترك مصالح البلاد العظيمة الشأن فى أيدى رجال قليلى الاختبار تتسلط عليهم المؤثرات الخارجية ويدير زمامهم، ذوو المآرب السياسية يكون محفوفاً بالاخطار، وغير مأمون العواقب».

كان هذا عند صعود الحركة الوطنية . أما فى عام ١٩١٣فان كنتشر يرى «ان البلاد أدركت ما تؤدى اليه نصائح المتطرفين و من وخامة العاقبة فمالت إلى ضدها برد الفعل. وأعقب ذلك الطور الأخير، وهو طور الاعمال النافعة التى يذكر خبرها بالرضى والسرور. وأظن أن الاختبار الماضى أظهر للمصريين انه لا يرجى خير من السعى فى الارغام على العجلة بالتحريض وبالمعارضة . وأرجو أن يكونوا قد تعلموا من العبر الماضية وجوب إبعاد المتطرفين المشاغبين. وكذلك المؤثرات السياسية الخارجية»(١٤١)

* * *

وتكتمل دائرة المأساة بهجرة فريد، وما ترتب عليها من آثر سلبى حاسم فى مسيرة الحزب، ففى حالة الجذر، وإنحسار المد الثورى وتراجع الكثيرين بعيداً عن درب النضال، وإضطراب المتحمسين بين العمل السياسى المتعثر والذى يتطلب صبراً وإيماناً عميقاً بالشعب، وبين أعمال العنف ذات الطابع الارهابى، وتسلل عملاء الاحتلال إلى صفوف الحركة، البعض يجرها تعنتاً نحو التهادن والاعتدال، والبعض يستدرجها نحو العنف والتهور، ليتيح الفرصة للاحتلال كى يضرب بمزيد من العنف والارهاب . وبينما الخديوى ورجاله يدمرون وحدة الحزب ويحثون على التمرد على فريد باعتباره الرمز لاستقلالية الحزب وتشبثه بالمبادئ. فى هذا المناخ هاجر فريد «فتأثرت الحركة الوطنية من هجرته، وتوقف إلى حد كبير إنشاء النقابات والجمعيات التعاونية ومدارس الشعب وأصيبت حركة الانبعاث القومى الثورى التى كادت تشمل البلاد جميعاً إبتداء من عام ١٩١١ بالانكماش والضعف و حتى قيادة الحركة الوطنية الممثلة فى اللجنة الادارية للحزب الوطنى أصابها الانقسام ،

---

١٤١ – كتشنر (الفيكونت) – تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر ١٩١٣، مرفوع من الفيكونت كتشنر إلى السير ادوارد جراى – ص٩.

١٤٢ – صبرى أبو المجد – أمين الرافعى – كتاب الجمهورية – العدد ٢٣ – ديسمبر ١٩٧١ – ص٥٤.

١٤٣ – المصور ١٤/ ١١/١٩٦٩.

ولم تعد قادرة على الاجتماع لبحث أخطر الامور التى مرت بالبلاد»[١٤٢].

وهكذا تأتى هجرة فريد من مصر فى وقت بالغ الصعوبة. وبينما الأنواء تعصف بالسفينة من كل جانب، والمؤامرات تحاك ضدها، إذا بالربان يغادرها.

وتكون هجرة فريد بمثابة إنقطاع التيار الكهربى عن ماكينة العمل الوطنى. كانت عوامل موضوعية عديدة تتراكم،وتتجمع، وتترك آثارها السلبية، لكن شخصية فريد الآسره وإصراره الحاسم على إستمرار دفع حركة العمل الوطنى كانا يحفظان للعمل الوطنى قوة إندفاعه. ثم فجأة هاجر الزعيم. وحدث الشلل.

وتظهر أعراض الانهيار سريعاً. فى مارس ١٩١٢ هاجر فريد . وفى ٦ اغسطس ١٩١٢ يتلقى وهو فى مهجره رسالة من الدكتور إسماعيل صديق يقول له فيها «إن الأسف يخالجنى بأشد تأثيره كلما رأيت الضعف قد تغلب على تلك الهمم التى كانت عمادنا فى القيام بمأموريتنا وتنفيذ مبادئنا. رأيتم ضرورة إجتماع مجلس ادارة جمعية السلام ولم أر غير وجوب ذلك، وقد جاهدت فى الحصول عليه، فكانت النتيجة مضاعفة الأسف عندى، إذ لا يوجد من الاعضاء من يوافقنا فى الظروف الحاضرة».[١٤٣]

الزعيم بالخارج يستحث الهمم دون جدوى . يزأر دون صدى، واللجنة الادارية للحزب تطل منها نفس الرؤوس المعادية التى كانت تتراجع جبناً وخوفاً من التأثير الطاغى للزعامة.

ويروى صبرى ابو المجد الواقعة التالية «وبلغ الأمر باللجنة الادارية للحزب، أن أصبح بعض أفرادها يؤيد الاتفاق مع الخديوى والبعض يعارض هذا الاتفاق. إلى أن إجتمعت فى سبتمبر ١٩١٢ لبحث موضوع مقالات كان محمد فريد قد نشرها فى صحيفتى «لى سيكل» و « لاكسيون» الفرنسيتين تتضمن طعناً فى الخديو عباس حلمى الثانى، وتكشف إتفاقاً سرياً تم بينه وبين إنجلتر، تتولى بريطانيا بمقتضاه حماية مصر وفصلها عن الدولة العلية ،مقابل تنصيب الخديوى خليفة للمسلمين. وقد أبلغ على فهمي كامل بصفته وكيلاً للحزب الوطني محمد فريد بوصفه رئيساً للحزب بخطاب مؤرخ فى ١٣ سيتمبر ١٩١٢، يسأله فيه طبقا لقرار اللجنة «عما إذا كانت هذه المقالات بقلمه أم لا » ويخبره «بأن اللجنة قد حددت له ثلاثة اسابيع للدفاع فيها عن نفسه طبقا للقانون الأساسى للحزب ، وإلا فانها تعتبر عدم رده إمتناعاً عن الاجابة». وقد أحدث هذا القرار من اللجنة الادارية ثورة داخل اللجنة ذاتها، وداخل الحزب أيضاً . أما داخل اللجنة فقد رأى الموالون للخديوى نشر قرار إستنكار اللجنة للمقالات فى الصحف ، فلما لم ينشر إستقالوا ومن بينهم على المنزلاوى ومحمود فهمي سكرتير الحزب. وفى داخل اللجنة الادارية أيضاً هدد المالئون لمحمد فريد بالاستقالة إذا نشر أى شئ يتعلق باستنكار اللجنة لهذه المقالات موضوع التحقيق. وفى داخل الحزب رأت الغالبية أن مجرد إثارة هذا الموضوع، والحديث

---

١٤٤ – صبرى أبو المجد – المرجع السابق – ص٥٥.

عن التحقيق مع محمد فريد رئيس الحزب الذى إنتخبته الجمعية العمومية للحزب للرئاسة مدى الحياة يعد عملاً غير قانونى وغير أخلاقى فى الوقت نفسه»(١٤٤)

وكان رد فريد صفعة قاسية لخصومه. فقد أرسل إلى على فهمى كامل قائلاً «مراعاة لمصالح الحركة الوطنية أقدم هذه الاستقالة من رئاسة الحزب وعضوية اللجنة الادارية راجياً عرضها على الجمعية العمومية المختصة دون غيرها فى قبولها، مع التأكيد بأنى باق على مبادئ الحزب العشرة خادماً لها وللوطن المحبوب إلى آخر نسمة من حياتى التى وقفتها على خدمة الوطن وأهله» ولم يجرؤ على فهمى كامل على عرض الامر على الجمعية العمومية فهى مع فريد بإجمعها، وهى معه ضد كل خصومه ومناوئيه.

ولست أريد أن أطيل. فقط سأكتفى فى هذا الصدد بفقرة من رسالة لعلها تلخص كل شئ، وتكشف العمق الحقيقى للمأساة.

تلقى فريد وهويعانى من مأساة الهجرة رسالة من فاقوس مؤرخة فى ١٣ يونيه ١٩١٤ وموقعة من أحمد وفيق، والرسالة من إثنتى عشرة صفحة تصف للزعيم وصفاً تفصيلياً أحوال الحزب وما تردت إليه، والصراعات التى تموج فى داخله . تقول الرسالة «إننا عدد قليل جداً، وبكل أسف لا نعمل عملاً مطلقاً ، والحركة نائمة وتغط فى النوم، وإذا كنتم قد قلتم فى خطبتكم التى إرتجلتموها أن أبا الهول لم ينم الا بعين واحدة والثانية تنظر إلى الامم التى فتحت مصر، فربما يكون هذا القول صحيحاً بعد إفتتاح الجمعية التشريعية ، أما نومه من بعد سبتمبر ١٩١٢ إلى اكتوبر ١٩١٣ فكان عميقاً. وإذا سمحت لى أن أقول أن النوم إبتدأ بعد مفارقتكم لهذه البلاد التعسة، وأنى اقسم لك اني لوعلمت أن مصير حركتنا سيكون كذلك بعد هجرتكم لكنت أول من ألقى القبض عليك لتمضى السنة ثم تخرج بعدها، كما خرجت عقب الاشهر السته».

ولست أريد أن أضيف أ ى تعليق.

وتواكبت هجرة فريد مع إشتداد حدة العنف الذى مارسه الاحتلال ضد الحركة الوطنية وضد الحزب الوطني على الخصوص. ففى ٣١ أغسطس ١٩١٢ صدر قرار بتعطيل اللواء نهائياً بحجة أنها عينت محرراً مسئولاً دون أن تحصل على إذن بذلك من إدارة المطبوعات.

وفى ٧ نوفمبر ١٩١٢ قررت الوزارة تعطيل جريدة «العلم» لسان حال الحزب الوطني لانها نشرت مقالاً لمحمد فريد عن رأية فى الحرب البلقانية وجاء فى القرار: «.. وحيث أن هذه الجريدة إعتادت نشر ما يكدر صفو الراحة العمومية، فضلاً عن أنها لسان حزب إتخذ رئيسه لنفسه خطة التهييج، وحيث أنه سبق صدور قرار بتعطيل هذه الجريدة مرتين الاولى لمدة شهرين بتاريخ ١٩ مارس ١٩١٠،والثانية لمدة ثلاثة أشهر بتاريخ ١٩

---

١٤٥ – عبد الرحمن الرافعى – محمد فريد – المرجع السابق – ص٣٤٤.

ديسمبر ١٩١١ . فلهذه الاسباب، ومحافظة على النظام العام تقفل جريدة العلم التى تصدر بالقاهرة من تاريخه».[١٤٥]

* * *

ثم تعلن الحماية البريطانية على مصر.

وتنشر الوقائع المصرية القرار.

«إعلان بوضع بلاد مصرتحت حماية بريطانيا العظمى»..«يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمي أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا، قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية.

وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر. وستتخذ حكومة جلالته التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها .

(ترجمة) القاهرة فى ١٨ ديمسبر ١٩١٤»

وقبل إعلان الحماية أخضعت مصر للحكم العسكرى. وفى نوفمبر ١٩١٤ صدر القرار التالى:

«ليكن معلوماً انى أُمرت من حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمي بأن آخذ على عاتقى مراقبة القطر المصرى عسكرياً لكى يضمن حمايته. فبناء على ذلك قد صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى من تاريخه.

مكسويل الفريق

قائد الجيوش بمصر»[١٤٦]

وفى اليوم التالى لاعلان الحماية أعلنت الحكومة البريطانية خلع الخديو عباس الثانى.

«إعلان بخلع سمو عباس حلمى باشا عن منصب الخديوية وإرتقاء صاحب العظمة السلطان حسين كامل على عرش السلطنة المصرية».

«يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لاقدام سمو عباس حلمى باشا خديو مصر السابق على الانضمام لاعداء الملك، قد رأت حكومة جلالته خلعه عن منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الامير حسين كامل باشا أكبر الامراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله»

«ترجمة» القاهرة فى ١٩ ديمسبر ١٩١٤»

---

١٤٦ – الوقائع المصرية – ١٢/١٩ / ١٩١٤.

١٤٧ – عبد الرحمن الرافعى – محمد فريد – ص١٤٦.

١٤٨ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص٣٥.

وقد سبق هذه الاعلانات إعلان من جانب الحزب الوطنى.

هو الانتحار على طريقة الهارى كارى . فاعلنت جريدة «الشعب» انها ستحتجب عن الصدور فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ «وكان هذا الاحتجاب أول إحتجاج عملى على الحماية البريطانية»(١٤٧)

ثم بدأت المطارق تنهال على الحزب الوطنى.

«وتولت السلطة العسكرية حكم البلاد فى خلال الحرب فكان أول عمل لها إضطهاد الحزب الوطنى ومطاردة رجاله، فضبطت أوراقه ودفاتره وسجلاته وشتتت شمل أعضائه، أو الذين إشتبهت أنهم من أعضائه أو انصاره، واعتقلت الكثيرين منهم ووزعتهم على سجن الاستئناف بالقاهرة وسجن الحدره بالاسكندرية، والمعتقلات التى أنشائها لهم خصيصاً فى درب الجماميز وطره والجيزه وسيدى بشر، ونفت بعضهم إلى مالطة واوربا . وقد لبثوا فى المعتقلات أو فى المنفى مدداً طويلة، ومنهم من لبث فى السجن أو المنفى إلى ما بعد الهدنة فى ١٩١٨، أما من أفرج عنهم فقد قيدت حريتهم ووضعوا تحت المراقبة».(١٤٨)

ويصف كاتب آخر حالة مصر فى هذه الايام فيقول «كان المصريون يشاهدون أعمال المحتلين وما أشاعوا من إرهاب، وما قاموا به من عسف وتنكيل وتقييد للحريات وتكميم للافواه، دون أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض أو الاحتجاج، ولم يجرؤ واحد من أهل الرأى على الكلام، وقد إعتقل الانجليز كل من إشتبهوا فى أمره أو ظنوا أنه يعارض سياستهم ولم يفكر أعضاء الجمعية التشريعية (وكان سعد زغلول وكيلها) فى الاجتماع من تلقاء انفسهم وكان القانون النظامى يسمح لهم بذلك اذا لم يدعوا الى الاجتماع فى الموعد المحدد للدور، ولم يفكروا فى عقد إجتماع فى منزل أحدهم للتشاور فى الامر . وكانوا فى مقدمة المهنئين للسلطان الراضين عن الاوضاع الحديثة.(١٤٩).

وإمتد الارهاب. وإنحسرت الموجة الصاعدة للحركة الوطنية، سجن من سجن وهاجر من هاجر وتراجع من تراجع. وعادت مصر تتنفس بصعوبة وتختزن غضبها وثورتها لأيام مقبلة وإن بدت للعيان وكأنها عادت للنوم. أو عادت للاستسلام.

كان التملق والرياء هو المنطق السائد . ومصر تتلفت فى دهشة بحثاً عن رجالها الشجعان فلا تسمعهم الا من خلف جدران السجون أو من المنفى البعيد.

ويفرض الارهاب ظله. يمشى بسيفه فى طول مصر وعرضها يكمم الافواه، ويسكت كل معارضة ولا يبقى

١٤٩ - محمد سيد كيلاني - السلطان حسين كامل ، فترة مظلمة فى تاريخ مصر - (١٩٦٣) ص١٠٥.

١٥٠ - محمد سيد كيلانى - المرجع السابق ص١٠٨.

151 -J.Vatikiotis - lbid - p.251.

سوى النفاق.

وعندما يحاول شاب من المنصورة اسمه محمد خليل ان يغتال السلطان حسين كامل إحتجاجاً على خضوعه للاحتلال وقبوله للحماية، يذهب أعضاء الجمعية التشريعية لتهنئة السلطان بنجاته وقد «تقدمهم سعد زغلول، وهتف زغلول بحياة السلطان ثلاثا فردد الاعضاء الهتاف»[١٥٠]

* * *

ويبقى بعد ذلك ان نورد عدداً من الآراء المختلفة حول أسباب التدهور الذى أصاب نشاط الحزب الوطنى فى هذه الآونه.

يقول ڤاتيكيوتس «لقد كان من بقى من أعضاء الحزب الوطنى فى مصر يفتقدون إلى قيادة حقيقية لهم، فلم يجدوا سوى القيام بأعمال إنفعالية وإثارية فى صفوف الطلاب، وبعض سكان المدن، ومن ثم فان الحزب الوطنى قدأفلت من يديه زمام قيادة الحركة الوطنية. ولم يعد قادراً على النهوض بها نحو الاستقلال»[١٥١]

أما صلاح عبد الصبور فيقدم تحليلاً من زواية أخرى ويقول «لم يكن وراء الحزب الوطنى عند تشكيله مثل ما كان وراء حزب الامة من المثقفين ذوى النزعة العصرية، بل لعله إستهوى ذوى النزعة العثمانية مثل عبد العزيز جاويش وغيره، وواجه الحزب ظروفاً شاقة، إذ تحالفت عليه قوى الاحتلال والسراى حتى إستطاعت أن تخرج فريد من مصر، وحتى إستطاعت ان تصوره حزباً حريصاً على تفتيت وحدة الامة، أو خالقاً لمناخ مساعد عليها على أقل تقدير، وبخاصة بعد ان أصبح عبد العزيز جاويش هو أشيع كتابه ذكراً»[١٥٢]

لكنه يقول «انه وبرغم ان الحزب الوطنى قد تحلل فى عام ١٩١٤، وتبعثرت قواه، إلا أن مصطفى كامل قد ظل ماثلاً فى أذهان المصريين كزعيم وطنى وكصورة للأمل فى المستقبل»[١٥٣]

أما جاكوب لاندو فيقول: «وليس من السهل تحديد السبب فى إنحدارالحزب الوطنى، فهناك مجموعة من العوامل ربما تكون قد قامت بدور فى هذا الانحدار. كالصدمة التى تلقاها الحزب بالانشقاق بين الأقباط والمسلمين، أو تباعد الذين يؤيدون الحزب بعد تطرف صحافته، أو ربما كانت الشبهات التى ألقيت على جاويش وفريد فى تعاونهما مع الباب العالى والتى أصابت منهم مقتلا، وأثارت ضدهم غضب الخديوى والأوربيين الذين

---

١٥٢ - صلاح عبد الصبور - قصة الضمير المصرى الحديث - كتاب الاذاعة والتليفزيون (١٩٧٢) ص١١١.

153 - J.M. Ahmed - The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism - Oxford (1960) - p79.

١٥٤ - لاندو - المرجع السابق .

١٥٥ - المرجع السابق ص ١٣٥.

كانوا يعيشون فى مصر، وبالطبع الاحتلال الانجليزى. أما أهم الأسباب وأقواها فهو غياب رئيس الحزب الكفء بعد موت مصطفى كامل وهو أول مصيبه أصابت الحزب، ثم كانت الخسارة الثانية بنفى محمد فريد بطريقة فظة فى عام ١٩١١، والسبب الأخير هو أقرب الاسباب إلى المنطق ففى أكثر من مرة خلال الثمانينات كان بقاء أو غياب الانسان الكفء فى الشرق يقرر النجاح او الفشل فى الحياة السياسية»[١٥٤]

لكن لاندو يعود فيلح على السبب الاول. ويركز عليه بصورة قد تبدو مبالغاً فيها ثم يقول «وقد كان أمراً عجيباً من وجهة النظر العلمية أن ينتهى مثل هذا الحزب وقد كان أكثر الاحزاب المصرية تنظيماً، بلجنته المركزية وفروعه المنتشرة فى جميع أنحاء القطر ونظامه الدعائى الممتاز ليفشل بهذا الشكل البائس فى كل ما تناوله من أمور بعد الحرب العالمية الاولى. ولا يمكن التصور أن هذا الفشل يعود إلى أسباب شخصية فقط، فقد تلقى الحزب ضربته الاولى بالمكيدة المدبرة التى أوقعت الشقاق بين الاقباط والمسلمين داخله، ثم ظلت تنخر عظامه حتى عام ١٩١٨»[١٥٥]

اما د. على الدين هلال فيقول: «فمنذ عام ١٩١٤ أصبح الحزب واقعياً بدون رئيس، وإتبعت السلطات الانجليزية سياسة إضطهاد وقمع تجاه قياداته، الامر الذى أدى بعدد منهم إلى الاستقالة من الحزب أو الابتعاد عن النشاط السياسى مثل عثمان غالب ومحمود فهمى حسين وحسن خيرى وعلى المنزلاوى وآخرون، وتدهورت أوضاعه المالية حتى أن أثاث نادى الحزب بيع بالمزاد العلنى وفاء للديون المطلوبة عن إيجار المبنى ، وكذلك فإن فترة الحرب العالمية الاولى وإعلان حالة الطوارئ كانت فاصلاً حجب الحزب عن الرأى العام. وأخيراً تغيرت الظروف الدولية ففرنسا أصبحت حليفة لبريطانيا، والدولة العلية هزمت فى الحرب ونتيجة لهذا كله تضاءل نفوذ الحزب ليحل محله الوفد».[١٥٦]

لكن الغريب هو أن أحداً من هؤلاء جميعاً لم يلمس الجرح الحقيقى، وهو التركيب الطبقى لقيادة الحزب، وتكونها أساساً من بعض أعيان الريف، والشرائح العليا من الافندية فى المدينة. وهى فئات إجتماعية عاجزة عن الصمود. عاجزة عن الاعتماد على الجماهير. عاجزة عن فهم القدرات الكامنة فى جموع الشعب. تعتمد أساساً على اللعب على الحبال والمناورات السياسية التى غالباً ما تنتهى إلى الاحباط.

كانت الطبقة عاجزة، والقيادة النابعة عنها عاجزة هى أيضا. إندفعت مع إرتفاع الموجة الوطنية فما أن تعرضت هذه الموجة للانحسار، حتى إرتجفت وتراجعت ،هذا إذا ما إستثنينا عدداً قليلاً من عناصر وطنية ظلت صامدة حتى النهاية. لكن وطناً كمصر لا يمكن أن تحركه نحو الثورة – التى لم تنضج بعد – مثل هذه المجموعة المحدودة العدد مهما كان حماسها ومهما كان صمودها.

---

١٥٦ – د. على الدين هلال – السياسة والحكم فى مصر : العهد البرلمانى ١٩٢٣ –١٩٥٢. (١٩٧٧)

* * *

لكننا نخطئ خطئاً فادحاً لو تصورنا أن ما سبق كان صياغة لشهادة وفاة الحزب. فالحزب قد تبعثر، ضعف، تهالك بعض قادته. نعم . فقد قوة إندفاعه، وقوة الفعل فيه. نعم. لكنه ظل وبرغم كل شئ كامناً في إعماق وجدان مصر، تهز سيرته ونضالاته مشاعرها، وتستحث المصريين على الاقتداء بزعامته.

وفى أوربا كانت «الجمعيات المصرية» المعبرة عن نفوذ الحزب الوطنى ملئ السمع والبصر. وقد تعاونت مع الوفد كثيراً، وناوءته كثيراً عندما حاول التهادن.

وكان هناك فريد.

مريضاً، منهكاً، فقيراً كحزبه ، لكنه صامد، أبى، شجاع كحزبه أيضاً.

لكن الوفد يتفوق . يكتسح بفضل زعامة سعد زغلول كل ما عداه ويكتسب شعبية طاغية تتضاءل أمامها أية تكوينات سياسية أخرى مهما كان تاريخها أو تراثها ومهما كانت مبادؤها.

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ وبدأ تشكيل الوفد لم يكن من الممكن تصور تكوين وفد مصرى بدون ممثلين للحزب الوطنى، وفعلا أختير إثنين هما مصطفى النحاس وحافظ عفيفى.

ويحاول لاندو ان يفسر لنا هذه الظاهرة فيقول «لم يكن هناك فارق أيديولوجى كبير بين الوفد والحزب الوطنى، اما السبب فى تفوق الوفد بين الجماهير وتضاؤل شعبية الحزب الوطنى فتعود إلى الاسباب التالية:

١ – إن سعد زغلول إستطاع أن يقنع المصريين بعدم جدوى العناد فى موضوع «لا مفاوضة الا بعد الجلاء» الذى كان الحزب الوطنى يتمسك به طالما ان بريطانيا أقوى من مصر.

٢ – و بينما كان الحزب الوطنى يعتمد على الانتلجنسيا المثقفة وحدها فى القاهرة والاسكندرية فقط، إنتشر الوفد فى الارياف مقدماً نفسه لجماهير الفلاحين حتى أصبحت له لجنة نشطة فى كل قرية صغيرة فى مصر. وكان الفلاحون أنفسهم قد أصبحوا فى ١٩١٩ على درجة معقولة من الوعى السياسى يمكن أن يكون بها الوفد قاعدة له.

٣ – كان زغلول نفسه من أهم أسباب تفوق الوفد فى الوقت الذى يفتقر فيه الحزب الوطنى إلى الشخصية الكبيرة الكفء بعد موت مصطفى كامل ثم نفى فريد، ففى الشرق يقرر الرجال الاكفاء مسيرة التاريخ.

وفى التاريخ الحديث يعطى سعد زغلول أكبر الدلائل على ذلك. فمع أن سعد زغلول لم يقدم إلى المصريين إلا البرنامج الذى كان قد وضعه الحزب الوطنى. فان الوفد هو الذى قاد مصر لعدد من السنين بعد ذلك »[١٥٧]

ولقد نختلف كثيراً حول الاسباب. أما النتائج فهى أسطع وأوضح من أن يختلف عليها أحد.

---

١٥٧ – لاندو – المرجع السابق – ص١٣٦.

المراجع:

* كتب عربية ومترجمة

-أحمد رشاد – مصطفى كامل، حياته وكفاحه.

– أدمون ديمولان – سر تقدم الانكليز السكسون – ترجمة احمد فتحى زغلول.

– أنور الجندى – عبد العزيز جاويش.

– جاكوب لاندو – الحياة السياسية والاحزاب فى مصر – ترجمة سامى الليثى.

– جلال الدين السيوطى – حسن المحاضرة.

– جمال الدين الشيال – التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر.

– د. حسين النجار – أحمد لطفى السيد .

– رفاعة الطهطاوى – تخليص الابريز فى تلخيص باريز.

– رفاعة الطهطاوى – أنوار توفيق الجليل، فى أخبار مصر وتوفيق بنى إسماعيل.

– رفاعة الطهطاوى – مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية.

– د. رفعت السعيد – عمائم ليبرالية.

– د. رفعت السعيد – الليبرالية المصرية ، المثقفون – حزب الوفد.

– د. رفعت السعيد – الأساس الاجتماعى للثورة العرابية.

– زكارى لوكمان – خطاب الافندية الاجتماعى –١٨٩٩ – ١٩١٤ – ترجمة بشير السباعى.

– زكى فهمى – صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر.

– صبرى ابو المجد – أمين الرافعى.

– صلاح عبد الصبور – قصة الضمير المصرى.

– عبد الرحمن الرافعى – مصطفى كامل – باعث الحركة الوطنية.

– عبد الرحمن الرافعى – محمد فريد.

– د. على الدين هلال – السياسة والحكم في مصر – العهد البرلمانى ١٩٢٣ – ١٩٥٢.

– على فهمى كامل بك – سيرة مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين عاما.

– فتحى رضوان – مصطفى كامل.

- محمد بك فريد - تاريخ الدولة العلية العثمانية .

- محمد سيد كيلانى - السلطان حسين كامل، فترة مظلمة فى تاريخ مصر.

- محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية.

- محمد على غريب - محمد فريد ، الفدائى الأول.

- محمد عمر - حاضر المصريين ، واسر تأخرهم.

- مصطفى كامل - المسألة الشرقية.

- مصطفى كامل - بحوث ألقيت فى ندوة بمناسبة العيد المئوى لميلاده [١٨٧٤ - ١٩٧٤] الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

* دوريات

- الاهرام - ١٨٩٥ - ١٩١٩.

- آفاق عربية - ١٩٧٧.

- إجيبسيان جازيت- ١٩١٩.

- المؤيد - ١٨٩١ - ١٩٠١ - ١٩٠٧.

- اللواء - ١٩٠٧ - ١٩٠٨.

- ليتندار إچيبسيان - ١٩٠٧.

- العلم - ١٩١١.

- المقطم - ١٩٠٧.

- المصور - ١٩٦٩.

- الوقائع المصرية - ١٨٨٨ - ١٩١٤

- الموسوعات - ١٨٩٩ -١٩٠٠.

* كتب باللغات الاجنبية:

- Alexander - The Truth about Egypt.

- Benedict, Auderson - Imajined Communities:Reflections

on the origin and Spread of Nationalism.

- Hourani,Albert - Arabic thought in the Libral age.

- J.M. Ahmed - The intellectual origins of Egyptian Naonalism

- Lioyed - Egypt Since Cromer.

- P.j. Vatikiotis - The modern history of Egypt.

- Timothey Mitchell - Colonising Egypt.

-Valantine, Chirol (sir) - The Egyptian Problem.

_ Williams,Raymond - Marxism and Literature.

* مذكرات ووثائق حكومية

- احمد شفيق باشا - مذكرات.

- عبد الرحمن الرافعى - مذكراتى - ١٨٨٩ - ١٩٥١.

- عبد العزيز فهمي - هذه حياتى.

- آثار مصطفى عبد الرازق - تقديم على باشا عبد الرازق.

- محمد فريد - مذكرات - تاريخ مصر من إبتداء ١٨٩١ مسيحية.

- آلدن جورست (السير) - تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩١٠. مرفوع من السير آلدن جورست إلى السير إدوارد جراى.

- كتشنر (الفيكونت) - تقرير عن الحالة العمومية فى مصر والسودان لسنة ١٩١٢. مرفوع من الفيكونت كتشنر إلى السير إدوار وجراى.

- كتنشر (الفيكونت) - تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان لسنة ١٩١٣. مرفوع من الفكيونت كتنشر إلى السير إدوارد جراى.

سعد زغلول
زعامة لم تتكرر

الحق فوق القوة
والأمة فوق الحكومة

لم يكن كرومر شاعراً، بل كان سفاحا .

لكنه – ومع ذلك – وعندما أراد أن يصف أحوال مصر في مطلع القرن العشرين لم يجد غير العبارة التالية:

«ان مصر تذوب شوقا إلى الثورة».

تذوب شوقا ..هذا هو الوصف الدقيق.

فقد كانت مصر تعيش مأساة الهزيمة العرابية، وتعيش وطأة الاحتلال، وخيانة الخديوى، وتهادن الاقطاع ، وعجز القيادات المفترضة، وخوف الطبقات الوسطى، ومعاناة الجماهير الفقيرة.

كانت وطأة الاحتلال الرهيبة تخيم على النفوس، والاحساس بمرارات الهزيمة والفشل يملأ كل الافواه. والزعامات التى تحاول التواجد لتقول شيئا لمصر، أو باسم مصر سرعان ما تذبل ، أو تجبر على الانزواء والصمت، مخلفة المزيد من المرارة والاحباط.

ومصر التى تذوب شوقا إلى الثورة تتطلع برغم ذلك كله، وربما بسببه، إلى زعيم يقودها عبر المحنة ويكسر حاجز الالم والخوف ويمنحها الشعور بالقدرة على فعل شئ.

لكن مصر كانت كعادتها دوما كائناً بالغ التعقيد فى تكوينه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى. وكانت مواصفات الزعيم المطلوب هى أيضاً وبالضرورة بالغة التعقيد.

* فالجماهير فلاحية فى الأساس، لكن الزعامات المتاحة كانت إقطاعية ومن أصل تركى. وهكذا إمتنعت إمكانيات الانسجام.

وهذه الجماهير الفلاحية تعجز عن إفراز قائد فلاح، أو هى قد فعلت ذلك على زمن عرابى ثم لم تلبث أن هزمت، لكنها وبرغم هذا العجز تريد قائداً من صفوفها، أو على الاقل من صفوف الطبقات المستنيرة والمثقفة ذات الاصل المصرى. وهكذا تولدت بذور التناقض بين حركة الجماهير المصرية وهى بالضرورة حركة ضعيفة فى هذه الظروف، وبين حركة أبناء الارستقراطية ذات الاصل التركى، وذلك برغم عداء الحركتين للاحتلال البريطانى ورفضهما له(*).

(*) كانت العناصر التركية بالرغم من رجعيتها وعدائها للأمانى المصرية، تعادى الحكم البريطانى فى مصر، بل لعلها كانت أشد عداءً له – فى بعض الاحيان – من بعض الفئات العليا ذات الأصل المصرى. فالانجليز هم أعداء الخلافه التركية، والذين ضربوا نفوذها ضربة قاصمة.وبالتدريج ومع انتشار التعليم بدأت هيمنة العناصر التركية تتضاءل لكنها ظلت وحتى العشرينات من القرن الحالى تلعب دوراً فى الحياة الأجتماعية والسياسية في مصر.

لمزيد من التفاصيل حول الموضوع راجع.

-P.M.Holt - Political Change in Modern Egypt - Oxford(1969)

وأيضا برقية من كرومر إلى الخارجية البريطانية مودعه بالمتحف البريطانى تحت رقم:

- F.o 78 /44 53,N210 - CAIRO, Dec 18,1892.

* وفى غمار أى تحرك – فى ظل أوضاع كهذه – يلعب المثقفون دوراً بارزاً هو دور المفجر والداعية والمنظم، لكن المثقفين فى مصر صنفان الازهريون بكل ما يحيط بهم من مهابة ومكانه، ثم ذوى الثقافة العلمانية وهم الأكثر حيوية وإستنارة فى ذلك الوقت. وكانت مصر حائرة بين الاثنين.

* والتحرك المطلوب حذر بطبيعته، فدرس الهزيمة العرابية لم يزل مخيماً، والطبقات العليا بدأت تستشعر إمكانيات تحقيق مكسب ما من خلال التعاون مع الاحتلال البريطانى الذى بدى لها أفضل بكثير من الهيمنة العثمانية، وهى بقدر رغبتها فى الضغط على الاحتلال لانتزاع مكاسب منه وإقناعه باضعاف الخديوى وسلطاته، كانت تخشى من حركة الجموع، ليس فقط لأسباب طبقية يسهل إداركها، وإنما أيضا لأن البعض كان يتصور أن إندفاع الجماهير فى غمار الثورة العرابية هو الذى أدى إلى تفاقم هذه الثورة وتحولها من حركة للاصلاح وللضغط على الخديوى إلى ثورة عارمة أفلت زمام الأمور فيها من يد الطبقة العليا، وإتخذت منطلقات وأساليب ظلت الفئات العليا ترتجف من هولها أمداً طويلا.

وهكذا تحددت معالم الزعيم المطلوب.

* مصرى صميم، لكنه على علاقة ما بالاقلية التركية، أو على الاقل مقبول من جانبها.

* يرفض الاحتلال، لكن الاحتلال قد يفضله على غيره فى بعض الأحيان.

* فلاح، ذو مكانة فى صفوف كبار الملاك.

* أزهرى الانتماء ، علمانى المعرفة.

وتمضى مصر بصبرها المعروف لتنسج من خيوط الاحداث المتعاقبة الزعيم الذى تريد.

* * *

الأب – فى نظر الارستقراطية التركية – مجرد فلاح، فهو برغم ما يمتلكه من أرض واسعة، مصري يقيم في الريف، ويكفيه هذا ويزيد كى يكون ويظل مجرد فلاح.

لكنه فى نظر الفلاحين «سيد» فهو أغنى أغنياء القرية «يملك نيفاً ومائتى فدان، وبيتاً فسيحاً له منظره تتسع لأكثر من مائة زائر، وكان يتحدى الحكام الترك فى منظره وأبهه مسيره ومقامه، فكان يمشى فى ركب من العبيد الذين يلازمونه ويقيمون معه»[١]

وكان جده لأمه«من أغنى أغنياء اقليمه»[٢]

والمناخ العام فى الاسرة دينى بحت كما تدل على ذلك أسماء الابناء الثلاثة «سعد الله» و «فتح الله» و«فرج

---

١ – عباس محمود العقاد – سعد زغلول، سيرة وتحية. الطبعة الثانية –.ص٤٩.

٢ – المرجع السابق – ص٥٢

الله».

وفى الكُتاب يتعلم الصبى «سعد الله» ليحفظ القرآن حفظاً جيداً. وكأنما كانت الاسرة تريد للفتى أن يصبح مقرئاً فقد أنفق وقتاً طويلا فى دراسة أصول التجويد بالجامع الدسوقى. ومن هناك يرحل إلى الأزهر.

وكأن الفتى كان على موعد مع الأفغانى فكلاهما يصل القاهرة عام ١٧٨١، وفى رحاب الازهر والازهريين يلتقى الشيخ الثائر، مع الفتى القادم لتوه من أعماق ريف مصر.

وعندما حرم الأفغانى من التردد على الجامع الازهر، كان يعقد جلساته فى داره بخان أبى طاقية. ويروى أنه قد إستكتب تلاميذه موضوعاً عن الحرية فكتب سعد موضوعا أعجب به «السيد» إعجاباً شديداً وقال «مما يدل على أن الحرية ناشئة فى مصر أن يجيد فى الكتابة عنها هذا الناشئ».

وكان الأزهر يموج فى ذلك الحين بحركة إصلاحية يتزعمها شيخه الجديد الشيخ محمد العباسى المهدى الذى شرع فى تنظيم الجامع وتطوير أساليب الدراسة فيه، لكن «سعد الله» المشحون بنفحات أستاذه الافغانى يتوق للمزيد، فيكون مجموعة من الطلاب تطالب بالمزيد من الاصلاح، ويكتبون منشوراً بمطالبهم يعلقونه فى المساء على أعمدة الجامع يبينون فيه «مواضع الخلل ووسائل العلاج(٣).

ويلتقط رياض باشا رئيس الوزراء دعوة الافغانى ويحاول إستخدامها، أو التوائم معها، فيدعو الشيخ محمد عبده المريد الاكبر للافغانى لتحرير جريدة الوقائع المصرية، ويستدعى الامام تلميذه الشاب ليعاونه فى تحرير الصحيفة. ويعين سعد فى ٥ أكتوبر ١٨٨٠ محرراً بالقسم الادبى بالوقائع المصرية بمرتب شهرى قدره ثمانية جنيهات.

ولعله من المفيد ان نتوقف قليلا عند الأزهرى الشاب الذى يعمل صحفياً بالجريدة الرسمية، وأن نطالع بعض أفكاره وهو يكتب عن «الشورى» قائلا «المستبد عرفاً من يفعل ما يشاء غير مسئول، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه، ناسب السنة أونابذها، ومن أجل هذا نرى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم به وكثرة ما جلب على الامم والشعوب من الأضرار، وحق لهم النفور والاشمئزاز إذ لم ينالوا من جرائه إلا وبالاً، ولم يلقوا من أحكامه إلا نكالاً. بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلماً، وتؤكل فيه الاموال أكلا لماً، وتسفك الدماء زوراً وتدمر البلاد تدميراً ،.. ولقد تبين لك مما قدمناه أن الشريعة لا تبيحه وأنها توجب تقيد الحاكم بالسنة والقانون»(٤)

وإلى جانب الشجاعة النادرة التى نلمسها فى هذه الكلمات نلاحظ النهج والاسلوب الأزهرى الخالص.

---

٣ - المرجع السابق ص ٦٣.

٤ - الوقائع المصرية - مجموعة عام ١٨٨١.

لكن الفتى لا يلبث أن يخلع العمامة ويلبس لباس الافندية، الطربوش والبدلة، ويترك الازهر ليتحول إهتمامه إلى دراسة القانون فقد عين بفضل وساطات وتزكيات شيخه محمد عبده ناظراً بقلم قضايا الجيزة فى ديسمبر ١٨٨٢ بمرتب قدره ١٥ جنيها[٥]

وتشتعل الثورة العرابية ويشترك فيها محمد عبده وسعد زغلول معاً، لكن إشتراك سعد لم يكن عميقاً إلى الدرجة التى تسوقه إلى السجن، وأكتفت سلطات الاحتلال بفصله من وظيفته.وحاول العودة للوظيفة ففشل، طلبوا منه «ان يعتذر ويتزلف كما إعتذر وتزلف مئات وألوف، وأن ينفض يده من أصدقائه المهزومين، ويترامى فى أحضان أعدائه الغالبين، لكنه أبى لرجولته أن يسومها هذا السوم، وظل على وفائه لاصدقائه المبعدين يراسلهم ويراسلونه، ويعتمدون عليه فى قضاء شئونهم فيقضيها لهم قدر ما يستطيع»[٦].

وفى أواخر عام ١٨٨٢ يكون محمد عبده فى المنفى، ويكون سعد طريداً يحاول جهد طاقته أن يشق لنفسه طريقا جديداً في الحياة. ويكتب لأستاذة رسائل عديدة يصف فيها أحوال مصر والمصريين لعلها تكفى لتوضيح الحالة النفسية للشاب الذى وجد نفسه فجأة وحيداً بغير عون، بعد أن هزمت الثورة، وتفرق الثوار يقول فى إحدى رسائله «والحالة العمومية على ما تركتها، غير أن الناس أخذوا فى نسيان مافات من الحوادث وأهوالها، وقلت قالتهم فيها، وخفت شماته الشامتين منهم، وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم وبالعكس، والكثير يتوقع إنقلابا أصلياً، والله أعلم بما يكون»[٧]

ولما فشل سعد فى إستعادة وظيفته لم يجد مناصاً من أن يحترف المحاماه وكانت فى ذلك الحين مهنة وضيعة إلى درجة أن سعد نفسه قال فيما بعد أنه إشتغل بهذه المهنة «والخجل يستر وجهه لسقوط إعتبار من كانوا يتعاطونها» وقال فى خطبته التى شكر بها من كرموه عند تعيينه فى مناصب القضاء «إنى إشتغلت بالمحاماه متنكراً عن أهلى وأصحابى. وكلما سألنى سائل هل صرت محامياً؟ أقول معاذ الله ان أكون كقوم خاسرين»[٨].

لكن سعداً لا يلبث أن يقبض عليه بتهمة تأليف جمعية سرية لاغتيال عملاء الاحتلال والموالين له، وقيل أن الجمعية قد أسمت نفسها «جمعية الانتقام»[٩] ولم يكن ثمة دليل ضده سوى عبارة وجدت مكتوبة بغير خطه على غلاف كتاب وهى «ولى في ضمير الدهر سر ظاهر..»[١٠] ونظرت فى القضية لجنة مختلطة أسندت رئاستها إلى

---

٥ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص٦٧.
٦ – المرجع السابق – ص٦٩.
٧ – رشيد رضا – تاريخ الاستاذ الامام – ص١٦٨.
٨ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص٧١.
٩ – زكى فهمى – صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر– الجزء الأول – مطبعة الاعتماد ١٩٢٦ – ص١٣٥.
١٠ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص٥٨٤.

القاضى البلچيكى فلمنكس وأمرت اللجنة بالافراج عنه. ولكنه ظل معتقلا لأكثر من ثلاثة أشهر لأن الحكومة عزمت على نفيه إلى السودان وأخيراً افرج عنه ليعود للمحاماه من جديد.

لكنه سرعان ما يقفز برغم مهنته هذه إلى أعلى قمم المجتمع «وأصبح المحامى سعد زغلول أهلا لمعاشرة الامراء والاميرات على سنة المساواه فى زمن كانت فيه حدود الطبقات كمحارم الدين التى لا تأذن بسماح ولاهوادة».[١١] ثم مالبث «المحامى» سعد زغلول أن أصبح أهلا لولاية القضاء فى زمن كان فيه المحامى كالخادم عند القضاء، وكانت كلمة واحدة من القاضى تكفى لحرمانه من حق الاشتغال بهذه الصناعة.[١٢]

كيف كان ذلك؟

ذلك هو السؤال الذى يتعين على المؤرخ أن يقف عنده. فهنا نقطة تحول خطيرة لعلها الخطوة الاكثر حسما فى عملية صناعة الزعيم.

الأزهرى الذى أصبح أفندياً، الفلاح الذى يعمل بمهنة محتقرة من المجتمع، المشبوه بإنتمائه للثورة، المفصول من عمله، المفرج عنه حديثاً بعد إتهام خطير. يقفز فجأة إلى دائرة الضوء الباهر، إلى قمة المجتمع الارستقراطى ليصبح واحدا من أفرادها. مرة أخرى كيف كان ذلك؟ ولماذا؟

يجيب العقاد - أحد مورخى سعد - على هذا التساؤل قائلا بحسم «بالكرامة الشخصية وحدها» توصل سعد إلى ذلك. لكن كيف يمكن للكرامة الشخصية وحدها أن تقفز بمواطن عادى إلى قمم الارستقراطية؟ لابد من عناصر دفع خاصة تدفعه نحو دائرة الضوء الارستقراطى.

وفي إعتقادنا ان هناك عدة أشخاص إهتموا إهتماماً خاصاً بدفع سعد إلى دائرة الضوء، الشيخ محمد عبده، والاميرة نازلى، وبلنت.

والحقيقة أن سعد قد ظل وفياً لاستاذه طوال فترة نفيه والتى دامت ست سنوات، ثم ظل لصيقاً به بعد أن عاد واشترك معه في تأسيس جمعية إسلامية.[١٣]

ولقد ظل سعد ولفترة طويلة، وربما حتى بروزه بصورة متميزة جديدة كزعيم للمعارضة في الجمعية التشريعية، معتبراً مجرد تلميذ مجتهد من تلاميذ الامام محمد عبده، فحتى ذلك الحين كان سعد يعيش على أفكار مدرسة الشيخ محمد عبده التى كانت تنادى بالاصلاح سبيلاً لاستقلال مصر، ولابد لهذا الاصلاح من أن يتخذ ملامح إسلامية ومناهج عصرية معا.[١٤] وتؤكد جريدة التايمس الانجليزية فى عام ١٩٠٦ أن سعداً

---

١١ - المرجع السابق.

١٢ - المرجع السابق ص٧٣.

13 - J.M.Ahmed- The intellectual origins of Egypt ian NATIONALISM - OXFORd (1960) P..32.

14 - ALBERT HOURANI:Arabic Thought in the Libe ral Age, 1798 - 1939 - Oxford (1970)p.p.214.

١٥ - زكى فهمى - المرجع السابق. ص١٣٦.

«من شيعة الشيخ محمد عبده الذين إمتازوا بالارتقاء والتهذيب، وهم الذين أسماهم اللورد كرومر فريق الجيروند»[١٥]

ويؤكد العقاد «ان الشيخ محمد عبده هو صاحب الاقتراح فى تعيينه قاضيا» ويقول «وكان سعد أول محام يعين قاضياً، وأن ذلك كان خليقا بأن يقع من الناس موقع الأمر المستغرب المفاجئ»[١٦] .

وإذا كان الشيخ محمد عبده بغير حاجة إلى تعريف،فمن هى نازلى؟

«أميره من البيت المالك، ذات شخصية جذابة، تكره أكثر ما تكره إبن عمها الخديوى توفيق، وربما لهذا السبب عطفت على العرابيين، وربما كان عطفها عليهم بسبب بعض الافكار الليبرالية التى تبنتها، وعندما فشلت الثورة العرابية إنقلبت نازلى على العرابيين بوحشية طاغية، ثم لم تلبث أن أصبحت وثيقة الصلة بسلطات الاحتلال البريطانى، وأصبح صالونها – لهذا السبب – المكان الأمثل للتلاقى بين الانجليز والمصريين»[١٧].

وسرعان ما أصبح المحامى، العرابى السابق، الفلاح الاصل، واحداً من الزوار المنتظمين لصالون الاميره نازلى «وحثت نازلى سعد على أن يدرس اللغه الفرنسية لكى يصبح محامياً عصرياً».

ولم يكن سعد وحده فقد كان هناك أيضا «الشيخ محمد عبده بعد عودته من المنفى والذى حثته نازلى هو أيضا على دراسة اللغه الفرنسية، وقاسم أمين الذى دعى إلى تحرير المرأة» هذا من الجانب المصرى أما من الجانب البريطانى «فقد كان هناك كرومر وهارى بويل سكرتير الشئون الشرقية وخليفته رونالد ستورز وكتشنر»[١٨].

والسؤال هو من الذى دفع سعد الدفعة الأولى على درجات سلم الصعود الاجتماعى نازلى أم محمد عبده؟كثير من الباحثين يتشبث بمسانده محمد عبده له، مع أن كثيراً من الدلائل توحى بأن سعداً هو الذى كان يستمد من رعاية نازلى له القدره على مساعده أستاذه محمد عبده. فعندما إنتهت مدة النفى التى عوقب بها محمد عبده، لم يكن يستطيع العودة إلى مصر إلا بإذن الخديوى الذى رفض ذلك أكثر من مرة خوفاً من نفوذ الشيخ وسط طلاب الأزهر، وبناء على إلحاح سعد أقنعت نازلى صديقها الحميم اللورد كرومر كى يستخدم نفوذه لدى الخديوى ليستدعى الشيخ محمد عبده، ويقال أن كرومر قد وافق على عودة الشيخ بشرط أن يتعهد بعدم الاشتغال بالسياسة.[١٩]

---

١٦ – العقاد – المرجع السابق ص٧٨.

17- AFAF LUTFI AL -SAYYID - Egypt and cromer - (1968)P.95.

18 - IBID - P.95.

١٩ – أحمد أمين – زعماء الاصلاح – القاهرة ١٩٤٨ – ص٣١٠.

ثم كان هناك أيضا «ويلفرد بلنت» الذى إشتهر بالدفاع عن عرابى وعن ثورته وبمعاونته وهو سجين فى قبضة الانجليز، وفى ابريل ١٨٨٧ كتب بلنت إلى سالسبورى رسالة يؤكد له فيها ان المصريين غير راضين عن نتائج الاحتلال ولا سياسته، وأنه لا يوجد شخص واحد من أصل مصرى فى الوزارة. وذكر بلنت فى رسالته أن ثورة عرابى قد تفجرت في الاساس لهذا السبب وإقترح بلنت قائمة من المصريين الذين يمكن إختيار الوزراء من بينهم وتضمنت القائمة أسماء محمد بلبع، إبراهيم الوكيل ، سعد زغلول، الشيخ محمد عبده.[٢٠]

وقد رفضت الادارة البريطانية فى ذلك الحين هذا المطلب، فعندما أرسل سالسبورى إلى بارينج يسأله رأيه فى إقتراح بلنت، رد بارينج فى برقية عاجلة يقول «فى ظل الظروف الراهنة يصبح تعيين واحد من أصدقاء بلنت حاكماً أوْ رئيساً للوزراء فى مصر أمراً مثيراً للسخرية تماماً كما لو عين أحد رؤساء قبائل الهنود الحمر المتوحشين حاكماً عاماً لكندا» ومضى قائلا إن أصدقاء بلنت مجرد «متعصبين، فاسدين، جهله»[٢١]

لكن كرومر كان يرى رأياً آخر، وفي صالون نازلى كان يعايش الصفوة المختارة من المصريين ويتحسس طريقة نحو إختيار أكثرهم صلاحية للمشاركة فى الحكم.

وكان سعد زغلول واحداً من هؤلاء الذين تراكمت التزكيات حولهم، وسواء أكانت من محمد عبده أم من نازلى أم من بلنت فالشئ المؤكد أن سعداً قد دخل إلى صالون الاميرة نازلى مدركاً إلى أى مكان يذهب، وأى أناس سيلتقى بهم هناك. ولابد لنا أن نتأمل كلمات رسالته إلى أستاذه الذى كان لم يزل فى المنفى والتى يقول فيها«وأصبح المادحون للانجليز من القادحين فيهم وبالعكس». «بالعكس» هذه تنطبق على من؟ وتعبر عن أية موقف؟ وعن أية حالة نفسية لشخص كان يوماما معاديا للانجليز؟

لكن الامور لم تكن بهذه البساطة، فالشكوك كانت متبادلة بين الجانبين، وحتى بعد أن إستقر سعد فى سلك القضاء ثلاث سنوات، وبعد أن إستقر فى صالون نازلى صديقاً مقرباً منها ومن أصدقائها الانجليز، وبعد أن نال تزكية الكثيرين، نجد أن كرومر يبعث إلى حكومته برقية سرية عاجلة يبلغها فيها أنه قد تلقى معلومات تفيد بأن هناك «جمعية سرية ذات نزعة إسلامية قد تأسست مؤخراً بهدف طرد الانجليز من مصر، وأن هذه الجمعية تضم رياض، ماهر، مظلوم، شعراوى، سعد زغلول ، الهلباوى ، المنشاوى، فكرى ومجموعة أخرى من باشوات

---

20 - Blunt - My Diaries - London (1919) Vol. 1,p.58

21- S.P. - From Baring to Salisbury - May 8,1887.

22 - B.P- CROMER TO KIMBERLEY,MARCH 25,1895.

23 - AFAF Lutfi Al Sayyid, IBID.p.p. 116.

مصر الاغنياء»[٢٢]

لكن الشكوك سرعان ما تبددت عندما تأكد كرومر أن هذه المعلومات كانت كاذبة[٢٣]

وعلى أية حال، و بغض النظر عن مصدر الدفعة الأولى،فان القاضى سعد زغلول ما لبث أن أصبح ذا مكانة مرموقة بسبب كفاءته الشخصية ونزاهته وقدراته الفكرية والقانونية، وبتشجيع من نازلى واصل دراسته للغه الفرنسية والقانون حتى حصل على «الاجازة فى القانون سنة ١٨٩٧ بدرجة متفوقة»[٢٤].

وعندما كان سعد قاضياً حاول جهد طاقته أن يتمايز، وان يمزج بين مهنة القاضى – وهى مهنة تطبيقية فى الاساس – وبين موقف السياسى والمشرع. ومن هنا فان ما تسجله حيثيات الأحكام التى أصدرها من مبادئ يمكنها أن توضح صورة عن تفكيره ومنهجه.

فقد كان القانون يعفى الحكومة من مسئوليتها عن أي عمل يجريه موظفوها فى شأن تفاتيش الرى فكتب سعد فى أحد الحيثيات يقول «لا يمكن أن يكون المراد بهذه الاعمال الاجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون والمضرة بحقوق الافراد وليست فيها مصلحة عامة للناس، لان ذلك لا ينطبق على مبدأ الحكومات العادلة، ولا يصح أن تتضمنه شرائعها»[٢٥]

وذكر فى حكم آخر أن القانون انما يوضع لخدمة العدالة الانسانية [٢٦]

وهكذا نلاحظ أن سعداً يتخطى مهمة القاضى في تطبيق القوانين بل هو يناقشها ويفحص مضمونها مستنداً إلى معايير ومناهج فكرية محددة. وكانت دائرته صاحبه أول حكم يقرر أنه لا عقاب على من يقذف فى حق موظف عام إذا إستطاع أن يثبت وقائع القذف ، وهو في هذا الحكم يعرف الوظيفة العامة تعريفا ديمقراطياً فيقول «ان لكل الناس شأن فيها وفائدة في الاحاطة بها، وحق فى أن يأخذوا عليه (الموظف) فى هفواته وغلطاته فيها، ولا شئ عليهم (الناس) فى نشر ذلك متى كان الأمر صحيحا»[٢٧].

وهو يدين إستعمال العنف مع المتهمين إدانة حاسمة مؤكداً «إن وقوع مثل هذه التصرفات بحجة إظهار الفاعل أو كشف الحقيقة أشد خطراً على النظام العام من خفاء الجانى أو تخليصه من العقاب، لأن لا شئ أسلب للامن وأزعج للنفوس من أن يعبث بالنظام من عهد اليه حفظ النظام. وحيث أنه لا يصح أن تكون مثل هذه التصرفات أساسا للحكم، بل لا يصح غض النظر عن المؤاخذه عليها، لأن ذلك مما يضر بالقضاء ويجعله عونا للظلم بدل أن يكون نصيرًا للعدالة»[٢٨].

---

٢٤ – عباس العقاد – المرجع السابق ص٨١.
٢٥ – عبده حسن الزيات – سعد زغلول من أقضيته . ص٥
٢٦ – المرجع السابق – ص٢٥٧.
٢٧ – المرجع السابق – ص٢٤٤.
٢٨ – المرجع السابق – ص٣٩١.

وقد ظل سعد متمسكاً بوجهة نظره هذه فى إدانة النشاط الاستبدادى لجهات الادارة. وحتى عندما إنتخب وكيلا للجمعية التشريعية نجده يرفض النص فى قانون الجمعيات التعاونية على حق الادارة فى حل هذه الجمعيات. ووقف فى الجمعية يتحدث عن موظفى الحكومة وتسلسل مراتبهم المختلفة قائلا «كل هؤلاء أخشاهم، أخشاهم كما تخشونهم أنتم، وتخشونهم لأنكم جربتم كثيراً أعمالهم»(٢٩)

وباختصار فان سعد لم يكن مجرد قاض، ولم تكن سنوات عمله كقاض سوى مرحلة من مراحل إعداد الزعيم وتكوينه.

ورويداً رويداً تكتمل الملامح المطلوبة للزعيم. لقد أصبح الفلاح الازهرى شخصاً مرموقاً وقريباً من الصفوة الارستقراطية لكنه لم يزل مجرد « قريب» منها وليس «عضواً» فيها. وما من سبيل إلى ذلك سوى أن يصهر إلى أسرة تركية عريقة. وهكذا تجاسر سعد، وبتشجيع وترتيب من نازلى فتزوج ابنه مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء الدائم لهذا العهد. وتوشك الملامح المطلوبه للزعيم أن تكتمل، مصرى مندمج فى الارستقراطية التركية، فلاح من أسرة غنية، أزهرى يتكلم الفرنسية بطلاقه، قاض مرموق، حائز على رتبه المتمايز، وعلى النوط المجيدى الثالث.

ويستمر سعد فى سلك القضاء أربعة عشر عاما، وفى عام ١٩٠٦ يعين وزيراً للمعارف وخلال هذه الاربعة عشر عاما يكون سعد قد إكتسب رصيداً لا بأس به، ليس فقط بين رواد صالون نازلى، ولا بين أقرانه من القضاه، وانما فى صفوف الارهاصات الوطنية التى كانت تموج بها مصر.

فعندما تعرضت جريدة «المؤيد» لخطر التوقف بسبب خلاف بين الشيخ على يوسف وشريكه، ساند سعد الشيخ يوسف «ومنحه عوناً مالياً مكنه من الانفراد بملكية الجريدة، والاستمرار فى إصدارها»(٣٠)

وعندما نادى قاسم أمين بتحرير المرأة كان سعد يشد من أزره ويسانده، فاستحق أن يهدى له قاسم أمين كتابه.

وعندما برز مصطفى كامل على مسرح الحياة السياسية فى مصر أفسح له سعد مكاناً فى ندوته ومنحه تأييده.

وعندما بدأت الدعوة لانشاء الجامعة المصرية ساندها سعد برغم معارضة الانجليز لها، وتبرع لها بمائة جنيه، ومن منزله صدر أول نداء يدعو الأمة المصرية للتبرع لانشاء الجامعة وقد جاء فيه:«فى هذه السنه هب فى الرأى العام تيار لتحقيق هذه الأمنية،لأن الأمة إنتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة، ودائرته

٢٩ – سعد زغلول في الجمعية التشريعية – جمع وترتيب أحمد فهمى حافظ – ص٦٨.

30 - AFAF LUTFI, IBID,p.97.

٣١ – عباس العقاد – المرجع السابق ص٩٦.

32 - AUkland Colvin (Sir) - The Making of Modern Egypt (London)P.878.

ضيقة تقف وتنتهى بالطالب قبل بلوغ الغاية»(٣١)

وباختصار أصبح سعد «مشروع زعيم» يخوض ميدان الاهتمام بكل ما هو عام، ويجذب نحوه أبصار كل القوى والعناصر التى تتطلع بشكل أو بآخر لخدمة الوطن.

ولم يكن ذلك بعيداً عن ملاحظة اللورد كرومر الشديد الذكاء والدهاء معاً. والذى روى عنه «أنه لم يوجد إنجليزى يعرف مصر والمصريين أفضل منه»(٣٢) فقرر أن – يلتقط «مشروع الزعيم» ربما فى محاولةلاحتوائه، وربما في محاولة للاستفادة من نفوذه وشعبيته للتغطية على نتائج جريمة دنشواى.

المهم أن كرومر إختار سعد وزيراً . فكيف حدث ذلك؟

تجمع المصادر التاريخية المختلفة على ربط هذا التعيين بتضاؤل نفوذ كرومر عقب حادث دنشواى. يقول العقاد «عاد اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى بخطة جديدة تميل إلى الاعتراف بالوطنية المصرية.فكان أول مابدا من دلائل هذه الخطة الجديدة دعوة سعد زغلول ليتولى وزراة المعارف العمومية وهو الرجل الذى تصدى قبيل ذلك لنقص التعليم فى مصر، وإنشاء جامعة كبرى تستدرك ما فيه من نقص وخلل»(٣٣)

وتقول عفاف لطفى السيد «كانت الخطوة الأولى للتغيير بعد حادث دنشواى تتمثل فى تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف» وتقول «ربما كان سعد المصرى الوحيد الحائز على إعجاب اللورد كرومر»(٣٤)

ويقول عبد الخالق لاشين «وواضح أن هذا التعيين قد إستهدف به كرومر – قبل أى شئ – مواجهة المصاعب التى نشأت أمام الاحتلال من جراء حادثة دنشواى من ناحية، ولما كان معروفا عن سعد من كراهية للخديوى من ناحية أخرى»(٣٥)

ويؤكد ذلك أيضا د. يونان لبيب، وإن كان يضيف عبارة قد تكون مثار خلاف بين المؤرخين والسياسيين معاً فهو يؤكد «ومن ثم كان تعيينه (سعد زغلول) وزيراً محسوباً للوجود الاحتلالى لا عليه»(٣٦)

بينما تؤكد دراسة أخرى «أنه كان من آثار حادث دنشواى إضطرار الانجليز إلى إفساح مناصب الوزارة أمام بعض العناصر الوطنية من المصريين ومن ذلك تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف»(٣٧)

أما جمال محمد أحمد فيفضل القول بأن تعيين سعد وزيرا يعود الفضل فيه إلى «صداقة كرومر له وإلى

---

٣٣ – عباس العقاد – المرجع السابق ص٩٦

34 - AFat Lotfi - Ibid,pp.176.

٣٥ – عبد الخالق لاشين – سعد زغلول – دوره فى السياسه المصرية حتى ١٩١٤ – ص٤٦.

٣٦ – د. يونان لبيب رزق – تاريخ الوزارات المصرية – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة لاهرام (١٩٧٥) – ص١٤٦

٣٧ – ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ – مؤسسة الاهرام – مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة – ص٣٧.

38 - J.M.Ahmed, Ibid - p.53.

صهره رئيس الوزراء فى ذلك الحين».[٣٨]

وإذا كانت الدراسات المختلفة تجمع على ربط تعيين سعد وزيراً بحادثة دنشواى، وعلى ربطه بعلاقاته السابقة بكرومر فثمة رواية أخرى تقول:

«عندما أتت حكومة الأحرار إلى السلطة في عام ١٩٠٥ حاولت أن تنهج سياسة إصلاحية تجاه مصر. وهكذا دبر لقاء بين رئيسها كامبل بانرمان ومصطفى كامل، وطلب بانرمان من الشاب المصرى أن يقدم له قائمة بأسماء يرى صلاحيتها لتولى منصب الوزارة. وقدم كامل قائمة من ثلاثين إسما بعضهم من خصومه السياسيين، ومن بين هذه الاسماء سعد زغلول، إسماعيل سرى، إسماعيل صدقى، حسين رشدى»[٣٩].

وبغض النظر عن مدى إعتداد الوزارة البريطانية بترشيحات مصطفى كامل فإن المؤكد أن صاحب القول الفصل والكلمة الحاسمة فى إختيار سعد وزيراً كان كرومر.

ويؤكد ذلك أحد الثقاة فى تاريخ هذه الفترة فالنتين شيرول قائلا « أن كرومر قد إنتقى سعد زغلول من بين العديد من المصريين مؤملا أن يستخدم إتجاهاته المتقدمة فى التأثير على الأجيال الشابة من الطلاب»[٤٠]

تؤكد ذلك أيضا برقيات كرومر نفسه إلى وزارة الخارجية البريطانية والمودعة الآن فى المتحف البريطانى والتى تعتبر وثائق بالغه الأهمية، ففى أكتوبر ١٩٠٦ أرسل كرومر إلى وزارة الخارجية برقية يصف فيها سعد بأنه «رجل جاد ومجتهد» وهو « لا ينتمى إلى الحزب الوطنى وإنما إلى مدرسة الاصلاح ذات النزعة الاسلامية»[٤١] وفى مارس سنة ١٩٠٧ يكتب كرومر ليصف سعد مرة أخرى قائلا :«بأنه ليس فقط أكفأ مصرى تعامل معه وإنما هو أيضا أقوى المصريين الذين تعامل معهم شخصية»[٤٢].

كان هذا هو رأى كرومر في سعد. فهل أخطأ كرومر الاختيار.؟

الحقيقة أن الكثيرين يجمعون على كفاءة سعد كوزير، ويؤكد أحد مفتشى وزارة المعارف العمومية الانجليز «أن سعداً كان نموذجاً فريداً فى الوزراء، ولم يسبق لمجلس الوزراء أن ضم وزيراً مثله»[٤٣].

هذه عن الناحية المهنية، أما الجانب السياسى فلعله يثير الكثير من التساؤلات.؟

ولعل الاجابة واضحة بالنسبة للجانب المصرى، فلقد كانت «القفزة» نحو الوزارة إضافة جديدة هامة

39 - Juliette Adam- L' Angleterre en Egypte - Paris (1922) - p.124.

40 - Valantine Chirol (Sir) - The Egyptian Problem - London,(1920)p.98.

41 - F.O.633/XIII,Cromer to gray - October 27,1906.

42 - F.O. 633/XIII, March 3,1907.

43 - Humphry Bowman- Middle East Window - (1942)p.75.

وضرورية «لمشروع الزعيم» الذى تصدى فيما بعد لقيادة أكثر ثورات تاريخ مصر الحديث راديكالية وإتساعا وعنفاً.

فماذا عن الاجابة البريطانية.؟ لقد لام الكثير من الساسة البريطانيين كرومر على إختياره، وكلما برز سعد خلال أحداث الثورة وما بعدها متصلباً فى مواجهة الاحتلال، إنصب اللوم على رأس ذلك الرجل الذى إنتقاه منذ سنوات وزيراً.

ويكتب فالنتين شيرول «لاشك ن كرومر نفسه قد أحس ذات يوم بالشك فى صحة هذه الخطوة التى تمثلت فى تعيين أحد المصريين المحنكين الذين دخلوا ميدان الحياة العامة من باب الثورة العرابية. ولقد كان إختيار كرومر لسعد خطوة شجاعة، وإذا ما نظرنا إلى هذه الخطوة على ضوء نشاطات سعد زغلول اللاحقة فان من حق البعض أن يلوم كرومر على إختياره غير الموفق وغير الحكيم، لكننا نتساءل ماذا لو أن كرومر نفسه قد إستمر فى منصبه؟ ألم يكن من المحتمل أن يظل محتفظاً بنفوذه على هذا الشخص الذى إختار؟»[٤٤]

يبقى بعد ذلك سؤال: لماذا إختار كرومر وزارة المعارف العمومية بالذات؟

لقد صاحب قرار إختيار سعد وزيراً، إتخاذ قرار آخر لعله أكثر أهمية، وهو فصل «التعليم» عن وزارة الأشغال العمومية ، وإنشاء وزارة جديدة هى «المعارف العمومية» ولعلنا نلاحظ أن سعداً كان واحداً من ناقدى سياسة الاحتلال التعليمية، وان بيان الدعوة لانشاء الجامعة المصرية قد صدر من بيته، فلماذا سعد بالذات لوزارة المعارف؟.يورد المؤرخون بضعة أسباب.

«لقد عين سعد وزيراً للمعارف لسببين أولهما أن الطلاب قد أصبحوا بالفعل فئة مشاغبة وتبعوا نداءات مصطفى كامل، ولم يعد بإمكان نظار المدارس والمعاهد من الانجليز إحكام قبضتهم على زمام الأمور في المدارس، وقد كان إضراب طلبة مدرسة الحقوق موشراً ينذر بالحاجة إلى شخصية مصرية قوية للتعامل مع الطلاب، وثانيهما أن المصريين كانوا يولون مسألة التعليم إهتماماً خاصاً، وكان النقد الموجه إلى كرومر منصباً فى الأساس على إهماله للتعليم، ومن ثم فان كرومر قد أراد أن يرد على ناقديه بأن المصريين هم المسئولون عن عجز أجهزة التعليم»[٤٥]

ويشير البعض إلى إحتمالات وجود نوع من الخلاف حول السياسة التعليمية بين كرومر ودنلوب فأتى كرومر للوزارة بمن يستطيع أن يلجم غرور دنلوب.

المهم لقد أصبح سعد وزيراً فماذا كانت ردود الفعل؟

---

44 - Chirol - IBiD,p.77.

45 - Afaf - IBId,p.176.

كتبت المؤيد يوم تعيينه قائلة:«مضت إحدى عشر سنة وبضعة شهور على الوزارة المصرية وهيئتها على حالة واحدة لم يحصل فيها تغيير ولا تعديل بفضل سكونها وعدم حركتها حتى كادت تنسى الأمة المصرية أن لها وزارة من كبار رجالها، وصار كل عمل الدواوين للمستشارين (الانجليز) وكل ظلامه ترفع لهم، وكل إعتراض يوجه اليهم، وبينما نحن كذلك فى هذا القنوط من وزرائنا إذا برنة جرس قوية صلت على الآذان، فنبهت الأذهان إلى حركة جديدة فى الوزارة، حركة تعديل تبعث فى النفس أملا جديداً من جانبها، لأننا لا نفهم لهذا التعديل الجديد معنى إلا أن ولى الأمر ومستشاريه من أصحاب النفوذ رأوا أن يعيدوا للنظار شيئاً من سلطتهم. ولعل هناك تعليمات من قبل خارجية إنكلترا قضت بذلك بعد الذى جرى من الحوادث فى مصر وأساء المصريين».

وتمضى «المؤيد» قائلة «وسعد بك زغلول يعرفه المصريون قاطبة بالعلم والفضل وعلو المبادئ واستقلال الرأى. وإذا إجتمعت هذه القوى فى شخص رقت به لا محالة إلى ذروة الاحترام».

لكن «المؤيد» وجدت لزاماً عليها أن تذكر سعد بأنه «القائل بالأمس إن الأمة المصرية ينقصها العلم الصحيح وهو الداعى إلى الجامعة المصرية. فما يطلب منه فى نظارة المعارف أضعاف ما يطلب من سواه»[٤٦].

أما «اللواء» جريدة الحزب الوطنى فقد كتبت «ان ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعدبك زغلول وهو في المحاماة أولا وفى القضاء ثانيا يحملهم جميعا على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل».

غير أن «اللواء» تحذر بصرامتها المعهودة «ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لاعمل فيه، وكان المستشارون الانكليز أصحاب السيطرة الثابتة فى النظارات، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول فى نظارة المعارف. هل سيكون كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد دانلوب؟ أم يكون وزيراً إسماً وعملا ويحيى سلطة الوزراء المصريين؟».

وتضع «اللواء» النقاط فوق الحروف بصرامة أيضا فتقول «على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر إختار سعد بك زغلول وزيرا للمعارف تقديراً لعلمه وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية، وتشريف الكفاءة، فان هذه السياسه تقضى قبل كل شئ بأن يكون الوزير وزيراً حقيقة لا أن يكون آله فى يد الموظف الانجليزى، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف، والمصلح لخللها الكثير، والمحقق لآمال الأمة فى نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال»[٤٧].

---

٤٦ – المؤيد ٢٨ /١٩٠٦/١٠.

٤٧ – اللواء ٢٨ / ١٠ / ١٩٠٦.

٤٨ – عباس العقاد – المرجع السابق ص١٢٣

وهكذا تتأكد الفكرة القائلة بأن تعيين سعد وزيرا كانت نقطة تحول هامة في تاريخ العلاقات المصرية – البريطانية وتتأكد معها أن «قفزة» سعد نحو الوزارة كانت إضافة ضرورية لمشروع الزعيم المرتقب.

فهل نجح سعد كوزير؟ هل حقق الآمال المرجوة؟

والأهم من هذا هل خدم هذا المنصب عملية تكوين الزعيم المرتقب؟

مهنيا نجح سعد نجاحاً باهراً «فكان» أول وزير مصرى يدلى بأحاديث للصحف. وأول وزير مصرى خرج من ديوان الوزارة للطواف فى الاقاليم. وأول وزير أبطل التحية العسكرية التى كان يقابل بها الوزراء على الدواوين. وأول وزير مصرى قرر إقفال المدارس للاحتفال بالعيد الهجرى»[٤٨]

ويمضى العقاد ليعدد أعمال سعد فى الوزارة فيقول «ومن أجل الأعمال التى قام بها سعد فى وزارة المعارف وجازف من أجلها بمنصبه وبحسن العلاقة بينه وبين الأقوياء، عملان أحدهما كان مغضبا للانجليز والآخر كان مغضبا للخديوى وأتباعه من الشيوخ الأزهريين. نقل التعليم من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية فأغضب الانجليز أشد الغضب، وإحتاج إلى تذليل عقبات أخرى غير عقبات المقاومة السياسية وهى تحضير الكتب، وتحضير المدرسين، وتهيئة الجو للتدرج من نظام متغلغل متشعب مضت عليه خمس وعشرون سنة، إلى نظام طارئ لا يزال فى دور التمهيد محتاجاً إلى المعدات والمنفذين. وأنشأ مدرسة القضاء الشرعى وهى تغضب الخديوى ومن يتبعونه من شيوخ الأزهر الذين كانوا يكرهون الاصلاح فى معهدهم، ويحبون فى الوقت نفسه أن يستأثروا وحدهم بمناصب القضاء الشرعى والمحاماه الشرعية وما اليها من المناصب»[٤٩]

ولعله من الطريف أن تتاح رواية سعد نفسه لهذا الأمر لانها توضح لنا كيف كانت تساس الأمور فى مصر فى ذلك الحين؟ وكيف كان على سعد أن يواجهها وبأية أساليب؟ يروى سعد كيف أنشأ مدرسة القضاء الشرعى وكيف تحمس هو للدفاع عن الفكرة بلهجة حاسمة جعلت وجه الخديوى «يحمر كلون طربوشة» «وسمع أصحابنا الوزراء منى هذه اللهجة فأيقنوا إننى لا أقدم عليها إلا وأنا مؤيد بقوة خفية، ووهموا أن لورد كرومر يريد إنشاء المدرسة على الرغم من جميع العقبات، فأجازوا المشروع بالاجماع وبقى الخديوى وحده»[٥٠].

ولقد غضب الخديوى من ذلك غضباً شديداً إلى درجة أنه أقسم «بأنه لن يحضر جلسات مجلس الوزراء طالما كان سعد زغلول عضواً فيه»[٥١].

وهكذا نجح سعد فى أن يثبت جدارته كوزير قادر وكفئ، وأن يبرز أيضا كمناور بارع بين الانجليز

---

٤٩ – المرجع السابق – ص١٢٠.

٥٠ – المرجع السابق ص – ١٢١.

51 - J.M.AHMED - IBID - P.55.

والخديوى محاولاً أن ينتزع من هنا أو هناك مكسباً يحقق به برنامجه لاصلاح التعليم.

هذا على المستوى المهنى فماذا عن السياسة؟

وتلك هى القضية الأكثر أهمية، لأنها تعنينا بشكل خاص لقياس مدى إستطاعة منصب النظارة فى التأثير على عملية تكوين الزعيم.

والحقيقة أننى أميل بعد كثير من التأمل إلى أن «المنصب» برغم نجاحاته المهنية البارزة والتى كان أهمها فى إعتقادى نقل التعليم إلى اللغة العربية فانقذ التراث الحضارى المصرى والثقافة المصرية ومستقبلها من الغزوة الاستعمارية الضارية، أميل إلى أن المنصب قد أضر فى هذه المرحلة بعملية صناعة الزعيم وبمستقبل الزعامة. ففى هذه الفترة بالذات وربما سعياً وراء مكاسب وإصلاحات فى مجال التعليم، وسعياً لارساء تقاليد أكثر صحة فى أسلوب عمل الوزراء المصريين وتوسيع إختصاصاتهم تجاه المستشارين، قدم سعد للمستعمرين الكثير من التنازلات السياسية، وعمق تحالفاته معهم ضد الخديوى تارة،وتحالفاته مع كبار الملاك وجماعة المعتدلين تارة أخرى. وكنموذج لهذه التنازلات نقدم موقفه من مسألة مد إمتياز شركة قناة السويس، والذى كان مثاراً لسخط عارم من القوى الوطنية المصرية، فقد بذل سعدجهده فى إقناع الجمعية العمومية بالموافقة عليه، لكنه حرص فى نفس الوقت على التأكيد على «حق الجمعية العمومية فى رفض المشروع إن رأت أغلبيتها ذلك»(٥٢) ومنى سعد بهزيمة ساحقة. فبعد دفاعه المستفيض صوتت الجمعية العمومية ضد المشروع بإجماع الأصوات ما عدا مرقص سميكة باشا والوزراء(٥٣) وقد إعتبرت هذه الهزيمة للوزارة «أخطر هزيمة منيت بها طوال الحياة النيابية، لأن الوزارة وقفت معزولة تماماً، وفي مسألة هامة تتعلق بموضوع المالية الذى كان محل منازعات عدة»(٥٤).

وكان هذا مجرد نموذج للتهادن مع الاحتلال.

وكنموذج للتهادن مع جماعة كبار الملاك أصحاب مدرسة التعاون مع الاحتلال، لانجد أوضح من ضلوع سعد فى تأسيس حزب الأمة الذى نهج نهجاً موالياً للاحتلال فى سفور مثير لسخط كل وطنى.

بقبول أحد الباحثين المحايدين (د. جمال محمد أحمد) «كان موقف حزب الأمة فى نظر المواطنين لايختلف فى قليل أو كثير عن موقف البريطانيين، فقد كان يعتمد على التدرج، والحقيقة أن كل الشواهد تشير إلى أن حزب الأمة كان يثق بانجلترا ويسعى للتعاون معها من أجل إعداد مصرلنيل الاستقلال. وكان رجال الحزب الوطنى يعربون عن شكوك واضحة فى الحزب، وفى علاقات الصداقة الحميمة بين بعض أعضائه وبين المسئولين

53- J.M.AHMED - IBID,P.45.

54 - CHIROL -IBID,P.112.

55 - IBID,P.98.

البريطانيين. وكان الخديوى يحيط ميلاد الحزب بالشكوك والريب وكان يعتقد أن العقل المدبر خلف الحزب هو سعد زغلول، وقد ظل الخديوى على يقين من أن سعد زغلول قد لعب الدور الأساسى فى تأسيس حزب الأمة وبأنه قد فعل ذلك بايعاز وتشجيع من كرومر»(٥٥).

ولقد صب كرومر الزيت على نار الشكوك بحرصه الشديد والمريب معا على تحية سعد تحية مبالغاً فيها فى خطابه الأخير بمصر. والذى أسمى بخبطه الوداع «وأخيراً أيها السادة أود أن أذكر اسم شخص لم أحظ بالتعاون معه إلا مؤخرا، لكنه – وفى خلال هذه الفترة القصيرة – علمنى كيف أحترمه وأقدره، وأنا على يقين أن مستقبلا باهراً ينتظر وزير المعارف سعد زغلول باشا، إنه حائز على كل المزايا التى تؤهله لخدمة وطنه، أنه أمين، وقدير، وشجاع، أنه متعدد المواهب وهو جدير بالمزيد من التقدم»(٥٦)

ان كلمات كهذه من عميد الاستعمار البريطانى كفيلة بإغضاب الوطنيين وبتعميق هالات الشكوك حول الشخص التى وجهت له.

وهكذا عادت صورة «مشروع الزعيم» لتتقلص ويعود سعد ليصبح مجرد واحد من الوزراء.

* * *

وبعد مغادرة كرومر للبلاد بدأ سعد يعانى من ضغوط الخديوى.

وفى ٢٣ فبراير ١٩١٠، ومع تشكيل نظارة محمد سعيد باشا أبعد سعد من وزارة المعاف العمومية ليتولى نظارة الحقانية (العدل) «ولاشك أنه كانت هناك رغبة قوية فى التخلص من هذا الناظر، بل أن هذه الرغبة قد إزدادت بموقف سعد المتصلب نوعاً من عودة إحياء قانون المطبوعات فى مارس ١٩٠٩ والذى وصل إلى حد التهديد بالاستقالة»(٥٧)

لكن إبعاد سعد لم يكن مسألة سهله فاختاروا له النظارة الأكثر صعوبة، نظارة الحقانية. ولكن لماذا الحقانية بالذات؟ لقد تقرر الابقاء على سعد مع وضعه فى الموقف الحرج.ذلك أن النيه كانت متجهة إلى إستصدار مجموعة من قوانين القمع ضد الوطنيين. ولما كانت النظارة المسئولة عن هذا الاستصدار هى نظارة الحقانية فقد كان أمام سعد زغلول طريقان كلاهما يؤدى إلى التأثير على سمعة الرجل السياسية:

«الطريق الأول: أن يستجيب إلى مطالب السلطة فيكون يدها فى إصدار مجموعة القوانين المطلوبة وبهذا يفقد

---

٥٦ – أحمد شفيق باشا– مذكراتى فى نصف قرن – الجزء الثانى – القسم الثالث . ص١٧٥.
٥٧ – عبد الخالق لاشين – المرجع السابق – ص١٥٩.
٥٨– المرجع السابق.
٥٩ – د. يونان لبيب رزق. المرجع السابق ص١٥٧.

60 - J.M. AHMED- IBIDp. 55.
61 - SHIROL,IBID,p.115.

كل مكانة شعبية إستطاع تكوينها خلال السنوات السابقة».[٥٨]

«الطريق الثانى: أن يقف إلى جانب رفض تقديم مثل هذه القوانين، وهو بهذا يتعرض لتهمة عدم التعاون، فضلا عن تهمة عدم الشعور بالمسئولية التى طالما رددها خصومه بتركه حبل الفوضى والارهاب على غاربه»[٥٩]

والحقيقة أن سعداً كما يقول د. جمال أحمد «قد تعاون مع كرومر فى تقليص نفوذ الخديوى وفى تحقيق بعض الاصلاحات. فلما ذهب كرومر وجاء كتشنر الذى إنتهج سياسة ودية مع الخديوى لم يعد بامكان سعد أن يستمر وزيراً»[٦٠]

وهكذا إستقال سعد من الوزارة فى عام ١٩١٢ أو بالدقة أجبر على الاستقالة بضغط من الخديوى. [٦١].

وإذا كانت ممارسات سعد فى الوزارة قد أضعفت عملية صناعة الزعيم، فقد كان خروجه منها بداية حقيقية لتكريس زعامته.

لقد كان إجبار سعد على الاستقالة درساً قاسياً لشخص أراد أن يعتمد على لعبة التناقض بين المعتمد البريطانى والخديوى، فلما خذله المعتمد. لم يجد أى سند يحميه ولم يكن أمامه سوى طريق الاستقالة.

ولقد كانت هذه الاستقالة بداية جديدة حقاً وضعت سعد على عتبات طريق الزعامة الحقه، وكرسته وبحق كزعيم لنهضة مصر المستقبل.

ويقول البرت حوارنى أن الاستقالة وما تلاها من أحداث تضمنت ترشيح سعد لنفسه عضواً فى الجمعية التشريعية فى محاولة للاعتماد على سند من الجماهير، كانت نقطة تحول خطيرة في حياة سعد «لقد تحول القاضى ذو الميول الاصلاحية إلى زعيم شعبى، فقبل ذلك كانت منطلقات سعد مجرد ترديد لأفكار مدرسة الشيخ محمد عبده الاصلاحية، وكان يقينه أن مصر يجب أن تنال إستقلالها. لكن الاستقلال الحق يمكنه فقط أن يأتي عن طريق الاصلاح، إصلاح التعليم وإصلاح القانون. وقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة عليه حتي عام ١٩١٤»[٦٢].

وباختصار لقد تلقن سعد الدرس وقرر أن يبحث له عن سند جديد فى معركته من أجل الاصلاح. وفى هذه المرة دخل ميدان الانتخابات حيث حقق نجاحاً كبيرًا ألهمه أن ثمة قوى يمكن ان تسانده حقاً هى قوى الجماهير.

ورشح سعد نفسه عن دائرتين وحقق فيهما معاً فوزاً ساحقاً.

---

62 - ALIBERT Hourani - IBID - p.216.

وقد دخل سعد الانتخابات مستقلا فتحرر بذلك من عبئ تحالفه القديم مع مؤسسى وقادة حزب الأمة. وأعلن سعد برنامجا إنتخابياً جاء فيه:

«إذا شاء أهل وطنى أن ينتخبونى نائباً عنهم فأننى أعاهدهم على أن أقف نفسى على خدمتهم وقضاء مصلحتهم والسعى فى تحقيق أمانيهم وإزالة شكاواهم وأذكر على سبيل الاستشهاد الأمور التالية..

١ – اصلاح النظام القضائى.

٢ – توسيع نطاق التعليم حتى يعم جميع طبقات الأمة، وحتى يتيسر لابناء الفقراء أن ينبغوا كأبناء الاغنياء.

٣ – إعطاء الصحافة الحرية اللازمة لزيادة نجاحها فى خدمة الأمة بوضع قانون تصان به حرية الصحافة من جهة، ويصان به النظام العام من ضرر شططها من جهة أخرى.

– تسهيل وسائط الزراعة والرى، ومد السكك الحديدية والزراعية فى البلاد ، وأبذل جهدى فى إتخاذ الوسائط التى تحمى مصالح المزارع ولا يذهب ربحه من قطنه طعاماً للتاجر وغيره من الذين يشترون قطنه بالثمن الرخيص، ويبيعونه إياه محوكاً ومنسوجاً بالثمن الغالى»[٦٣]

وكل هذا حسن لكننا نلاحظ – ولنا كل الحق – أنه لا كلمة واحدة عن الاحتلال، أو عن الامانى الوطنية.

وقد دخل سعد إلى الجمعية التشريعية بأصوات عدد قليل من الناخبين الذين إعتادوا عدم الاهتمام بمثل هذه الانتخابات وعدم الادلاء بأصواتهم فيها أو حتى تسجيل أسمائهم فى سجل الناخبين، الأمر الذى كان مثاراً لتندر رجال الاحتلال وأنصارهم، ففى انتخابات ١٩٠٨ «كان فى القاهرة ١٣٤ر٠٠٠ مصريا بالغا مؤهلا للقيد فى جداول الانتخاب قيد نفسه منهم ٣٤ر٠٠٠ فقط بينما لم يشترك منهم في التصويت سوى ١٥٠٠ شخص أى ١ر١٪ فقط. وفى الاسكندرية كان عدد المؤهلين للقيد ٧٠ر٠٠٠ شخص وقيد نفسه ١٤ر٠٠٠ شخص بينما إشترك فى التصويت ٧٥٠ شخصا فقط أى أزيد قليلا من ١٪»[٦٤].

كان هذا فى إنتخابات ١٩٠٨، أما انتخابات ١٩١٣ التى خاضها سعد فقد كانت نسبة المشاركين فى التصويت فى المرحلة الاولى (كانت الانتخابات تجرى علي مرحلتين) ٦٩ر٦٪ فى القاهرة و٩٨ر٤٪ فى الاسكندرية»[٦٥].

وبرغم ذلك فقد إستطاع سعد ومن جمعهم حوله فى الجمعية التشريعية أن يستخدموا هذه النسبة الضئيلة من أصوات الناخبين، وأن يعلنوا أنفسهم كممثلين للامة ولمصالحها.

---

٦٣ – عباس العقاد – المرجع السابق. ص١٥٤.

64 - Cromer-The Situation In Egypt - p.25.

65 - Lloyd- Egypt Since Cromer- London (1923) Vol,1 p.142.

66 -Holt- IBID,p.53.

67 - Samne&Goblet-La vie politique orientale en 1909,p.207.

والذى لا شك فيه أن « الهيئات النيابية المصرية فى هذه الفترة قد وضعت برغم كل شئ تقاليد جيدة ووقف أعضاؤها معلنين أنهم حراس مصالح الأمة، وذلك برغم أنهم يمثلون في الواقع نسبة ضئيلة من السكان، ورويداً رويداً إستطاعت هذه المجالس أن تجبر السلطات على أن تولى رأيها إحتراماً خاصاً وأن تضعه موضع الاعتبار»[٦٦].

ويؤكد مؤرخ آخر«ان هذه الاجهزة الشبه برلمانية قد لعبت دوراً متزايداً فى إدارة شئؤن البلاد وكثيراً ما كان أعضاؤها يضعون الوزراء موضع الحرج بأسئلتهم»[٦٧].

ولعلنا نذكر وقفة الجمعية العمومية ضد مشروع مد إمتياز قناة السويس. ولعل سعدا كان يذكر ذلك وهو يدخل الجمعية التشريعية رافعاً ومنذ اليوم الأول لواء المعارضة، محاولا الاستناد إلى تجربة المجالس السابقة وتطويرها.

وفي الجلسة الأولى جرت إنتخابات الوكالة وكان هناك ستة من المرشحين نال سعد وحده ٦٥ صوتا وتفرقت خمسة عشر صوتا بين المرشحين الخمسة الآخرين.

وبهذا بدأ سعد حياته النيابية وكيلا منتخباً بأغلبية ساحقة، إنتخبته برغم أنف الحكومة التى أجبر على الاستقالة منها منذ فترة وجيزة.

ولقد كان تكتل هؤلاء الاعضاء خلفه دلالة على رغبتهم فى الخروج بزعامة الجمعية من الأعيان ووضعها فى يد المحامين «الذين وجدوا فى الجمعية فرصتهم للتدريب والممارسة الدستورية، الأمر الذى سيكون ذخيرتهم وعدتهم فى كفاحهم السياسى والدستورى فى السنوات القليلة القادمة»[٦٨]

هكذا يتباعد سعد عن جماعة الاعيان التى كان قريبا منها وهو فى الوزارة، وهكذا تتكرس زعامته للبرجوازية الناهضة وممثليها من المثقفين والمهنيين.

ومن هؤلاء يكون سعد «جبهة قوية عرفت باسم جبهة المعارضة، نجح سعد فى تكتيلها من خلفه طوال دورة إنعقاد الجمعية»[٦٩].

وباختصار فان دور الانعقاد القصير الأجل للجمعية التشريعية والذى لم يدم أكثر من خمسة أشهر (من ٢٢يناير ١٩١٤ حتى ١٧ يونيو ١٩١٤) كان فرصة سائحة لتكريس شخصية الزعيم وتحديد هويته وإنتمائه.

ولم يفت سعد أن يعلن ذلك على الملأ، وأن يوجه الى الأمة ومن فوق منصة الجمعية التشريعية ما يشبه النقد الذاتى عن الفترة التى قضاها فى الوزارة. ففى إحدى خطبه بالجمعية قال:

---

٦٨ – عبد الخالق لاشين – المرجع السابق ص١٩١.

٦٩ – مذكرات محمد على علويه (النسخة الخطية) [مودعة بدار الوثائق التاريخية القومية]– ص٦٥.

٧٠ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص١٣١.

«أعرف اننى – وأنا وزير – قد عملت بحسن نية وإخلاص عملا لو عرض على اليوم لكنت أول المعارضين فيه، فقد عرض على قانون المطبوعات فعارضت فيه أولا، ثم لم ألبث أن وافقت عليه، وإشتركت فى تطبيقه لظروف بررتها فى ذلك الوقت أمام نفسى، وها أنا اليوم نادم علي ما فعلت بالأمس»

وقال أيضا «كنت قاضياً، وكنت وزيراً، وها أنا اليوم عضو بينكم في الجمعية التشريعية، وأحس فى نفسى بأن شعورى كان يختلف باختلاف تلك المراكز جميعها، وانى ربما كنت أرى الرأى في حالة ثم أرى غيره فى حالة أخرى. ومع ذلك كنت حسن النية في الحالات جميعاً، فلا تهولنكم أشخاص الوزراء ولا الفضل الذى تعرفونه فيهم، فقد تتغلب عليهم مراكزهم فيعملون بحسن نيه ما يظنون أن فيه فائده للأمة وليس هو كذلك»[٧٠]

بهذا النقد الذاتى الصريح يحدد سعد لنفسه مساراً جديداً ويتجه بثبات إلى طريق الزعامة الحقه.

ولقد كان سعد يدرك ذلك عن وعى. وكان يعلم أن كلماته من فوق منبر الجمعية التشريعية تتجه إلى الأمة كلها. وذات يوم سأله الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى «ما الذى تستفيده يا مولاى من إجهاد نفسك فى شئون قلما تنال فيها الاغلبية فى الجمعية؟» فأجابه «سواء لدى نجحت أم لم أنجح فإنى لا أخطب فى الجمعية التشريعية وحدها، بل فى الأمة جميعاً، ولا أخاطب الحاضر وحده، بل أخاطب المستقبل أيضاً».

كهذا تكون الرؤية واضحة تماماً أمام زعيم المستقبل.

أنه يعلن للأمة كلها أنه نادم على ما فات، ويدرك جيداً أنه يخاطب الحاضر والمستقبل معاً.

من هذا المنطلق وقف سعد زغلول من فوق منصة الجمعية التشريعية ليقول «إذ كانت الحكومة تريد أن تكون الجمعية التشريعية مكتب تسجيل لقوانين الحكومة وأوامرها فأنا بصفتى مصرياً محباً لبلادى أفضل ألا يكون لمثل هذه الجمعية أثر فى الوجود، نعم إن حق الجمعية فى التشريع حق ضعيف جداً كما يقولون ولهذا نستصرخكم يا حضرات النظار ألاتزيدوه بقوتكم ضعفا علي ضعف. لو كنتم مسئولين أمامنا كما تُسأل الحكومات في أوربا أمام برلماناتها لحاسبناكم على أعمالكم، ولكننا قوم ضعاف لم يقسم لنا الحظ ما قسم للاقوام الأقوياء، فكل ما نستطيع أن نقوم به أمامكم هو أن نسألكم لا أن نحاسبكم. إن كل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها»[٧١]

ويبدو واضحاً من تتبع مناقشات «الجمعية التشريعية» أن الكثيرين قد لاحظوا بروز نجم الزعيم وتبلوره، وأنهم قد بدأوا يحسبون حساب هذه الزعامة، الأمر الذى دفع أحد الاعضاء المشايعين للوزارة إلى أن يعرض بسعد قائلا خلال مناقشة موضوع شركات التعاون «إنما يريد واحد مناً أن يتولى زعامة مجموع». ويدرك

---

٧١ – زكى فهمى – المرجع السابق ص١٣٧.

٧٢ – عباس العقاد – المرجع السابق ص١٦٩.

73 - Chirol- ibid,p114.

سعد جيداً أنه المعنى بهذا التعريض فيرد عليه قائلا «يا حضرة العضو المحترم أنها فكرة يسهل على اللسان – مع الاسف – ترديدها، وقد تطوف ببعض الاذهان، ولكنى أقرر لك أنها فكرة غير صحيحة، وانى بعيد كل البعد عنها» ثم يمضى قائلا «وإن شئت أن تعرف حقيقتى، فأعلم أننى رجل قد وضعت تحت تصرف أمتى عقلى وإختبارى وبيانى، فإن إستفادت الأمة من عملى فذاك ما يجعلنى سعيداً ، وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسى فأنا أقوم به لاريح ضميرى أما الذى يسرني ويشرفنى فهو أن أكون خادماً لكم لا زعيماً»(٧٢)

مرة أخرى أنها سمات الزعيم وأسلوبه.

ويحلو لبعض المؤرخين القول بأن موقف سعد المتشدد فى الجمعية التشريعية كان مجرد رد فعل لأن كتشنر رفض أن يدخل معه فى لعبة مناوءة الخديوى.

يقول شيرول «كان زغلول ضد الخديوى أكثر مما كان ضد الانجليز، وقد زاد عداؤه للانجليز لأنهم عمدوا إلى تعزيز أوتقراطية الخديوى»(٧٣)

ولكن ، ربما كان كتشنر غير كرومر فى موقفه من الخديوى، لكن المؤكد أن الانجليز كانوا يعدون العدة لخلع الخديوى ، وقد خلعوه بالفعل، ولو أن الأمر كان بالنسبة لسعد مجرد عداء للخديوى، لكان من الطبيعى أن يتقارب من كتشنر بل وأن يتحالف معه. لكن العكس كان صحيحا .

وحول هذا الموضوع يكتب جورج لويد فى الجزء الأول من كتابه «مصر منذ كرومر» «لو أن كتشنر عاد من إنجلترا فى خريف سنة ١٩١٤ مفوضاً فى انذار الخديوى أو خلعه عند الضرورة لبقى عليه أن يصارع الجمعية التشريعية التى خلقها هو بيديه. فقد كان زغلول فى تلك الجمعية ومن ورائه صف أتباعه المتين قوة لا مناص من حسبان حسابها، لأنهم كانوا يملكون أن يشلوا عمل الوزارة ان لم يجعلوه مستحيلا. وكان من المرجح جداً أن يتهيأ المسرح بعد فترة غير طويلة لمعركة بين زغلول وكتشنر، ولم يكن من المحتمل أن يقع الوفاق بين رجلين من هذا الطراز»(٧٤).

لكن لماذا كان من الممكن أن يقع الوفاق بين سعد وكرومر ولم يكن من الممكن ان يقع بينه وبين كتشنر؟

ليس فقط لأن الظروف قد تغيرت، وانما أيضا لأن المواقف قد تغيرت.

سعد وكيل الجمعية التشريعية المنتخب الذى يوجه كلامه للأمة كلها ويخاطب الحاضر والمستقبل ليس

---

٧٤ – نقلا عن العقاد. المرجع السابق ص١٤٩.

وراجع أيضا:

- Storrs,R, - Orientations , London,(1937)pp.159.

كسعد الأمس.

والانجليز أيضا غيروا من تكتيكهم. على زمن كرومر كانوا يلوحون للمعتدلين بأن الاعتدال والاصلاحات هما السبيل نحو الاستقلال، أما على زمن كتشنر وبينما كانت الحرب العالمية الأولى توشك على الاشتعال كانت بريطانيا تريد أن تنتهز فرصة الحرب لتعلن ضم مصر. وليس فقط مجرد إخضاعها للحماية البريطانية.

هذا ما تؤكده وثائق الخارجية البريطانية.

فقد أعدت بالفعل وثيقة تعلن ضم مصر إلى ممتلكات التاج البريطانى وكان نص الوثيقة كما يلى:

«مجلس بلاط الملك .. قصر بكنجهام يوم ١٩ نوفمبر ١٩١٤.

انه يسر جلالة الملك بناء علي نصيحة مجلس البلاط أن يأمر .. وقد أمر بما يلى:

١ - ابتداء من هذا التاريخ وبعده تضم مصر وتشكل جزءاً من ممتلكات جلالته.

٢ - هذا الأمر يمكن أن يعتبر قرار ضم مصر»[٧٥]

وقد توقفت عملية الضم لأن روسيا القيصرية طلبت فى مقابلها «مساندة بريطانيا فى موضوع القسطنطينية والبواغيز»[٧٦] أما فرنسا فقد أعربت عن قلقها تجاه الضم وقالت «ان الشعب الفرنسى لن يرتاح لذلك»[٧٧].

والحقيقة أن «مصر بعد أن أعلنت الدولة العثمانية - صاحبة السيادة الشرعية فى مصر - إنحيازها لألمانيا قد أصبح وضعها فريداً»[٧٨] بل وشائكا بالنسبة لبريطانيا «التى كانت ترى أنه من الضرورى عليها من الناحية الحربية ان تعزز مركزها فى مصر»[٧٩].

وذلك «فى حين كان يتعين عليها من الناحية السياسية أن تقيم علاقات جديدة مع المصريين، كما كان عليها فى نفس الوقت أن تجابه المطالب الناجمة عن هذا الموقف الطارئ».[٨٠]

وهكذا أعلنت الحماية على مصر.

---

75 - F.O.371/1971,No.72691 - November 19,1914.

٧٦ - حل شفرة برقية سبرج. بوكافان إلى سير أدوارد جراى وردت من بتروجراد الساعة ٣ صباحا وصلت ٣٫٣٠ صباحا بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩١٤ ومودع أصلها بالمتحف البريطانى تحت رقم

F.O. 371:1971 - NO: 661.

٧٧ - ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ - المرجع السابق.

78 -Lenezowski, G.- The Middle East in Worlds Affairs, 2nd Edition .New York, (1928)pp.205.

79 - Newman, E.W. P., Great Britain in Egypt. London .(1928)p.205.

80 - R.I.I.A - Great Britain and Egypt - 1914 - 1936 - London (1936)p.5.

وتأجل إنعقاد الجمعية التشريعية إلى أجل غير مسمى.

وتباعد الطريقان. طريق الزعيم الذى أحس بحرارة نبض الوطن، وبتأييده لموقفه المعارض فى الجمعية التشريعية، وطريق الاحتلال الذى تنكر لوعوده وسعى لضم مصر، ثم أعلن عليها الحماية.

وكان سعد ضد الحماية ، وظل ضدها، ومن خلال وقفاته المعادية لها تكرست صورته كزعيم.

وهكذا إكتملت ومن خلال معاناة طويلة وتعرجات عدة عملية تكوين وإنضاج زعيم يقود الثورة التى كانت مصر تذوب شوقا إليها.

* * *

عندما كانت الحرب توشك على الانتهاء كان الجميع . الانجليز والسلطان والمصريون يفكرون في مستقبل العلاقة المصرية الانجليزية.

وقبل إنتهاء الحرب بأكثر من عام شكل الانجليز عدة لجان لوضع خطط متكاملة تكفل إستمرار الاحتلال البريطانى لمصر. وفى مارس ١٩١٧ شكلت لجنة للنظر فى النظام القضائى ومستقبله بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية. وقد تشكلت اللجنة من عشرة من المحامين الانجليز الذين طلبوا فى تقريرهم إعتبار اللغة الانجليزية اللغه الرسمية للمحاكم، توضع بها القوانين وتصدر بها الأحكام، وتترجم منها إلى اللغة العربية أو الفرنسية إذا دعى الأمر إلى ذلك . وأن يجلس قاضٍ إنجليزى إلى جانب القاضى المصرى للنظر فى المسائل الأهلية.

وتشكلت لجنة أخرى برئاسة السير وليام برونيات لوضع قانون مصر النظامى وقد إقترح برونيات إنشاء مجلسين أحدهما يسمى مجلس الأعيان ويتألف من الوزراء والمستشارين الانجليز وبعض الموظفين الانجليز ممن يساوونهم فى الرتبة ومن خمسة عشر أجنبيا ينتخبهم الأجانب، وثلاثين مصريا يجرى إنتخابهم على قواعد محددة. والمجلس الآخر يسمى مجلس النواب وليس له رأى قاطع فى أى مسألة ويجوز للحكومة أن تتخطاه بارسال القوانين مباشرة إلى مجلس الأعيان، ثم لا تعتمد القوانين التى تصدر من هذا المجلس أو ذاك إلا بعد إقرارها فى وزارة الخارجية البريطانية.(٨١)

وقد أعلن المصريون بكافة فئاتهم رفضهم القاطع لهذا المشروع الأمر الذى دفع سلطات الاحتلال إلى ابلاغ لندن بضروره مراجعة هذا المشروع(٨٢) ثم مالبثت لندن ان تراجعت عن المشروع عندما هاجمة رئيس الوزراء حسين رشدى باشا(٨٣)

٨١- عباس العقاد – المرجع السابق – ص١٩٩.

٨٢ – سعد زغلول – المذكرات الخطية – المودعه بدار الوثائق التاريخية بالقلعة . كراس ٥٣ ص ٣٠١٣.

83 - Fo. -407/184 - No.152 - Memorandum by Sir Graham on the unrest in Egypt - 9 April 1919.

٨٤ – احمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسيه جـ١ – (١٩٢٦) – ص٢٢٧.

والتعليق الوحيد على تفكير كهذا هو أن الانجليز كانوا فى سبات عميق، ولم يكونوا قادرين على فهم طبيعة الحركة التى تموج بها مصر وتوشك أن تنفجر بعد قليل، وقد إنعكس سوء الفهم وإنعدام التقدير لحركة الجماهير المصرية علي الكثير من قراراتهم وتصرفاتهم المستقبلة.

أما السلطان حسين فكما يقول سعد فى مذكراته الخطية «كان فى نيته أن يسافر بعد إنتهاء الحرب لتنظيم الحماية»[٨٤]

وكان السلطان هو أيضا فى سبات عميق بعيداً عن حقيقة ما تختزنه الجموع من طموح وأمانى . أما السادة كبار الملاك فقد كانوا هم أيضا يرتبون لبحث تنظيم الحماية، يقول سعد «وأخذ عدلى ورشدى يضعان مشروعات لنظام مصر لم تخرج عن الحكم الذاتى، وتوسيع إختصاص الجمعية التشريعية فى بعض الشئون. ثم أعادا الكرة على هذا الموضوع فى أوائل حكم عظمه السلطان الحالى (يقصد فؤاد) وكانا يرغبان كثيراً فى السفر الى لوندره لأجل تنظيم الحماية»[٨٥]

وحتي سعد زغلول نفسه لم يكن يقدر حقيقة ما تختزن مصر وشعبها من طاقات ثورية. فقد كان يسعى لا لتحريك شعب بلاده للنضال، وإنما لوساطة من أمريكا لدى بريطانيا . وفى يوم ١٠ اكتوبر ١٩١٨ يكتب سعد فى مذكراته «تلاقيت مع عدلى وتكلم معى فى تلك المسألة، ورأينا أن الأوفق توسيط قنصل أمريكا، فاجتمع برشدى ولطفى السيد وإتفقوا على ذلك، وفاتح رشدى هذا القنصل فلم يجد عنده إستعداداً للمساعدة»[٨٦].

لكن من حق سعد علينا أن نذكر له أنه كان مدركاً للفارق الشاسع بين موقف الأغنياء وموقف جماهير الشعب. فهو لا يلبث بعد بضعة أيام أن يكتب فى مذكراته «أغلب اللذين يزوروننا من الطبقات العليا والمتعلمين كانوا يوجهون الينا أسئلة تشف عن سوء الظن وعدم الثقة، وما من أحد منهم قدم لنا مساعدة مادية أو أدبية، غير أن الطبقات الأخرى نرى منها إنعطافاً عظيماً وتشجيعاً شديداً بالكلام والدعوات الصالحات»[٨٧]

ولكن، كيف بدأت أحداث الثورة؟ وما هو دور سعد فيها.؟

يقول الامير عمر طوسون أنه صاحب الفكرة.

تلك الفكرة التى كانت سببا مباشراً لتفجر الثورة ،فكرة إرسال وفد مصرى إلى مؤتمر الصلح «ان فكرة

---

٨٥ – المرجع السابق.
٨٦ – سعد زغلول – المذكرات الخطية – كراس ٣٢ ص ١٩٤٢.
٨٧ – المرجع السابق – كراس ٣٢، ص١٨٥٨.
٨٨ –الأمير عمر طوسون – مذكرة بما صدر عنا منذ فجر الحركة الوطنية المصرية من ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٨. القاهرة (١٩٤٢) ص ٤.
٨٩ – ماريوس كامل ديب – الوفد وخصومه ١٩١٩ – ١٩٣٩ – (١٩٨٧) – ص٣٩
٩٠ – عبد العزيز فهمى – هذه حياتى – (١٩٦٣) –ص ٧٢.

إرسال وفد رسمى للمطالبة بحقوق مصر فى مؤتمر الصلح. قد خطرت ببالنا بعد ما صرح الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة بمبادئه الأربعة عشر المشهورة في ٨ يناير ١٩١٨. وقد دفعنا ذلك إلى التكلم فى أول الأمر مع المرحوم سعد زغلول باشا لشخصيته البارزة في الهيئة الاجتماعية وفى الجمعية التشريعية فاستصوبنا هذا الرأي. وبعد ذلك لم يبلغنا خبر من سعد باشا، ولكن سعيد باشا أبلغنا أنه سمع أن سعد باشا ساع فى المشروع وإقترح علينا أن نتوجه إلى القاهرة لمقابلته. وكان قد بلغنا خبر بأن سعد باشا يريد الانفراد بالمسألة»[٨٨].

والحقيقة ان فكرة إرسال وفد مصرى إلى مؤتمر الصلح كانت «تراود الجميع تقريباً، وقد ولدت أساساً فى صفوف الاعضاء البارزين في حزب الامه القديم».[٨٩]

وكان من أكثر هؤلاء الاعضاء إنشغالا بهذه الفكرة «احمد لطفى السيد، سعد زغلول ، محمد محمود، على شعرواى، عبد العزيز فهمى».[٩٠]

ويؤكد البعض أن السلطان فؤاد كان أيضا مؤيداً لهذه الفكرة إذ يقرر «كان يكمن خلف فكرة إرسال هذا الوفد تأييد خفى من الملك فؤاد وحسين رشدى باشا رئيس الوزراء، وأيدها أيضا الامير عمر طوسون، وعدلى يكن، وزير المعارف، ربما بهدف تحسين صورتهم أمام الجماهير بعد تورطهم في قبول الحماية، وربما لاعتقادهم أن ثمار الاستقلال قد أصبحت يانعه وسهله المنال»[٩١] لكن البعض قد تجاوز حدود المبالغة المقبوله إذ قرر «ان الملك فؤاد كان المحرض الأساسى على هذا التحرك وكان المحرض الاساسى على الثورة »[٩٢].

والحقيقة أن منافسة شديدة كانت تجرى بين فؤاد والامير عمر طوسون على لعب دور فى عمليه المطالبة بالاستقلال سعياً وراء إكتساب نفوذ سياسى يمكن إستثماره لكسب شئ ما من الانجليز.

وفيما كانت المشاورات دائرة لتشكيل وفد يضم سعد زغلول وقيادات من حزب الامة القديم بدعم من الملك وحسين رشدى وعدلى يكن، كان الامير عمر طوسون يسعى لتشكيل وفد آخر يضم محمد سعيد باشا واسماعيل صدقى وعدد من قيادات الحزب الوطنى.لكن سعداً قاوم بشده أى دور للامير عمر طوسون «لأن هذا سوف يوحى بأن الحركة تستند إلى العائلة المالكة وليس إلى الشعب»[٩٣].

وكان سعد حريصاً على أن يمثل الوفد كل التيارات السياسية، ففى ١٤ نوفمبر أى بعد يوم واحد من مقابله

---

٩١ – ماريوس كامل ديب – الوفد وخصومه – المرجع السابق.

92 - P.M.Holt.ibid. p.348.

٩٣ – سعد زغلول – المذكرات – الكراس ١٧. ص١٨٤٦ – عن يوم ١٥ نوفمبر ١٩١٨

٩٤ – عبد الرحمن الرافعى – ثورة ١٩١٩ – جـ ١ – ص٩٤.

٩٥ – سعد زغلول – المذكرات – كراس ٣٢ – المرجع السابق .

الزعماء الثلاثه للمندوب السامى، أعلن تشكيل الوفد من سعد زغلول – على شعراوى – عبد العزيز فهمى – محمد محمود – احمد لطفى السيد – عبد اللطيف المكباتى – محمد على علوبه . والاخيرين كانا قريبين من الحزب الوطنى، أما الآخرون فكانوا من قيادات حزب الأمة القديم.

لكن سعد زغلول قرر أن يعزز تمثيل القوى الأخري فضم مصطفى النحاس وكان من رجال الحزب الوطنى»(٩٤).

المهم إستقر الأمر على إستبعاد الامير. وكان هذا أيضا رأى السلطان فؤاد الذى كان يخشى من منافسة عمر طوسون له.

ثم بدأت الخطوه الأولى.

ويكتب سعد فى مذكراته «وقد خطر ببالنا ان نزور السيروينجت ونعلمه ضمناً بسفرنا، ونسأله عن نية دولته إزاء مصر، فحدد لنا يوم الاربعاء ١٣ منه [نوفمبر ١٩١٨] فذهبت مع على باشا شعرواى وعبد العزيز فهمى وجرى لنا معه حديث طويل»(٩٥).

والحقيقة أن دار المندوب السامى كانت تتابع التحركات حول موضوع إرسال وفد لمؤتمر الصلح باهتمام بالغ. وقبل زيارة الوفد للسير وينجت بأربعة أيام كتب وينجت إلى حكومته برقية عاجلة تقول: برقية رقم ١٨٦٠٩٠.

٩ نوفمبر ١٩١٨

الموضوع: مستقبل مصر.

ليس بمستبعد أن يكون لمبدأ حق تقرير المصير أثره على الوطنيين المصريين وسوف يرغبون في تطبيق المبدأ عليهم تحقيقا لآمال الوطنيين الفلاحين – يطلب توجيهات حكومة جلالة الملك».

وبتاريخ ١١ نوفمبر أي قبل المقابلة بيومين تلقى وينجت الرد التالى:

«برقية رقم ١٣٦٨

التاريخ ١١ نوفمبر

إلى السير وينجت .. بالأشارة إلى برقيتكم الخاصة بتاريخ ٨ نوفمبر. نحن لا علم لنا بوجود المطالب الوطنية التى أشرت إليها، ولا بالطريقة التى ستتقدم بها، ولابد قبل إدخال أى تعديل على النظام القائم في مصر من بحث عميق، وأخذ رأى المسئولين الانجليز والمصريين.

وأود أن أوكد لك اننا سوف لا نتخذ قراراً فى هذا الشأن الا بعد التشاور معك.

امضاء

سير رونالد جراهام

الوكيل المساعد لوزارة الخارجية

وهكذا يتضح لنا أن الانجليز كانوا بعيدين تماماً عن التصور الصحيح لحقيقة ما تموج به مصر من تحفز، ولطبيعة التحرك الثورى المقبل.

وعلى أية حال وفى ضوء التعليمات التى تلقاها وينجت من حكومته إستقبل سعداً وصاحباه «وقد وقع الاختيار عليهم لأنهم كانوا أول من إشترك فى الوفد من أعضاء الجمعية التشريعية».

وأمامنا روايات عديدة للحوار الذى جرى في هذا اللقاء. قد تختلف عن بعضها البعض فى عدة ألفاظ أو ترتيب وقائع اللقاء، لكنها متقاربة بحيث تصلح أى منها كمادة صالحة للفحص التاريخى، ولنعتمد هنا على رواية العقاد أقرب مؤرخى سعد اليه، قال وينجت «ان الصلح إقترب موعده. والعالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمنا طويلا. وإن مصر سينالها خيراً كثيراً وإن الله مع الصابرين. فرد عليه سعد قائلا:إن الحرب كانت كحريق إنطفأ ، ولم يبق إلا تنظيف آثاره، وإنى أظن أنه لا مجال لدوام الأحكام العرفية، ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات، والناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كى ينفسوا عن أنفسهم، ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنين، فوعد السير وينجت بالكتابة الى حكومته فى هذه المسألة بعد الاتفاق مع القائد العام. وقال: ويجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت انكلترا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت لمصر وما يلزمها، ولكن لا يكون الأمر إلا خيراً. فقال سعد: الهدنة عقدت، والمصريون لهم حق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم، ولا مانع يمنع من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انكلترا لهم.

فقال السير ريجنالد وينجت يجب ألا تتعجلوا، وان تكونوا متبصرين في سلوككم. فأن المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة. فاستفسره سعد معنى كلامه قائلا: إن هذه العبارة مبهمة ولا أفهم المراد منها. ففهم السير ريجالند أن سعداً قد إستاء لأنه إعتقد أن الكلام موجه اليه، وأراد أن يقول أنه لا يعنى المصريين مثله وإنما يعنى الرأى العام فاستدرك قائلا : أريد أن أقول أن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر. فأجابه سعد لا أستطيع الموافقة على ذلك، لاننى إن وافقت عليه أنكرت صفتى، فإني منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة، وكان إنتخابى بمحض إرادة الرأى العام، مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر فى إنتخابى، وكذلك كان الأمر مع زميلى على شعرواى باشا وعبد العزيز فهمي بك.

وبعد مناقشة وجيزة قال شعراوى باشا: إننا نريد أن نكون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للسيد، فصاح وينجت دهشاً : إذن أنتم تطلبون الاستقلال. فأجاب سعد نعم. ونحن أهل له. وماذا ينقصنا

---

٩٦ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص١٩٧ - ١٩٨.

ليكون لنا إستقلال كباقى الامم المستقلة؟.

ثم قال بعد إستفاضة: متى ساعدتنا انجلترا على إستقلالنا التام فإننا نعطيها ضمانة معقولة عن عدم تمكين أية دولة من إستقلالنا، والمساس بمصلحة انكلترا. فنعطيها ضمانة فى طريقها إلى الهند وهى قناة السويس بأن تجعل لها دون غيرها حق إحتلالها عند الاقتضاء، بل نحالفها على غيرها، وتقدم لها عند الاقتضاء ما تسلتزمه المحالفة من الجنود.

وبعد حوار طويل ختم سعد الحديث قائلا: نحن نعترف الآن أن انجلترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية، وإننا نعترف لها بالأعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر، فنطلب باسم هذه المبادئ أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر، وإننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخصا لهذه الدولة العظيمة، وعند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الأمور فى انكلترا، ولا نلتجئ هنا لسواك، ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانكليزية. ونطلب منك بصفتك عارفاً لمصر مطلعاً على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب»[٩٦]

ولنتوقف عند هذا الحوار قليلا، لنلاحظ أولا أن سعد كان يتحدث ولأول مرة كممثل لمصر، وأن الزعامة قد إتخذت طابعها الرسمي والفعلى. ولنلاحظ ثانيا أن هذه الزعامة كانت برغم تفوقها على الآخرين فى فهم طبيعة مطالب ومشاعر وأمانى مصر فانها كانت لم تزل بعيدة كل البعد عن تفهم حقيقة الارادة المصرية التى توشك أن تنفجر، لتكتسح أمام طوفانها الثورى كل الشعارات المعتدلة، والكلمات المطاطة عن صداقة الحر للحر، وعن المحالفة ، والصداقة، وتقديم العون والجنود.. الخ.

المهم أن الوفد الثلاثى خرج من عند وينجت ليحاول أن يستجمع المزيد من النفوذ، وأدرك سعد أن الأعيان الذين وصفهم فى مذكراته بأنهم يوجهون إليه «أسئلة تشف عن سوء الظن وعدم الثقة. وما من أحد منهم قدم لنا مساعدة مادية أو أدبية» لا يمكن أن يكونوا سنداً حقيقياً للمجابهة المقبلة. فحاول الاعتماد على جماهير الشعب مستنداً إلى خبرة الثورة العرابية فى جمع التوكيلات. وبالفعل بدأت حملة واسعة لم تشهد لها البلاد مثيلا فى جمع التوقيعات لتفويض الوفد للسعى في تحقيق الاستقلال « بالطرق السلمية المشروعة».

ومع إتساع هذه الحركة بدأ المعتمد البريطانى يشعر بالخطر فبذل محاولة لعزل سعد عن جماعة الاعيان. أو بالدقة عزل جماعة الاعيان عن تأثير سعد ونفوذه، وذلك فى محاولة ذكية لتجريد سعد فى أول خطواته العملية من أحد مقومات زعامته ، وهى قدرته على إستقطاب جماعات الاعيان لصالح حركته.

ويبرق وينجت إلى حكومته «.. وقد بلغ إلى علمى أن الدعاية للا ستقلال التام منتشرة فى الاقاليم بواسطة

---

97 - Public Record Office,371/3204 - No. 205263 - Dictated 24 th November 1918.

منشورات موقع عليها من قبل أعضاء الجمعية التشريعية، وأن هؤلاء الاعضاء إنتدبوا سعد زغلول وأعضاء حزبه ليكونوا ممثلين عنهم، وقد طلب محمد باشا سعيد وهو رئيس وزراء سابق ورجل معروف بتعاطفه مع الاتراك مقابلتى، فقابلته فى الثانى والعشرين من هذا الشهر. وقال محمد سعيد أنه يفعل ما فى وسعه للحيلولة دون إنضمام المعتدلين إلى المتطرفين. وانه يلقى بعض النجاح فى مهمته»[٩٧] انها أولى محاولات الفرز، كبار الاعيان ذوي الميول التركية الذين كانوا يكرهون الانجليز ويشجعون خصومهم ميلا للاتراك، بدأوا يستشعرون الخطر من لجوء سعد الى القاعدة الجماهيرية. فقد أدركوا أن اقتحام جماهير الشعب المصرى ميدان المطالبة بالاستقلال التام سوف ينتهى بالقضاء على النفوذ الانجليزى والتركى معا وسوف يهدد المصالح الاقتصادية والاجتماعية لكبار الاعيان.

لكن سعداً يمضى فى طريقه مستجمعا قوى الطرفين معاً.

الجماهير توقع له العرائض، والاعيان يحاول أن يسترضيهم وأن ينال تأييدهم وهكذا عقد فى بيته إجتماعاً حضرته غالبية (٦/٥) أعضاء الجمعية التشريعية، حيث كرسوا زعامة سعد وفوضوه فى السعى لتحقيق الاستقلال وقرروا أن جميع القوانين التى إستنت فى غيبة الجمعية منذ إيقاف إجتماعاتها قبيل الحرب وحتى إجتماعها هذا تعتبر لاغية وغير معمول بها. وأكدت الجمعية على حق مصر فى الاستقلال التام. وأن المتحدث الوحيد باسم مصر هو سعد زغلول. [٩٨]

ويمضى سعد فى طريقه قدماً رغم وجود منافس خطير له على الزعامة هو عدلى يكن.

يجمع توقيعات جماهير الشعب. ويستجمع معه نفوذ وتأييد الأعيان. وكان هذا هو ما يميزه عن غيره ممن طمع الاعيان فى إحلالهم محل سعد فى قيادة الحركة. كان سعد يتحدث إلى الاعيان مستنداً إلى تأييد الجماهير ويتحدث إلى الانجليز معتمداً على مساندة الشعب والأعيان.

أما عدلي فهو كما يصفه رجل وثيق الصلة بالاحداث (محمد كامل سليم - سكرتير سعد زغلول) «مجرد رجل ديوان، أرستقراطى، فيه دم تركى أجنبى، عظيم الثراء. نبت في بيئة الحكام،وليس فى قلبه ما يضرم الشوق إلى الحرية والاستقلال. ثقافته فرنسية،ونشأته وتربيته وعاداته فرنسية، وتعلم الانجليزية على كبر، وكان أقدر على الكلام بالفرنسية أضعاف قدرته على الكلام بالعربية العامية، ولم يعرف العربية الفصحى ولم يقرأ كتابا من كتب الادب العربى. رجل مصالح أولا وأخيراً ولا يعنى بسواها . ويرى أن المساومة وحدها هى سر

98 - Chirol, IBID - p.275.

النجاح. متكبر لا يترك أية عاطفة تسيطر عليه، فهو يقلد الانجليز فى البرود. ولا يسمح لأية عاطفة أن تفوت عليه مصلحة يريدها. وعدلى ورشدى فى هذا كله توأمان متفقان ومنسجمان»[٩٩]

رجل كعدلى كان كفيلا باستحواذ أكبر قدر ممكن من رضاء الانجليز والسلطان والاعيان، وقد ظل هذا الثالوث منذ البداية وحتى النهاية يرغبون فى فرضه زعيماً.

لكن مصر كانت قد صنعت زعيمها الذى ترتضيه وحددت مواصفاته. ذلك الزعيم الذى إستحوذ عبر تعقيدات عديدة على صفات متداخلة ومتناقضة – فى الظاهر – أهلته جميعاً لخوض ميدان الزعامة الرحب، وليصبح أكثر زعماء مصر الحديثة شعبيةً ونفوذاً. وقد عزز سعد زعامته ومنذ اليوم الاول باللجوء المباشر والحاسم إلى الجماهير، بمطالبته بتوكيلها له. وماكان للجماهير أن تختار عدلى أو أى من أمثاله. فقد أرادت مصر زعيماً مصرياً وإختارت سعد. وكان سيل التوقيعات المنهمر كفيلا باعلان إرادة مصر، سعد هو الزعيم الاوحد للثورة التى توشك أن تنفجر.

---

٩٩ – محمد كامل سليم – أزمة الوفد الكبرى – سعد وعدلى – كتاب اليوم العدد ١٠٧ – ص٤.

* * *

وبينما كان سعد يستجمع أواصر الزعامة ليقود شعب بلاده كان الانجليز بعيدين تماما عن إدراك حقيقة ما يموج فى صدر مصر.

ويرسل وينجت إلى حكومته فى ١٨ نوفمبر:

«إستقبلت ٣ من المصريين هم سعد باشا زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى باشا شعراوى. وجميعهم كما تعرف من السياسيين ذوى الآراء المتقدمة، وقد جاءوا ليدعو لبرنامج للاستقلال الذاتى التام لمصر لا يترك لبريطانيا العظمى الا حق الاشراف على مسألة الدين العام والتسهيلات الخاصة لسفننا التى تعبر قناة السويس، وهم لا يلتزمون بوسائل مصطفى كامل ومحمد فريد، وإن كانوا يتفقون مع مبادئهما إلا انهم يحملون لنا العرفان بالجميل والصداقة، كما انهم أعربوا عن رغبتهم فى السفر الى لندن ليتقدموا بمطالبهم . ولقد نددت بأقسى الالفاظ بالحركة الوطنية السابقة، كذلك أبديت لهم نقداً صريحاً لمختلف وجهات نظرهم، وكررت لهم التحذير من أن عليهم أن يتحلوا بالصبر وأن يضعوا موضع الاعتبار الكثير من إلتزامات حكومة صاحبه الجلالة»(١٠٠)

وحتى هذا الموقف اللامبالى الذى إتخذه وينجت من الحركة الوطنية، وتجاهله التام لمطالبها، لم يعجب المسئولين فى الخارجية البريطانية . وتعليقا على برقية وينجت كتب رئيس القسم المختص بوزارة الخارجية البريطانية مذكرة سرية يقول فيها «ليس بين الوطنين الثلاثة من يستطيع أن يزعم أنه ممثل للشعب المصرى، فسعد زغلول وعبد العزيز فهمى محاميان وسجلهما معروف. وربما كانا يمثلان طبقة معينة من المثقفين الانتلجنسيا ولكن سعد زغلول قد حط من شأن نفسه كثيراً. وقد أدهشنى أن أرى على باشا شعراوى متصلا بهذين الرجلين فهو من أصحاب الاراضى الواسعة فى مديرية المنيا، وهو عضو فى الجمعية التشريعية، ولكنه عارض كل إقتراح للاصلاح، كضريبة الدخل أو رسوم التركات أو القيود الخاصة بزواج الاحداث. وهو متعصب ولا يتكلم إلا العربية وغير محبوب لدى الفلاحين. وأنه لمن المؤسف أن يلقى هؤلاد المصريين الثلاثة أى تشجيع من السلطان.

كذلك فانه لما يؤسفنى أن سير وينجت لم ينبذ هؤلاء الوطنيين بطريقة أشد حزماً من الطريقة التى إستخدمها. وانه لمن غير المناسب أن يحضر هؤلاء المصريون إلى هنا فى الوقت الحاضر».(١٠١) وأخذت وزارة الخارجية بوجهة النظر هذه، وأرسلت الى وينجت غاضبة «لا يمكن أن نخفى أن تقدم أى من الزعماء المسئولين

---

100 - Public Record Office, 361/3204 - 1903501 - 18 November 1918,No171

101- Public Recort Office - 371/3207 - 18690 - Note.

المصريين بمثل هذه المطالب المتطرفة قد أثار شعوراً بالاستياء هنا. وكما تعرف فان المرحلة التى يمكن فيها تحقيق الحكم الذاتى لم تحل بعد وأن حكومة جلالته لا تنوى التخلى عن مسئوليتها تجاه النظام والحكم فى مصر. ليست هناك غاية مفيدة يمكن أن تتحقق بالسماح للزعماء الوطنيين بالحضور إلى لندن، وتقديم مطالب غير معقولة، ولا يمكن قبولها»[١٠٢].

ثم عادت الخارجية البريطانية لتحذر وينجت فى برقية عاجلة تقول « ألاحظ أن الزعماء المتطرفين يستغلون إستقبالك لهم بدار الحماية، وهو عمل جانبه التوفيق، وأنك بطبيعة الحال ستوضح بشكل كامل أنك تنظر إلى أعمال الاثارة هذه وإلى جميع من يشتركون فيها نظرة عدم الرضا.. أن زعماء الحركة ليس لهم وزن كبير، ولكن الحركة يمكن أن تصبح ببساطة حركة خبيثة،بل يمكن أن تتسبب فى فتنة اذا ما سمح لها بأن تمضى دون أن تكبح».

وبخط يده علق وكيل الخارجية البريطانية على البرقية قائلا « أن سير وينجت يبدو ضعيفاً إلى درجة مخزية»[١٠٣] .

وبينما الصراع يجرى بين الخارجية البريطانية المتشددة ومعتمدها الضعيف فى القاهرة، كان سعد يسير قدما فى طريق فرض الزعامة وإكسابها المحتوى الرسمى والقومى معا.

وكانت خطة سعد تتلخص فى جمع توكيلات من الجماهير ليستخدمها في تزعم حركة من الاعيان. وعندما تألف الوفد المصرى نص فى المادة الأولى لقانونه أنه مكون «من حضرات سعد زغلول باشا، على شعراوى باشا، عبد العزيز فهمى بك، محمد على بك، عبد اللطيف المكباتى بك، محمد محمود باشا، أحمد لطفى السيد بك، اسماعيل صدقى باشا، سينوت حنابك، حمد الباسل باشا، چورچ خياط بك، محمود أبو النصر بك، مصطفى النحاس بك، والدكتور حافظ عفيفى بك».

وجاء فى المادة الثانية «مهمة هذا الوفد هى السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى إستقلال مصر إستقلالا تاماً» وفى المادة الثالثة «الوفد يستمد قوته من رغبة أهالى مصر التى يعبرون عنها رأسا أو بواسطة مندوبيهم بالهيئات النيابية» وفي المادة الخامسة «لا يسوغ للوفد أن يتصرف في المهمة التى إنتدب لها، فليس للوفد ولا لأحد من أعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود الوكالة التى يستمد منها قوته : وهى إستقلال مصر إستقلالاً تاما وما يتبع ذلك من التفاصيل» [١٠٤]

ولنا ملاحظات عدة على هذا القانون.

أهمها أن الوفد كله مشكل من باشوات وبكوات وأكثريتهم العظمى من إقطاعيين، وقد تشكلت لجنة مركزية

102- F.O.371 / 3204 - 10035 - W - 16 - NOVEMBER 27 - NO. 1420.

103 - F.O. 371 / 3204 - NO,1463.

١٠٤ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص١٩٥.

١٠٥ د. عاصم الدسوقى – كبار ملاك الاراضى الزراعية ودورهم في المجتمع المصرى – (١٩٧٦) – ص ٢٢٥.

للوفد من ٤٣ عضوا كان عدد كبار الملاك فيها ٣٦ أى بنسبة ٣١ر٨٣٪ (١٠٥).

وثانيا نلاحظ أن سعد قد وازن نفوذ كبار الملاك بنصه على أن «الوفد يستمد قوته من رغبة أهالى مصر» وحدد مهمتهم بالسعى لاستقلال مصر إستقلالاً تاماً وجردهم من أى حق في المساومة على هذا الهدف.

وبهذه التركيبة خاض سعد المعركة.

وقد صمم سعد على أن يرفع صوته منددا بالحماية مطالباً بسفر الوفد لعرض القضية على مؤتمر الصلح لكن السلطات البريطانية رفضت. وبدأ سعد فى المقاومة، لكننا نلاحظ أن هذه المقاومة على أهميتها كانت نوعاً من المقاومة المكتبية بيانات، خطب، برقيات، رسائل ، محاضرات.

ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أن سعداً الذى وجه فى هذه الفترة عشرات البرقيات إلى ويلسن والمعتمدين الاجانب ووجه عدة نداءات إلى الاجانب وإلى الصحف الأجنبية، لم يوجه نداءاً واحداً – في هذه الفترة – إلى شعب بلاده.لكن ذلك لا يقلل من أهمية إصرار سعد على رفع صوته فى مجابهة الاحتلال. وجه سعد ثلاث برقيات إلى الرئيس ويلسن قال فى أولاها «أن مصر لم تقبل مطلقاً الحماية التى ليست إلا عملا من الاعمال الحربية، والتى مع كونها مناقضة لآمالنا فى الاستقلال، فهى مناقضة أيضاً للحقوق التى كسبناها من تركيا من زمان بعيد »(١٠٦)

والجدير بالذكر أن ويلسون لم يوجه الى سعد أى رد علي برقياته الثلاث.

وإلى الأجانب وجه سعد نداءً يقول فيه: «نحن نبغى أن نستقل بشئون بلادنا في شكل حكومة دستورية حتى تصلح من حالنا الاجتماعية ما يفسده عادة حكم الأجنبى عمداً ومن غير عمد. وينبغى أن نظل كاسبين ثقة الأجانب نسهل لهم وسائل ما يزاولونه من الأعمال التجارية والصناعية فى بلادنا، ونرعى مالهم من الامتيازات خير رعاية».

ووجه برقية إلى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام جاء فيها «مهما يكن من الاتفاق المزعوم حصوله على المسألة المصرية فان الحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا مناقض لما إتفق عليه جميع الحلفاء، باسم الانسانية التى تأبى أن تكره الأمم على أن تنتقل من يد إلى يد أخرى، كما تنتقل ملكية السلع، نناديك من وراء البحر أن لا تتخذ سكوتنا الاكراهى الذى هو النتيجة الطبيعية لحبسنا فى حدود بلادنا دليلا على رضانا بسيادة الغير علينا وان لا تسمح بالحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا»(١٠٧)

وفى ١٣ يناير ١٩١٩ أقام حمد الباسل حف شاى فى بيته حضرها عدد كبير من الاعيان وألقى سعد خطاباً ضافياً هاجم فيه الاحتلال والحماية وقال «إننا أمام القانون الانسانى أحرار من كل حكم أجنبى، فلا ينقصنا

١٠٦ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص٢٠٦.
١٠٧ – المرجع السابق – ١٠٦

إلا أن يعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال».

وخلال محاضرة فى جمعية الاقتصاد والاحصاء والتشريع طلب سعد التعليق علي المحاضرة، فاذا به يخرج عن الموضوع تماماً منتهزاً الفرصة ليقول «أعلنت إنجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا»[١٠٨]

وتحت ضغط الاحداث طلب رشدى باشا رئيس الوزراء السفر إلى مؤتمر الصلح، فرفضت السلطات البريطانية فاستقال. ثم سمح له بالسفر فأصر على أن يسافر «الوفد» معه، فرفض الانجليز فصمم على إستقالته.

وإنتهز سعد هذه الفرقة التى حدثت فى صفوف الاعداء ليوجه ضربة جديدة، فأرسل عريضة إلى السلطان فؤاد خاطب فيها السلطان بلهجة عنيفة وحذره من أن يكون قبوله للعرش فى ظل الحماية «من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم» ثم يحذره مرة ثانية من أن مستشاريه لم يلتفتوا إلى أن يطلبوا منه «أن يكون حريصا على نيل مصر لاستقلالها». ثم يمضى سعد متسائلا «كيف فات مستشاريكم أن إستقالة رشدى لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية أن يخلفه فى مركزه؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل»؟.

وعقب هذه الرسالة أبرق المعتمد البريطاني يطلب الاذن باعتقال سعد ونفيه فجاءه من لندن الرد السريع بالقبول وكان سعد يدرك ذلك، ويدرك أن الانجليز ضاقوا به وبتحركاته . وأخذ في الأيام الاخيرة يردد «لابد من قارعة».

ولم يكن سعد يخشى هذه القارعة. بل كان يتمناها، فقد كانت المخرج الوحيد أمامه فقد أرسل كل البرقيات والنداءات التى يمكن أن يرسلها، والتوجه إلى عملية تحريك الجماهير مسأله غير واردة، لدى الكثيرين، والالتزام صريح بالسعى «بالوسائل السلمية المشروعة» والقيادة كلها من الاعيان الذين يرتعدون من أية حركة جماهيرية.فماذا بقى أمام الزعيم سوى الاعتقال كمخرج، وربما كسبيل للبحث عن أساليب جديدة للعمل.

وكان سعد يدرك ذلك ويتمناه . بل لعل برقيته إلى السلطان كانت تستهدف تحقيق هذه الأمنية «وفى مساء اليوم التالى لارساله البرقية قال لعضو من أعضاء الوفد أن الجماعة لم يأتوا بعد (يقصد لم يأتوا لاعتقالنا بعد) ثم قال: هذا ليس بنافع، أنهم أما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا، والا فهم يتركونا نموت فى مواضعنا» [١٠٩].

لا طريق آخر أمام سعد. إما السفر أو الاعتقال، والطريق الثالث هو الموت. لم يفكر سعد فى ثورة شعبية ولا

---

١٠٨ – المرجع السابق – ص٢١١.

١٠٩ – المرجع السابق – ص٢٢١.

تخيلها. تلك هى الحقيقة التى يتعين التركيز عليها، فلو أحس سعد بامكانيات ثورة عارمة كتلك التى وقعت بعد ٢٤ساعة فقط، لما تمنى الاعتقال كمخرج من ورطة زعيم محاصر، لا يتخيل أن شعبه يمكنه أن يتحرك ولو أقل حركة.

ولكن مصر كانت دوماً هكذا، تختزن ثورتها فى حرص، وتنميها فى دأب، ولا تفصح عن نواياها مطلقاً، وتبدو وحتى اللحظات الاخيرة وكأن الخمول مخيم عليها الى الابد، ثم فجأة يتفجر الاعصار الثورى بصورة لم يتوقعها أحد.وقد حقق الانجليز لسعد ما تمناه وأعتقلوه.

وكان إعتقاله بداية لتفجر الثورة، وكان أيضا بداية لفرز حاسم وعميق الجذور فى صفوف المصريين، فقد أصبحت قيادة الوفد الباقية في مصر فى مأزق غريب. إنها تقود ثورة مفروضة عليها، ولم تتوقعها مطلقا، وتقود جماهيراً لا ترضخ لتعليماتها بالهدوء.

يقول العقاد أن سعداً نفسه «كان رأيه ان الثورة عمل شاق على بلد مرهق بالأعباء مشحون بالجند والسلاح والأرصاد»(١١٠)

بل هو يقدم لنا شهادة بالغة الاهمية فيقول «إن أناساً كثيرين – ومنهم بعض المصريين– ليعجبون إذا عرفوا الآن أن هذه الثورة المفاجئة لم يقع فيها تنظيم ولم تكن فيها رئاسة مدبرة على الاطلاق، وأن مظاهرة الطلبة الأولى وقعت على غير علم سابق من الوفد، بل على خلاف النصيحة التى سمعها الطلبه من بعض أعضائه . لكنها هى الحقيقة التى نذكرها. فإن الطلبة أصبحوا مضربين في مدارسهم يوم المظاهرة، وهم مختلفون في الخروج أو البقاء، ثم خطر لفريق منهم أن الخروج ربما خالف مشيئة الوفد وأفسد عليه رأيا يفكر فيه، أو خطة يتوخاها، فبعثوا إلى بيت الأمة أفراداً منهم يستفسرون. وهناك إلتقى الوفد بالأستاذ عبد العزيز فهمى فإنتهرهم إنتهاراً شديداً وهو يقول

«ان المسألة ليست لعب أطفال، دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا نار الغضب إشتعالا عند القوم».

لكن مظاهرة الطلاب خرجت، وكانت المفجر الفعلى للثورة، وأضرب عمال الترام بعد الظهر، وفى اليوم التالى كانت القاهرة كلها في حالة أضراب شامل.

لكننا نخطئ إذ نتصور ان الثورة كانت منسقة الخطى ذات تعبير متناغم وموحد.

ولعلنا نستطيع أن نستشف حقيقة هذا التفاوت بين الشعب والاعيان والذى إستطاع سعد أن يتملك زمام الجماهير من خلال فهمه، من هذه العبارات التى أوردها فكرى أباظة فى وصفه لأحداث الثورة فى أسيوط «ويزحف البؤساء العزل زحف الأسود الكاسرة على مستودعات الذخيرة المحلية، وعلى سلاح البوليس

---

١١٠ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص٢٣٩.

فيتخاطفونه تخاطفاً، ويتقلدونه فارغاً ومملوءاً، ويتكون فى لمح البصر جيش الثورة من لابسى الجلاليب.

اما البيوت الكبيرة فقد أوصدت أبوابها، وأوقف حولها الحراس خوفاً من الثورة. الثورة ضد الانجليز، والثورة ضد الثروة، نعم كانت هناك ثورة ضد الانجليز يقودها بعض المتنورين، وثورة ضد الثروة يقودها الاشرار الفقراء.وأخذ هذا الجيش يحيط بقصر محمد محمود أحد قاده الثورة المنفيين فى مالطه، وكانت صفائح البنزين تكوم على محاذاه جدار القصر ويوشك الثائرون ان يشعلوها بالكبريت. وقلت لهم : هذا قصر محمد محمودأحد قادة الثورة، فقال وحش من الوحوش: إسكت. هل وزع محمد محمود أرغفة العيش على الجائعين؟»[111]

مثل هؤلاء الفلاحين لم يكن من الممكن أن يخضعوا لقيادة كبار الملاك ولا لشعاراتهم المعتدلة، ولا إلى صرخاتهم وتضرعاتهم بالكف عن العنف، أى بالكف عن الثورة. وإلا كيف يمكن لفلاح أسيوط الذى إنتزع السلاح وحمله ليحرق قصر الباشا أحد قادة الثورة وليحارب به الانجليز فى وقت واحد أن تقنعه كلمات بيان قادة الوفد الذين بقوا فى مصر والتى تقول: «إن الاعتداء على الأنفس وعلى الأملاك محرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية. وإن قطع طرق المواصلات، يضر أهل البلاد ضرراً واضحاً، إذ يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ويوقف حركة نقل المحاصيل والأرزاق ومثل هذا العمل يضيع على المصريين ما ينتظرونه من عطف عليهم».

ولم يكن من الممكن أن يقنعه بالاكتفاء بشعار مقاطعة البضائع الأجنبية ولا بالقسم «أقسم بالله وبسعد فى منفاه أن أقاطع جميع البضائع الانجليزية واللغة الانجليزية وكل من له علاقة بالانجليز. وأن ألبس الحداد حتى يعود سعد وزملاوه».

وبإختصار كان سعد يقود ثورتين. ثورة الجماهير التى تريد الاستقلال والخبز معاً، وثورة المعتدلين من كبار الملاك التى تخشى حركة الجماهير، بل وتخشى سعداً نفسه أكثر مما تخشى الاستعمار، وتريد أن تهادن الاستعمار وأن تناور معه حتى تحصل على أى إستقلال شكلى يكفل لها أية سلطة من نوع ما.

وكان شعراء وفنانو ثورة الفقراء يصوغون موقفهم شعراً ساخناً متفجراً كفيلا بأن يثير الرعب والفزع فى قلب الاغنياء .

وكنموذج نقدم أبياتاً من قصيدة للشاعر عبد الرحمن سالم الذى أسمى نفسه شاعر الفقراء:

برح اليوم بالظهور الخفاء

فكلوا الأغنياء يا فقراء

---

١١١ – فكرى أباظة – الضاحك الباكى – ص٤٣.

١١٢ – محمد سيد كيلانى – السلطان حسين كامل، فترة مظلمة فى تاريخ مصر – (١٩٦٣).

دخل البؤس بالشقاء علينا

إذ سكتنا وخلفه البأساء

إمضغوهم وعلقوا الاثم فى جيدى

فهم بإنتحارنا الأثماء

وإبلعوهم وكلكم مستعد

لابتلاع الاحجار لولا الحياء

وأميتوا عواطف اللين إن لانوا

فماذا أفادنا الاحياء(١١٢)

وعبر هذا الفارق بين الثورة والقيادة المعتدله إستطاع سعد ان يمرق ليقود الثورة منفرداً وبلا منازع.

* * *

وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية وبناء على نصيحة اللبنى تصريحاً من جانب واحد ينص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ولكن بتحفظات أربعه. وأعلن الاستقلال فى ١٥ مارس، وتغير لقب السلطان فأصبح جلالة الملك المعظم فؤاد الاول. ورفض سعد هذا التصريح وإعتبره ثمرة مريرة«لمفاوضات أجرتها أقلية منشقة، وهو ليس سوى كارثة وطنية وتنازلا عن الحقوق».(١١٣)

هذا بينما إعتبر المعتدلون «هذا التصريح خطوة كبيرة فى طريق إعداد الشعب للاستقلال، وتدرجه فى طريق النضج الدستورى»(١١٤)

وكانت الجماهير مع سعد «ففى ١٨ مارس وفيما كان الملك عائداً من إستعراض عسكرى وجد الجماهير محيطة بقصر عابدين وهى تهتف «يسقط السلطان» «يحيا سعد». وفى الاسكندرية قام المصلون فى مسجد أبو العباس يوم الجمعة ١٧ مارس بإنزال أمام المسجد من فوق المنبر عندما بدأ فى قراءة إعلان تغيير لقب السلطان. وهتفوا ضد السلطان والوزارة وبحياة سعد زغلول. كذلك رفض الطلاب الوفديون إعتبار يوم ١٩ مارس أجازة رسمية كعيد للاستقلال، وساروا في الشوارع يحطمون الزينات والانوار»(١١٥)

ولعل هذا الالتهاب الجماهيرى هو الذى منح سعداً القدرة علي مواجهة المعتدلين فى الوفد، والذين كانوا يمثلون الاغلبية. بل والقدرة على الترفع عليهم جميعاً. «وعندما كان الوفد في باريس دخل عبد العزيز فهمى

---

١١٣ – د. جلال يحيى، د. خالد نعيم – الوفد المصرى، ١٩١٩ – ١٩٥٢ – (١٩٨٤) ص١٨٢.

١١٤ – محمد زكى عبد القادر – محنة الدستور، ١٩٢٣ – ١٩٥٢ – (١٩٧٣) ص١٩.

115 - FO.- 407/193. ENCLOSURE NO.4.Report On general Sit uation in Egypt From 16 to 22 March 1922.

١١٦ – طارق البشرى – سعد زغلول يفاوض الاستعمار. (١٩٧٧) –ص ٢٧.

ومعه جماعة المعتدلين على سعد فى مقره. قال عبد العزيز فهمى «أسقطت يا سيدى من حسابك ومن تفكيرك أموراً [وراح يعدد مصادر قوة الاحتلال ومظاهر ضعف مصر، وإفتقارها للمعين] وبرر بهذا قبول تقرير ملنر. فقال سعد فى إحتقار ظاهر «كيف يجوز لك ان تزعم أننى أسقطت كل هذا من حسابى.. إنما أنتم أسقطتم من حسابكم ومن تفكيركم أن فى أعناقكم أمانة، وهى السعى والجهاد للحصول على الاستقلال التام، وليس لكم أن تقبلوا أول شئ، أو أى شئ يعرض عليكم، مادام دون الاستقلال بمراحل. أنتم تتلمسون المعاذير، وتستطيلون أمد الجهاد، وتريدون خيانة الامانة عن عمد وسبق إصرار».(١١٦)

وإستمر سعد فى هجومه على تصريح ٢٨ فبراير وعلى من قبلوه من زمرة الاعيان المعتدلين فقال فى خطاب له فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٣:«جاءوا بتصريح ٢٨ فبراير على صوت المدافع وأزيز الصدور التى كانت تغلى غضباً.

وأقاموا للمجئ به إحتفالا رسمياً ليخدعوا الأمة عن المعنى الحقيقى لاستقلالهم المزيف. ذلك الاستقلال الذى إلتقط السماسرة حرزه من سوق المستعمرين، وثبتوه فى طوق الحماية، ولفوه فى «بقجة» من الأضاليل، فما إغتررتم بما زخرفوا، وبما زينوا، ورفضتم أن تشتركوا فى إحتفالهم»(١١٧)

وكان هذا الموقف المتشدد من جانب سعد زغلول سبيلا لتحقيق تمايز واضح وحاسم. الجماهير مع سعد أو سعد مع الجماهير فى جانب. والمعتدلون معزولون ومطرودون من ساحة الشعب.

وكم سار المتظاهرون أمام قصور هؤلاء المعتدلين هاتفين «خراباً ، خراباً ديار العدليين». ووصل الأمر ان كتب أحد الباحثين «كان لحملات سعد زغلول هذه بالغ الاثر فى وجدان الشعب المصرى، ظن معه الناس أن هؤلاء المعتدلين قد باعوا الوطن للانجليز، وانهم خرجوا من دينهم وأصبحوا كفاراً»(١١٨).

ويواصل سعد المحتمى بالجماهير تحديه. فعندما تشكلت لجنة الدستور برئاسة حسين رشدى إعترض عليها سعد زغلول، لانها لجنة حكومية «وكان يرى أن وضع الدستور، لابد وأن يكون علي يد جمعية منتخبه من الشعب حتى لايكون منحة يسهل التلاعب بها، لذلك أطلق سعد على لجنة الدستور «لجنة الاشقياء».(١١٩)

ولعل هذه النزعة الليبرالية الصافية قد إستمدت جذورها من شعبيتها «فقد كان الاجماع الشعبى ذا أثر كبير على تصرفات قائد الثورة وعلى أسلوب الزعامة، وعلى إنفراد سعد بهذه الزعامة دون منافس. لانه هو الذى إستطاع ان يتجاوب مع الحس الشعبي الذى أسماه البعض الاجماع الشعبى على أيديولوچية وطنية ليبرالية».(١٢٠)

---

١١٧ - سالم عبد الحميد - الزعيم الخالد (د.ت) - ص٨٢.

١١٨ - د. جلال يحيى، د. خالد نعيم - المرجع السابق - ص١٧١.

١١٩ - على شلبى، مصطفى النحاس جبر- الانقلابات الدستورية فى مصر، ١٩٣٣ - ١٩٣٦ - ص٣٥.

120 - Safran, Nadav - Egypt in Search of plitical Community.(1961) p.107.

١٢١ - طارق البشرى - المرجع السابق - ص٢٦.

كما أن هذا الاجماع الشعبى قد منح سعداً قدرة وشجاعة على تحدى الجميع «الاحتلال – القصر – المعتدلين من الاعيان» وثمة تأكيد لهذا الرأى يقول «وقد يفوت القارئ اليوم ضخامة الشعور الكامن وراء تعبير سعد عن وقفته أمام أقوى دول الارض، فهكذا كانت بريطانيا وقتها، إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، تسيطر على نحو ربع الكرة الارضية، وذات قوة عسكرية، وذات بأس فى البر والبحر، إن إدراك سعد للمغزى التاريخى لتلك الوقفة، حيث تواجه الحركة الوطنية أقوى دول الاستعمار، وإدراكه أنه قوى جداً بالحق والعدل. هذا الادراك هو ما إستحق به سعد أن يكون زعيماً لشعب، وقائداً لثورة.وما كان ليتبوأ مكان الزعامة لولا فهمه لمكامن القوة في شعبه، وقدرته على التعبير عنها»(١٢١)

* * *

أجريت الانتخابات. وإكتسح سعد الجميع بأغلبية كاسحة وشكل سعد الوزارة، وفزع الانجليز من تصرفات سعد ومن تصرفات الجماهير.«سرت فى البلاد حالة من البهجة الشعبية، ويؤكد بعض الموظفين الانجليز أن السلطات المدنية فقدت سيطرتها على الامور، وأن مديرى المديريات فقدوا سلطاتهم التى إنتزعها منهم أعضاء مجلس النواب» (١٢٢)

كذلك «أعرب البريطانيون عن قلقهم إزاء موقف العداء تجاه الموظفين الاجانب والذى أظهرته مصالح معينة وافراد محددون في الحكومة».(١٢٣)

وإشتكى الانجليز كثيراً من أن «مرقص حنا وزير الاشغال قد منع المستشار البريطانى فى الوزارة مستر توتنهام من القيام بأية جولات في الاقاليم، وقام هو بهذه الجولات متباهياً بنجاحه في إحلال موظفين مصريين محل الاجانب»(١٢٤)

ويمضى سعد ليكرس زعامة سياسية وليبرالية فى آن واحد. وبعد فوزه الباهر فى إنتخابات يناير ١٩٢٤ أقام النواب حفلا لتكريمه فى فندق شبرد. وألقى سعد خطاباً قال فيه «إنهم لم يريدوا بتقييد حرية الاجتماعات إلا كتم الشعور الوطنى، ومنعه من أن يظهر، ومنع صوت الحق من أن يعلو، وتمهيد السبيل لحلفاء القوة، وعُبَّاد السلطة، وسدَّه على الاحرار المخلصين. ومـاإبتكروا تعدد الدرجات فى الانتخاب إلا ليحصروا حق إختيار أعضاء البرلمان فى عدد محدود يسهل التأثير عليه بوسائل الترغيب والترهيب»(١٢٥).

وحتى عندما تولى سعد الوزراة فقد حرص على أن يتمسك بكل المبادئ التى نادى بها خلال الثورة. ورداً

---

122 - F.o - 407/198.No.134 - ALLenby to Macdonald - 13 March 1924.

123 - F.o - 407/199 - No.224 . Memorandum read by Macdonaled to Zaghlol..

124 - F.O - 407 /199 - No. 31 - Kert to Macdonald,Jan -10- 1924.

١٢٥ – محمد ابراهيم الجزيرى – آثار الزعيم سعد زغلول – جـ١ – القاهرة (١٩٢٧) – ص٤٢.

١٢٦ – خطاب سعد زغلول باشا إلى جلاله الملك فؤاد الاول بقبول الأمر الملكى رقم ١٤ لسنة ١٩٢٤، بتكليفة بتشكيل الوزارة.

على المرسوم الملكى بتكليفة بتشكيل الوزراة، كتب إلى الملك «إننى أشكل الوزراة التى شاءت جلالتكم بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولى لتحمل أعبائها إعترافاً بأية حال برأى أو موقف إستنكره الوفد المصرى الذى لا أزال متشرفا برئاستة» وقال « ويلزم الحكومة أن تعمل ما فى وسعها على إحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على إختلاف أجناسهم وأديانهم، كما يلزمها أن تبث الروح الدستورية فى جميع المصالح، وتُعوِّد الكل على إحترام الدستور، والخضوع لأحكامه. وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة، وعدم السماح لأى كان بالاستخفاف بها، والإخلال بما تقتضيه»[١٢٦] وقد أبدى الملك أمتعاضا شديداً من بعض من هذه العبارات، وإعتبرها تعريضاً به وتحذيراً. وقد كانت كذلك بالفعل.

وقد شكل سعد وزارته من ثمانية وزراء،وإقترح أن يكون ثلاثة منهم من المسيحيين أحدهم وزير للحقانية [العدل].وقد قاوم الملك بشدة أن يكون للمسيحيين ثلاثة وزراء من ثمانية، قائلا ان هذا خروج عن النسبة المتعارف عليها وهى وزير مسيحى واحد. ورد سعد أن رصاص الانجليز إبان الثورة لم يفرق بين مسلم ومسيحى، ولم يحسب حساب النسبة. لكن الملك إستطاع أن يمنع تعيين مسيحى وزيراً للحقانية حيث هناك محاكم شرعية. وإمعاناً فى معاندة الملك رشح سعد للحقانية «أفندى»، وزار مقر هذه الوزراه وخطب فى الموظفين قائلا «إن تعيين أفندى لوزارة الحقانية هو تشريف لجميع الافندية، وبرهان ساطع على الديمقراطية الحقة التى تخدمها الوزارة»[١٢٧] . كذلك أكد سعد ليبراليته بموقف حازم إزاء المرأه، فبالاضافة إلى دعوته لخلع المرأه للحجاب. قال فى كلمة لوفد من طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية «إننى من أنصار تحرير المرأة، ومن المقتنعين به، لأنه بغير هذا التحرير لانستطيع بلوغ غايتنا، ويقينى هذا ليس وليد اليوم،بل هو قديم العهد. فقد شاركت منذ أمد بعيد صديقى المرحوم قاسم بك أمين فى أفكاره التى ضمنها فى كتابه الذى أهداه إلىَّ [كتاب المرأة الجديدة]فضلا عن أن الدور الذى قامت به المرأة المصرية فى حركتنا لوطنية كان عظيماً ونافعاً»[١٢٨].

وكان موقف سعد زغلول من مسألة الوحدة الوطنية واضحاً وحاسماً«إن للمصريين على إختلاف مللهم ونحلهم أمانى وطنية واحدة، وهم يتمتعون بموجب الدستور بحقوق واحدة، وعليهم واجبات واحدة، والأقليات المصرية تعرف ذلك حق المعرفة، ثم أن النسبة التمثيلية الكبيرة التى منحها الشعب والحكومة للأقليات فى البرلمان هى أحسن دليل على أن جميع المصريين فى نظر القانون سواء، وأن التقدم والرقى لاينالهما إلا أقدر الرجال الذين يستحقونهما عن جدارة وإستحقاق».[١٢٩] وفى حفل تكريم أقامة مجلس الشيوخ لسعد ألقى خطاباً قال فيه «إن إتحاد العناصر هو بحمد الله حاصل بين المسلمين وغير المسلمين من الوطنيين إذ أصبحوا

١٢٧ – محمد ابراهيم الجزيرى – المرجع السابق – ص٦٨.

١٢٨ – المرجع السابق – ص٦٨.

١٢٩ – الاهرام – ٤ مارس – ١٩٢٤، نقلا عن تصريح لسعد زغلول لجريدة وستمنستر جازيت اللندنية.

١٣٠– الجزيرى – المرجع السابق – ص٩٢.

جميعاً مرتبطين أشد إرتباط برباط الوطنية، وأصبح كل فريق يرى أن مصلحة الوطن قبل كل شئ،وفوق كل إعتبار»

وبرغم أن سعداً عارض تشكيل لجنة الدستور، وأسماها لجنة الاشقياء لكنه ظل دوما متمسكا بالدستور، وفى حفل تكريم أقامه له أعضاء مجلس الشيوخ[١٣ مارس ١٩٢٤] ألقى سعد خطاباً قال فيه «ستصبح المبادئ الدستورية وحقوق الأفراد نافذة فينا، ويصبح أمر الكل للكل، ويشعر كل مصرى أن حياته وحريته، وشرفه ،وماله وولده.. كل ذلك تحت حماية القانون، وعلى القانون حارس قوى من البرلمان، والبرلمان تحت حراسة أمة يقظة»(١٣٠)

وفى خطاب العرش الذى ألقاه فى أفتتاح البرلمان قال مخاطباً النواب «ومن أهم وظائفكم أن تساعدوا الحكومة وتشتركوا معها فى إدارة البلاد على الطريقة التى رسمها الدستور، .. فعلى الحكومة تنفيذ مبادئ الدستور وتطبيق أحكامه بروح تامة من الحرية والديمقراطية، وعلى البرلمان أن يتمم التشريع بوضع القوانين الناقصة التى أشار الدستور إليها»(١٣١)

وقد حاول سعد برغم ما عرف عنه من كبرياء وترفع أن يتقرب من طبقة العمال،وأن يغازلها. وفى حفل أقامته نقابة عمال شركة السكة الحديدية وواحات عين شمس تكريما لعبد الرحمن بك فهمى زعيم العمال بمناسبة فوزه فى إنتخابات مجلس النواب ألقى سعد زغلول خطاباً قال فيه «أفرح كثيراً، وأسر كثيراً كلما شعرت ان هذه الحركة ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط، بل هى منبثة أيضا وعلى الأخص فى الطبقة التى سماها حسادنا طبقة «الرعاع»، وأفتخرأننى من الرعاع مثلكم، ولوكانت حركتنا قائمة على الطبقة العليا وحدها لما قامت لها قائمة، ولما إنتشرت هذا الانتشار، ولما إنتشر المبدأ الوطنى بدون الطبقة التى يسمونها طبقة الرعاع، وهى الطبقة الأكثر عدداً فى الأمة وليس لها صالح خاص، والتى مبدؤها ثابت على الدوام. هذه الطبقة لا تسعى وراء وظيفة تنالها، ولا منصب تحل فيه، ولا مصلحة تقضيها، ولكنها تريد أن تعيش ليكون الوطن عزيزاً» ثم «رأيت كثيراً من أرباب المصالح، ومن ذوى الوظائف تقلبوا وتغيروا ولكن الرعاع مثلكم ما تغيروا، ولابدلوا عقائدهم»(١٣٢)

---

١٣١ - مضابط مجلس النواب - الدورة البرلمانية الأولى - [١٥ مارس - ١٠ يوليو ١٩٢٤] خطاب العرش الذى ألقاه سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء.

١٣٢ - الاهرام- ١٤ مارس - ١٩٢٤.

١٣٣- الجزيرى - المرجع السابق - ص٢٤١

١٣٤ -لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - المجلد الاول.

١٣٥ - مضابط مجلس النواب - الدوره البرلمانية الاولى - المرجع السابق.

لكن هذا التملق للعمال لم يكن دائماً، فما أن أضرب عمال مصنع شركة إيجولين وشركة الزيوت بالاسكندرية تحت قيادة الشيوعيين، وإعتصموا فى مكان العمل حتى كشر سعد عن أنياب طبقية حادة، ووجه للعمال إنذاراً «إنكم إن إحترمتم ملكية الغير، وخرجتم من مكان الشركة طوعاً فأنتم تعاملون معاملة المخلصين للقانون والوطن، وإن أبيتم إلا إحتلال ملك الغير إغتصاباً فإنكم تعاملون معاملة الغاصبين الخارجين على القانون».[١٣٣] وبرغم أن العمال إستجابوا لهذا التهديد من جانب سعد زغلول وأنهوا الاعتصام، إلا أن ماكينة إرهاب حكومة سعد زغلول قد إفترستهم، وقامت بحل إتحاد العمال وحل الحزب الشيوعى وتقديم قادته للمحاكمة[١٣٤]

وسعد زغلول هو صاحب نظرية «سيد قراره» ففى مجلس النواب، وعند مناقشة مسأله النظر فى الطعون الانتخابية كان موقفه «نوافق أن يكون الفصل فى طعون الانتخابات من حق البرلمان أخذاً بمبدأ الفصل بين السلطات. ولا ينبغى مطلقاً أن يعطى هذا الحق للمحاكم»[١٣٥]

وعندما كان مجلس الشيوخ يناقش تعديلات قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات فى الطرق العمومية جرت مناقشة حول العقوبة التى تفرض على من يعقد مظاهرات وإجتماعات دون الاخطار عنها، وإقترح المشروع غرامة ١٠٠ قرش، وحبس مده لا تزيد على أسبوع. وإعترض سعد زغلول على ذلك بشده مطالباً بإسم الحكومة تغليظ العقوبة ليكون فيها نوع من الردع. وأصر سعد زغلول على رأية فى مجالات عنيفة إستمرت طويلا.[١٣٦]

.. وقد كان سعد زغلول معروفاً بأنه صلب الرأى ونادراً ما يرجع عن رأى إرتآه، ولقد يكون هذا مفيداً للزعيم فى مواجهة أعداء الوطن، لكنه ينقص كثيراً من ليبراليته إذا ما تعامل مع مواطنيه.

وكان سعد يتشدد حول كل حرف يكتبه أو ينطقه ولا يسمح لأحد بأن يدخل عليه تعديلا، ونقرأ فى رسالته السرية التى وجهها إلى عبد الرحمن فهمى بينما كان الوفد فى أوربا تحذيراً شديداً من عدم المساس ببيان أرسله من الخارج طالباً طبعه وتوزيعه فى مصر فهو يقول «أرسل لكم مع هذا كلمة أرجو أن تنشروها، وأن تلاحظوا بأنفسكم الا يتغير شئ فيها لا بزيادة ولا نقصان»[١٣٧].

فماذا لو إرتأت قيادة الوفد بالداخل، وهى التى تلامس الواقع وتعيشه أن تغير شيئاً، أو كلمة؟. يكون رد سعد زغلول قاسياً وغاضباً فهو يكتب ثائراً «إن التعديل الذى أدخله البعض على النداء الذى أرسلناه أضر

---

١٣٦ – مجلس الشيوخ – مضبطة الجلسة السابعة والثلاثون المنعقدة فى ٨ يوليو ١٩٢٤.

١٣٧ – د. محمد أنيس – دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩، المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى – رسالة من سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمى مؤرخة باريس فى ١٨ فبراير ١٩٢٠ – القاهرة (١٩٨٨) ص٢٤.

١٣٨ – المرجع السابق – رسالة سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمى مؤرخة فى ٢٧ فبراير١٩٢٠ – ص٢٣٨.

١٣٩ – المرجع السابق – رسالة سعد زغلول إلى عبد الرحمن فى ٧ فبراير ١٩١٩.

بمعناه وقلل كثيراً من تأثيره، وكنت أود أن يجاب رجاؤنا فى عدم المساس به »(١٣٨).

ولم يكن سعد يسمح بأى رأى آخر غير رأى الوفد، أو لنقل غير رأيه هو . وبرغم ما حازه من زعامة مهيبة إلا أنه كان يرفض منح أية فرصة أو أى متنفس للآخرين أيا كانوا، ويكتب إلى عبد الرحمن فهمى من باريس: «تنشر جريده مصر رسائل لمجد الدين ناصف فيها كثير من الاشياء التى لا يلائم نشرها فى الوقت الحاضر، لأن فيها شئ من الانقسام وتشويه القضية المصرية، خصوصا بالكلام عن محمد فريد ورحلاته وآرائه فى بعض المسائل الحاضرة، فإذا أمكنكم أن تستلفتوا نظر حضره الفاضل صاحب جريدة مصر إلى الكف عن نشر مثل هذه الرسائل كان ذلك أفضل».(١٣٩)

ونلاحظ هنا أن فريد كان زعيماً وطنياً مرموقاً وأنه كان فى هذا الوقت يقترب من الإحتضار.

ولم يخيب عبد الرحمن فهمى رجاء زعيمه فيكتب إليه مبتهجاً «كان قد إتصل الينا بأن رجال الحزب الوطنى سينتهزون فرصة الاحتفال بذكرى وفاة مصطفى كامل ويندددون بأعمال الوفد، فإتخذنا العدة لذلك و أرسلنا لهم جيشاً عرمرماً من الطلبة، وبذا كان الهتاف للوفد ورئيسة ورجاله أضعاف أضعاف ما كان للمحتفل بذكرى وفاته»(١٤٠)

.. وهكذا فالزعيم لا يسمح حتى للموتى بأن ينافسوه.

ويكتب فهمى مرة أخرى لزعيمه «أريد ان أضرب زعانف الحزب الوطنى ضربة لا تقوم لهم بعدها قائمة، إذ أعددت لهم اللازم لذلك هنا. غير أنه لا يزال يلزمنى أشياء أخرى موجودة عندكم، وهى صور الجوابات والتلغرافات التى أرسلها المرحوم فريد وجاويش وإخوانهما للوفد بباريس فأرجو التنبيه بسرعة إرسالها كلها»(١٤١)

وقد إصطدم سعد زغلول خلال وجوده فى باريس بمجموعة الطلبة المصريين فى أوربا [وكانوا فى الأساس حزب وطنى أو بالدقة يسار الحزب الوطنى] وقد لعبت هذه الجمعية دوراً مهماً للغاية فى حشد الرأى العام الاوربى وخاصة القوى اليسارية فى باريس للدفاع عن القضية المصرية، وللترحيب بالوفد المصرى رغم ملاحظاتهم القديمة كأعضاء فى الحزب الوطنى على سعد زغلول. ونظموا العديد من المؤتمرات والاحتفالات واللقاءات التى حضرها سعد زغلول مع قيادات الحزب الاشتراكى الفرنسى وحزب حقوق الانسان».(١٤٢)

١٤٠- المرجع السابق – رسالة عبد الرحمن فهمى إلى سعد زغلول مؤرخة فى ١٨ فبراير ١٩٢٠ – ص٢٣٨.
١٤١- المرجع السابق – رسالة من عبد الرحمن إلى سعد زغلول مؤرخة فى ٢٥ فبراير ١٩٢٠ – ص٨٨.
١٤٢ – محمود ابو الفتح – مع الوفد المصرى – ص٢٨
١٤٣- ملف القضية ٣٤٤ كلى ١٩٣١ – محكمة جنايات الاسكندرية دور يوليو ص٥١.
١٤٤ – د. رفعت السعيد – عصام الدين حفنى ناصف – القاهرة (١٩٧٠) – ص٢١.

ويتضح موقف هؤلاء الطلاب الذين إقتربوا جداً من الوفد وقدموا له خدمات جليلة من متابعة موقف عصام الدين حفنى ناصف [ونلاحظ أننا أوردنا فيما سبق أن سعداً أمر بمنع نشر مقالات أخيه مجد الدين]. سئل عصام أمام النيابه عن تاريخه ونشاطه.

– س: ألم تشتغل بالسياسة مدة وجودك فى المانيا؟

– جـ: كنا عاملين لجنة حزب وطنى، وعملنا منشورات باللغة العربية ضد سعد باشا بإعتبارنا لجنه حزب وطنى». [١٤٣]

وفى نقاش أجريته معه قال عصام «حضرت مؤتمر الطلبه المصريين الذين يدرسون فى أوربا، وكان ذلك فى ١٩٢١ وفى الاجتماع هاجمنا سعد زغلول، وقلت له : أنا أسحب الثقة منك، فثار قائلا:

أنا وكيل الامة ولست وكيل جمعية طلبه» [١٤٤]

أما موقفه من العمال الذين قال أنه يفتخر أن يكون واحداً منهم، فبعد أن دمر إتحاد النقابات اليسارى، وسجن قاده الحزب الشيوعى وحل حزبهم، فقد قرر السيطرة عليهم وتوجيههم وفق إرادته، وإختار لهذه المهمة رجله الذى كان يثق به دوما عبد الرحمن فهمى بك الذى أصبح فجأة «زعيم العمال» وأسس «الاتحاد العام لنقابات العمال بوادى النيل برئاسة حضرة صاحب العزه عبد الرحمن بك فهمى زعيم العمال». وأعد له قانوناً يحرم العمال من أى حق فى أعلان الاضراب إلا إذا رأى الوفد ذلك. ونقرأ.

م٤٦ – لمجلس إداره الاتحاد إعلان الاضراب العام أو الجزئى، وهو الذى يعين إبتداءه وإنتهاءه.

م٤٧ – قرارات الاضراب العام تصدر من ثمانين فى المائة من أعضاء مجلس إدارة الاتحاد.

م٥٠– ليس لأية نقابة أن تعلن الاضراب من غير مصادقة الاتحاد العام» [١٤٥]

ثم نأتى إلى المواقف الفكرية للزعيم.

عندما تظاهر الطلاب الازهريون مطالبين بإحراق كتاب «فى الشعر الجاهلى» وطرد طه حسين من الجامعة ومحاكمته . خطب فيهم سعد واصفا طه حسين بأنه مجنون وقال «هبوا مجنوناً يهرف القول».

---

١٤٥ – د. محمد أنيس – المرجع السابق – ص٣١٨.

١٤٦– لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد – عمائم ليبرالية – المرجع السابق.

وأيضا: د. رفعت السعيد – الإرهاب إسلام أم تأسلم ؟ القاهرة – (١٩٩٥) – ص٢٥٣

وكذلك : د. محمد رجب البيومى – الأزهريين السياسة وحرية الفكر – القاهرة (١٩٨٣) – ص١١٥.

١٤٧ – د. غالى شكرى – النهضة والسقوط فى الفكر العربى الحديث – ص٢٤٤.

وعندما أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه «الاسلام وأصول الحكم» وقررت هيئة كبار العلماء – إرضاءً للملك فؤاد – «نزع شهادة العالمية منه وطرده من كل وظيفة لعدم أهليته للقيام بأية وظيفة دينية أو مدنية»[١٤٦]. صب سعد زغلول المزيد من الزيت على النار، وأسهم فى حملة تكفير الشيخ على عبد الرازق قائلا: «قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت من طعن منهم فى الاسلام بحدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق،لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل البسيط من نظريته»[١٤٧]

هذا بينما إتخذ الاحرار الدستوريون موقفا ليبرالياً شجاعاً مساندين طه حسين وعلى عبد الرازق.

وعندما أرسل شيخ الازهر بقرار عزل على عبد الرازق إلى عبد العزيز فهمى باشا وزير العدل طالباً التصديق عليه رفضه وكتب قائلا«أحضرت هذا الكتاب وقرأته مرة أخرى، فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه» و«ثقل على ذمتى أن أنفذ هذا الحكم الذى هو ذاته باطل لصدوره من هيئة غير مختصة بالقضاء، وفى جريمة الخطأ فى الرأى من عالم مسلم يشيد بالاسلام، وكل ما فى الأمر أن من يتهمونه يتأولون فى أقواله ويولدون منها تهماً ما أنزل الله بها من سلطان» وغضب الملك، و إشتعلت أزمة كبيره كان محورها تمسك عبد العزيز فهمى باشا بموقفه الليبرالى فى مواجهة الملك وسعد زغلول معاً، وانتهى الامر باستقالته هو وثلاثة وزراء آخرين محمد على علوبه – توفيق دوس – اسماعيل صدقى.

نتأمل الاسماء والمواقف وندهش.

فكأن مصر كانت مجبرة على المفاضلة بين من يتمسكون بحرية الوطن ويهدرون حرية المواطن، او من يهدرون حرية الوطن ويتمسكون بحرية الرأى والفكر والتعبير ليس للشعب وانما للخاصة.

المراجع:

* كتب عربية ومترجمة

- أحمد أمين - زعماء الاصلاح.
- أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية.
- أحمد فهمى حافظ - سعد زغلول فى الجمعية التشريعية.
- د. جلال يحيى، د. خالد نعيم - الوفد المصرى ١٩١٩ - ١٩٥٢.
- رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام.
- د. رفعت السعيد - سعد زغلول بين اليمن واليسار.
- د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف.
- د. رفعت السعيد - الارهاب إسلام أم تأسلم؟
- د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية.
- د. رفعت السعيد - الليبرالية المصرية - المثقفون - حزب الوفد.
- زكى فهمى - صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر.
- سالم عبد الحميد - الزعيم الخالد.
- طارق البشرى - سعد زغلول يفاوض الاستعمار.
- د. عاصم الدسوقى - كبار ملاك الاراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى.
- عباس محمود العقاد - سعد زغلول، سيرة وتحية.
- د. عبد الخالق لاشين - سعد زغلول ودوره فى الحياة السياسية المصرية حتى سنة ١٩١٤.
- عبد الرحمن الرافعى - ثورة ١٩١٩.
- عبده حسن الزيات - سعد زغلول من أقضيته.
- د. على شلبى ود. مصطفى النحاس جبر- الانقلابات الدستورية فى مصر ١٩٢٣ - ١٩٣٦.
- الامير عمر طوسون - مذكرة بما صدر منا منذ فجر الحركة الوطنية منذ ١٩١٨ إلى ١٩٢٨.
- د. غالى شكرى - النهضة والسقوط فى الفكر العربى الحديث.
- فكرى أباظة - الضاحك الباكى.

- د. محمد أنيس - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى.

- محمد ابراهيم الجزيرى - آثار الزعيم سعد زغلول.

- محمد زكى عبد القادر - محنة الدستور، ١٩٢٣ - ١٩٥٢.

- محمد سيد كيلانى - السلطان حسين كامل ، فترة مظلمة فى تاريخ مصر.

- محمد رجب البيومى - الازهر بين السياسه وحرية الفكر.

- محمد كامل سليم - أزمة الوفد الكبرى، سعد وعدلى.

- ماريوس كامل ديب - الوفد وخصومه، ١٩١٩ - ١٩٣٩.

- محمد ابو الفتح - مع الوفد المصرى.

- وجه لامبلان - فى سبيل الاستقلال، مصر وانجلترا - ترجمة ميخائيل بشاره دواد.

- يونان لبيب رزق - تاريخ الوزارات المصرية.

- ٥٠ عاما علي ثورة ١٩١٩.

* دوريات

الاهرام ١٩٢٤.

- اللواء ١٩٠٦

- المؤيد ١٩٠٦

* مذكرات ووثائق.

- أحمد شفيق باشا - مذكراتى فى نصف قرن.

- سعد زغلول - مذكرات [مخطوطة].

- عبد العزيز فهمى - هذه حياتى .

- محمد على علوبة - مذكرات [مخطوطة]

- خطاب سعد زغلول باشا إلى جلالة الملك فؤاد الاول بقبول الامر الملكى رقم ١٤ لسنة ١٩٢٤ بتكليفة بتشكيل الوزاره

- مضابط مجلس النواب - الدورة البرلمانية الاولى - يوليو ١٩٢٤.

- مضابط مجلس الشيوخ - الدورة البرلمانية الاولى - يوليو ١٩٢٤.

* مراجع أجنبية

-A.Colvin (sir) - The Making of Modern Egypt.

- Afaf Lutfi Alsayyid - Egypt and Cromer.

-Albert Hourani - Arabic thought in the Libral age, 1798 - 1939.

- Alexandre -The truth about Egypt.

- Cromer - The Situation in Egypt.

- E.W.P. Newman - Great Britain in Egypt.

- G. Lenczowski - The Middle east in worled's affairs.

- Humphry Bowman - Middle East window.

- J.M. Ahmed - The intellectual origins of Egyptian Nationalism

- Guliettee Adam - L'Angleterre en Egypte.

- Lioyd - Egypt Since Cromer.

- Nadav Safran - Egypt in Search of political Community.

- P.M.Holt - Polititcal and Social Change in modern Egypt

-R.I.I.A - Great Britain and Egypt ,1914 - 1936.

- R.Storrs - Orientations.

- Samne et Goblet - La Vie Politique orientale en 1909.

- Valantine Chirol - the Egyptian Problem.

- W. BLunt - My Diaries.

مصطفى النحاس

الجدير بخلافة سعد

نفنى فى خدمتكم ليكون خير بلادكم لكم.

سر فى جهادك يحتضنك لواءُ

نثرت عليه قلوبها الشهداء

أزعيم مصر.. وللشعوب أمانة

ما إنفك يحمل ثقلها الأمناء

الصامدون على وعورة دربهم

ما مسهم ضجر ولا إعياء

سر فى جهادك تمش خلفك أمة

هى بالطموح منيعة عصماء

من قصيدة لشاعر العراق الكبير الجواهرى

يهنئ فيها النحاس بفوز الوفد فى إنتخابات ١٩٥٠.

مات سعد زغلول. الزعامة المهيبة، ذات «الكاريزما» التى لم يحزها أحد – لا من قبل ولا من بعد – تتطلب من يخلفها.

مات سعد فمن ذا الذى يمكن ان يتجاسر بأن يكون خليفة لهذا الزعيم؟ ومن ذا الذى يتصور أن أحداً يمكنه أن يكون جديراً بالحلول محل زغلول.

«مات سعد، بغير هذا النبأ أعدت الاسماع، وبغير هذه الصيحة جرت الألسنة، بالحياة إقترن إسم سعد، فما سمعناه إلا والحياة له لزام، والدعاء له صلاة وقيام، تسرى منه الحياة إلى النفوس، وتخفق به قوة فى القلوب» [1] هكذا كتبت البلاغ.

فكيف من الممكن أن يتصور أحد مهما كان حماسه للنحاس أن الملايين التى إعتادت وأحبت أن تهتف «يحيا سعد» يمكنها أن تتحول إلى «يحيا النحاس». وقد وصل الأمر أن تنبأ الكثيرون بإنهيار حزب الوفد .[2] أما «الديلى اكسبريس» فقد قالت «إن دوائر الوفد تميل ميلاً صريحاً إلى معارضة كل سعى لايجاد خلف لزغلول باشا فى رياسة الوفد، وتؤكد أنه من المستحيل فى الظروف الراهنة العثور على أى شخص قادر على تحمل هذا العبئ الثقيل.[3]

وقالت «التيمس انه من المستحيل أن يأتى شخص ليخلف الزعيم الذى تفوق على جميع أتباعه تفوق النخلة على قصار الشجر»[4].

لكن النحاس أتى. وتبوأ الزعامة، وعن جدارة، وأكد أنه ليس من قصار الشجر. بل كان هو أيضا نخلة باسقة، وشامخة.

والحقيقة ان الانجليز كانوا يخشون أن يتولى النحاس زعامة الوفد فيقوده فى طريق التصادم مع الاحتلال والقصر. وبدأ المقربون من الاحتلال يروجون لافكار واقتراحات تتنوع لكنها تتفق جميعاً على إستبعاد زعامة النحاس. إقترحوا أحد الأعيان الموصوفين بالاعتدال [فتح الله باشا بركات] . فلما شعروا باستحالة قبوله، تقدموا باقتراح يبدو فى ظاهره إجلال وتقدير للزعيم الراحل، لكنه يحمل فى باطنه إستبعاداً للنحاس، بل – وربما – تمزيقاً للوفد، فقد إقترحوا الاكتفاء بتشكيل لجنة تنفيذية لقيادة الحزب وعدم إنتخاب رئيس.

ولعله ليس من من اللائق أن نفاضل أو حتى أن نقارن بين الزعامتين المهيبتين، لكن الدراسة الموضوعية والأمانة العلمية يمكنها ان تملى علينا وصفاً دقيقاً يقول ان الاثنين كانا على قدم المساواة فى العداء للاحتلال،

١- البلاغ – ٢٨ – ٨ – ١٩٢٧.
٢ – الاهرام – ٤ – ٩ – ١٩٢٧.
٣ – الاهرام ١٥ –٩ – ١٩٢٧.
٤ – الاهرام – ١٠ – ٩ –١٩٢٧.

وفى مقاومة نفوذ السراى، ولكن .. كان النحاس أكثر تشدداً فى كلا الأمرين.

وكان الانجليز يعرفون ذلك ويخشونه – وكانت تتجمع لديهم شواهد عديدة سنورد على سبيل المثال واحداً منها.

عندما شكل سعد زغلول وزارته الأولى (١٩٢٤) حاول الانجليز إظهار قدر من حسن النوايا نحوه، فأعربوا له عن طريق القائم بالاعمال البريطانى مستر كير. عن إستعدادهم لتلبية المطلب الوفدى بالافراج عن المسجونين السياسيين الذين حوكموا أمام المحاكم العسكرية»[٥] وكانت غالبيتهم العظمى من كوادر الوفد.

وفى ٧ فبراير تلقى سعد رسالة من كير يبلغه فيها أن «الحكومة البريطانية مستعدة لأن توافق – إلى أبعد حد ممكن – على عفو عام عن جميع المسجونين الذين «يمكن» الافراج عنهم بناء على التشاور بين دولتكم وبينى، ودون أن يؤدى ذلك إلى إحداث إضطراب للأمن العام»[٦]

وفى اليوم التالى توجه كيلى ليزور سعد عارضاً عليه الافراج عن جميع المحكوم عليهم ما عدا سبعة أو ثمانية أشخاص من الذين حكم عليهم مؤخراً، ووافق سعد زغلول مؤملا ان يحل مشكله السجناء المعترض على الافراج عنهم لاحقاً.

وعرض سعد زغلول النبأ على مجلس الوزراء مبتهجاً، وأبدى جميع الوزراء ذات البهجة لهذه الخطوة الهامة إلا مصطفى النحاس. ويروى سعد زغلول الواقعة قائلا «وكان من رأى النحاس ان نفتح السجن لكل محكوم عليه من المحاكم العسكرية دونما نظر لرأى الانجليز، فرأيتة رأياً شططاً، وإنتهرته لأنى رأيته قد شطح كثيراً»[٧]

وكثيراً «ما شطح النحاس كثيراً» فى نظر البعض، وفى نظر الانجليز، وجماعة المعتدلين. ولهذا فقد حاولوا ان يتجنبوا النحاس فنثروا العديد من الشائعات، والتلميحات بل والتهديدات ولكن دون جدوى.الديلى تلجراف البريطانية رشحت فتح الله بركات وجريدة «وست منستر جازيت» تنبأت بانهيار حزب الوفد[٨].

أما «الديلى اكسبريس» فقد نشرت تقول: ان دوائر الوفد تميل ميلا صريحا إلى معارضة كل سعى لايجاد خلف لزغلول باشا فى رياسة الوفد. وان النية تتجه لتعيين لجنة تنفيذية صغيرة العدد» [٩].

---

٥ – د. عبد الخالق لاشين – سعد زغلول ودوره فى السياسه المصرية – دار العوده بيروت – ص٢٦١

٦ – ملف القضية رقم ١٠٤ كلى مصر لعام ١٩٢٦، محفظة رقم [مودع بالمتحف البريطانى]. وأيضا:

– مذكرات عبد الرحمن فهمى – محفظة رقم ٤ (ملف ٢٤ – ٢٥) ص٢٠

- WAVELL - ALLenby in Egypt - London (1944)P.102

٧ – مذكرات سعد زغلول – الكراس رقم ٤٧ ص ٢٧٨٤.

٨ – الاهرام ٤ / ٩/ ١٩٢٧.

٩ – الاهرام ١٥ / ١٩٢٧/٩

وبدأت صحف المعارضة تنشر برقيات من لندن تقول: ان تكوين لجنة ثلاثية لقيادة الوفد سوف تؤدى إلى تمزيق وحدة الوفد (١٠)

* * *

كان «النحاس باشا» فى أوربا عند وفاة «سعد» فعاد مسرعاً، ووقف أمام قبره فى حشد من قادة الوفد ليقسم أمام الجميع، وهو يبكى، علي المضى فى الجهاد قائلا: «ان روح سعد ستظل مشرفة علينا ترقب جهادنا، وتغذى نفوسنا حتى ننال الاستقلال التام».(١١)

وهكذا حول النحاس الحزن الجارف إلى واجب محدد «الجهاد لنيل الاستقلال التام».

وفى يوم ١٤ سبتمبر ١٩٢٧، إجتمع الوفد المصرى بكامل هيئته ليقرر إنتخاب «مصطفى النحاس» رئيسا.

ولكنه قرر عدم الاعلان عن إختياره حتى يعرض الامر على الهيئة البرلمانية للحزب (١٢).

وفى ١٩ سبتمبر، عقد الوفد المصرى أول اجتماع له برئاسة مصطفى النحاس ليوجه بياناً إلى الأمة جاء فيه:

«أيها المصريون، إن الوفد المصرى وقد كان أول مظهر لنهضتكم وأجرأ وثبة إلى مجدكم، لا يزال باقياً، وسيبقى مقياساً لقوتكم، وعنواناً حياً لجهادكم، ونواة لوحدتكم، ولسان صدق لآمالكم وآلامكم. لقد فجع الوفد في رئيسه، ولكنه لا يزال حياً قوى الحياة بأمته، واحداً فى كتلته، أمينا على عهده ، وفيا ليومه وغده.

ولن يترك ميدان الشرف حتى يتحقق مجد البلاد باستقلالها صحيحاً، وحريتها كاملة»(١٣).

إنها نفحات النحاس. حماسه ، إصراره، حسمه، تطل من البيان الأول لتحدد مصير الوفد، ومصير النضال ضد الاحتلال.

ومع أن إسم النحاس لم يعلن رسمياً، فقد تسرب الخبر كأحد الاحتمالات، فأحدث ذلك فزعا فى صفوف خصوم الوفد، وفى مقدمتهم الانجليز.. قالت «وست منستر جازيت» «لقد تردد اسم النحاس باشا وهو من الجناح الأيسر فى الوفد، فى حين أن بركات باشا والشمسى باشا حائزان للميل للجناح الأيمن » (١٤)

أما مراسل الديلى تلجراف فقد أرسل يحذر من إحتمال أن يتولى النحاس رئاسة الوفد وقال «وإذا صح

---

١٠ – السياسه ١٩٢٧/٩/٨

١١ – الاهرام ١٩٢٧/٩/١٠.

١٢ – السياسه، البلاغ ١٥ / ١٩٢٧/٩.

١٣ – أحمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسية – الحولية الرابعة – عام ١٩٢٧ – ص٤٧٤.

١٤ – المقطم ٢١ / ٩ / ١٩٢٧.

هذا، فأنه يعنى رجوع الوفد إلى سياسة المعارضة الشديدة لكل سعى لعقد إتفاق بين انجلترا ومصر على أساس تصريح ٢٨ فبراير. ويعنى أن الوفد قد صرف النظر عن سياسة التوفيق الهادئة التى يمثلها فتح الله بركات باشا»[١٥]

ويبدو أن الانجليز كانوا يمارسون نوعاً من الضغط طلباً لزعيم معتدل للوفد، وليتجنبوا بالتحديد إختيار مصطفى النحاس الذى وصفوه أكثر من مرة بأنه يمثل «يسار» الوفد.

وردا على هذه المحاولات، كتب عباس العقاد الذى كان وفدياً وقتذاك:«لقد ذهب أوان الايقاع باسم الاسلام والمسيحية. وباسم الباشوات وأصحاب الجلاليب الزرقاء. وباسم الأحزاب والزعماء، ووصلنا الآن إلى دور الايقاع باسم التطرف والاعتدال فى هيئة واحدة هى على الجملة هيئة المتطرفين الغلاة فى عرف السياسة البريطانية» [١٦]

ولم يعبأ للنحاس باتهامه بالتطرف. وفى نفس اليوم الذى أعلن فيه رسمياً إختياره زعيما للوفد ألقى خطاباً ملتهبا معاهداً الأمة على «أن نسير فى طريقنا المرسوم حتى تنال البلاد غايتها من الاستقلال التام الصحيح والحرية الكاملة»[١٧]

وفى أول تصريح صحفى أدلى به النحاس، بعد توليه زعامة الوفد، أكد:« أن الاستقلال التام هو غايتنا، والعمل له هو موضوع جهادنا، وهو الذى أكدنا عليه عهدنا»[١٨]

لكن النحاس – كعادته – يتعجل الصدام. وكان أول صدام يخوضه بعد أسبوع واحد فقط من توليه الزعامة. فقد إقترب يوم ٩ اكتوبر (عيد الجلوس الملكى) وقرر الرجل أن يمنع «الملك» من الاحتفال بعيد جلوسه، إحتراما لأحزان الأمة علي وفاة سعد. وبدأت الصحف الوفدية حملة عنيفة على الحكومة التى حاولت الاحتفال.. وكتب عزيز ميرهم عضو مجلس الشيوخ الوفدى مقالاً عاصفاً: «فليهنأ بالعيد من يشاء، وليهنأ بالزينة ضعاف العقول صغار الاحلام، وليشترك فى الوليمة أشخاص ليس لهم فى الوطن نصيب لا قليل ولا كثير، ولتفتح خزينة الدولة على مصراعيها تغدق أموال الفقراء فيما لاحظ لهم فيه، نافعا كان أو ضاراً. كل ذلك وضع للشئ فى غير محله، وخروج مفضوح على الواجبات الأولية للمجاملة واللياقة، ونصب للأفراح وسط المأتم العام».

ولكن المقال العنيف يمضى عنيفا إلى نهايته، موجها الهجوم إلى شخص الملك «يجب أن نعلم جميعا أن

١٥ – الاهرام ١٩٢٧/٩/٢١.
١٦ – البلاغ ١٩٢٧/٢/٢٢.
١٧ – الاهرام ٢٧ /١٩٢٧/٩.
١٨ – البلاغ ٢٩ /١٩٢٧/٩.
١٩ – الاهرام ٥ / ١٩٢٧/١٠.

جلالة الملك مدين للحركة الوطنية التى ساسها سعد بحكمته وإقتداره، والتى لولاها لما كانت مصر اليوم مملكة، وكانت مجرد سلطنة ترزح تحب عبء الحماية»[19] وكان هذا المقال نغمة جديدة تماما فى التعامل بين «الوفد» و«القصر» أعلن به النحاس، وبعد أسبوع واحد فقط من توليه رئاسة الوفد، موقفاً جديداً وجرئياً تفرد به على مدى تاريخ مصر الحديث، هو الصدام العنيف مع سلطة القصر، والحكم الأوتوقراطى.

وهكذا بدأ الرجل البسيط، إبن تاجر الأخشاب الصغير فى سمنود معركته مع القصر الملكى.

تلك المعركة التى بلورت الوجدان الشعبى، رويداً رويداً، وعبر سلسلة من الصدامات، والاقالات، والتحديات، على حقيقة أن الشعب هو السيد، وان الملك مجرد خائن عميل للاستعمار.

ولعل تلك المعركة التى بدأها النحاس بعد أسبوع واحد من توليه الزعامة مفتاح هام لفهم تلك الشخصية التى عجز الكثيرون عن فهمها.

ولم تكن هذه أول الصدامات ولا آخرها، لكنها مجرد نموذج. وحتى قبل أن يتولى النحاس زعامة الوفد، وعندما كان محامياً يترافع عن أحمد ماهر ومحمد فهمى النقراشى، فى قضية إغتيال السير لى ستاك، وقف النحاس ليعلن وبأعلى صوته «إنى أتهم علناً، وفى مجلس القضاء، النيابة العمومية بالاشتراك مع رجال السلطات فى التدبير لاغتيال ماهر والنقراشى.. أكتبوا هذا عنى، وإنشروه على الملأ»[20]

وأمسك الجميع أنفاسهم، فالجميع يعلمون أن كلمة «السلطات» هذه تعنى «دار المندوب السامى البريطانى». شخص واحد لم يمسك أنفاسه فجر إتهامه فى بساطة شديدة وأكمل مرافعته ومضى، هو مصطفى النحاس، أنه مفتاح آخر لفهم شخصية الرجل.

بل أن النحاس المحامى قد قبل أن يوكل فى قضية الأمير سيف الدين الخصم اللدود للملك، والذى أطلق عليه الرصاص، وتلاقت توافقات القصر على وضع الامير فى مستشفى للامراض العصبية وتعيين الملك وصياً على أمواله، لكنه هرب من المستشفى لكى يبحث عن محام شجاع يطالب بحقوقه وميراثه، ولم يجد محامياً أكثر جرأة من النحاس ليترافع فى قضيته ضد الملك.[21]

* * *

لكن تحدى سد الفراغ الذى خلفه سعد لم يكن التحدى الوحيد، فلقد كانت هناك تحديات أخرى جابهت معركة النحاس وخاصة فى ساحة النضال السياسى.

ففور تولى النحاس مقعد الزعيم، كان العالم يواجه أزمة إقتصادية عاتية تولدت عنها توجهات جديدة كالفاشية والتأسلم السياسى. فإذا كانت الديمقراطية الرأسمالية قد ثبت فشلها، وإذا كانت الاشتراكية لم تزل غضة وفى مهب الريح، فقد طرحت على الساحة فى مختلف البلدان بدائل تمثلت فى التوجهات الفاشية والنازية

---

٢٠ – صلاح عيسى – حكايات من مصر– دار الوطن العربى بيروت – ص٢٦٢.

٢١ – صلاح عيسى – المرجع السابق – ص٢٦٠.

وطرح معها فى مصر التأسلم السياسى، و بعد فترة حاول القصر الملكى أن يلعب بهذه الأوراق الجديدة فى مواجهة النحاس. وكان القصر قد أفرز ثالوثاً خطيراً جعل من خصومته مع النحاس المعركة الأكثر أهمية. هذا الثالوث: على ماهر – الشيخ المراغى – كامل البندارى.

ولأول مرة يتحدث الشيخ المراغى فى إتجاه لم تعرفه مصر من قبل «إن الأمة الاسلامية هى محتوى سياسى كما أنها محتوى دينى، ونحن نرفض أية محاولة لفصل سلطة الدين عن سلطة ولى الأمر»[٢٢]وهكذا فإن حسن البنا عندما أعلن « إن الاسلام عبادة وقيادة، ودين ودولة، وروحانية وعمل، وصلاة وجهاد، وطاعة وحكم ومصحف وسيف»[٢٣] لم يكن قد أتى بأى جديد، بل كان يردد ما أراده، وما سبقه اليه رجال القصر.

وعلى الصعيد الآخر ظهرت تيارات فاشية شجعها أيضا ثالوث القصر. أحمد حسين يصرخ«إن الفكرة التى أوحت لموسيلينى بالقميص الأسود فى إيطاليا، والتى أوحت إلى هتلر بالقميص البنى هى التى أوحت إلينا أن نفعل مثلما فعلوا»[٢٤]، ويصرخ أحمد حسين برفض الدستور والنظام البرلمانى ويصفهما بأنهما السبب فى «عشر سنوات ضاعت، وتأخرت بها الأمة عشرين عاماً إلى الوراء، وضاعت فى القيل والقال،بين خطب ومناقشات ومفاوضات، وخلافات حزبية، وبرلمانات تُشاد وبرلمانات تُهدم»[٢٥]وقال أنه ضد النظام البرلمانى «الذى يقوم على تعطيل الأعمال وتعويق الانتاج، ويحول البلاد إلى مسرح للخطابة والتمثيل» ثم يقول دون تستر «نحن نريد نظاماً لا تكون فيه الكلمة للجهال، وهم فى كل مكان الأكثرية»[٢٦] ثم يعلن فاشيته صريحة «إننا سوف نثبت جدارتنا بالسير ببلادنا فى الطريق الذى سلكه موسولينى وهتلر»[٢٧]

ثم يقول«كل شئ يحتاج إلى إنقلاب ، لابد من إنقلاب كاسح يكتسح هذه الحشرات التى يسمونها وفداً أو نحاساً أو مكرماً أو برلماناً».[٢٨] وحتى الاحرار الدستوريين دعاة الليبرالية وحرية الفكر ساروا أيضافى ذات الموكب ربما إرضاءً للملك. وتكتب جريدتهم «وقد لا نخطئ إذا قلنا أن فكرة البرلمانية، والفاشية تجد كل منهما فى مصرأنصاراً، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الروح الفاشيستيه تلقى تأييداً أشد حرارة من الروح البرلمانية»[٢٩]

22- G.E.Vongrunebrum - Modern islam - The Search for cultural identity - Newyork - P.65.

٢٣ – حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص١٥١.

٢٤ – احمد حسين – إيمانى – القاهرة – (١٩٣٦) – ص٧٤.

٢٥ – الصرخة – ٧ – ١٠ – ١٩٣٣.

٢٦ – مصر الفتاة – ١– ٨ – ١٩٣٨.

٢٧ – مصر الفتاة – ٤ – ٧ – ١٩٣٨.

٢٨ – تقرير إتهام النيابة العمومية فى قضية الجناية رقم ٨٧٦ السيدة زينب لعام ١٩٣٩.

٢٩ – السياسه – ٣١ – ٨ – ١٩٣٦.

وهكذا أحاطت مؤامرة ثلاثية بالنحاس، بل وبمصر كلها .

القصر - الفاشيون - الاخوان.

ويبدأ النحاس كعادته المعركة ضد الجميع ساخناً ومهاجماً، ويأمر بمحاصرة تحركات احمد حسين فى الاقاليم، فيدفع القصر أحد النواب لسؤال الحكومة عن السبب، ويرد النحاس كعادته مهاجماً «ثبت لوزراة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ، ضد مصلحة البلاد»[٣٠]

وتشارك الصحف الوفدية فى الحملة مؤكده أن إيطاليا أنفقت فى مصر ٢٠٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٣٥، ثم ضاعفت هذا المبلغ عام ١٩٣٦»[٣١].ثم يمتد الهجوم إلى القصر الملكى «فالديكتاتورية إذا كانت شراً فى صورتها الشعبية، فإن شرها يتجاوز الحدود إذا تولاها رجال السراى، وقد صدق زعيم الأمة حيث قال: ليس أسوأ من حكم رجال السراى فى أى بلد من البلاد»[٣٢]

وعندما يلتقى النحاس بأحمد حسين يقول له فى صراحة مثيرة للدهشة «أنت دسيسة، وهناك من دفعك إلى هذا العمل، وإلا فمن أين تأتى بالمال الذى تصرف منه على الحركة» ثم يهدده «إفعل ما يحلو لك، فقد أعذر من أنذر، إننى سوف أعتبرك خارجاً عن الوحدة، والأمة لا ترحم الخوارج، وكل من فكر فى أن يخرج علينا هدمناه هدماً»[٣٣]

وعندما كون أحمد حسين جماعة «القمصان الخضر» وإستخدمها فى ترويع الوفديين، طرق النحاس الحديد بالحديد، وفى ١٠يناير ١٩٣٦ قام محمد بلال بإستعراض على رأس ١٥٠٠ شاب يرتدون «القمصان الزرقاء» فى الشوارع المؤدية للنادى السعدى»[٣٤]. ولقد تساءل كثيرون لماذا فعلها النحاس؟ ولماذا شارك فى إنشاء القمصان الملونة ذات النزعة الفاشية. أعتقد أن الرسالة لم تكن موجهة لاحمد حسين، وإنما للقصر وللانجليز كى يكف القصر عن اللعب بمثل هذه الأوراق ضد الوفد. وخضع القصر وخضع الانجليز لتهديد النحاس.

والحقيقة أن فزع الانجليزمن تكوين القمصان الزرقاء كان حقيقياً، فقد كان كفيلا بأن يمتلك الوفد جيشاً من رجال منتظمين فى منظمة شبه عسكرية الأمر الذى يمنحه قوة إضافية، هذا بالاضافة إلى النكهة الفاشية التى كانت تفزع الانجليز. ويكتب سير مايلز لا مبسون فى تقريره السنوى: فقرة ٢٠٦: إتخذ مؤتمر الشباب

---

٣٠ - مجلس النواب - مضبطة جلسة ٢٢ -٧ -١٩٣٦ - ص٩٧.
٣١ - آخر ساعة - ١٩ - ٧ -١٩٣٦.
٣٢ - المصرى - ٢١ - ٧ - ١٩٣٨.
٣٣ - مرافعات الرئيس احمد حسين فى عهد حكومه الوفد -ط٢ - ص٤٧.
٣٤ - كوكب الشرق - ١١ - ١ - ١٩٣٦.

الوفدى قراراً فى ٩ يناير بتأسيس منظمة للشبيبة على النهج الفاشى. وقد أيد الوفد هذا الاتجاه بعد أن وجد أن أحزاب الأقليات قد فعلت ذلك لحشد الشباب فى حركة مناهضة للوفد.

* فقرة ٢٠٨ : تأسست لجنة من الوفد لتنظيم وتدريب فرق القمصان الزرقاء الذين وصلتنا تقارير تفيد أن عددهم قد بلغ فى يوليو (١٠ر٠٠٠) شخص، وإختير النحاس رئيساً للحركه.

* فقرة ٢٠٩: وفى يوليو قام القائد العام للقوات البريطانية فى مصر بتحذير مكرم عبيد من السماح لهذه الحركة بالنمو دون رقابه»[٣٥]

المهم إرتعب الانجليز. وإرتعب القصر. فالحديد يطرق الحديد. والقمصان الزرقاء أصبحت أضعاف أضعاف القمصان الخضر، وصدرت التعليمات بحل القمصان الخضر كثمن لقيام الوفد بحل القمصان الزرق.

وحاولت مصر الفتاة الانتقام بطريقتها «ففى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ أطلق عز الدين عبد القادر أربع رصاصات على سيارة النحاس، ولم يصب النحاس، وقبض على الجانى وإعترف بأنه عضو فى مصر الفتاة»[٣٦].

وحاولت مصر الفتاة الانتقام بطريقتها الخاصة «وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ أطلق عز الدين عبد القادر أربع رصاصات على سيارة النحاس، ولم يصب النحاس وقبض على الجانى، واعتراف بأنه عضو فى مصر الفتاة[٣٧]

والحقيقة ان الخطر الفاشى كان محدقاً بمصر خاصة عندما إرتبط بالقصر الملكى. وبعد أن إنجلى غبار الحرب العالمية الثانية ثبت تماماً أن وجهة نظر النحاس فى ضلوع القصر فى مؤمرات فاشية كانت صحيحة.

فالكونت شيانو. وزير خارجية الدوتشى [موسيلينى] نشر مذكراته، وقد جاء فى مذكرات يوم ٢٣ ٢ –١٩٣٩«إن نبأً مثيراً وصلنى، فقد تمت مقابلة بين مراد سيد أحمد باشا وزير مصر المفوض فى طهران، والسفير الايطالى هناك« أتو كيلو» وإستفسر الوزير المصرى بإسم مليكه – الذى يناصب الانجليز العداء – عما إذا كان المحور سيقف إلى جواره ويسانده إذا ما أعلنت مصر حيادها، وترتب على ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من جانب بريطانيا

---

٣٥ – التقرير السنوى عن عام ١٩٣٦ من السير مايلز لامبسون إلى مستر إيدن – ملف رقم ٣٧١ – ٢٠٩١٩ – سرى – ١٥٢١٧ – أرشيف رقم ٨ (ل.٣٥٢٢ – ١٦)إستلم فى ١٩ – ٨ تحت رقم ٩٠٦.

٣٦ – البلاغ – ٢٩ – ١١ – ١٩٣٧.

٣٧ – البلاغ – ٢٩ – ١١ – ١٩٣٧

38 -The Ciano diaries - Newyork - (1946) P32

39 -Kirk - The Middle East in the war 1939 - 1945. London - (1953) p34

العظمى؟»[٣٨] وتؤكد المخابرات البريطانية انها حصلت بعد الحرب وبعد أن إستولت على أرشيفات النازى،على معلومات تفيد أن على ماهر - خصم النحاس اللدود- «كان يحصل على مبالغ مالية من المانيا الهتلرية عن طريق بنك درسدنر»[٣٩]

ولعلنا نستطيع أن نتفهم على ضوء هذه المعلومات التى لابد أن طرفاً منها كان قد تلامس مع الانجليز ومع النحاس حقيقةالدوافع وراء معاهدة ٣٦، وحادث ٤ فبراير.

كذلك كانت المعركة بين النحاس والاخوان - فى حقيقة الأمر - معركة بين النحاس والقصر. فقد تنامى نفوذ الاخوان بفضل مساندة القصر لهم، وزاد نفوذ الملك بما إرتداه من مسوح دينية.

وعقد الاخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع خصيصاً لمساندة الملك الجديد فاروق ومبايعته «وهكذا برزوا كقوة فاعلة موالية للقصر، وحاميه له»[٤٠]. وأدخل المراغى شيوخ الازهر فى المعركة، وأصبحوا يتحدثون دوماً عن «الملك الصالح» الذى صدق هو أيضا، وأسرع فأطلق لحيته.

وظل الصراع محتدماً بين الوفد والاخوان ويقول احمد حسين « وكان طبيعياً أن تقف الحكومة [يقصد حكومة الاقلية] إلى جوار الاخوان ضد الوفد».[٤١] ولأمد طويل ظلت الصحف الوفدية تسمى حسن البنا «حسن راسبوتين»

واستمرت معركة النحاس شديدة ضد القصر الملكى .

وما لبث النحاس ان باغت الجميع منتهزاً فرصة عهد الوصاية على العرش فأصدر القانون رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٧ والخاص بإنشاء مجلس الدفاع الأعلى، وقد جرد النحاس فى هذا القانون الملك من أية سلطة إشرافية على الجيش ومنحها لرئيس الوزراء. وألغى تماماً منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو المنصب الذى يتولاه الملك عادة».[٤٢]

وثمة وثيقة فى محفوظات قصر عابدين هى تقرير رفع للملك يقول «ان هذا القانون يدعو للتساؤل ويثير ظلالا من الشك حول الغرض الأصلى من صدوره».[٤٣]

---

40 - R.Mitchelle - The Society of the Muslim Brothers - oxford - (1969).P.14.

٤١ - احمد حسين - مرافعة فى قضية إغتيال المرحوم محمود فهمى النقراشى - القاهرة (١٩٤٩) - ص٤٣.

٤٢ - القانون ٧٢ لسنة ١٩٣٧ بانشاء المجلس الاعلى للقوات المسلحة.

٤٣ - وثيقة معنونه - الحكومة المصرية رقم ٦١٣٣ - تقارير الحكومة ٢ الجيش - بحث فى مجالس الجيش وهيئة أركانه - مكتبة رئاسة الجمهورية.

٤٤ - راجع: د. رفعت السعيد - مصطفى النحاس، السياسى ، الزعيم ، المناضل - بيروت (١٩٧٦).

ويواصل النحاس معركته،فعندما إقترح الامير محمد على (ولى العهد) بأن يتم تنصيب الملك فى إحتفال دينى..رفض النحاس. فقد كان يعلم أن الخطة هى تقديم الملك للشعب مسلحاً بستار دينى. وبالفعل، وفى أول صدام مع فاروق خرجت المظاهرات الوفدية هاتفة «الشعب مع النحاس» وأخرج على ماهر جموع الاخوان هاتفين «الله مع الملك ».[٤٤]

المهم رفض النحاس إقحام الدين فى حفل تنصيب الملك، وألقى أمام مجلس النواب خطاباً قال فيه «إن ذلك إقحام للدين فيما ليس من شئونه، وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية».وقال ان «الاسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على إحترام الاسلام وتنزيه الاسلام، كما أنه ليس أحرص منا علىإحترام الدستور».[٤٥]

لكن الأمر لم يخل من بعض تقلبات. ففى خضم هذه المعارك الضارية ضد القصر والفاشست والاخوان وضد الانقسامات فى صفوف الوفد [السعديين، ثم الكتلة] أقترب النحاس أحياناً باتجاه الانجليز خاصة عندما إستفحل أمر النازى فى أوربا. ولعل شخصا خاض واستمر فى خوض معركة الديمقراطية والليبرالية والدفاع عن الدستور كان يتعين عليه أن يتحسب من إمتداد النفوذ الفاشى إلى مصر. ولم يكن من سبيل من وجهة نظر النحاس وفى ظل توازن القوى المختل سوى عقد تسوية مع الانجليز تكسب فيها مصر شيئا، وتسد الطريق فى ذات الوقت أمام المد الفاشستى.

وعندما كانت الوزارة النحاسية معرضة لمؤمرات القصر فى عام ١٩٣٧، حاول النحاس أن يجد لنفسه سنداً فى دار المندوب السامى التى كانت – فى ذلك الحين – حريصة على أن يظل النحاس فى الحكم كسبيل لدرء مخاطر قيام حكومة موالية للمحور الذى كان نفوذه قد إمتد وعمق جذوره فى القصر الملكى عن طريق الثالوث: على ماهر – الشيخ المراغى – كامل البندارى.

وتقدم لنا وثائق أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، والمودعة فى المتحف البريطانى، معلومات تؤكد أن النحاس قد أوفد أمين عثمان باشا إلى السير مايلز لامبسون طالباً منه التدخل لحماية الوزارة النحاسية. ويكتب لامبسون إلى وزير خارجيته قائلا: «وأنه لأمر حيوى لمصلحة كل من مصر وبريطانيا أن نقف بشكل قاطع وراء النحاس باشا خاصة إذا ما قام بتوسيع قاعدة وزارته وإلا فلن نرى أمامنا إلا طريقا لا نهاية له من الفوضى والعلاقات المشدودة». لكن لامبسون يلاحظ، فى نفس الرسالة، أن هذا الموقف «يفترض أننا سوف نكون مستعدين للتعامل بصراحة مع الملك فاروق دون أى إعتبار لما قد يقودنا إليه ذلك، لأن الملك قد لا يعير

---

٤٥ – المصرى ٢٢ – ٢– ١٩٣٧

نصيحتنا أى إهتمام. وعندئذ فماذا سوف نفعل؟ » وإجابة على هذا السؤال يميط لامبسون اللثام عن اقتراح خطير لامين عثمان صديق النحاس ورسوله لدى الانجليز أن «أمين عثمان قد إعترف بأن ذلك سوف يعنى أن نكون مستعدين للمضى بالأمور إلى نهايتها المريرة».

ولم يفت لامبسون أن يختم رسالته إلى ايدن قائلا: «انه يرى من الصعب إلى حد كبير التغاضى عن إقتراح أمين عثمان، فهو رجل صافى الذهن وعملى ودوافعه ليست محل شك بأى حال».[وبالمناسبة هل يفسر لنا إقتراح أمين عثمان هذا مبررات إغتياله وما أشيع ساعتها عن ضلوع القصر فى عملية الاغتيالات ثم تهريب مرتكبيها من السجن ؟] و لم يفت سير لامبسون أن يستحسن فكرة خلع الملك أبقاء علي وزارة النحاس، بل أنه يؤكد أن مثل هذه الخطوة «قد تكون إنقاذاً للموقف. وهى على المدى الطويل قد توفر حيرة ومتاعب لا نهاية لها»[٤٦].

وردا على هذه البرقية الخطيرة يكتب ايدن قائلا: «إهتممت بفكرة توسيع قاعدة تشكيل الحكومة الوفدية، وإننى على إستعداد لمساندة النحاس إذا وافق على ذلك، لكننى سأكون غير راض إلى حد كبير لو أننى ذهبت إلى درجة قبول فكرة خلع الملك فاروق بأى حال إلا بعد عقد قرانه، وبعد أن تقل شعبيته إلى حد كبير»[٤٧]

وتصاعد الصدام حتى وجه الملك خطاب أقالة مهيناً للنحاس، كان الأول من نوعه فى تاريخ الحياة الدستورية المصرية، فقد جاء فى الخطاب «نظراً لما تجمع لدينا من الأدلة على أن شعبنا لم يعد يؤيد طريقة الوزارة فى الحكم، وانه يأخذ عليها مجافاتها لروح الدستور، وبعدها عن إحترام الحريات العامة وحمايتها، لم يكن هناك بد من إقالتها». وتخرج الجماهير لتتحدى الاقالة هاتفة «النحاس أو الثورة» ، «لا إستقالة ولا إقالة» و «الدستور فوق الجميع».

وتكون أول مظاهرات جماهيرية تتحدى الملك صراحة وتطعن فيه..

لكن شيئاً هاماً يتعين علينا أن نتذكره، هو أن الوفد لم يستطع أن يجابه هذه الخطوة الوقحة من جانب القصر مجابهة فعلية لسبب بسيط وهو أن القصر كان قد إستعد لها بتدبير إنقسام مؤلم فى الصفوف الوفدية [أحمد ماهر والنقراشى]. وكان «محمود فهمى النقراشى» أستاذ التنظيم، بدلا من أن ينظم الجماهير الوفدية

46 - From Lampson to Eden - November 29,1937Tel.No:679F.O.407 /221.

47 - From Eden to Lampson -November 30,1937 Tel No.:560 .

48 -From Lampson to Eden, November 29,1937 - Tel :No. 669 Public Record (London) F.O 407 /221.

فى تمردها على الملك، قابعاً فى صفوف القصر، «محركا» للمؤامرات ضد الوفد وضد النحاس.

والحقيقة أنه كانت هناك «صفقة » عرضها الانجليز على النحاس لانقاذ وزارته من الاقالة. وقد أفصح سير مايلز لامبسون عن هذه «الصفقة» فى برقية وجهها إلى وزير الخارجية البريطانية فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧ جاء فيها: «على أننا يجب علينا أن نجعل تأييدنا مشروطا بتخليه عن سياسة الاحتكار فيضم اليه العناصر الصالحة مثل عبد الوهاب (فى شركة قناة السويس) وعلى الشمسى (لوزارة الخارجية) وأحمد ماهر (للحربية)».

كان هذا هو الثمن المطلوب من النحاس كى يبقى رئيسا للوزراء.[٤٨]

والسوآل الذى قد يحير القارئ والباحث معا هو لماذا كان الانجليز على إستعداد كى يمضوا بالأمور إلى نهايتها المريرة مع الملك مقابل هذا الثمن؟ ولماذا رفض النحاس أن يقبل الصفقة؟.

الجواب على السؤالين معا هو أن «الصفقة» لم تكن تعنى إضافة بضعة وزراء موالين للانجليز بقدر ما كانت تعنى محاولة تغيير الطابع العام للقيادة الوفدية وللوزارة الحاكمة باسمها بحيث تصبح – بشكل عام – أكثر طواعية فى يد الانجليز. وينتهز الملك فرصة إقالة النحاس، بعد أن تخلى الانجليز عن مساندته، إثر رفضه للصفقة، ليحاول أن يرتب فى هدوء، نوعا من الانقلاب الدستورى يستجمع بموجبه كل السلطات فى يديه. ويدهش أعضاء مجلس الشيوخ الذين قابلوا الملك لرفع رد المجلس على خطاب العرش عندما يقول الملك لهم:«ليس يكفى رضاء الأمة عنكم، بل يجب أن يكون معه رضاء الملك كذلك» [٤٩] . ثم لم يلبث الملك أن أشهر هذا الانقلاب الدستورى فى خطاب وجهه بالراديو، وإختار له – عن عمد – ذكرى رأس السنة الهجرية ، معلنا توليه لزمام كل الأمور قائلا: «إن ثقتى بنفسى وتوكلى على الله هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ويوجهنى الوجهة الصحيحة»[٥٠].

لكن النحاس لا يسكت، فيدعو الهيئة الوفدية إلى إجتماع طارئ لتصدر بياناً عنيفاً تقول فيه: «أن الدستور والنظام الديمقراطى فى مصر قد أصبحا فى خطر، وأن الهيئة الوفدية ترى أن واجبها أن تعلن أنها لا تقبل بحال من الأحوال أى مساس بالدستور والحريات»[٥١].

* * *

وعندما كانت بريطانيا تعانى من ضربات النازى والريح تتجه على عكس ما تريد، قدر النحاس أنها فرصته ليوجه مطالب جديدة للانجليز، خصوصاً وأنه قد أخذ عليهم عدم مساندته – للاستمرار فى الحكم. وهكذا، وفى

---

٤٩ – المصرى – ١/ ٧/ ١٩٣٨.
٥٠ – مصر الفتاة – ١٩٣٩/٢/٢٣.
٥١ – مصر الفتاة – ٢٧ / ٢ / ١٩٣٩.

أول أبريل ١٩٤٠ فاجأ الوفد الجميع بتقديم مذكرة شديدة اللهجة للسلطات البريطانية إتهمها فيها بأنها «باركت الانقلاب الدستورى وإستغلته لصالحها رغم أحكام المعاهدة فى نصها وروحها» وقالت المذكرة «إن هذا الموقف البريطانى يعطى لمصر الحق فى أن تطلب من الحليفة أن تحدد موقفها منها وأن تقوم بنفس النصيب الذى تقوم به من المحالفة وتنفيذها، وأن تقدر لمصر – الدولة الصغيرة – ما حملته وتحمله عن حليفتها الكبيرة من أعباء الحرب».

ثم طلب الوفد من الحكومة البريطانية الاستجابة للمطالب الآتية التى قررتها هيئته البرلمانية وهى:

١ – أن تصرح – من الآن – بجلاء القوات البريطانية عن مصر، بعد إنتهاء الحرب وعقد مؤتمر الصلح. وتبقى المحالفة فيما عدا ذلك قائمة بين الطرفين بالأوضاع المبينة فيها.

٢ – إشتراك مصر إشتراكاً فعلياً فى مفاوضات الصلح للدفاع عن مصالحها والعمل على تحقيق أغراضها معنوية كانت أو مادية.

٣ – الدخول في مفاوضات مع مصر بعد إنتهاء مفاوضات الصلح يعترف فيها بحقوق مصر كاملة فى السودان لمصلحة أبناء وادى النيل جميعاً.

٤ – التنازل عن الأحكام العرفية التى أعلنت بناء على طلبها، وإخطار الحكومة المصرية بهذا التنازل.

٥ – حل مشكلة القطن بعدم الحيلولة دون تصديره إلى البلاد المحايدة أو بشرائه بالأسعار والشروط المناسبة».

ثم تناولت المذكرة، بعد ذلك بالتفصيل ، المطلب الخاص بالأحكام العرفية. فقالت: «إن بقاءها يفسح المجال لاستغلالها من الحكومة القائمة ضد أرادة الشعب، فضلا عن أن انجلترا نفسها لم تعلن الأحكام العرفية لا فى بلادها، ولا فى مستعمراتها رغم إشتراكها فى حرب لا تزال مصر بعيدة عنها. ومن ثم فلا معنى إذاً لتنفيذ المعاهدة فى ظل الأحكام العرفية التى لا ضابط لها، كما هى مفروضة على مصر، ولا معنى لأن تمتد الرقابة على الأخبار العسكرية إلى رقابة على كل الشئون المصرية حتى أصبح المصريون فى عهد الاستقلال، وكأنهم آلة عمياء صماء لا يسمع لهم صوت فى تصريف شئون بلادهم».

ثم تعرضت المذكرة لمسألة القطن فصورت الأحوال الاقتصادية فى داخل البلاد تصويراً خطيراً، وأعلنت أنها قد تطورت تطوراً سريعاً إلى «خراب شامل فى الأموال العامة والخاصة، وتدهورت الثروة الأهلية إلى مادون الحضيض».

---

٥٢ – د. عبد العظيم رمضان. تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٨ – الجزء الثانى ص٥١.

٥٣ – مجلس الشيوخ – مضابط دور الانعقاد العادى الخامس عشر. مضبطة جلسة ٣٠ أبريل ١٩٤٠ – ص٥٨٩

وقد أحدثت هذه المذكرة ردود فعل واسعة.. فقد أعربت وزارة الخارجية البريطانية عن إنزعاجها الشديد ووجهت برقية عاجلة إلى دار مندوبها السامى بالقاهرة تقول: «أبلغوا النحاس باشا فى الحال أن الحركة التى قام بها ونشرت على الناس فعلا قد أحدثت لدى الحكومة البريطانية شعوراً أليماً للغاية».[٥٢]

أما على ماهر، فقد وصف المذكرة بأفحش النعوت، وتحدث عنها في مجلس الشيوخ قائلا: أنها «خروج على الدستور، وخروج على قوانين البلاد، وخروج على النظم القائمة، هى خروج على العرش، خروج على الحكومة، وعلى البرلمان».

وحاول على ماهر – كالعادة – أن يتفادى مناقشة مضمون المذكرة ليركز على الشكل متسائلا: «كيف يسمح فريق لنفسه بأن يتقدم لدولة أجنبية، وأن يدعى أنه يتكلم باسم الأمة؟ بأى وجه يدافع هؤلاء الناس عن تصرفهم فى تقديم هذه الأوراق التى تقدموا فيها بشكواهم للسفير البريطانى قائلين أنهم هم الذين يمثلون الشعب، وأن الحكومة لا تمثله؟ أوكد لحضراتكم أن هذا هو أشنع صور الأزدراء بالاستقلال»[٥٣]

بينما أكد عبد الرحمن الرافعى (الحزب الوطنى) أن هذه المذكرة «قد أحدثت فى البلاد رجة لأنها كانت أول صيحة بالخروج على معاهدة ١٩٣٦ من إحدى الهيئات التى وقعتها، ومن الهيئة التى إعتزت بها وروجت لها وحثت الناس على قبولها».

وكتب عبد القادر حمزة مقالا لجريدة البلاغ يقول فيه: « ان ما فات مصر بين سنتى ١٩١٤و١٩١٨ قد إستدركه الوفد فى المذكرة التى تقدم بها للسفير البريطانى» ولكن الرقابة منعت نشر المقال[٥٤].

وإنهال سيل من البرقيات على «النحاس» يؤيد وقفته ضد الانجليز ، أما هو فقد صمم على تصعيد معارضته للانجليز، برغم حرج الموقف، وبرغم إتهام خصومه له بأنه بمعركته هذه إنما يخرج «على العرش وعلى الحكومة وعلى البرلمان».

وتستمر المطارق الوفدية لتهوى ضد سياسة الاحتلال.

وفى مجلس النواب، وقف محمود سليمان غنام ليدين تغلغل القوات البريطانية فى الأحياء الآهلة بالسكان، الأمر الذى يعرض سكان هذه الاحياء للغارات الوحشية من طائرات المحور. وقال: ان هذه القوات قد تغلغلت «تغلغلا واضحاً فى جميع الأحياء الوطنية الآهلة بالسكان والمدارس والشوارع والفنادق الوطنية، بل أبرئ ذمتى وأقول أن بعض هذه القوات مرابط الآن فى مبنى على قيد أمتار من مسجد كبير فى القاهرة. تصوروا

٥٤ – المرجع السابق – خطاب يوسف الجندى – ص٥٨١ و٥٨٢ من المضبطة.

٥٥ – مجلس النواب – مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الرابع ١٩٤٠– ١٩٤١ – الجزء الثانى ص ١٤٥٩.

٥٦ – مجلس الشيوخ. مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى السادس عشر ١٩٤٠ – ١٩٤١ – جلسة ٨ سبتمبر ١٩٤١.

حضراتكم مدى هذا الخطر إذاما وقعت الواقعة، فان الألمان سيقولون أننا لا نقصد المصريين، ولكننا نقصد الأهداف العسكرية»[٥٥].

وفى مجلس الشيوخ، وقف يوسف الجندى ليهاجم السياسة الاقتصادية لبريطانيا تجاه مصر والتى إتسمت بالاستنزاف لكل ثرواتها، وحرمانها من بيع قطنها للدول المحاربة والمحايدة، ومن ثم، فقد فرضت نفسها كمشتر وحيد للقطن المصرى، وفرضت فى نفس الوقت سعراً للقطن يقل كثيراً جداً عن سعره العالمى. وقال ان الانجليز «لا يتأثرون ألا بمصلحتهم ومصلحتهم وحدها، وكان يجب أن نفهم هذا.. وألا نكرر عبارات الاستجداء بغير ما جدوى». ومضى يوسف الجندى قائلا: أن سياسة بريطانيا تجاه القطن المصرى لا تستهدف تحقيق المصلحة الانجليزية فحسب وإنما هى تقوم أيضا «على سياسة إفقار الشعوب المحكومة. وإنى آسف أن أقول هذا، ولكنها هى الحقيقة التى وردت على لسان الكثيرين من الساسه الرسميين»[٥٦].

ومن الطريف، أن الانجليز قد لجأوا إلى حجة غريبة للدفاع عن موقفهم من فرض سعر مخفض للقطن المصرى فقالت إحدى الصحف الناطقة بإسمهم فى مصر وهى «الاجيبشيان ميل»«بأن رفع السعر لا يفيد سوى طائفة الباشوات، أما الزارع المتوسط والصغير، و المستأجرون، فلا يعود عليهم رفع السعر الا بالخسارة والجوع».

وردا على هذه الحجة كتبت جريدة «الوفد المصرى» مهاجمة الانجليز لأنهم يحاولون «التفرقة بين الطبقات فى مصر وقالت :« لمصلحة من يريدون بذر بذور الشقاق بين هذه الطبقات ، وإحداث مشكلة إجتماعية من أعقد المشكلات التى أقلقت بال أمم كثيرة، ومصر بقيت ناجية منها إلى الآن بفضل الله»[٥٧].

ثم يتقدم «مصطفى النحاس» بنفسه إلى ميدان المعركة، حيث «دبرت» له حفلة تكريم فى رأس البر كمبرر لاتاحة الفرصة لالقاء خطاب نارى ضد الانجليز، وضد معاهدة ١٩٣٦ التى وصفها بأنها «أصبحت بعد عام واحد من تنفيذها غنما للانجليز وغرماً على المصريين»وقال إن سوء النية في تنفيذها قد بدا جلياً للعيان، وأن الأمر «يستدعى إعادة النظر في المعاهدة لجعل نصوصها متفقة مع روحها». وقال: «نصرنا الحليفة بكل صدق وإخلاص فماذا كان جزاؤنا؟ كان أن أهدرت كرامتنا، وفقدنا حريتنا، وأعلنت الأحكام العرفية علينا، وكممت أفواهنا، وتحكمت الرقابة فينا، وعدت أنفاسنا علينا، وكسدت سوقنا، وإرتفعت أسعار المعيشة، وإنخفض سعر نقدنا، وسخرت قواتنا ومرافقنا ومصالحنا لصالح الانجليز، ولم نجن من وراء ذلك كله شيئا بل لقد تدخل

---

٥٧ – الوفد المصرى – ٢٣ /١٩٤١/٨

٥٨ – المصرى ١٩٤١/٨/٤.

٥٩ – المؤتمر الوفدى – مستقبل مصر كما رسمه الزعيم مصطفى النحاس وأقطاب الوفد المصرى فى نوفمبر ١٩٤٣ (عدد خاص أصدرته جريدة الحوادث)ص٤٠.

الانجليز فى شئوننا، وتغلغلوا فى جميع مرافقنا، ولم يراع فى توزيع القوات صيانة أرواح المدنيين مع تحقيق الأهداف العسكرية، فأصبحت البلاد كلها هدفا لكل غارة، حتى فقد المدنيون كل طمأنينة وراحة وسلام».

ثم قال: «يوسفنى أن أصرح بأن الانجليز الذين يحاربون دفاعاً عن الديمقراطية فى بلادهم، يدأبون على محاربتها فى مصر. ولا ريب أنه اذا لم تكن الديمقراطية واحدة في كل البلاد التى تناصرها، فليست إذن هى فكرة يدافع عنها، ومبدأ يناضل من أجله، بل تكون هى والديكتاتورية سواء» [٥٨].

ومن حق النحاس علينا أن نقرر له أنه لم يلجأ إلى مثل هذا الهجوم العنيف عندما كان فى صفوف المعارضة فحسب، بل لقد عاود التأكيد عليه أكثر من مرة بعد أن تولى الحكم - عقب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ - علناً ضرورة العمل لتعديل المعاهدة. وفى المؤتمر الوفدى الكبير الذى عقد فى نوفمبر ١٩٤٣ راح النحاس يعدد ما قدمته مصر لبريطانيا من مساعدات، وما أدته من خدمات تنفيذاً للمعاهدة. ثم قال: «ان حوادث الحرب قد غيرت الموقف تغييراً كبيراً حتى أصبح هذا التعديل ضرورة لابد منها، ونتيجة لا ريب فيها.. وإنى الآن أكاد ألمح بإذن الله فجر اليوم الذى نرى فيه مصر المستقلة إستقلالاً تاماً لا تشوبه أية شائبة»[٥٩].

ثم عاد، وهو رئيس للوزارة أيضاً، وفى خطاب له أمام البرلمان ألقاه فى ٢٨ سبتمبر ١٩٤٣ ليؤكد تمسكه بمذكرة أول ابريل ١٩٤٠، ووصفها بأنها «بكل مطلب من المطالب القومية المدونة بها.. وفى مقدمتها الجلاء والسودان، هى فخرنا، وهذه المطالب الوطنية التى كان لنا شرف المناداة بها ونحن خارج الحكم فى سنة ١٩٤٠، لا تزال ولن تزال مطالبنا نعمل لها جهد إمكاننا..» ثم مضى النحاس قائلا :«والحكومة البريطانية الحليفة تعلم حق العلم مقدار تمسك الوفد بمطالب مصر الوطنية ومبلغ تصميمه عليها».. ثم عاد النحاس ليؤكد موقفه هذا أمام مجلس النواب أيضا في جلسة ١٢ يناير ١٩٤٤.[٦٠]

ولم تكن هذه المواقف هى المظاهرالوحيدة للصدام بين «النحاس» والاحتلال البريطانى ، بل أن النحاس قد حرص، ومنذ توليه الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢، على إنتهاج مواقف متشددة تجاه الانجليز، حتى فى المسائل التفصيلية والتى كان يمكن التغاضى عنها مؤقتا.

فبعد شهر واحد، أى فى ٥ مارس ١٩٤٢، أمر النحاس - ودون التشاور مع الانجليز - بالأفراج عن عزيز المصرى باشا وحسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف، برغم خصومتهم الواضحة للوفد، وبرغم علمه

---

٦٠ - مجلس النواب. الهيئة النيابية الثامنة. مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الثالث. المجلد الثالث. المجلد الأول عام ٤٣ - ١٩٤٤. جلسة ١٢ يناير ١٩٤٤ .

٦١ - محمد على الطاهر - ظلام السجن، مذكرات ومفكرات - مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٥١ - ص٤٩٤..

بتصميم الانجليز على إبقائهم بالسجن لأطول فترة ممكنة، ولم يكتف النحاس بذلك بل أمر بشطب القضية أيضا.

ولعله من المفيد أن نروى هنا واقعة توضح لنا الأسلوب الذى إعتمده النحاس للتعامل مع سلطات الاحتلال صاحبة النفوذ الأساسى فى البلاد فى ذلك الحين.

كان المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى قد إعتقل بأمر الانجليز فى عهد وزارة حسن باشا صبرى، ثم هرب من المعتقل، الأمر الذى أثار الكثير من مخاوف الانجليز وألحوا فى ضرورة ضبطة وإيداعه المعتقل، لكن محمد على الطاهر سلم نفسه للنحاس فى ٧ مارس ١٩٤٢ ، وأمر النحاس – وعلى الفور – بالافراج عنه.. ويروى محمد على الطاهر، أنه سمع النحاس يقول لأمين عثمان باشا: «قل للانجليز أنى أطلقت سراح الطاهر فعلا، وسيخرج من عندى حراً، وإن إعترض الانجليز علي ذلك، فقل لهم ألا يفتحوا لى هذه السيرة. فأنا قد أطلقته و إنتهى الأمر»[٦١]

وليس من شك فى أن الانجليز لم يكونوا – مطلقاً – سعداء بهذا النوع من التعامل، وهم الذين إعتادوا على خنوع رؤساء وزارات الأقليات .

فاذا أضفنا إلى ذلك – ما أسلفنا الاشارة إليه – من تشدد النحاس تجاه المطالب الوطنية، وإصراره على مذكرة ابريل ١٩٤٠، وعلى ضرورة تعديل المعاهدة، لأدركنا السبب فى أن الانجليز الذين دبروا حادث ٤ فبراير سرعان ما إكتشفوا أن عليهم أن يطيحوا، وبالقوة بالرجل الذى فرضوه قبل عامين وبالقوة أيضا.

* * *

وذات يوم كتب دافيد كيلى فى مذكراته انه «لقد أسر لى صديقى حسنين باشا يوما بأن الملك فاروق كان يبكى من الاهانة حينما كان يلمس فى الصحف إهتماما بالنحاس أكثر من الاهتمام بشخص الملك»[٦٢]

والحقيقة أن النحاس قد إنتهج وبحسم سياسة تقليم أظافر «القصر الملكى» وإبعاد نفوذه عن الحياة السياسية فى البلاد.

وكان الملك على إستعداد لأن يفعل أى شئ لكى يبعد النحاس عن الوزارة وحتى عندما طلب الانجليز صراحه تولى النحاس الوزارة وقدموا للقصر عديداً من الأدلة توحى بعلاقة وزارة على ماهر بالمحور، وأصروا

---

٦٢ – محمد عودة – سبعة باشوات وصور أخرى – ص١٥٤.

٦٣ – محمد التابعى – من أسرار السياسه والساسه، مصر ما قبل الثورة – مطابع دار القلم – القاهرة ص١٨٦.

64 - From Lampson to Halifax - October 8,1940, No.938.

على إقالته وتكليف النحاس بتشكيل الوزاره لجأ أحمد حسنين إلى حيلة ماكرة. يرويها بنفسه لمحمد التابعى قائلا: «رأيت أن نقوم بمناورة تمويه وتضليل فطلبت من الملك أن يوفد عبد الوهاب طلعت (وكيل الديوان الملكى) لمقابلة النحاس باشا فى كفر عشما لكى ألفت أنظار السفارة وعيونها إلى كفر عشما وأصرفها عما يجرى فى القاهرة. وهكذا، وبينما كان عبد الوهاب طلعت فى كفر عشما، كنت أنا قد إتصلت بحسن صبرى وأعضاء وزراته وأعددت المراسيم بتشكيل الوزارة. وكان حسن صبرى صديقاً للسفير وللانجليز وقد أخترناه لهذا السبب كسراً لحدة التحدى» (٦٣)

ويعترف لامبسون، فى برقية وجهها إلى لندن، بان القصر قد خدعه. لكنه يشير فى برقيته إلى أن «حسن صبرى باشا ووزراته المؤلفة من السعديين والأحرار والمستقلين مكونة ممن أشتهر معظمهم بالميل إلينا»(٦٤).

وتستمر المعركة، ويستمر النحاس فى تصميمه على الهجوم.

ويروى مصطفى أمين – ساعياً للوقيعة كعادته – «فى الأسبوع الأخير من شهر يوليو سنة ١٩٤٢ كتبت مقالا فى مجلة الاثنين أحيى فيه حضرة صاحب الجلاله الملك، بمناسبة ذكرى توليه سلطته الدستورية. وكان المقال عادياً، وصفت فيه شعورى نحو مليك البلاد وهو شعور كل مصرى. وكان طبيعياً أن يجيز الرقيب المقال، فليس فيه إنتقاد للوزارة، وليس فيه مديح لخصم من خصوم الوزارة، وليس فيه مهاجمة لنائب وفدى. وليس فيه شكوى من التموين أو المطالبة بالجلاء، وهذه كلها كانت ممنوعات لا تجيز الرقابة نشرها بأمر من صاحب المقام الرفيع النحاس باشا الحاكم العسكرى. ولكنى دهشت عندما طلب رقيب المجلة عرض المقال على مدير الرقابة. وعندما حمل الاستاذ الشافعى البنا رقيب المجلات الاسبوعية مقالى إلى رفعة الحاكم العسكرى ليعرضه عليه هالنى بعد ذلك أن علمت أن رفعته أمر بأن يعرض عليه شخصيا كل ما أكتبه عن جلاله الملك.وفى اليوم التالى، حضر الاستاذ الشافعى البنا يحمل المقال ويقول إن رفعة النحاس باشا أمضى الليل كله فى حذف وتعديل المقال. ورأيت المقال فاذا بأغلبه محذوف بخط صاحب المقام الرفيع، حذف رفعة الحاكم العسكرى قولى ان الملك فتح قصره لكل الأحزاب وكل الزعماء فليس للملك حزب لأن مصر كلها حزبه، وليس له رجال لأن المصريين كلهم رجاله. وحذف رفعة الحاكم العسكرى كل كلمة فيها إشادة بالملك، أو أضاف اليها وحكومة جلالته.. وحذف الحاكم العسكرى أن الملك فاروق ملك دستورى لا يرضى بالدستور بديلا، وأن الدستور لم

---

٦٥ – أخبار اليوم – ٤ / ١٢ / ١٩٤٤ (نقلا عن : صلاح نصر – عملاء الخيانة وحديث الافك – الوطن العربى – بيروت – ص١٠

٦٦ – د. محمد حسين هيكل – مذكرات فى السياسة المصرية – جـ ٢ – ص٢٧٦.

٦٧ – جلال الدين الحمامصى – معركة نزاهة الحكم، فبراير ١٩٤٢، يوليو ١٩٥٢، دار الكاتب العربى (١٩٥٧) ص٦.

يعطل فى عهده يوما واحداً، ولم أصدق أن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا تبلغ به الجرأة ويبلغ به الاستهتار – ولا أقول كلمة أخرى – فيحذف بيده التحية الموجهة إلى ملك البلاد»[٦٥]

وليس من شك فى أن موقفا كهذا، من جانب النحاس كان يعبر عن شجاعة منقطعة النظير، وعن إصرار لا يكل علي مجابهة الملك ومعارضة نفوذه.

ولقد بادل الملك النحاس نفس الشعور. فعمل جهده على إضعاف نفوذه وعلى الكيد له.

ولم تكن الانقسامات التى دبرها «القصر» فى صفوف الوفد، سواء إنقسام النقراشى – أحمد ماهر، أو إنقسام مكرم عبيد، سوى حلقات فى نفس المخطط.

كذلك كان الكتاب الأسود.

ويعترف أحد خصوم النحاس بالحقيقة قائلا: «كانت شهرة النحاس باشا قائمة فى نفس الجمهور إلى يومئذ على أنه رجل نزيه، طاهر اليد، وأنه ظل فقيراً لم يفد من الحكم شيئا»[٦٦].

وهكذا، كان الكتاب الأسود ضرورياً لمحاولة تشويه سمعة «الزعيم» الذى إشتهر بالنزاهة وطهارة اليد.

والحقيقة أن صانعى «الكتاب الأسود» أنفسهم قد إعترفوا بدور السراى فى إعداده وإصداره ويعترف جلال الدين الحمامصى الذى قال عن نفسه: «لقد إشتركت فى وضع الكتاب الأسود وطبعه وتوزيعه»[٦٧] يعترف بصراحة غريبة : « كان الملك فاروق متحمساً لفكرة الكتاب الأسود تحمساً كبيراً، وكان يتابع أنباء إعداده ويسأل عما تم طبعه، وعن الاحتياطات التى إتخذت لمنع الحاكم العسكرى من إفساد هذه الخطة. بل انه قبل أن تودع صورة الكتاب وملحقاته من الوثائق فى إحدى خزائن سراى عابدين إلى أن يحدد موعد تقديمه إليه وإذاعته على الناس»[٦٨].

وهكذا تستمر المعركة سجالا. ويجد الملك فرصة أخرى لاقالة النحاس. ويستمر النحاس زعيم الأغلبية مبعداً عن الوزارة حتى تجرى إنتخابات ١٩٥٠ – فيكتسح الوفد كل خصومه ليفوز بأغلبية ساحقة فى مجلس النواب. وأسقط فى يد الملك، ولم يكن هناك مفر من قبول وزارة النحاس مرة أخرى.

ويعترف كريم ثابت باشا، وكان واحداً من أقرب المقربين من الملك، أمام محكمة الثورة بأن الملك «قبل

---

٦٨ – المرجع السابق ص٣٠.

النحاس على مضض، لأنه مكانش عايزه، ولكن النحاس معاه الأغلبية ، ومش ممكن ما يجيش، لكن قبل النحاس على مضض لأنه كان بيسمع أن النحاس حاييجى يقلل من سلطته» [٦٩]

أما حسين سرى باشا فيعترف فى شهادته، أمام نفس المحكمة، بأن الملك ذعر من نتيجة الانتخابات ، ومن مجئ النحاس وقال: «الملك السابق كان يعتقد أن مجئ الوفد الحكم حيبقى صعب عليه، وحتبقى تحصل مشادات بينه وبين رجاله، فطلب منى أن أكون رئيس ديوان وقال لى: أنت السبب لأنك فى الانتخابات اللى عملتها كنت رئيس حكومة رجعت الأغلبية الوفدية، ودول حاييجوا يعاكسونى، فأنا عاوزك تيجى رئيس ديوان علشان تتقبل الصدمات» [٧٠]

لكن المشاكل بدأت منذ البداية الأولى. وتفجر الخلاف قبل تشكيل الوزارة، عندما صمم الملك على أن يبقى محمد حيدر باشا وزيرا للحربية. « وكان حيدر قد إحتفظ بهذا المنصب فى ثلاث وزرات متعاقبة النقراشى، ابراهيم عبد الهادى، حسين سرى، ليكون عينا للملك علي مجلس الوزراء، وليكون أداة لفرض سيطرة السراى الكاملة على الجيش، وكان حيدر هو الذى حرك الجيش إلى حرب فلسطين دون إنتظار لأوامر رئيس الوزراء. لكن النحاس رفض ذلك رفضاً باتاً وأصر علي تعيين وزير وفدى هو مصطفى نصرت» [٧١]

وإذا كان هذا الخلاف قد أمكن تسويته بأن أنشئ منصب جديد هو منصب القائد العام للقوات المسلحة يتولاه حيدر، بينما أصبح مصطفى نصرت وزيراً للحربية، فإن خلافاً آخر حول تشكيل الوزارة قد نشب وإتخذ فيه النحاس موقفاً متشدداً وصارماً أجبر به الملك على التراجع.

وكان الخلاف هذه المرة حول طه حسين، ويروى هذه القصة حسين سرى باشا فى شهادته أمام محكمة الثورة (أثناء محاكمة كريم ثابت) فيقول: «لما طلب من النحاس تأليف الوزارة عرض على بعض الأسماء، وكان من بينهم طه حسين، بعضهم إستبعدته بموافقة النحاس، وقلت للنحاس بلاش طه حسين لأنهم فى السراى بيقولوا عنه أنه أفكاره يساريه فقال: ده أهمهم، فقلت له: أنت متشدد فيه؟ فرد على بأن ده أهم واحد عندى، إنشالله تشطب الكل أنا مستعد أتنازل عن كل الوزراء ما عدا طه حسين . فقلت للملك أدى الكشف واللى

---

٦٩ – محاكمات الثورة (الكتاب الرابع) اعداد كمال كيره – صدر عن مكتب شئون محكمة الثورة. المضبطة الرسمية لمحاضر جلسات محكمة الثورة (محاكمة كريم ثابت) . ص٦٩٧.

٧٠ – المرجع السابق – ص٦٥٤.

٧١ – أحمد حمروش – قصة ثورة ٢٣ يوليو – الجزء الأول – مصر والعسكريون. (المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت (ديسمبر ١٩٧٤) ص١٤٣.

بيتشدد فيه النحاس قوى طه حسين ، فقال مستحيل، ده راجل أفكاره يسارية، قل للنحاس أنى مش عاوزه . ولكن النحاس زى ما قلت قال أنه مستعد أن يتنازل عن كل الوزراء إلا طه حسين»[٧٢]

وكان النحاس مصمماً على أن يستمر وحتى النهاية فى تلقين المزيد من الدروس للملك ومصمما على الاستمرار فى تحديه هو والاحتلال الانجليزى.

* * *

ويمضى النحاس في موكب التحدى. لا التقدم فى السن، ولا تغير الاحوال ولا قدوم حكام جدد بأدوات جديدة وممارسات شديدة القسوة.لا هذا كله ولا أى شئ أوقف هذا الرجل الذى قال عنه سعد زغلول «انه شطح كثيراً».

ويكون تحديه الاكبر يوم رحيله . عندما إنفجرت ولأول مره منذ عام ١٩٥٤ مظاهرة حاشدة تشيع جنازته هاتفة «أشكى الظلم لسعد يا نحاس».

وهكذا رحل الرجل متحدياً، كما عاش طوال حياته متحدياً.

---

٧٢ – محاكمات الثورة – المرجع السابق ص ٦٥٩.

المراجع

* كتب باللغة العربية

- أحمد حسين – إيمانى
- أحمد حسين – مرافعة فى قضية إغتيال المرحوم محمود فهمى النقراشى.
- أحمد حسين – مرافعات الرئيس أحمد حسين فى عهد حكومة الوفد.
- أحمد حمروش – قصة ثورة يوليو –جـ١
- أحمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسية – الحولية الرابعة (١٩٢٧).
- جلال الدين الحماصى – معركة نزاهة الحكم، فبراير ١٩٤٢ – يوليو ١٩٥٢.
- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية.
- د. رفعت السعيد . مصطفى النحاس السياسى ، الزعيم ، المناضل.
- صلاح عيسى – حكايات من مصر.
- صلاح نصر – عملاء الخيانة والأفك.
- د.عبد الخالق لاشين – سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية.
- د. عبد العظيم رمضان – تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٨.
- محمد التابعى – من أسرار السياسة والساسة.
- د. محمد حسين هيكل. مذكرات فى السياسة المصرية.
- محمد على الطاهر . ظلام السجن . مذكرات ومفكرات.
- محمد عوده – سبعة باشوات وصور أخرى.
- محاكمات الثورة – الكتاب الرابع – محاكمة كريم ثابت.

* مخطوطات ووثائق وأوراق قضائية:

- مذكرات سعد زغلول – المخطوطة.
- مذكرات عبد الرحمن فهمى – المخطوطة.
- ملف القضية رقم ١٠٤ كل مصر عام ١٩٢٦.
- تقرير اتهام النيابة العمومية فى قضية الجناية رقم ٨٧٦ السيدة زينب لعام ١٩٣٩.
- التقرير السنوى عن عام ١٩٣٦ من السير مايلز لامبسون إلى مستر ايدن.
- القانون رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٧ بانشاء المجلس الاعلى للقوات المسلحة.

- بحث فى مجالس الجيش وهيئه اركانه.

- مضابط مجلس الشيوخ - ١٩٤٠ - ١٩٤١.

- مضابط مجلس النواب - ١٩٤٠ - ١٩٤١ - ١٩٤٣ - ١٩٤٤.

- الارشيف العام - وزارة الخارجية البريطانية . ملفات مصر والسودان - الاعوام ١٩٢٧ حتى ١٩٥٠.

* دوريات:

- أخبار اليوم ١٩٤٤.

- آخر ساعه ١٩٣٦.

- الأهرام ١٩٢٧.

- البلاغ ١٩٢٧ - ١٩٣٧.

- الحوادث ١٩٤٣ عدد خاص بعنوان - المؤتمر الوفدى.

- السياسه ١٩٢٧- ١٩٣٦.

المصرى ١٩٣٧ - ١٩٣٨ - ١٩٤١.

- المقطم ١٩٢٧.

- كوكب الشرق ١٩٣٦.

- مصر الفتاة ١٩٣٨ - ١٩٣٩.

- الوفد المصرى - ١٩٤١.

* - كتب أجنبية:

- The Ciano Dairies.

- G.E. Vongrunbrum - Modern islam, The Search For Cultural Identity

-Kirk - The Middle East in the War - 1939 - 1942.

- R. MitcheLL - The Society Of the Muslim Brothers.

محمد محمود

الليبرالية المستبدة

فإذا ما كان النحاس يستند إلى غالبية من الرعاع

فإننا نستند إلى قوة القانون وهيبته.

ربما لأن الناس – عموما – تحب وتكره، فإن المؤرخين هم أيضا كذلك، لكن المثير للدهشة هو أن الكتابات التاريخية تتراكم بكثرة حول الزعامات والقيادات التى تمتلك محبة من المجموع، أو حتى من الاتباع وإن كانوا نفراً قليلا.

أما تلك القيادات التى حظيت – بما فعلت – برفض عام من المصريين، فقد كان عليها أن تعانى من تجاهل التاريخ والمؤرخين.

هو موقف غير موضوعى؟ نعم. لكن الأمور كانت كذلك ولم تزل.

ولهذا فإننا ندهش، ولعلنا نفاجأ بأن مكتبة التاريخ المصرى لا تحتوى إلا على نذر يسير من الكتابات عن محمد محمود باشا، الذى كان طوال ثلاثة عقود من التاريخ السياسى المصرى ملئ السمع والبصر، ومثاراً لجدل وخصومات وتحالفات عدة .فبإستثناء كتابات د. ماجده حمود ود. أحمد زكريا الشلق نكاد لانعثر – أو هذا ما نعتقد – على دراسات توقفت فى تأن تفصيلى عن هذه الشخصية ومثيلاتها[1].

ولقد يبدو مثيراً للدهشة أن يجرى تجاهل محمد محمود باشا بهذه الصورة، فهو واحد من الاربعة الذين تم نفيهم مع سعد زغلول إلى مالطه، وهو إبن محمود باشا سليمان أحد مؤسسى حزب الامه، وأحد كبار الاعيان المصريين الذين إشتغلوا بالسياسية بحنكة وحذق فى إطار موقف سياسى ووطنى يحكمه وضعه الاجتماعى وتوجهه المحافظ، بل والشديد المحافظة. ومحمود سليمان باشا هو الوحيد من الاعيان المصريين الذين أُشيع أن الانجليز عرضوا عليه عرش مصر فرفض، وتستكمل الشائعة بأن محمد محمود كان يردد فى إعتزاز «أنا إبن من عُرض عليه المُلك فأبي».

ومحمود سليمان باشا هو الذى ترأس لجنه الوفد المركزية عقب سفر الوفد إلى أوربا.

اما محمد محمود فقد تولى الوزارة عده مرات، وأصبح رئيساً لوزراء مصر ثلاث مرات، ورئيساً لحزب الاحرار الدستوريين لأمد طويل.. فكيف يكون هذا التجاهل مبرراً؟

والحقيقة أن كثيراً من المؤلفات التاريخية قد أوردت إسم محمد محمود كثيراً، وربما كثيراً جداً، لكنها أوردته على طريقة «وبضدها تُعرف الأشياء» أى لابراز الموقف الوطنى لخصومه عبر التذكير بالعكس.

ويعتبر محمد محمود الأول من بين السياسيين المصريين الذى درس فى بريطانيا، وتخرج من جامعاتها . فكان «الانجلوفون» الوحيد بين الجيل الأول من القادة السياسيين من الانتلجنسيا السياسية المصرية التى كانت

---

١ – د. ماجده حمود – محمد محمود ودوره فى السياسه المصريه – من ١٩١٩ – إلى ١٩٤١ – رساله ماجستير غير منشورة.

– المعتدلون فى السياسه المصريه، دراسة فى دور محمد محمود باشا. (١٩٩٢) – ويضم فصولا من رسالة الماجستير.

–د. أحمد زكريا الشلق – حزب الامه ودوره فى السياسية المصرية (١٩٧٩).

– حزب الاحرار الدستوريين ١٩٢٢ – ١٩٥٣ – (١٩٨٢).

فى عمومها الغالب «فرانكوفون». وقد منحته إجادته للانجليزية إجادة تامة، علاقات إجتماعية وسياسية متميزة مع سلطات الاحتلال، وعززت من مكانته فى المناخ السياسى المصرى.

على أية حال .. ولاننا نحاول تقديم دراسة موضوعية، ولا نستبعد أحداً بسبب الاختلاف مع المواقف، نجد أنفسنا فى ساحة الكتابة عن محمد باشا محمود.

* * *

لكننا لا يمكننا أن نتحدث أو نفهم مواقف واحد من كبار الاعيان المصريين، دون أن نتأمل ولو بإختصار شديد، كيف نشأت هذه الطبقة التى كانت فى مطلع القرن العشرين حديثه الولادة، والتي لعبت عوامل عديدة فى تعقيد نشأتها ومكونها الاجتماعى، ومن ثم مواقفها من مشاكل الوطن وقضاياه.

ويمكن القول أن «طبقة كبار الملاك الزراعيين قد تكونت من تلك الحلقة التى تكونت حول أسرة محمد على باشا والذين عملوا معه فى بناء مصر الحديثة، وكانت مشكلة أساساً من أتراك وشراكسة وبقايا المماليك، وقد إحتل أفراد هذه الحلقة الضيقة المواقع الهامة فى الجيش والاداره»[٢]

وإبتداء من عصر سعيد، ثم وعلى نطاق أوسع في عصر إسماعيل بدأت تتكون شرائح جديدة من كبار الملاك الزراعيين بينهم أجانب «توافدوا إلى مصر بكثرة غير معهوده، وإستطاعوا أن يمتصوا الكثير من دمائها عبر المضاربات والرهونات والامتيازات الاجنبية»[٣]

و تكونت أيضا «من أغنياء المدن ومن العمد ومشايخ القرى الذين إستطاعوا – وإن بدرجات متفاوتة – أن يضعوا أيديهم على مساحات كبيرة من الاراضى الزراعية، وأصبحت الشريحة العليا منهم فى عداد كبار الملاك»[٤] فقد أنعم «الحكام من أسرة «محمد على» على كبار موظفيهم بمساحات شاسعة من الاراضى أدخلتهم ومنذ البداية فى فئة كبار الملاك الزراعيين، وذلك بهدف خلق مصالح إقتصادية لهؤلاء الموظفين الكبار، تربطهم بنظام الدولة الذى وفرها لهم، وتدفعهم إلى ضمان إستقرارة»[٥]

وقد كان شرط الملكية الزراعية ضرورى لتولى منصب العمدة أو شيخ القرية «ثم منحهم هذا المنصب بذاته الفرصة لتنمية ثرواتهم الزراعية»[٦] وهكذا أمكن لعائلات بعينها أن تمتلك مساحات كبيرة من الاراضى وأن «تحتكر وظائف العمد ومشايخ القرى. وغالباً ما كان هذا المنصب يورث من الآباء إلى الأبناء، أو يستمر فى إطار العائلة»[٧]

2 -Essawi, Charles - Egypt at Mid Century - P. 24.

٣ – لمزيد من التفاصيل: ديفيد لاندز – بنوك وباشوات – ترجمة عبد العظيم أنيس.

٤ – د. على بركات – تطور الملكية الزراعية في مصر – ١٨١٢ – ١٩١٤ – ص ١٥٤.

٥ – د. فاطمة علم الدين – التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩.

٦ – د. رؤوف عباس حامد – الملكيات الزراعية ودورها في المجتمع المصري – ١٨٣٧ – ١٩١٤ – ص٨٥

٧ – د. عبد الله عزباوى – عمد ومشايخ القرى ودورهم في المجتمع المصرى في القرن ١٩ – ص٢٢.

ولعل الأصل فى نشأة الملكية الزراعية للأعيان المصريين،وخاصة العمد والمشايخ «هو ما قرره محمد على فى ١٨١٣ بمنح مساحات من الأراضى الزراعية إلى مشايخ القرى فى مقابل إستضافتهم وإستقبالهم لموظفى الحكومة الذين يمرون بقراهم»[٨] وهو ما أسمى بمسموح المشايخ. كذلك «كان العمد ومشايخ القرى يعمدون إلى إضطهاد الفلاحين حتى يهربوا من القرية تاركين أراضيهم فيستولون هم عليها»[٩]. وإذا أضفنا إلى ذلك الهبات التى منحها محمد على وخلفاؤه لكبار رجال الادارة، ثم عملية إنشاء شبكات الرى والصرف التى أشرف عليها لورد كرومر المعتمد البريطانى والتى أدت إلى زياده إنتاجية الاراضى الزراعية. ثم إصرار الاحتلال على بيع أملاك الدائرة السنية [لاضعاف نفوذ الخديوى]لأدركنا كيف فتح الباب أمام ملاك الاراضى الزراعية لزيادة ملكياتهم بصورة كبيرة فى مطلع القرن.[١٠]

كذلك يتعين أن نضع فى الاعتبار ذلك التركيب المتداخل والمعقد لطبقة كبار الملاك الزراعيين. فعلى غير المعتاد، بدأت فئات عدة من سكان المدن فى التحول إلى ملكية الاراضى الزراعية. كبار الموظفين تحولوا إلى كبار ملاك زراعيين. وحتى كبار التجار فعلوها هم أيضا، فنتيجة للمنافسة الضارية في مجال التجارة من جانب التجار الأجانب المتمتعين بالامتيازات الاجنبية والحماية القنصلية، والمستمتعين بقدراتهم علي التعامل مع الشركات الاجنبية نتيجة لإتقانهم اللغات الاجنبية، ومعرفتهم بقواعد التجارة الدولية الحديثة. ونتيجة لتفشى الفهم الخاطئ لموقف الاسلام من التعامل المصرفى [وهو الفهم الذى صححه فى مطلع القرن الشيخ محمد عبده] أخذت تراكمات أموال التجار تتحول رويداً رويداً إلى تملك الأراضى الزراعية خاصة مع زيادة ريع الارض[شبكات الرى والصرف]. وهكذا بدأت تتكون طبقة إجتماعية ذات صفات مصرية خاصة جداً. وهى صفات معقدة ومتداخلة أفرزت مواقف غير متوقعة لهذه الطبقة فى مجالات عدة. فنحن إزاء ملاك كبار بعضهم مصرى خالص المصرية وبعضهم شركسى أو تركى الأصل، والجميع إنغمسوا في بحر السياسية المصرية بفوارق كبيرة في المواقف إزاء القضية الوطنية [الفارق بين سعد زغلول وعدلى يكن مثلا] وهؤلاء الملاك الزراعيين بعضهم موظف كبيرأو كان كذلك هو أو أبيه، والبعض تاجر كبير، بما نسج طبقة ذات محتوى ثقافى ومعرفى واجتماعى وحضارى وذات مواقف وطنية وسياسية هى فى مجملها مزيج من رؤى كبار الملاك الزراعيين وموظفى المدن المتعلمين والتجار.

الأمر معقد وقد تولدت منه وعنه تركيبات معقدة لعلنا نتمكن من تلخيصها في حالة مثل: كبار الملاك

٨ – هيلين ريڤلين – الاقتصاد والادارة فى مصر مستهل القرن ١٩ – ترجمة د. احمد عبد الرحيم، د. مصطفى الحسينى – (١٩٦٨) – ص٤.

٩ – د. على بركات – المرجع السابق – ص٢٣٧.

١٠ – راجع : د. رفعت السعيد – الاساس الاجتماعى للثورة العرابية – الطبعة الخامسه – (١٩٩٤).

الزراعيين يزرعون محصولا أساسياً هو القطن [يزرعونه وفق علاقات إنتاج شبه إقطاعية ويعاملون فلاحيهم كالأقنان] ثم هم يتعاملون مع المحصول بأسلوب رأسمالى حديث فيضاربون عليه فى البورصة [التى هى أرقى أشكال التدوال السلعى في المجتمع الرأسمالى].

هكذا نحن إزاء طبقة خلاسية. ليست خالصه لعقلية وتكوين كبار الملاك الزراعيين، وليست خالصة لبرجوازية المدن من كبار موظفين وكبار تجار.

وكان لذلك كله أنعكاساته على مجرى الحركة الوطنية المصرية وعلى دور هذه الطبقة فيها.[11]

* * *

وكان طبيعيا ان ينعكس هذا التركيب الخلاسى على دور هذه الطبقة فى المجتمع . فقد لعبت ومنذ البداية دوراً مهيمنا.

ففى التشكيلات النيابية منذ ١٦ ديسمبر ١٨٨١ [مجلس شورى النواب] وحتى الجمعية التشريعية [١٩١٣] كانت الغالبية الساحقة من الاعضاء ملاكاً زراعيين كباراً. [مجلس شورى النواب ١٨٦٦ بلغ عدد العمد والمشايخ ٥٨ عضوا من ٧٥، وفي مجلس ١٨٧٠ كان عددهم ٦٣ من ٧٤، ومجلس ١٨٧٦ بلغ عددهم ٦٠]، كما إنعكست خلاسية هذا التركيب على مواقف هذه الطبقة من القضية الوطنية فعندما توهج إنتصار الثوار العرابين كانوا مع الثورة، ولكن عندما بدأت تحركات الفلاحين لمساندة الثورة، تراجعوا عن تأييدها، وبدأوا فى مساندة الخديوى سراً ثم جهراً. وعندما هزمت الثورة سارع الاعيان وعلى رأسهم محمد سلطان [أول رئيس مصرى لمجلس شورى القوانين] ومحمود سليمان والد محمد محمود «بإعلان الولاء للاحتلال والخديو، وقدموا هدايا ثمينة لقادة جيش الاحتلال. معربين عن شكرهم لهم على إنقاذهم للبلاد من غوائل الفئة العاصية»[12].

وبعد فترة من بدأ الاحتلال، بدأ كرومر فى خطة تستهدف «إحلال الأبناء المتعلمين للأعيان المصريين في المراكز الهامة بدلا من الاتراك والشراكسة»[13]. وهكذا فقد «كوفئ الشبان المتعلمون من أبناء الاعيان، والذين أبدوا إستعداداً للتعاون مع الاحتلال بتولى مناصب هامه، وإن كانت بلا سلطة حقيقية»[14]

كذلك كانت سيطرة كبار الملاك على المجالس النيابية ومجالس المديريات نوعاً من المكافأة لهم على موالاتهم للاحتلال، وأيضا كانت هذه المجالس بلا سلطة حقيقية «كانت هذه المجالس مجرد مؤسسات شكلية كما أرادها

---

١١ – راجع لهذا الموضوع البالغ الاهمية: د. رفعت السعيد – تاريخ الحركة الشيوعية المصرية – المجلد الأول – الطبعة السادسه – (١٩٨٧).

١٢ – د. سمير طه – محمد سلطان ، بين الوطنية والتبعية – (١٩٧٩). ص٧٦.

١٣ – د. أحمد زكريا الشلق – حزب الأمة ودوره فى السياسه المصريه – (١٩٧٩) – ص٢١.

١٤ – المرجع السابق – ص٢٥.

الاحتلال سواء في السلطات المخولة لها أو طريقة تشكيلها أوعضويتها، الأمر الذى عكس روح الاستسلام والخضوع التى سادتها طوال فترة وجودها والتى إستمرت ثلاثين عاما من ١٨٨٣ وحتى ١٩١٣، وذلك بإستثناءات محدودة جداً».(١٥)

لكن هذا الاستسلام شهد في نهاية الأمر نوعاً من التململ.. «فمع تطور الحركة الوطنية، ونتيجة لتوقيع الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤، بالاضافة إلى حادث طابا (١٩٠٦)، ثم حادث دنشواى [١٩٠٦]، إلى جانب حدوث أزمة إقتصادية خانقة[١٩٠٧] أدت إلى خراب مالى حل بكثير من ملاك الاراضى الذين شاركوا في المضاربة فى البورصة دون دراية حقيقية بأصول المضاربة، كل ذلك دفع الاعيان إلى الاشتغال بالسياسة فعمدوا إلى تأسيس حزب الأمة»(١٦).

ومنذ البداية كان واضحاً تماماً ان حزب الأمة قد تأسس عبر نوع «من التفاهم مع الانجليز لعلاج ما أسموه تهور الحزب الوطنى»(١٧)

* * *

وكان محمود سليمان باشا واحداً من أهم مؤسسى حزب الامه وتولى رئاسته. «وقد عقد الاجتماع التأسيسى لجريدة « الجريدة» [لسان حال الأمه] في منزل محمود سليمان.(١٨)

ولقد كان أمر هذا الحزب وجريدته واضحاً تماماً، إلى درجة دفعت جريدة إحتلالية هى «المقطم» إلى القول صراحة «تنبأ البعض بأن «الجريدة» ستكون بمنزلة الخضام من البعير يقودها به الاحتلال إلى ما يريده، لما بين الزعيمين زعيم الاحتلال كرومر وزعيم «الجريدة» محمود سليمان من المودة والموالاة»(١٩).

ومحمود سليمان هو أبن سليمان عبد العال عمدة ساحل سليم،وكالعادة ورث هذه المنصب عن أبيه، ثم عين ناظراً لقسم ابو تيج وديروط، ثم وكيلا لمديرية جرجا، ثم ترك الوظائف الحكومية وتفرغ لادارة أملاكه الشاسعه، التى بلغت قرابة أربعة آلاف فدان. وفى إنتخابات مجلس النواب (١٨٨١) فاز بإكتساح «وهو الذى ألقى خطاب العرش أمام الخديو توفيق»(٢٠) «وقد نال رتبة البكوية وكان أحد أول أربعة من المصريين نالوا هذه الرتبة»(٢١)

وفى الجمعية العمومية [١٩٠٧] تقدم محمود سليمان بطلب لتوسيع إختصاصات «الهيئة النيابية الحاضره، وكان هذا المطلب المتواضع [توسيع الاختصاصات] هو البديل لمطالبات الحزب الوطنى بحياة نيابية كاملة. وكان

١٥ – د. عبد الخالق لاشين – سعد زغلول ودوره فى السياسيه المصرية حتى ١٩١٤ – ص١٦١.
١٦ – د. يونان لبيب رزق – الحياة الحزبية فى مصر، ١٨٨٢ – ١٩١٤ – ص٢.
١٧ – د. أحمد زكريا الشلق – المرجع السابق – ص٤٥.
١٨ – أحمد لطفى السيد – قصة حياتى – ص٤٤.
١٩ – المقطم – ١٤ –٩ – ١٩٠٦.
٢٠ – د. ماجده حمود – محمد محمود دوره في السياسه المصرية – المرجع السابق – ص١٨.
٢١ – السياسة – ٢٨ – ١ – ١٩٢٩.

الفارق بين هذين المطلبين نموذجاً للفارق الذى ظل يتسع دوماً بين مواقف الأعيان [حزب الأمة] ومواقف الافندية [الحزب الوطنى].(٢٢)

لكننا نلاحظ انه برغم النزوع الواضح لحزب الامه نحو اليمين فإن محمود سليمان رئيس الحزب كان الاكثر يمينية ففى عام ١٩٠٩ وبينما كان حزب الامه[وربما تحت وطأة الحركة الوطنية التى ألهب مشاعرها الحزب الوطنى] يطالب بالحياة النيابية الكامله. نجد محمود سليمان يكتفى بالمطالبة فى جلسة ١٨ فبراير بأن يعمد مجلس شورى القوانين «إلى إصدار مشروع قانون يعدل نظام الانتخاب، بزيادة عدد أعضائه المنتخبين إلى عدد تتحقق فيه النيابة عن الأمه، وأن يكون رأيه قطعياً فى المسائل المصرية الصرفه» بل أنه «عارض بشدة إقتراحاً بتخفيض النصاب المالى إلى النصف بالنسبة لحاملى الشهادات العليا». «وعندما تقدم أحد النواب بإقتراح بألا ينتخب لمجلس المديرية أكثر من شخص واحد من كل عائله، إعترض بشده»(٢٣).

وفى إتساق تام مع هذا الموقف «رشح محمود سليمان فى إنتخابات الجمعية التشريعية [١٩١٤]ولديه محمد محمود وعبد الرحمن محمود، وفاز الاثنان»(٢٤)

وهكذا يمكن القول ان محمود سليمان وأولاده وأسرته «قد تولوا مواقع هامه فى الادارة والحكومة والهيئات النيابية فى زمن لم يكن يصل فيه إلى هذه المناصب الرئيسية الا النذر القليل من المصريين»(٢٥)

ويمكن أن نلخص الموقف«المعتدل» أو «المحافظ» لمحمود سليمان [رئيس لجنة الوفد المركزية بعد سفر الوفد لأوربا](٢٦) فى النداء الذى أصدرته اللجنة بعد لقاء مع اللنبى فى ٢٦ مارس ١٩١٩ ووجهته إلى المصريين الثائرين مطالبة إياهم بالهدوء ووقف كل أعمال العنف»(٢٧)

* * *

عرفنا الأب أو حاولنا . فماذا عن الابن؟

ولد محمد محمود فى إبريل بساحل سليم. وبعد حصوله على الشهادة الثانوية سافر إلى إنجلترا حيث درس فى كلية باليول بجامعة اكسفورد، وحصل منها على دبلوم فى التاريخ الحديث. وهو أول مصرى تخرج

٢٢ – د. ماجده حمود – المرجع السابق. ص٢١.
٢٣ – د. احمد زكريا الشلق – المرجع السابق – ص٥٥٢.
٢٤ – مضابط الجمعية التشريعية – دور الانعقاد الأول – ٢٢ –١ –١٩١٤ إلى ١٧ –٦ – ١٩١٤ – ص١٠.
٢٥ – محمد زكى مجاهد – الاعلام الشرقية – جـ١ – ص١٦٥.
٢٦ – الاهرام – ٢٣ – ١ – ١٩٢٩.
٢٧ – د. عاصم الدسوقى – كبار ملاك الاراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى – ص٢٧٢.

من جامعة اكسفورد.[٢٨]

وبعد عودته عين وكيل تفتيش بالمالية، ثم نائب مفتش [١٩٠١ - ١٩٠٣] ثم سكرتيراً خاصاً لمستشار الداخلية [١٩٠٥] ثم مديراً للفيوم [١٩٠٦].[٢٩] إنها قفزات سريعة ومتلاحقة لعلها توضح خطة الاحتلال فى بناء فئات حليفة له من أبناء الاعيان. ويتضح ذلك من تقرير للمعتمد البريطانى جورست جاء فيه «محمد محمودجنتلمان، تجب مساعدته وإن كان صغير السن»[٣٠]. وعندما عين مديراً للفيوم وصفه المدير السابق وكان إنجليزياً بأنه «يتكلم الانجليزية كأبنائها، ويسلك سلوك الرجل الانجليزى، ويملك علاقات واسعة بين الانجليز، ويمتلك نوايا حسنة تجاههم»[٣١] ومن مديرية الفيوم إلى مديرية البحيرة حيث إصطدم بصغار الموظفين من الانجليز فأجبر على الاستقالة. وهنا بدأت إهتماماته السياسية.

وكان بيت محمد محمود بشارع الفلكى [اقيم على مساحة ١٩٦٤ متراً] منتدى مفتوحاً لرواد لا ينقطعون. «كانت تعقد به ندوات يومية، وكان يأتى إليه سماره وحواريوه، وهو بينهم أشبه بصاحب الأمر، وقلما رد سائلا، أو كشر فى وجه محتاج، فقد سلك فى القاهرة سلوك أهل الصعيد، وأبناء البيوتات الكبيرة، حيث مزج السياسه بالبيوتات، ونظر إليها وكأنها وجاهة قبل أن تكون لباقة، وفروسية قبل أن تكون مداورة ومداهنة»[٣٢].

وبإختصار، لسوف نلاحظ دوماً أن إحساس محمد محمود بأنه واحد من كبار الأعيان كان يحكم كل تصرفاته «وقد أثر ذلك تأثيرا كبيراً على موقفه السياسى من حيث إحساسه بالتميز والرغبة فى إعطاء هذه المكانة ما تستحق من السلطة»[٣٣].

هذا الاحساس بالتميز الطبقى كان عقدة محمد محمود، سواء في موقفه السياسى أو فى علاقاته بالآخرين أيا كانوا، فهو دوما يتعامل على أساس أنه متميز عن الجميع.

«كان محمد محمود يتشبه بالخلفاء فى أزهى عصور الخلافة، له شعراؤه وأدباؤه ومداحوه، وله بطانة تجرى فى المجالس هنا وهناك»[٣٤].

هكذا قرر محمد محمود أن يقتحم ميدان السياسة، كسبيل لتحقيق طموحاته. فمتى كان ذلك؟

---

٢٨ - المقطم - ١-٢-١٩٤١.

٢٩ - ملف محمد محمود - دار المحفوظات بالقلعة [رقم ٤٥٣٣٠] محفظة رقم ٣٨٥٧ - دولاب ٣٧٦

٣٠ - سعد زغلول - المذكرات الخطية - كراس ١٢ - ص٤٧٧.

31 - Harris, Murry - Egypt Under The Egyptians - P.153.

٣٢ - محمد زكى عبد القادر - أقدام على الطريق - ص١٧١.

٣٣ - د. أحمد زكريا الشلق - حزب الاحرار الدستوريين، ١٩٢٢ - ١٩٥٣ - المرجع السابق - ص١٠٩.

٣٤ - محمد زكى عبد القادر - المرجع السابق.

كان بالضبط عندما أصطدم بالموظفين الانجليز فى البحيرة حين كان مديراً لها، وأجبر على الاستقالة في عام ١٩١٧، وبدأ بأن توجه إلى الزعيم القادم سعد زغلول الذى يكتب فى مذكراته «وفى ٢٠ ديسمبر فاتحنى محمد محمود بقوله أنه ينبغى أن نتفكر فى حالة مصر بعد الحرب، إذ يجب أن تتحد جماعة من أهل الرأى على التفكير فى هذه المسأله، فقلت ممن تتألف هذه الجماعة؟ فجرى ذكر شعراوى وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعدلى يكن وهو وأنا، وتأجل البحث فيها إلى فرصة أخرى»[٣٥].

لكن طموح محمد محمود ظل يؤرقه، وعندما شكل عدلى يكن وزارته الأولى [١٩٢٢] كان في إنتظار مقعد فيها، لكنه أصيب بصدمة، ويكتب المندوب السامى البريطانى لحكومته «شعر محمود أن تأليف الوزارة على هذا النحو إهانة لكرامته، وهو الآن فى حالة سيئة»[٣٦]. ثم كانت خطوته الأولى فى وزارة عدلى يكن الثانيه حيث أختير وزيراً للمواصلات. ويكتب لويد مبتهجاً لهذه القفزة التى حققها واحد من أصدقاء بريطانيا «إن محمد محمود هو الحصان الاسود فى الوزارة، فهو رجل على مقدرة كبيرة وله طموحات قوية، ويحير متابعيه فلا أحد يعرف فى أى إتجاه سوف يسير»[٣٧]

لكنه ظل يطمح دوما كى يصبح رئيساً للوزراء، وذات يوم بعث إلى سعد زغلول رسالة مع على الشمسي باشا «يطلب اليه أن يتخلى له عن موقع رئيس الوزراء متعهداً بأن يكون طوع يمينه، ويعلق سعد: فإستغربت من هذا الطمع»[٣٨] وتوجه الطموح أيضا بإتجاه الحزب فقد ظل أيضا مترقباً للقفز إلى مقعد الرئيس فيه.

وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٣ عندما إنعقدت الجمعية العمومية للحزب فى فندق شبرد [٥٠٠ عضو] إنتخب [على غير هوى محمد محمود] عدلى يكن رئيساً،ومجلس لادارة الحزب من ثلاثين عضوا.[٣٩]

[وبالمناسبة فإن الملك فؤاد لم يكن راضياً عن تسمية الحزب واقترح إسماً اكثر تعبيراً عن رغبته هو في مناوءة حزب الوفد، وهو حزب المحافظين]. ثم وفى ١٠ نوفمبر«إجتمع مجلس إدارة الحزب لينتخب نائبين للرئيس هما: مدحت يكن، ومحمد محمود»[٤٠] لكن ذلك لم يرض طموح محمد محمود فقد كانت عينه على رئاسة الحزب، ورئاسة الوزارة معاً. وهو ما تحقق عام ١٩٢٨. وتؤكد د. ماجده حمود «ان اليد الحديدية لمحمد محمود التى إستخدمها ١٩٢٨ – ١٩٢٩ لم تمتد إلى الوزارة فقط، وإنما إمتدت إلى الحزب أيضا»[٤١]

---

٣٥ – نقلا عن : د. عبد الخالق لاشين – المرجع السابق – جـ٢ – ص١٠٩.

36 - F.O. - 141/681 - April 1922 .

37 - Lioyd (Lord) - Egypt Since Cromer - P.175

٣٨ – مصطفى أمين – من عشرة لعشرين – ص١٢١.

39 - DEEP,MARIUS - PARTY POLITICS IN EGYPT - P.37.

٤٠ – محمد على علوبه – ذكريات إجتماعية وسياسية – (١٩٨٣) – ص٢٨٢.

٤١ – د. ماجده حمود – المرجع السابق – ص١٢٩.

لكن هذه القيادة الشديدة الحماس والتطلع نحو المناصب القيادية كان تصطدم بعائقين. أولهما سياسى، وهو الموقف من القضـية الوطنية، والثانى هو ذلك الطموح الذى تحول إلى جموح طبقى المحتوى ضد الجميع أيا كانت مكانتهم الاجتماعية. وفيما يتعلق بما هو سياسى [وهو وبالضرورة إنعكاس لما هو طبقى] نجد الفوارق الفارقة بين محمد محمود وسعد زغلول مركزة فيما يلى «كان سعد يؤمن إيماناً لا يتزحزح بضرورة الاستقلال بينما يعتقد الآخرون ومنهم محمد محمود باستحالة الحصول على الاستقلال فى تلك الظروف، وبضرورة قبول ما يمكن نيله عن طريق المفاوضة مع ملنر»[٤٢]

ولم يكن محمد محمود يحاول أن يخفى موقفه هذا [وهو موقف يستحق الدراسة فهو وجهة نظر كانت تلقى قبولا من عموم الأعيان والقوى المحافظة] فهو يقول لكامل سليم « ألا ترى أن مبدأ الكل أو لاشئ مبدأ خطير؟ لقد تحدثت إلى سعد فى هذا الأمر لكنه لم يوافق على وجهة نظرى بل رفضها بإصرار» ويمضى قائلا «إن سعداً يريد الاستقلال الكامل وهذا محال، أليس من الأفضل الحصول على شئ نتقوى به ثم نطالب بغيره»[٤٣]

وكان هذا هو موقف محمد محمود ومجموعة الاعيان من تصريح ٢٨ فبراير فقد «كانوا يعتقدون أن رفض التصريح جناية على الأمة، ومضيعة لمصالحها ومصالحهم»[٤٤] [ولعل البعض يرى وبعد ما جرى من أحداث انها كانت وجهة نظر تستحق التأمل]. وكانت «السياسه» جريدة الحزب قد أوضحت الموقف متكاملا «إن تصريح ٢٨ فبراير لم يحقق كل آمال الأمة للوصول إلى غرضها الأسمى، لكنه نقطة إرتكاز قوية نستعين بها على حل مسألة التحفظات بالمفاوضات»[٤٥]. بل إن محمد محمود صرخ فى وجه ملنر وهو يناقش التحفظات، وإذ كان ملنر يرى حرمان مصر من حقها فى إنشاء سفارات لها بالخارج، صرخ محمود قائلا «ان الشعب المصرى يدوسنا بالأقدام إذا رضينا لمصر بعدم التمثيل السياسى».[٤٦] أما العقبة الثانية فكانت شخصية محمد محمود وتكوينه الشخصى المترفع. ونقرأ رأى سعد زغلول «إن محمد محمود غيور جداً، ومعجب بنفسه، ويريد أن يحتكر في شخصه اللغه الانجليزية، وكل عمل له به صبغة إنجليزية»[٤٧]

وأثناء المنفى، وإذ كان وحده من المنفيين الذى يتقن اللغة الانجليزية فقد إستثمر ذلك لصالحه. ويقول سعد «كان كلما حضر ضابط السجن يتحدث معه محمد محمود من غير أن يكلف نفسه عناء ترجمة ما يدور بينهما من الحديث الذى كان يختص في الاغلب بحاجاتنا، ويقول انه يفعل ذلك حتى يظهر أمام الضابط بأنه ليس

---

٤٢ – الاخبار – ١٧ – ٤ – ١٩٦٩.
٤٣ – محمد كامل سليم – صراع سعد فى أوربا –ص٨٤.
٤٤ – الاخبار – المرجع السابق.
٤٥ – السياسه – ١ – ٧ – ١٩٢٣.
٤٦ – محمد كامل سليم – المرجع السابق.
٤٧ – سعد زغلول – المذكرات – كراس – ٣٥ – ص١٩٤٨.

مترجماً بل رئيساً»[٤٨]

وعندما كان محمود يشارك فى مفاوضات ملنر «رفض أن يساكن بعض أعضاء الوفد لأنهم ليسوا من طبقته».[٤٩] ويتقدم شاهد آخر ليدلى بشهادته. أحمد شفيق باشا يقول «كانت الجفوة وصلابة الرأى خُلقين في محمد محمود، يضعهما فى موضع وغير موضع، وكأنه يحسبهما من مظاهر العز والجاه»[٥٠]

وفى ٢٠ فبراير ١٩١٩ إجتمع سعد زغلول مع أعضاء الوفد وهم بالخارج وطلب إليهم «أن يأذنوا له فى أن ما يقررونه من إرسال أوراق لمصر يتم بطريقه سريه يباح له ألا يذيعها فيهم. فإمتعض لذلك محمد محمود وقال غاضباً إن شرفه وشرف الأعضاء يأبى ذلك»[٥١] وعلى أيه حال واصل سعد زغلول مراسلاته السريه مع عبد الرحمن فهمى دون إبلاغ اعضاء الوفد[٥٢].

ونواصل مع سعد لنطالع رأيه [الذى يحتوى على بعض التحيز تجاه خصم سياسي] «محمد محمود متكبر، معجب بنفسه، يستخف بغيره، غيور يأكل بعضه إذا علا الغير عليه، ويجهد نفسه كى يُخفى فضل غيره ليظهر فضله هو، يضحى بالمصلحة العامة لحساب المصلحة الخاصة.يطلب فى كل عمل يعمله شأنا خاصاً به، فإن لم يجده فما أسهل عليه أن يهمله، سئ الظن، كثير الوسوسة، ولا مروءة عنده».[٥٣]، والتحيز واضح بغير شك.

ولكن ماذا عن رأى أصدقاءه الانجليز فيه؟. «انه يرى انه لا يوجد مصرى يمتلك ما يملكه هو من الذكاء الذى يمكنه من إدارة شئون البلاد بدون الاعتماد على الانجليز. ومن ثم فهو يريد بقاءنا في مصر حتى يتمكن هو من الاستمرار فى مناوراته، ثم يتمكن هو من الامساك بزمام الامور، محب للمؤامرات، شجاع إلى حد كبير، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه»[٥٤] وثمة تقييم آخر «شخصية مؤثرة، ذكى نشيط، متقلب، غيور، يتأثر كثيرا بالعلاقات الشخصية والمديح، رد فعله سريع وعدوانى لكل ما يتصور انه إهانه له»[٥٥]

ولعل الواقعة التالية توضح لنا رد الفعل الغاضب لما يمس الكرامه لدى محمد محمد. «فى عام ١٩٣٩ وعندما كان محمد محمود رئيسا للوزراء علم ان مدير نادى محمد على وكان أميراً، قد منع رئيس مجلس الشيوخ من دخول إحدى قاعات النادى بحجة انها مخصصة للأمراء فقط. فذهب إلى النادى، وأمر بفتح القاعة وتناول

---

٤٨ – المرجع السابق – ص١٩٣٢.
٤٩ – د. زكريا الشلق – المرجع السابق – ص١٠٩
٥٠ – احمد شفيق باشا – الحولية السادسه – ص١٥٨٨.
٥١ – سعد زغلول – المذكرات – كراس ٣٤ – ص١٩١٩.
٥٢ – د. محمد أنيس – دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ – المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى.
٥٣ – سعد زغلول – المذكرات – كراس ٣٥ ص١٩٤٩.

54 - F.O 407 / 203 - LIOYD TO CHAMBERLAIN - JULY 4.1929.

55- F.O. 407 / 217 . NO.65. LIST OF Leading Personalities.

الغذاء فيها»[٥٦].

وأخيراً ولكى نتعرف على «شخصية الرجل بشكل دقيق نورد الواقعة التالية «حجز محمد محمود على باخرة إيطالية للعودة إلى مصر، وتصادف أن الملك فؤاد حجز على نفس الباخرة. فسأله أحد الصحفيين الانجليز، عما إذا كان سيسافر فى صحبة الملك فؤاد؟ فأجاب : كلا، بل إختار جلالة الملك الباخرة التى قررت أنا السفر عليها»[٥٧].

ويبقى بعد ذلك بعد آخر كى نتعرف أكثر على شخصية محمد محمود.

فى حديث صحفى مع صحيفة أجنبية عام ١٩٢٨، سألته الصحفية عن رأيه فى حركة تحرير المرأة فقال «إننى أستنكر ما أُسمى بحركة تحرير المرأه، وأنا لا أثق فى هذا التحرير المزعوم، وكل ما أقبل به هو المساواة بين الفتى والفتاة فى التعليم، وفى هذا الصدد فإننا نسعى إلى تقرير التعليم الاجبارى لكلا الجنسين، وما عدا ذلك من المطالب فعلى المرأة أن تسعى لنوالها بنفسها على أن يكون ذلك نتيجة لتطور طبيعى» ورفض محمد محمود بشدة منح المرأة حق التصويت في الانتخابات[٥٨]

«وكان محمد محمود ينتقد شعراوى باشا لأن زوجته [هدى شعراوى] تشتغل بالقضية المصرية»[٥٩]

* * *

ثم.. وأخيراً حقق محمد محمود ما ظل يحلم به ويرتب له طويلا، أصبح رئيساً للوزراء.

ولم يكن سعى محمود خافياً على أحد. وتقول البلاغ «يدور إسم محمد محمود على الألسن كرئيس للوزراء»[٦٠]

وكانت ترتيبات ومناورات محمود محل إنتقاد من منافسيه السياسيين «الأمر الذى دفع مكرم عبيد إلى إتهام محمد محمود بأنه وحاشيته وأنصاره كانوا ينشرون له الدعاية ويرشحونه رئيسا للوزراة الائتلافية التى تخلف ثروت»[٦١]

وقد ظل محمد محمود راغباً وقادراً على حشد أنصار ما، عن طريق المال والسلطان.

ففور تشكيل وزراته الاولى إستطاع ان يستخدم طالباً فى كليه الحقوق هو أحمد حسين لتشكيل جمعية أسماها «جماعة الشباب الحر أنصار المعاهدة»[٦٢] ، وتقول عفاف لطفى السيد «كان محمد محمود يستقبل

٥٦ – مصطفى امين– ليالى فاروق – ص١١١.
٥٧ – د. محمد حسين هيكل – مذكرات فى السياسة المصرية – جـ١ – ص٣٠٨.
٥٨ – محمد محمود – اليد القوية – خطب وأحاديث – ص١٩٠.
٥٩ – سعد زغلول – المذكرات – كراس ٣٧ – ص٢١١٤.
٦٠ – البلاغ – ٢ – ٣ – ١٩٢٨.
٦١ – روز اليوسف – ٢٦ – ١١ – ١٩٢٩
٦٢ – راجع: د. رفعت السعيد – احمد حسين، كلمات ومواقف. وراجع ايضا الفصل الخاص بأحمد حسين فى هذا الكتاب.

زعماء الطلاب فى بيته ويقدم لهم مبالغ طائلة من المال لقاء وقوفهم إلى جانب حزبه »[٦٣]

وكان وصول محمد محمود إلى مقعد رئيس الوزراء عبر مسلسل محكم التخطيط من الترتيبات التى وصفها خصومه بأنها مؤمرات. وربما كانوا على حق فى ذلك.

بعد وفاة سعد زغلول تصور محمد محمود أن ساحة الزعامة المصرية قد أصبحت ملكاً له . وان النحاس لن يستطيع مواجهة طموحاته. فلما ووجه بصعوبة غير متوقعة من النحاس، بدأ فى الاعتماد على خطط محكمة تصل به إلى رئاسة الوزارة.

وكان محمود قد أصبح وزيراً للمالية فى وزارة إئتلافية يرأسها النحاس. وعقب إتصالات سرية مع القصر، وربما مع الانجليز إنقطع عن «عمله فى وزارة المالية بحجة المرض ثم ما لبث أن قدم إستقالته فى ٤ مايو ١٩٢٨ مدعياً أنه مريض، الأمر الذى يعوقه عن مباشرة أعمال الوزارة»[٦٤]. «وفى اليوم التالى توجه محمود لمقابلة الملك»[٦٥]، ويقال أن فؤاد قد نصحه بسحب الاستقالة لأن الوقت غير ملائم للاطاحة بالنحاس. وبالفعل سحب إستقالته . لكن محمد محمود «خرج من عند الملك ليشعل حرباً كلامية على صفحات «السياسة» ضد الحكومة التى هو عضو فيها ، وردت عليه الصحف الوفدية بالمثل»[٦٦]

وفيما تعم الدهشة الجميع من وزارة يتراشق وزراؤها مع بعضهم البعض بهجمات صحفية شديدة القسوة، قام محمد محمود بما كان متوقعاً، قدم إستقالته فى ١٧ – ٦ – ١٩٢٨، وتبعه ثلاثة وزراء آخرين، وإذ أصبح المستقيلون أربعه من وزارة عدد أعضائها عشرة، كان محتماً أن يستقيل النحاس.

وحقق محمد محمود حلمه القديم وأصبح رئيسا للوزراء فى ٢٧ يونيو ١٩٢٨ ليبقى فى الوزارة حتى ٢ أكتوبر ١٩٢٩.

ورغم قصر هذه الفترة فإنها كرست نموذجاً من الحكم الديكتاتورى لم يتوقعه أحد، وربما لم تشهد له مصر مثيلا لا من قبل ولا من بعيد.

وكان الأمر مثيراً للدهشة.. لماذا؟

* * *

لأن حزب الاحرار الدستوريين قد قام على أساس الدفاع عن الحكم الدستورى، وعلى أساس التمسك بدستور ١٩٢٣ الذى وضع أسسه ذات القادة الذين كانوا عصب لجنة الثلاثين والذين أسسوا الحزب. ولأن

---

٦٣ – عفاف لطفى السيد – تجربة مصر الليبرالية، ١٩٢٥ – ١٩٣٦، ترجمة عبد الحميد سليم (١٩٨١) – ص٢٦٥.

٦٤ – كوكب الشرق – ٥ – ٥ – ١٩٢٨.

٦٥– السياسه – ٧ – ٥ – ١٩٢٨.

٦٦ – أحمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسية – الحولية الخامسة – ص ٤٣٤.

الحزب تبدى فى كتابات قادته ليبرالياً مدافعاً عن الحريات.وكان المثقفون والليبراليون المصريون لا يزالون يذكرون كيف وقف عبد العزيز فهمى إذ كان وزيراً للعدل ضد قرار هيئة كبار العلماء الذى جاء فيه «إجتمعت هيئة كبار العلماء فى ١٢ أغسطس ١٩٢٥ وقررت نزع شهادة العالمية من الشيخ على عبد الرازق، ومحو إسمه من سجلات الجامع الأزهر، وطرده من كل وظيفة، لعدم أهليته للقيام بأية وظيفة دينية أو غير دينية»[٦٧] وأسرع شيخ الأزهر ليزف البشرى إلى الملك مبرقاً «شاكراً له غيرته على الدين من عبث العابثين، وإلحاد الملحدين، وحفظ كرامة العلم والعلماء»[٦٨]. وبعد هذه الخطوة التى إستهدفت الاستقواء بالملك ضد عبد العزيز فهمى باشا وزير العدل،أرسل له شيخ الازهر القرار طالبا التصديق عليه. فعلق عبد العزيز فهمى قائلا «إستحضرت الكتاب وقرأته مرة وأخرى، فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه، بل على العكس وجدته يشيد بالاسلام ونبى الاسلام .. و ثقل على ذمتى أن أنفذ هذا الحكم الذى هو بذاته باطل لصدوره من هيئة غير مختصة بالقضاء، وفى جريمة الخطأ فى الرأى من عالم مسلم يشيد بالاسلام، وكل ما فى الأمر أن من يتهمونه يتأولون فى أقواله ويولدون منها تهماً ما أنزل الله بها من سلطان»[٦٩] وغضب الملك غضباً شديداً وإستقال عبد العزيز فهمى [رئيس حزب الاحرار] ومعه ثلاثة وزراء: محمد على علوبه – توفيق دوس – اسماعيل صدقى[٧٠] وتطور الأمر إلى إنسحاب حزب الاحرار من الحكومة. [٧١]

وفى هذه الأثناء كان محمد محمود خارج البلاد، وعند عودته صرح لجريدة «السياسه» بأن «هذا الموقف هو أقوى موقف وقفه الحزب منذ تكوينه. إن المسلمين من الأحرار الدستوريين هم أشد غيرة على الاسلام، إنما الاتجار بالدين، والدس بإسمه، فمن الدنايا التى نربأ بأنفسنا أن ننزل إلى مناقشة من يقومون عليها»[٧٢]

هذه المواقف الليبرالية كيف تصرف أصحابها عندما أصبحوا حكاماً؟

ما أن شكل محمد محمود وزارته الاولى حتى وجد أمامه عقبة حقيقية، فالبرلمان ذو الاغلبية الوفدية قائم لم يزل، ويستحيل أن يمنحه الثقة خاصة وأنه المتسبب بمناوراته في الاطاحة بوزارة كان النحاس رئيسها. وحاول محمد محمود أن يعقد صفقة مع محمود فهمى النقراشي ممثل الوفد علي أساس ألا تطرح مسألة الثقة حتى نهاية الدورة كى تستقر الوزارة، ورفض النقراشى، ثم عرض عليه حكومة إئتلافية ورفض. ،ومن ثم عرض

---

٦٧ – لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد – الارهاب إسلام أم تأسلم – (١٩٩٥) – ص٢٥٣ وما بعدها.
٦٨ – محمد رجب البيومي – الازهر بين السياسه وحرية الفكر – (١٩٨٣) – ص١١٥.
٦٩ – عبد العزيز فهمى باشا – حياتى – ص١٥٤.
٧٠ – لمزيد من التفاصيل راجع : د. رفعت السعيد – عمائم ليبرالية – كتاب اليوم (٢٠٠٢) – ص ١٢٥ وما بعدها .
٧١ – د. عبد العظيم رمضان – تطور الحركة الوطنية فى مصر ، ١٩١٨ – ١٩٣٦ – ص ٥٩٠.
٧٢ – السياسه – ٥ – ١٠ – ١٩٢٥.

محمود على الملك وعلى الانجليز تعطيل البرلمان «حتى يُظهر مدى فشل النظام البرلمانى [القائم على أغلبية وفدية] فى إدارة شئون البلاد، وتمنى محمود على الانجليز أن يكون موقفهم تجاه حكومته ودياً»[٧٣]. ويؤيد لويد [الصديق الحميم لمحمد محمود] هذا الاقتراح مبرقاً إلى حكومته «أرى أنه يجب علينا أن نمنح محمود هذه الفرصة فلا بديل أمامنا سوى عودة الوفد بزعامته الهستيرية منتصراً، خاصة وأن الوفد يتهمنا علانية بأننا مسئولون عن إبعاده عن الحكم.»[٧٤]

وبعد أن ضمن محمود موافقة القصر ودعم الانجليز قرر تأجيل إنعقاد البرلمان شهراً. وبعد إنتهاء الشهر إستصدر فى ١٩ يوليو ١٩٢٨ أمراً ملكياً بحل مجلسى الشيوخ والنواب وتأجيل الحياة النيابية ثلاث سنوات، ووقف العمل ببعض مواد الدستور [ومنها المادة ١٥ الخاصة بحرية الصحافة].

ولعله من المثير للدهشة أن ينبرى د. محمد حسين هيكل الذى كان – حتى ذلك الحين – مشهوراً بإتزانه وليبراليته لتأييد هذا المرسوم قائلا «إنها صراحة محمد محمود المعهودة، فالوزارة لا تدعى أنها صاحبة الكثرة فى الانتخابات ، ولا هى تريد إستفتاء الشعب فهو فى رأيها مضلل، ولا يمكنه أن يحكم على الأشياء حكماً سليماً»[٧٥].

اما محمد محمود فقد برر هذه الخطوة قائلا «إن النظام الذى أقامه هو الوحيد المطابق لحاجات مصر، وهو ضرورى فى الوقت الحاضر لتقدم مصر وإستتباب الهدوء فيها» وردت البلاغ على هذا التصريح قائلة «إن من يقرأ هذه الكلمات يشعر وكأنه يقرأ أحد تقارير اللورد كرومر، فلقد كانت هذه نغمتهم التى يبررون بها بقاء الاحتلال فى مصر»[٧٦] ويعبر الانجليز عن سعادتهم بتعطيل البرلمان وتكتب جريدة أيريش تايمز «من المحتمل أن تنتهى مهزلة الحكومة البرلمانية في مصر بالقرار الأخير الذى إتخذه محمد محمود، وعطل به الحياة النيابية ثلاث سنوات، فقد يستطيع بذلك أن ينبه الناس إلى الشعور بالمسئولية السياسية حتى إذا ما مرت الثلاث سنوات يصبحون أكثر تعقلا مما دلت عليه التجربة فى السنوات الاخيرة»

وتسارع جريدة «السياسة» فى زهو ودون حصافة بنشر المديح الانجليزى لهذه الخطوة[٧٧]

وبعد تعطيل الدستور كان طبيعياً أن يلجأ محمود وهويفرض حكومته، رغم إرداة الشعب، وبدعم مباشر من

---

73 - F.O. - 407 / 207 . No5.Lioyd to Chamberlain, July7 ,1928.

74 - F.O. - 407 / 207 - No.6 - Lioyd to Chamberlain,July 8,1928.

٧٥ – د. محمد حسين هيكل – المرجع السابق – جـ١ – ص٢٩٢.

٧٦ – البلاغ – ٢٥ – ٦ – ١٩٢٨.

٧٧ – السياسه – ٢٨ – ١٠ – ١٩٢٨.

الانجليز أن «يلجأ إلى سياسة الاضطهاد، وإهدار الحريات، وتضييق حق الاجتماع، وتعطيل حرية الصحافة وغير ذلك من القوانين المقيدة للحريات، وهى السياسه التى أطلق عليها محمود اليد القوية».(٧٨)

وبعد ذلك أمعن محمد محمود فى تعطيل الصحف الوفدية، مستنداً إلى تعطيل مواد الدستور الضامنة لحرية الصحافة و الحريات العامة. وقد تم ذلك بصورة متعسفة حتى ليقال أنه عطل صحف الوفد جميعاً.(٧٩)

وقد علق النحاس في خطاب في النادى السعدنى «منعونا من أن نتنفس فى برلماننا ، فهل يريدون أن لا نتنفس فى صحافتنا؟».(٨٠) وقد تعقب محمد محمود الصحف الوفدية بالمصادرة، ومهما غيرت أسماءها، ومن ثم كانت الصحيفة تصدر أحيانا لمرة واحدة لتصادر. ونتابع اسماء الصحف التى صدر قرار بمصادرتها «روزا اليوسف، الرقيب [وقد حلت محل روزا] – البلاغ – الحياه – وادى النيل – السيف – الناس والفنون – الساعة – الوجدان – الابتسام.(٨١)

وقد دافع الاحرار الدستوريون بحماس عن هذه الاجراءات التعسفية فقالت «السياسة» «إن هذه الصحف فهمت معنى الحرية بأنه الإباحة، فإستباحت إنتهاك كرامات الناس وأعراضهم وإنصرفت فى المسائل العامه إلى تناول الشخصيات تناولا يتنافى مع أقل مبادئ الاخلاق والآداب»(٨٢).

وحتى د. هيكل أيد مصادرة الصحف المعارضة، «وطالب بوضع قانون لتأديب الصحفيين أسوة بالمحامين، وبرفع الغرامة المالية المقررة في القانون»(٨٣).

وقد تمادى محمد محمود حتى ليقال أنه صادر خلال فترة حكمة التى إستمرت خمسة عشر شهراً فقط مائه صحيفة.(٨٤)

وتقول البلاغ انه عطل ٩٢ صحيفة (٨٥)، بل انه أنذر إحدى الصحف الموالية له مرتين (٨٦)، كما أنذر جريدة الديلى هيرالد الانجليزية ربما ليوحى بأنه يطبق سياسته على الجميع.

ولم يكتف محمود بذلك بل وجه ضربة إلى القضاء، فخفض سن المعاش من ٦٥ إلى ٦٠ عاما وبهذا أحال

---

٧٨ – عبد الرحمن الرافعى– فى أعقاب الثورة المصرية ، ١٩٢٧ – ١٩٣٦ – (١٩٤٩) – ص٧٠.
٧٩ – د. على شلبى، د. مصطفى النحاس جبر – الانقلابات الدستورية في مصر – ١٩٢٧ – ١٩٣٦. (١٩٨١) – ص١١٢.
٨٠ – أحمد شفيق باشا – المرجع السابق – ص٧٤٣.
٨١ – لمزيد من التفصيل راجع: د. ماجده حمود – المرجع السابق.
٨٢ – السياسه – ٧ – ١٠ – ١٩٢٨.
٨٣ – السياسه – ١٦ – ١٠ – ١٩٢٨.
٨٤ – عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص١١.
٨٥ – البلاغ – ٨ – ٥ – ١٩٢٩.
86 - Deep - ibid - P.134.

١٣ من مستشارى الاستئناف للمعاش [٨٧] فتخلص من قضاة كانوا يميلون لحزب الوفد مثل أحمد طلعت باشا رئيس محكمه الاستئناف .

ثم كانت خطوة إستبدادية أخرى تحت لافتة أسميت «منع إشتغال الطلبة بالسياسة» فأصدر أحمد لطفى السيد وزير المعارف [والذى يعتقد البعض أنه واحد من آباء الليبرلية المصرية] منشوراً وزارياً للآباء والمدرسين والطلاب «ينذرهم فيه أنهم سوف يتعرضون للعقاب إذا ما إشتركوا فى اللجان أو المظاهرات السياسية التى تؤثر على إنتظام التعليم »[٨٨] . لكن هذه الكلمات الهادئة ما لبثت أن ترجمت إلى لهجة متشددة فى مرسوم أسمى «مرسوم حفظ النظام فى معاهد التعليم» ولم يكن هذا المرسوم قاصراً على ترويع الطلاب وحدهم، بل نص «على عقوبة الحبس لمدة لا تتجاوز ستة أشهر وغرامة من ٢٠ إلى ٥٠ جنيها لكل من إستعمل القوة أو العنف أو التهديد أو المناورات (!) والوعود(!) لدعوة تلاميذ المدارس والكليات أو غيرها من معاهد التعليم إلى القيام بمظاهرات أو الامتناع عن تلقى الدروس، أو مغادرة معاهد التعليم أو الانقطاع عنها، أو تأليف لجان أو جماعات سياسية»[٨٩]

كما أصدر قانوناً لتأديب المحامين، وقانون «الاتجار بالنفوذ» وقانون «منع الموظفين من الاشتغال بالسياسة»[٩٠]

ويواصل د. هيكل تبريره وتأييده لهذه الخطوات الاستبدادية فيكتب مبرراً «ان عدداً كبيراً من الموظفين أساءوا فهم معنى الحرية السياسية وعلاقتها بالوظيفة العامة»، وقال ان هذا القانون «يجعل الموظف ينصرف إلى عمله، ولا يبعثر جهوده في شئ غيره، ويكفل هيبة الحكومة»[٩١]

وهكذا تورطوا جميعاً فى تأييد هذه السياسه البالغة التشدد. ولعلهم قد إستمتعوا دون حصافة بمساندة الانجليز فى معركتهم هذه. وتنقل «السياسه» بإبتهاج مقالا للتايمز اللندنية بقلم مراسلها فى القاهرة يقول فيه «إن قرار الحكومة الذى صدر مؤخراً بإحالة ١٣ مستشاراً من مستشارى محكمة الاستئناف إلى المعاش هو خطوة أولى لمشروع واسع النطاق يُقصد به ترقيه القضاء. أما برنامج الحكومة بمنع الطلبه من الاشتغال بالسياسة فقد ظهرت نتيجته فى التدابير التى إتخذتها وزارة المعارف لحفظ النظام، وتمكين إبتعاد الطلبة عن الاشتغال بالأمور السياسية، والتفرغ لدروسهم. وقد أثمرت هذه التدابير، فلم تشترك أغلبيتهم فى حفل تأبين سعد».[٩٢] والحقيقة المريرة هى أن حكومة محمد محمود كانت تدفع الطلاب الموالين لها أو الذين أمكن لها شراءهم للاشتغال بالسياسة وإنما لصالحها هى. ولعل قصة الطالب أحمد حسين ودفعه لتشكيل «جماعة الشباب الحر انصار المعاهدة» هى خير دليل على ذلك[٩٣].

٨٧ – د. راشد البراوى – حقيقة الانقلاب الاخير فى مصر – (١٩٥٢) – ص١١٠ وأيضا: الاتحاد ٦ – ٣ – ١٩٢٨.

٨٨ – السياسه ١ –٢ –١٩٢٩.

٨٩ – المرجع السابق .

٩٠ – السياسه ٢٨ – ١٠ – ١٩٢٨

ويتمادى محمد محمود فيصدر قانوناً «يحظر مقاضاة أى موظف حكومى حول قضايا إدارية حتى لا يمكن محاسبته على سوء إستعمال السلطة»[٩٤]

ثم تمادى أكثر فأكثر فأصدر قانوناً يمنع إجتماع أكثر من شخصين فى مكان عام أو خاص. وتتهكم «البلاغ» قائلة «ان مأمور دمنهور إقتحم مكتب أحد المحامين حيث كان مجتمعاً مع ثلاثة من موكليه ، وأمرهم بمغادرة المكتب»[٩٥].

وهكذا إنتهز محمد محمود فرصة غياب البرلمان ليمعن فى إصدار قوانين مقيدة للحريات، فأصدر قانوناً لمنع المظاهرات وقانوناً أسماه «حماية النظام الحاضر».. الخ.

ولكن، ومع الامعان فى سياسة القمع أدرك القصر، وكذلك الانجليز أن وزارة محمود أصبحت ضارة بكل منهما. خاصة وان محمد محمود قد تمادى فى المبالغة فى دوره، إلى درجة أنه «عندما كان الملك فى أوربا طلب محمد محمود أن يعينه فؤاد «قائمقاماً للملك» ورفض فؤاد قائلا «إن نزوله عن العرش أسهل عنده من تعيين محمد محمود قائمقاماً للملك، وسارع الملك بقطع رحلته والعودة الى البلاد»[٩٦]

وفى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ أُجبر محمد محمود على الاستقالة.

وتعلق الديلى نيوز الانجليزية على الاستقالة قائلة « إن النتيجة المنطقية لاستقالة لورد لويد هى إستقالة محمد محمود وإنتهاء الدكتاتورية التى كانت نتيجة مباشرة لسياسة لويد»[٩٧]

وسرعان ما تنصل الجميع من هذه السياسات الفجة، والتى أثارت مشاعر وسخط الغالبية الغالبة من المصريين، ويكون الملك فؤاد أول من فعلها، فقد صرح فى مقابلة له مع اميل لودڤيج «إننى شديد المعارضة للدكتاتوريات، ويسرنى جداً أن ما كان يسمى بهذا الاسم منذ زمن قريب فى مصر قد زال، وثبت انه ليس بالامكان أن تحكم مصر بلا رقابة من البرلمان»[٩٨]

لكن الجميع حرصوا على تدبير إنسحاب هادئ لمحمد محمود، فعقب إستقالته، وجه المندوب السامى البريطانى الجديد لورين إلى النحاس باشا تحذيراً واضحاً بألا يقوم الوفديون بتدبير أية مظاهرات للشماته بمحمد محمود[٩٩]

وبرغم تخلى الانجليز عن محمد محمود فقد ظل على علاقة وثيقة بهم، وعندما إتفق على أن يوقع محمد

---

٩١ – راجع : احمد حسين . إيمانى.
٩٢ – كوكب الشرق – ١١ –٣ – ١٩٢٩.
٩٣ – البلاغ – ٨ – ١ – ١٩٢٩.
٩٤ – د. أحمد زكريا الشلق – المرجع السابق – ص٣٦.
٩٥ – احمد شفيق باشا – الحوليات – الحولية السادسه – ص٥٨٢.
٩٦ – روز اليوسف – ٢٩ – ٤ – ١٩٣٠.

97 - F.o. - 407 - 209 NO. 160 - Loraine to Henderson - Sept

محمود كرئيس لحزب الاحرار الدستوريين [اصبح رئيسا للحزب من ٢٤ فبراير ١٩٢٩ - حتى وفاته فى ٣١ يناير ١٩٤١] على عريضة أعدها النحاس باشا ضد برلمان اسماعيل صدقى (١٩٣٠) قام سيسل كامبل أحد موظفى السفارة البريطانية بتحذيره من التوقيع لأن ذلك سوف يدمر مكانته عند الانجليز، ويجعل منه تابعاً للزعامة المتطرفة» وينصاع محمد محمود للأمر. وبعدها يرسل المندوب السامى الى حكومته قائلا «إن لمحمود رغبة قوية فى تجنب أى خلاف معنا وفى تأكيد الصداقة تجاهنا، وآمل بالابقاء على روابطنا الاجتماعية معه، وأن نبقى قادرين على إبعاده عن سياسة التطرف»(٩٨)

ويظل الاحرار الدستوريين راغبين فى تبرير العلاقة الحميمة مع الانجليز ويكتب د. هيكل «ان علاقة المودة بين محمود و الساسه الانجليز تقوم لأسباب اجتماعية وليس لأسباب سياسية»(٩٩)

* * *

ويشكل محمد محمود وزراته الثانية فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧، بعد سلسلة من المناورات دبرها على ماهر المهيمن على سياسة القصر آنذاك، وشاركه فيها محمد محمود ، وأحمد ماهر.

ولعلها المرة الوحيدة التى أبدى فيها هيكل عدم رضاه عن أساليب محمد محمود إذ أورد فى مذكراته «ان محمد محمود شكل وزارته الثانية بمفرده ودون أى تشاور مع الحزب وقيادته»(١٠٠)

وكما حدث في وزراته الاولى وجد محمود نفسه فى مواجهة برلمان وفدى فى أغلبه ، فاستصدر من الملك فاروق مرسوما في ٢ يناير ١٩٣٨ بتأجيل البرلمان شهراً(١٠١)

والحقيقة ان محمود كان ينوى حل البرلمان فوراً لكن على ماهر طلب إعطاء فرصة لأحمد ماهر [رئيس مجلس النواب] فربما إستطاع إستمالة أغلبية برلمانية وفدية إلى جانبه، ومن ثم تتحقق أمنية الملك فى الاستيلاء على حزب الوفد [عبر أحمد ماهروالنقراشى] ومن ثم لا تصبح هناك حاجة لمحمود.(١٠٢)

وهو الأمر الذى أكده د. هيكل قائلا «فإذا أمكن لأحمد ماهر وأصحابه كسب الكثرة فى البرلمان، فلا بقاء لوزارتنا، وبذلك تكون وزارتنا قنطرة أريد بها تمهيد السبيل للسياسه التى رسمها القصر [على ماهر تحديداً] للاستيلاء على الوفد من داخله»(١٠٣)

وبعد أن فشلت مناورات احمد ماهر والنقراشى تقرر حل البرلمان. وبرر محمود الحل «بأن الاغلبية الوفدية

---

98 - F.O - 407 - 214 - No.82 - Loraine to Simon - Dec 19 - 1931.

٩٩ - السياسه (الاسبوعية) ٨ - ٢ - ١٩٤١.

١٠٠ - د. محمد حسين هيكل - المرجع السابق - جـ٢ - ص١٣٨.

١٠١ - كوكب الشرق -٣ -١ - ١٩٣٨.

١٠٢ - د. عبد العظيم رمضان - المرجع السابق -جـ١ - ص١٥٥.

١٠٣ - د. محمد حسين هيكل - المرجع السابق - ص٦٦.

فى البرلمان سلكت مسلكاً أغضب الأمة، ووقفت من الملك موقفاً لا يرضاه مصرى. وأضطر ذلك الوزارة إلى الانصراف عن المجلس والإلتجاء إلى الشعب الذى يستطيع أن يقرر ما هو عدل، ويختار نواباً يحترمون الدستور»[١٠٤]

وأجلت الحكومة إجراء الانتخابات بحجة إستكمال التعداد السكانى، فسرت شائعات بأن الحكومة تخشى إجراء الانتخابات فتحدث د. هيكل إلى المقطم قائلا «ان الوزارة ثابتة كالجبل، وانها ستجرى الانتخابات»[١٠٥]

وخلال فترة التأجيل هذه «أصدر محمد محمود قانونا يمنع المظاهرات والاجتماعات العامة مهما كان سببها أو الغرض منها»[١٠٦] وهكذا جرت أغرب إنتخابات فى تاريخ مصر، وقد أسميت الانتخابات الصامته.

كما قامت الحكومة بفصل كثير من كبار الموظفين المؤيدين للوفد و أحلت محلهم أتباعها، كما قامت بإعادة تقسيم الدوائر الانتخابية بما يسمح لها بخدمة أنصارها.

وباختصار أجريت الانتخابات في مناخ التسلط الحكومى والارهاب البوليسى وإنتهت بحصول الحكومة على ٩١ مقعداً فقط. لكن محمود بتحالفه مع السعديين (٨١ مقعدا) كان بامكانه أن يشكل وزارة جديدة.

لكنه هذه المرة وجد في القصر على ماهر الذى تعمد إذلاله وترويضه. فقد قدم محمد محمود إستقالته للملك وفقاً للاعراف الدستورية، فإستبقاها الملك عنده، لم يقبلها ولم يرفضها، وطلب إليه إلقاء خطاب العرش. ثم بدأت دورة مناورات جديدة. بقى محمود ثلاثة اسابيع منتظراً الأمر الملكى بتشكيل الوزارة، وإذ تلقى هذا الأمر أسرع بتقديم قائمة بتشكيل الوزارة، لكن القصر إستبقاها ثم رفضها ، وظل القصر يرفض قوائم محمد محمود أربع مرات ثم قبلت القائمة الخامسة بعد أن فرض علي ماهر شروطه كاملة. وأخيراً شكل محمد محمود وزراته في ٢٧ مايو ١٩٣٨. ليبدأ من جديد صراعاً حاداً مع على ماهر ينتهى بأن قدم إستقالته بعد شهرين [٢٤ يونيو ١٩٣٨] وكلفه الملك بتشكيل وزارة جديدة. لتستقيل تحت ضغط القصر فى ١٣ ديسمبر ١٩٣٨.

إعتصروا البرتقالة حتى آخر قطرة فيها، ثم تنكروا لها.

لكن الاحرار الدستوريين – وبرغم ذلك كله – وحتى بعد وفاة محمد محمود فى ٣١ يناير ١٩٤١، ظلوا على الدوام يعلقون آمالهم وطموحاتهم على رضاء الانجليز والقصر الملكى.

* * *

وقبل أن نغادر رحلتنا مع محمد محمود نعود لنتذكر ما بدأنا به أى حقيقة ان المأساة التى إنتهت إليها مجموعة المثقفين من أبناء الاعيان الذين كانوا يتحدثون كثيراً، وربما كثيراً جداً عن الليبرالية، ثم ما لبثوا أن

---

١٠٤ – البلاغ – ٣ –٢ –١٩٣٨.

١٠٥ – المقطم – ٣ – ٣– ١٩٣٨.

١٠٦ – كوكب الشرق – ٥ – ١ – ١٩٣٨.

وقعوا في قبضة الطموح للحكم رغم أنهم لا يمثلون سوى أقلية قليلة جداً، فأوقعوا أنفسهم فى قبضة أشد قسوة هى قبضة القصر والاحتلال.ومارسوا أبشع أنواع الدكتاتورية بما زاد من عزلتهم عن الشعب، لكننا نريد أن نؤكد أن هذه المأساة ليست مأساة فرد أو مجموعة بل هى – فى إعتقادنا – مأساة تكوين طبقى معقد تميزت به مصر، طبقة كبار الملاك الزراعيين إذ تمتزج معهم فئات من كبار التجار الذين يحولون تراكمات أموالهم نحو ملكية الاراضى الزراعية. وكثير منهم يقترب بل ويمارس نشاطاً رأسماليا سواء فى المضاربة بالبورصة [بورصة القطن وبورصة الاوراق الماليه] أو فى الشركات المساهمة، أو حتى فى المشاريع الصناعية والمصرفية الوليده. الخ.

إنها طبقة من كبار الملاك الزراعيين يخرج من رحمها [وليس فى صراع معها كما حدث فى الثورة الفرنسية مثلا] جنين برجوازى يتفاعل معها وتتفاعل معه ويؤثر كل منهما فى الآخر، فتتولد تلك المواقف المعقدة وغير المبررة.

ونحن لا نحاول أن نعفى أحداً من المسئولية. فقد فعلوا ما فعلوا عن عمد وتعمد، لكننا فقط نحاول أن نفهم، وان نستثير حماس الباحثين في التاريخ وعلم الاجتماع للمزيد من دراسة هذه الظاهرة وتداعياتها، وما أفرزته من نتائج، لم تزل آثارها ماثلة أمامنا، وربما حتى الآن.

* المراجع

* مراجع عربية ومترجمة:

- أحمد حسين – إيمانى.
- د. أحمد زكريا الشلق – حزب الأمة ودوره فى السياسه المصرية.
- د. أحمد زكريا الشلق – حزب الاحرار الدستوريين ١٩٢٢ – ١٩٥٢.
- أحمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسية [الحولية الخامسة والحولية السادسه].
- داڤيد لاندز – بنوك وباشوات – ترجمة د. عبد العظيم أنيس.
- د. راشد البراوى – حقيقة الانقلاب الأخير في مصر.
- د رفعت السعيد – الأساس الاجتماعى للثورة العرابية.
- د. رفعت السعيد – تاريخ الحركة الشيوعية المصرية – المجلد الأول.
- د. رفعت السعيد – أحمد حسين – كلمات ومواقف.
- د. رفعت السعيد – الارهاب، إسلام أم تأسلم.
- د. رفعت السعيد – عمائم ليبرالية.
- د. رؤوف عباس حامد – الملكيات الزراعية ودورها في المجتمع المصرى، ١٨٣٧ – ١٩١٤.
- د، سمير طه – محمد سلطان بين الوطنية والتبعية.
- د.عاصم الدسوقى – كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم في المجتمع المصرى فى القرن ١٩.
- د. عبد الله عزباوى – عمد ومشايخ القرى ودورهم في المجتمع المصرى فى القرن ١٩.
- د. عبدالخالق لاشين – سعد زغلول ودوره فى السياسه المصرية حتى ١٩١٤.
- عبد الرحمن الرافعى – فى أعقاب الثورة المصرية، ١٩٢٧ – ١٩٣٦.
- عبد العظيم رمضان – تطور الحركة الوطنية في مصر – جزءان.
- عفاف لطفى السيد – تجربة مصر الليبرالية ١٩٢٥ – ١٩٣٦ – ترجمة عبدالحميد سليم.
- د. على بركات – تطور الملكية الزراعية في مصر – ١٨١٢ – ١٩١٤.
- د. على شلبى، د. مصطفى النحاس جبر – الانقلابات الدستورية في مصر ١٩٢٣ – ١٩٣٦.

د. فاطمة علم الدين – التطورات الاجتماعية في الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩.

–د ماجده حمود – المعتدلون في السياسه المصرية – دراسة فى دور محمد محمود باشا.

– د. محمد أنيس – دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ – المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى.

– د. محمد حسين هيكل – مذكرات في السياسه المصرية – جزءان.

– محمد رجب البيومى – الازهر بين السياسه وحرية الفكر.

– محمد زكى عبد القادر – أقدام علي الطريق.

– محمد زكي مجاهد – الاعلام الشرقية.

– محمد كامل سليم – صراع الوفد فى أوربا.

– محمد محمود – اليد القوية – خطب وأحاديث.

– مصطفى أمين – من عشرة لعشرين .

– مصطفى أمين – ليالى فاروق.

– هيلين ريفيلين – الاقتصاد والاداره في مستهل القرن ١٩ – ترجمة د. أحمد عبد الرحيم، د. مصطفى الحسيني.

– د. يونان لبيب رزق – الحياة الحزبية فى مصر ١٨٨٢ – ١٩١٤.

* مذكرات ووثائق ودراسات غير منشورة.

– احمد لطفى السيد – قصة حياتى.

– عبد العزيز فهمي باشا – حياتى .

– محمد على علوبه – ذكريات إجتماعية وسياسيه.

– سعد زغلول – المذكرات الخطية.

– د. ماجده حمود – محمد محمود ودوره فى الحياه السياسيه المصريه، من ١٩١٩ إلى ١٩٤١ – رسالة ماجستير غير منشورة

– ملف خدمة محمد محمود بدار المحفوظات.

– مضابط الجمعية التشريعة ١٩١٤.

– وثائق وزارة الخارجية المصرية بالمتحف البريطانى– ملفات مصروالسودان.[سنوات ١٩٢٢ –

١٩٤١]

* دوريات

- الاخبار - ١٩٦٩.

- الاتحاد ١٩٢٨.

- الاهرام - ١٩٢٩.

- البلاغ - ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - ١٩٣٨.

- السياسه (اليوميه) - ١٩٢٣ - ١٩٢٨ - ١٩٢٩

- السياسه (الاسبوعية) - ١٩٤١.

- المقطم - ١٩٠٦ - ١٩٣٨ - ١٩٤١.

- روز اليوسف - ١٩٢٩ - ١٩٣٠.

- كوكب الشرق - ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - ١٩٣٨.

* مراجع أجنبية:

- Deep, Marius - Party Politics in Egypt.

- Essawi, Charles - Egypt at mid Century.

- Harris, Murry - Egypt under the Egyptians

- Lioyd, (Lord) - Egypt Since Cromer.

أحمد ماهر

طموح الزعامة، أم جناية الشقيق على شقيقه

الوطنية عدل وكرامة.

وها نحن نأتى إلى رجل أخر أهمله المؤرخون، ربما بأكثر مما أهملوا الآخرين التى صمتوا عنهم وعن التأريخ لهم.

وأحمد ماهر سليل أسرة عريقة هو الآخر، لكنه لم يعش كبرياء محمد محمود، ربما لأنه إنغمس في غمار الثورة عضواً عاملاً وفاعلاً ومتفاعلاً، وليس مجرد قائد كمحمد محمود الذى أتى مبكراً ودون فعل قاعدى إلى سدة القيادة.

ولقد تحاشى المتحدثون عن أحمد ماهر- وربما هو متحدث وحيد-[1] الحديث عن أصل العائلة رغم أن أكثر الادلة تشير إلى منبتها التركى.

الأب محمد ماهر باشا ولد فى صفر ١٣٧١ هجرية، وبعد دراسته الثانوية إلتحق بمدرسة المهندسخانه، وبعد أن أتم دراسته فيها دخل مدرسة أركان الحرب. وفى ١٨٧٤ ميلادية عين ضابطاً فى أركان الحرب، وإنتدب فى ١٨٧٥ ضمن رجال حملة الكولونيل كولستن لاستكشاف بلاد كردفان وخط الاستواء. ثم عين حاكماً على «بورولاتكا» من مديريات خط الاستواء، ثم مديراً لدارفور وكردفان. وفي أبريل ١٨٩٢ عين محافظاً للاسكندرية ورقى إلى رتبة لواء ثم عين فى ١٨٩٣ وكيلا لوزارة الحربية والبحرية. وفي ١٥ نوفمبر ١٨٩٤ إنتدب محافظاً للقاهرة.

هو إذن واحد من كبار التكنوقراط ومن كبار العسكريين، وهو من الذين ظلوا مرضياً عنهم من الخديويين المتتالين ومن سلطات الاحتلال معاً.[2]

اما الابن احمد ماهر [ولد فى ٣٠ مايو ١٨٨٨] فقد كان واحداً من ستة أبناء، جميعاً ساروا فى درب الارستقراطية. على ماهر باشا، مصطفى ماهر بك، محمود ماهر بك، أمين ماهر بك، وحرم عبد اللطيف المكباتى بك، وحرم د. أحمد حلمى باشا.

حصل أحمد ماهر على الشهادة الابتدائية من مدرسة الناصرية (١٩٠٢)، وأكمل دراسته الثانوية بالمدرسة الخديوية، ثم إلتحق بمدرسة الحقوق وتخرج منها عام ١٩٠٨. إفتتح مكتباً للمحاماه في الفيوم. ثم إختارته وزارة المعارف عضواً في البعثة الدراسية التى سافرت لدراسة القانون في فرنسا. حصل على دبلوم في القانون، ثم حصل على دكتواره فى الأقتصاد السياسى من جامعة مونبيلييه [١٩١٣] وعاد إلى مصر ليعمل مدرساً بمدرسة التجارة العليا.

كان أحد العناصر الأكثر فعالية في لجنة الموظفين التى قادت الاضراب العام. وعقب عودة سعد من منفاه في مالطه، سمع كثيرا عن دور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى فى قيادة العمل الثورى فقربهما إليه. وفى

---

١ - محمد ابراهيم أبو رواع - الشهيد احمد ماهر (مجلدان) - (١٩٤٦).
٢ - المرجع السابق، ص٣٣٦

أول إنتخابات برلمانية بعد الثورة عام ١٩٢٣قام سعد بترشيح أحمد ماهر فى دائرة الدرب الاحمر في مواجهة حافظ باشا رمضان رئيس الحزب الوطنى، وفاز ماهر فوزاً ساحقاً. وإستمر سعد فى تبنى أحمد ماهر فإختاره سكرتيراً برلمانياً «ثم عُهد إليه بالشئون الادارية للمجلس. كذلك أُختيرمقرراً للجنة الماليه عند مناقشة ميزانية الدولة، فتحدث طويلا عن ضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، كما طالب بفرض الضرائب على جميع المقيمين بمصر من مصريين وأجانب، وركز طويلا على ضرورة إلزام الاجانب بدفع الضرائب على أساس شعار«من يغنم عليه أن يغرم»، كما لعب دوراً ضاغطاً ومؤثرا فى الافراج عن السجناء السياسيين».[٣]

وفى عام ١٩٢٤ قرر سعد تعيينه ناظراً لمدرسة التجارة العليا فإحتج بعض الاستاذة [بإيعاز من الانجليز] مبررين هذا الاحتجاج بسبب صغر سنه [٣٦ سنه]. ورد عليهم سعد رداً مفحماً على الطريقة الزغلولية فإختاره وزيراً للمعارف.[٤]

وفى يونيو ١٩٢٥ ألقى القبض عليه هو والنقراشى فيما أسمى قضية الاغتيالات السياسية. وقد إعتبر سعد أن قضيتهما هى قضيته فكان يشرف بنفسه على ترتيبات الدفاع وإعداد المذكرات والدفوع القانونية. وفي ٢٥ مايو ١٩٢٦ صدر الحكم ببرائتها.[٥] وفور الافراج عنهما توجها إلى «بيت الأمة» حيث إلتقاهما سعد وإحتضنهما قائلا بصوت سمعه الجميع «هذا اسعد يوم فى حياتى»[٦]

وفى ١٩٢٦ أُعيد إنتخابه عن ذات الدائرة [الدرب الاحمر]. ودخل فى مجادلات حادة مع رئيس مجلس النواب آنذاك سعد زغلول، وطالب بتعديل اللائحة الداخلية للمجلس لتتمشى مع الروح الديمقراطية فى برلمانات العالم.

وفى فبراير ١٩٢٧ إشتبك فى مجلس النواب مع سعد زغلول فى حوار ساخن عند مناقشة المشروع الخاص بميزانية الأزهر والمعاهد الدينية. وقد حاول سعد إستخدام سلطته كرئيس للمجلس لايقاف المناقشة بحجة إعمال المبادئ الدستورية مطالباً بتأجيل المناقشة إلى حين مناقشة قانون متكامل للأزهر. وكان سعد يحاول أن يتحاشى الصدام مع الازهر الذى كان الملك فؤاد يمتلك نفوذاً قوياً على شيوخه الكبار.

وحاول سعد أن يستخدم مهابة الزعيم وسلطات الرئيس وصاح فى حزم:«أزعم أن من حق رئيس المجلس أن لا يسمح مطلقاً بمناقشة تدور حول موضوع يخالف المبادئ الدستورية».

وفيما الجميع يصمتون إذا بأحمد ماهر المقرب جداً من سعد يقف متحدياً الرئيس معلنا « الرئيس يمثل

---

٣ – ابو رواع – المرجع السابق – ص٧.
٤ – لمزيد من التفاصيل راجع: أبو رواع – المرجع السابق ص٩ وما بعدها.
٥ – الاهرام – ٢٦ – ٥ – ١٩٢٥ .
٦ – البلاغ – ٢٦ – ٥ – ١٩٢٥.
٧ – مجلس النواب – مضابط فبراير ١٩٢٧.

المجلس ولكنه يستمد سلطته منه، والمجلس صاحب الرأى الأعلى، وإلا أصبح رئيس مجلس النواب لا رقابة عليه».[٧]

وإضطر سعد ان يتراجع مؤكداً سلطة المجلس في مناقشة ما يشاء من موضوعات.

وإنتخب ماهر مرة ثالثة ورابعة عضواً بالنواب عن ذات الدائرة [الدرب الأحمر].

وفى ١٩٣٤ أوكل إليه الحزب إداره سياسه جريدة كوكب الشرق، فإتخذها منبراً للتعبير الحاسم عن مواقف حاسمة.

وظل دوماً قادراً على الاحتفاظ بمسافة ما، بين مواقفه ومواقف زعامة الحزب، فبرغم تأييده لمعاهدة ١٩٣٦، إلا أنه وفى وجه تهليل مبالغ فيه عن معاهدة الشرف والاستقلال كتب قائلا «هى خطوة في طريق الاستقلال وليست وثيقة للشرف والاستقلال»[٨]

لكن أحمد ماهر ظل واحداً من أركان النضال الوفدى ضد خصوم الوفد.وكانت مقالاته فى «كوكب الشرق» تمثل التوجه الاكثر وطنية والأكثر تشدداً وأحياناً الأكثر وفدية.

ونقرأ «كانت الأمة دوماً تؤيد الوفد فى كل إنتخابات حرة جرت فى البلاد، وكانت تحرص على إيثار مرشحيه على سواهم بفضل الثقة الغالية والمكينة التى وضعتها الأمة فى وفدها الأمين، وللولاء والوفاء والنزاهة والغيرة التى يتصف بها مرشحوه الوطنيون الأمناء على حقوق البلاد. إن الحكم الديمقراطى هو الحكم السليم فى مصر... إن إيماننا بالديمقراطية عميق، وهو فى كل يوم يزداد تمكنا من قلوبنا بسبب ما تتعرض ديمقراطيتنا له من خطر السياسات المناوئة، والمكائد التى تحاك لها فى الظلام».[٩] ويكتب «إن فى مصر أمه لاتطيق البقاء من غير برلمان من حُر إنتخابها، وصفوة ممثليها، والوكلاء الصادقين عنها حتى ولو قام حكم حسن يبيح الحريات جميعها، وتولت الأمر إدارة نزيهة تدفع الظلم وتقيم العدل والتساوى بين الناس، ولكن دون برلمان» ثم يتحدث عن خصوم الوفد قائلا فى حدة «لندع حديث مصارع العجزة الذين إستكبروا، ونهاية المتسلطين الذين إندحروا فقد باءوا بمقت من الله ومن الناس».[١٠]

وبمناسبة المولد النبوى يكتب «اليوم تمر بنا هذه الذكرى ونحن نجاهد لاستخلاص حرية بلادنا، ونطالب بعودة دستورنا، مظهر إستقلالنا، أمام مرحلة خطيرة وعقبات قائمة فى طريقنا» ويقول «نحن على الحق والحق قاهر، وهو فائز غالب وان طال به المدى، ومهما ظن الباطل أن أسلحته وقواه على حربه كافية»[١١]

---

٨ - أبو رواع - المرجع السابق - ص١٦.

٩ - كوكب الشرق - ٣٠ مارس ١٩٣٥.

١٠ - كوكب الشرق - ٢٣ ابريل ١٩٣٥.

١١ - كوكب الشرق - ١٣ يونيو ١٩٣٥.

وهو متشدد يرفض أية مساومة قائلا «ان مسائل الدستور والحرية والاستقلال التام هى من اللوازم الأولى لحياة الأمم، والحقوق الرئيسية التى لا تجوز المساومة عليها أو الرضاء بدفع ثمن عنها لخصومها أو مغتصبيها، وإعتبارها محل تعامل، ومجال أخذ وعطاء، عمل شائن مناف للوطنية، ومهيمن لكرامة الأمة. إن المساومة هنا فى الحق هى جريمة عظمى وجناية على البلاد، وإلحاق للعار بكل تاريخنا الوطنى».[١٢]

وعن النحاس يكتب أحمد ماهر «لسنا أول أمة سارت وراء زعيم وألقت زمام قيادها لمن يمشى بها إلى التضحية والجهاد والنصر» ثم «وعندما وقعت الكارثة، وفقدت الأمة زعيمها فى جهادها وقائدها فى نهضتها إتجهت الانظار فى الحال إلى مصطفى النحاس باشا، زميل سعد فى المنفى وساعده الأيمن فى القيادة، وأدركت الأمة أنه خير من يخلف الزعيم الخالد.فقد كانت الأمة قد أدركت بثاقب بصرها، وسلامة شعورها وصحيح تقديرها أنه الرجل المطلوب، والقائد الذى يجب أن تسلمه زمام قيادها، وتثق به، وتعتمد عليه، وتركن إلى ماضيه الناصع المجيد لأنه المرآة الصادقة، والعنوان الصالح للمستقبل والغد المأمول» ويكتب تحت عنوان «واجبات مصر بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦» «وقد أثبتت الأمة التى إستمرت طوال السنين على تأييد زعيمها الخالد، وزعيمها الذى خلفه على الزعامة، غير حافلة بما لاقته من المظالم، وما صادفته من المشاق وصمدت له من الخطوب»[١٣].

ويقول «على الشعب ألا يتردد لخطة واحدة إزاء أية تضحية تُطلب منه.وكذلك الحكومة وعلى رأسها دولة مصطفى باشا النحاس، وهو الشخص الذى قاد الحركة الوطنية بالمهارة والتضحيات الكثيرة التى تحملها. هذه الحكومة التى سار بها النحاس باشا منذ بدأت المفاوضات بقوة وعزم ويقين صادق وحتى الآن، ستسير فى طريقها، وسيبذل دولته مجهوده ووقته، ويضع مواهبه، وما عُهد فيه من عمل وإرادة قويه حتى يصل بالبلاد إلى تحقيق أمانيها كاملة»[١٤]

لنتذكر هذه الكلمات جيداً، ولنراجعها مرة أخرى ونحن نتحدث فى الأسطر التالية عن الخلاف مع النحاس والانشقاق عن الوفد. ولنقارن بينها وبين ما سيقول بعد بضعة أشهر لنرى ماذا يفعل الخلاف بأصدقاء الامس القريب ، وربما، ماذا يفعل الطموح المتعجل بصاحبه.

* * *

نحن الآن في عام ١٩٣٧ أى بعد أشهر قليلة من ذلك الزمان الذى ترددت فيه كلمات أحمد ماهر دفاعاً عن الوفد، وتمجيداً للنحاس. لكن الزمان تغير سريعاً،وكذلك المشاعر وربما النوازع والطموحات.

---

١٢ – كوكب الشرق – ١١ يوليو ١٩٣٥.
١٣ – كوكب الشرق – ٢٢ أغسطس ١٩٣٥.
١٤– الجهاد – ٢٧ نوفمبر ١٩٣٦.

ويعزو البعض ذلك إلى تأثير على ماهر باشا القابع فى القصر الملكى محركاً كل أموره، وكأنه نجح فى التأثير فى شقيقه، ودفعه إلى الطموح في منصب رئيس الوزراء.

ويقال ان نميمة وهواجس سرت لتوقع بين مكرم عبيد باشا واحمد ماهر باشا فى تنازع بدأ خفياً، ثم تصاعد جلياً على موقع الرجل الثانى فى الحزب .. وفى الحكومة.

ويقال انها شخصية أحمد ماهر الطامحة إلى الزعامة، والمتعجلة لقطف ثمارها.

ونتوقف لنراجع كتابات البعض.

فكرى أباظه الذى إعتاد أن يكتب فى دهاء تغلفه البساطة يقول « ويظن البعض ان أحمد ماهر قد رسم لنفسه ولمستقبله برنامجاً معيناً، وأنه لا يُحدث أحداثه عفواً، وإنما تعمداً. وأنه يسير على خطة محبوكة الاطراف رسمها لنفسها ولمستقبله».(١٥)

أما احمد ماهر فيروى القصة كما يلى فى حوار مع جريدة الاهرام «لم أكن أتوقع عند الساعة التى عرفت فيها أن هناك خلافاً فى الرأى بين سعادة النقراشى باشا وبين الوزارة أن الأمر سينتهى إلى قطيعة، وأنه سيلغ إلى حرمان واحد من طرفى الخلاف من جهود الطرف الثانى، ذلك أن الخلاف فى الرأى بين أعضاء الهيئة الواحدة أمر طبيعى» ويقول فى براءة أو بالدقة فى تظاهر بها «وإذا كنت أرى غير منفرد ان سعادة النقراشى باشا قوة وطنية كبرى ينبغى بل يجب الاحتفاظ بها وإدخارها لخير الوطن، فإننى في الوقت نفسه أقرر حق حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا علينا بإعتباره زعيما للأمة ورئيسا للوفد، ولست أرى أن هناك أية صعوبة أو أى تعارض أو أى شئ من هذا القبيل يصح أن يعوق بين تعاون الصديق النقراشى والرئيس مصطفى النحاس». ويمضى أحمد ماهر «وتفاقم الأمر وتطورت الأمور تطوراً غير منتظر من التفكير فى الصلح والتفاهم إلى القطيعة. وكان أن دعى الوفد للبحث فى الموقف الحاضر، فى ظروف غير عادية وفى وقت كانت النفوس فيه هائجة، والأفكار مضطربة، والدعاية السيئة منتشرة، والظواهر كلها تنبئ بالعواقب الوخيمة وقد ضاعف من أثر هذه العوامل أن حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوفد حدد وجهة نظره في الموضوع بأن أعلن صراحة أنه على أعضاء الوفد أن يختاروا بين شخصه وبين شخص النقراشى باشا، وجعل مدار البحث على هذا المحور الدقيق. وواضح أنه لم يكن هناك وجه لهذه المفاضلة إذ أن شخص النحاس باشا لم يكن موضوع مساس ولا كان محل خلاف، وإنما كان الخلاف على أسلوب الحكم، وليس بعيب أن يجتهد مجتهد فى تغيير هذا الأسلوب طبقا لما يراه محققا للخير».

---

١٥ – محمد ابراهيم ابو رواع – الشهيد أحمد ماهر – المجلد الثانى (١٩٤٦) ص١٨ – عن مقال لفكرى اباظة مؤرخ فى يوليو ١٩٣٧.

ويسأله المحرر عن خطواته التالية فيجيب «ان الامور مرهونة بـأوقاتها».

ويعود المحرر ليسأل ما هى القيمة العملية لقرار الوفد انه لم يزل يعتبر النقراشى باشا عضوا فيه؟ فيجيب: «قيمته العملية هى أننى أرى أن لسعادة النقراشى باشا علىَّ من الحقوق ما لسائر حضرات أعضاء الوفد، وأن كل ما يطرح على الوفد من أمور لا يصح ان يكون سراً عليه، ذلك أننى سأشاوره فى الأمر، وأشركه فى كل ما يعرض على الوفد من أمور».(16)

لكن هذه اللهجة المراوغة والمشحونة بالدهاء والتى لا تتصادم مع الزعيم النحاس باشا لم تستمر طويلا. وفجأة تبدت المشكلة على وضعها الصحيح، وهى أنها تعبير عن صراع على السلطة بين النحاس وبين الشقيقين على ماهر الذى قفز إلى منصب رئيس الديوان الملكى وأحمد ماهر الذى يريد أن يقفز إلى منصب رئيس الوزارء.

ونقرأ «عجيب ما يقولونه ان احمد ماهر باشا وعلى ماهر باشا يريدان إحتكار خدمة البلاد وخدمة العرش وهذا قول باطل ولا يخضع لاستئثاره. وأحسب ان هذا القول قد إندس إلى قائله من جراء البدعة التى إبتدعوها وسموها «الزعامة المقدسة». وليس قيام فرد بالواجب عليه مُعفياً غيره، وإن كان شقيقه من حق الوطن فى ذمته. نحن نساهم فى خدمة البلاد، وخدمة العرش كمصريين، ومن واجبنا ان نعمل لهذه الغاية السامية، لا أن نعمل خاضعين لشخص واحد، منساقين وراء «زعامة مقدسة» ولو ضاعت من أجلها مصلحة الوطن» ويمضى أحمد ماهر قائلا «يقول النحاس باشا ان احمد ماهر يضع العراقيل فى طريقه لحساب على ماهر، والحقيقة اننى مكثت زهاء التسعة عشر عاما أعمل إلى جانب النحاس باشا، وأعارض على ماهر باشا لا لشئ إلا لمصلحة البلد، لأننى كنت أرى غير ما كان يراه أخى، فلما تغير الحال، ورأيت النحاس باشا قد إزدهى بلقب الزعامة المقدسة الذى خلعه عليه مشيره الناصح مكرم عبيد باشا ، رأيت أن من الظلم أن أجاريه في محاربة من يعمل للصالح العام» ومن الهجوم على النحاس إلى الهجوم على مكرم «إن مكرم يريد أن يكون هو الحاكم المسيطر علي كل ماله علاقة بالحكم فى البلاد» .ثم هو يكشف الاوراق صراحة، مؤكداً ان بداية الخلاف بدأت حول الموقف من على ماهر فيقول «حينما كان النحاس باشا يستعد لاعداد خطاب العرش إقترحت عليه أن ينص فيه على ما قام به على ماهر باشا فى أثناء حكمه من ضروب الاصلاح وشتى المشروعات المفيدة للبلد، فأجاب بأن هذه الرغبة سبقت إلى خاطره. ولكن الخطاب جاء خالياً من ذكر أى عمل لعلى ماهر، ولكننى إنتهزت فرصة شكر حضرات النواب على إنتخابى رئيساً للمجلس فضمنت شكرى إياهم إشارة إلى ما قام به على ماهر باشا من خدمات للوطن أثنا، حكمه .. وقد عتب على النحاس باشا ومكرم باشا هذا الموقف»(17)

---

١٦ – الاهرام ١٥ سبتمبر ١٩٣٧.

١٧ – أبو رواع – المرجع السابق – ص١٤٨ –١٥٢.

وفى خطاب آخر يقول أحمد ماهر «يتحدث النحاس باشا عن الازمة الدستورية، ويجب على كل مصرى أن يفهم ان الأزمة عند النحاس باشا ليست إلا كل ما يحول بينه وبين كرسى الحكم، وكل ما يعترض طريق قدسية الزعامة التى لا ينبغى ان يقف فى طريقها ناصح ولا ناقد» ثم « الأزمة التى حاكها خيال النحاس باشا هى مسألة تعيين على ماهر باشا رئيسا للديوان الملكى والتى قامت بسببها قائمة النحاس باشا ونادى بالويل والثبور، مؤكداً أن في تعيينه إعتداء على الدستور»ثم «وعندما عين على ماهر باشا رئيسا للديوان خلا مكانه في مجلس الشيوخ فاقترح النحاس باشا أن يعين مكانه فخرى بك عبد النور فأبدى خلالة الملك إعتراضاً عليه، لكن النحاس باشا ركب رأسه، وأصر على تعيينه، وإلا كان الدستور فى خطر، وأعلن أنه لا يرضى عن عبد النور بديلا».[١٨]

ولكن هل يمكن أن نستمع إلى شهادة شاهد عيان – ربما – أقول ربما كان محايداً؟ يقول حسن يوسف باشا وكان أيامها من رجال الديوان الملكى ومطلعاً على دخائل الأمور «عاد الوفد إلى الحكم فى ٩ مايو ١٩٣٦، وكان حظ الوزارة من التوفيق ضئيلاوذلك بسبب الخلافات الشخصية داخل الوزارة وفى محيط الهيئة الوفدية، فقد أخذ النحاس باشا يعتمد إعتماداً ظاهراً على مشورة سكرتير الحزب مكرم عبيد باشا وزير المالية، ويؤثره على غيره من الوزراء. ثم ما لبثت مطالب الحكم وقضاياه العاجلة أن شغلت رئيس الحزب وسكرتيره العام عن العناية بأمور أعضاء الهيئة الوفدية، بينما أخذ أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى يجتمعان بهم من حين لآخر، ويستمعان إلى مطالبهم مما أدى إلى نشأة محورين داخل الوفد أحدهما محور النحاس – مكرم، والآخر محور أحمد ماهر – النقراشى»[١٩]

* * *

وفى هذه الأيام كانت مصر تسير بأقدام عارية على شوك صعب المراس.

هناك فى القصر ثالوث يريد أن يتحكم فى مصر وأن يزيح النحاس والوفد من الطريق،[على ماهر – المراغى – البندارى]. وهناك الحرب العالمية التى تطل نذرها علي العالم وتحمل رياحاً ملتهبة إلى المناخ المصرى .

---

١٨ – المرجع السابق – ص١٥٩.

١٩ – حسن يوسف – مذكرات حسن يوسف – القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢ – ١٩٥٢ – ص٨٩.
وراجع لمزيد من التفاصيل: د.عبد العظيم رمضان – تطور الحركة الوطنية – جـ٢.
وكذلك. د. أحمد زكريا الشلق – حزب الاحرار الدستوريين، ١٩٢٢ – ١٩٥٣ – (١٩٨٢).
د. ماجده حمود – المعتدلون في السياسه المصرية،ودراسة فى دور محمد محمود باشا – (١٩٩٢).

٢٠ – لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد – اليسار المصرى ١٩٢٥ – ١٩٤٠ – ط٢ – (١٩٧٣).
وأيضا: د. محمد انيس – الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الأوربى – سلسلة محاضرات المعهد العالى للدرسات الاشتراكية (غير منشور)

٢١ – راجع كنموذج للدعاية الألمانية ذات الطابع النازى: ملحق مجلة الفلاح الاقتصادى – عددى سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٨.

والألمان والايطاليون يبحثون لانفسهم عن موقع قدم فى ساحة السياسة المصرية [مصر الفتاة] وفى القصر الملكى حيث يقال أن على ماهر كان قريباً منهم [٢٠] وقد بدأت الدعايات الفاشية والنازية فى ترديد شعاراتها ومواقفها عبر صحف مصر الفتاة، وأيضا عبر صحيفة تخصصت فى ذلك ويقال انها كانت تمول بواسطة السفير الألمانى.[٢١]

ولقد تكاثرت العرائس التى كانت خيوطها ممتدة إلى القصر كى تتحرك بأصابع علي ماهر الذى تفوق على الجميع فى نسج المؤامرات الصغيرة، ونجح بها فى أن يربك خصمه اللدود النحاس باشا، وأن يؤكد سلطة القصر الملكى، ومن ثم نفوذه الشخصى.

كانت العرائس التى يحركها على ماهر متعددة الأهداف: الاخوان المسلمون [لتأكيد تمسح الملك بالاسلام] مصر الفتاة [لمغازلة المانيا وايطاليا] محمد محمود [لايجاد بديل عن النحاس يقبله الانجليز] وأحمد ماهر [لتحقيق إنشقاق في حزب الوفد ذاته].

والحقيقة أن النحاس باشا لم يدخر وسعاً هو ووزارته فى العمل على تقليص نفوذ القصر فإستثار بذلك غضب الملك الشاب، ومهد الطريق لمؤمرات على ماهر.

ومنذ البداية [يونيو ١٩٣٦] عملت حكومة النحاس إلى تأكيد سلطة البرلمان فأدخلت نظام وكلاء الوزرات البرلمانيين وتم بالفعل تعيين أربعه وكلاء برلمانيين لوزرات الصحة والداخلية والعدل والخارجية.[٢٢] لكن ذلك كان مجرد تمهيد لتوجيه ضربة شديدة لنفوذ القصر «فقد تم إنشاء منصب وكيل وزارة برلمانى لشئون القصر كبديل لإقتراح سابق بإنشاء وزراة لهذه المهمه. وقد عين في المنصب عبد الفتاح الطويل»[٢٣].

ويقول د. محمد حسين هيكل «كان تعيين وكيل برلمانى لشئون القصر يستهدف فى الظاهر توثيق روابط التعاون بين الوزارة والقصر، إلا أن الغرض الحقيقى منها تمثل فى فرض مراقبة دقيقة على أنشطة القصر، ولكى يكون القصر أقل إستقلالا عما كان فى عهد الملك فؤاد. لكن هذا النظام الجديد إستمر حتى يوليو ١٩٣٧، أى حتى بلوغ الملك فاروق سن الرشد ثم ما لبث أن ألغى »[٢٤]

والحقيقة ان العلاقات كانت قد توترت مع الملك الشاب منذ ما قبل توليه العرش، عندما إقترح الامير محمد على الوصى على العرش أن يتم تتويج فاروق ملكاً فى إحتفال دينى يتم فى القلعة حيث يقوم شيخ الأزهر

---

٢٢ – عبد الرحمن الرافعى – فى أعقاب الثورة المصرية – جـ٢ (١٩٦٦) – ص١٤.

٢٣ – ماريوس كامل لبيب – السياسة الحزبية فى مصر – الوفد وخصومه ١٩١٩ – ١٩٣٩ – ص٢١٢ وأيضا

F.O - 407 / 219 - No. 132 - Kelly to Eden.

٢٤ – د. محمد حسين هيكل – مذكرات فى السياسه المصرية – جـ٢ (١٩٥٣) – ص٣٥.

٢٥ – محمد التابعى – من أسرار الساسه والسياسة – ص٥٨.

٢٦ – عبد الرحمن الرافعى – فى أعقاب الثوره المصريه – جـ١ – ص٣١٥.

بتسليمه سيف جده محمد على باشا، بحضور أمراء الأسره المالكه، وذلك بالتوازى مع الاحتفال الرسمى».[٢٥]

وقد إعترض النحاس بشدة مؤكداً أن الملك هو دستورياً ملك لكل المصريين مسلمين ومسيحيين، وأنه من غير اللائق ومن غير الدستورى تتويج الملك في إحتفال إسلامى.

ويؤكد عبد الرحمن الرافعى «ان إعتراض النحاس كان متمشياً تماماً الدستور[م٥٠] التى تنص على إقتصار الاحتفال على إداء الملك لليمين الدستورية أمام البرلمان».[٢٦]

وعندما إشتعل الخلاف بين الوفد والقصر تقدم أحمدماهر باقتراح بتشكيل فريق من كبار رجال الأمه للاحتكام اليهم فى هذا الاختلاف ورفض النحاس هذا الاقتراح طالبا الاحتكام إلى الهيئة الوفدية.[٢٧] ويقال ان احمد ماهر قد إقترح أن يتولى وفدى آخر غير النحاس رئاسة الحكومة. وفهم الجميع أنه يريدها لنفسه، وأن على ماهر [القصر] يريدها له بهدف شق الوفد من داخله.

وثمة وثائق بريطانية تؤكد أن هذا الاقتراح كان نابعاً من القصر «إقترح المراغى وعلى ماهر علي الملك فى أغسطس ١٩٣٧ إقالة النحاس باشا إذا ما رفض حل تشكيلات القمصان الزرقاء، وتكليف أحمد ماهر بتشكيل حكومة وفدية، الأمر الذى سيؤدى إلى إحداث إنشقاق في حزب الوفد»[٢٨] ثم قامت مظاهرات مناوئة للوفد، ولعلها كانت المرة الأولى التى خرجت فيها مظاهرات منظمة تؤيد الملك ضد الوفد، وقد نظمت هذه المظاهرات باتفاق بين على ماهر وحسن البنا.[٢٩]

ويؤكد ذلك عديد من الباحثين «نظم القصر وعلى الارجح من خلال على ماهر عدداً من المظاهرات ضد حكومة الوفد كرد على المظاهرات الوفدية التى هتفت «النحاس أو الثورة».[٣٠]

ويبقي السؤال الحاسم معلقاً. كان النحاس دائم الخلاف - بقدر أو بآخر - مع القصر الملكى، فلماذا إنفجر الخلاف فى صفوف الوفد، بينما كان الخلاف مع القصر فيما سبق أداه توحيد للصفوف الوفدية؟

والاجابة معقدة بعض الشئ، فالسياسيون عادة ما يخفون مطامحهم أو حتى خصوماتهم الشخصية أو منافساتهم خلف ستار من القضايا العامة. وربما القضايا الجذابة. لكننا لا نملك الا أن نورد ما يقولون، ونضع إلى جواره ما نعتقد.

---

٢٧ - ابو رواع - المرجع السابق -جـ٢ - ص١٨.

28 - F.O - 407 /221 - No.21 - KeLLy to Eden- 28 Auyust 1937.

٢٩ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - حسن البنا ، متى وكيف ولماذا؟.

٣٠ - ماريوس ديب - المرجع السابق - ص٢٢٥.

٣١ - د. محمد حسين هيكل - المرجع السابق - ص٣٥.

32 - F.O - 407 / 221 - NO 34 - Lampson to Eden - 16 june 1937.

«بدأ الخلاف بين النحاس والنقراشى حول عملية إسناد مشروع كهربة خزان أسوان. النحاس أراد إسناد العملية إلى شركة الكهرباء الانجليزية، بينما طالب النقراشى بطرح المشروع فى مناقصة مفتوحة».[٣١]

لكن الوثائق البريطانية تكشف لنا زاوية أخرى فقد قام أمين عثمان [المقرب من النحاس والمقرب جداً من الانجليز] وقبل نشوب هذا الخلاف بعدة أشهر بابلاغ مسئول فى السفارة البريطانية «ان النحاس باشا يسعى لابعاد النقراشى من الوزارة ، نظراً لأنه معادٍ للانجليز ، ويسعى للتخلص من الموظفين الاجانب وخاصة الانجليز في المصالح الحكومية»[٣٢].

ولكن، إذا كان الخلاف قد إحتدم بين النحاس والنقراشى فلماذا إنحاز أحمد ماهر ضد النحاس؟ هذا السؤال تكمن الاجابة عليه فى طموحات أحمد ماهر، أو فى منافسته المتسمة بكوامن الغيرة من إحتضان النحاس لمكرم عبيد السكرتير العام للحزب واللاعب الأساسى فى الحكومة. أو ربما في دور على ماهر الخصم اللدود للنحاس باشا والذى يقال انه الفاعل الاصلى فى إحداث الشقاق بين احمد ماهر النحاس.

المهم بدأ الشقاق وتحول إلى معركة. وفيما كانت الترتيبات تتوقع أن ينجح احمد ماهر في كسب غالبية الهيئة الوفدية، فإن النتائج كانت مريرة. تحدث أحمد ماهر ثلاث ساعات كامله وكانت النتيجة «وافقت الهيئة البرلمانية للوفد بأغلبيته ٢٢٨ صوتا ضد ثلاثة أصوات [أحمد ماهر – ابراهيم عبد الهادى – حامد محمود] بالثقة فى النحاس باشا، وفصل كل وفدى يقبل تأليف الوزارة أو يشترك أو يؤيد وزارة لا يرأسها النحاس»[٣٣]

ونعود لنستمع إلى رواية احمد ماهر عن هذا الاجتماع «تحدثت ثلاث ساعات فى الاجتماع، فعددت أخطاء الوزارة، وأعلنت رأيى فى طريقة حكمهم، وقمت بلفت أنظارهم إلى الواجب عليهم فى هذه الظروف، كان الحاضرون ينصتون وغالبيتهم توحى بأنهم موافقون على ما أقول، وعندما طلبت أخذ الرأى لم يتفق معى علانية إلا ثلاثة. والحمد لله أن وُجد ثلاثة رجال فى مثل هذا المكان يجهرون بكلمة الحق»[٣٤].

وكان من الضرورى أن يغير القصر أو بالدقة على ماهر تكتيكه ضد النحاس ومن أجل أخيه. وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧ أقيلت وزارة النحاس وكلف محمد محمود بتشكيل وزارة جديدة.

فماذا كان رأى الانجليز فى هذه الوزارة؟

«النظام الحاضر لا يلقى من التأييد الشعبى إلا القليل، و إن كان يتمتع بقدر من التأييد بين أعلى الطبقات الارستقراطية والمثقفين. والتعاطف بين طلاب الازهر والنظام الحاضر قد تحول بمضى الوقت نحو الوفد، وقامت

٣٣ – حسن يوسف – المرجع السابق – ص١٠١

٣٤ – أبورواع – المرجع السابق – ص١٨١.

٣٥ – د. محمد جمال الدين المسدى – د. يونان لبيب رزق – د. عبد العظيم رمضان – مصر والحرب العالمية الثانية –. ص٦٨.

بالفعل مظاهرات فى الازهر لصالح النحاس» ويمضي السفير البريطانى فى تقريره المسهب قائلا «ولو أن على ماهر يمثل الدور السياسى للقصر فى الوقت الحاضر، فإنه ليس بمستبعد أن يفقد محبة الملك كما حدث للشيخ المراغى الذى كان موضع ثقة الملك، وعطفة، ثم ما لبث أن زايلة كل ذلك بتأثير من على ماهر باشا كما تقول الشائعات، وقد تظهر الأيام شخصية أخرى تلعب الدورنفسه مع على ماهر باشا هى كامل البندارى باشا»(٣٥)

هكذا كانت الأمور. ثالوث القصر [على ماهر – المراغى – البندارى] يتآمر بصورة دائمة ضد النحاس، بينما هم أنفسهم يتآمرون ضد بعضهم البعض. ولعل هذا يكفى وحده ليعطينا صورة عما كان يجرى فى ساحة السياسة المصرية.

ويمضى السفير البريطانى فى رسالته «وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية فإن المسألة الدينية هى أهم موضوع في الوقت الحاضر، فإن دوائر القصر تبذل جهداً لاحاطة الملك بهالة إسلامية، ومع أننى شخصياً أشك فى تمسك على ماهر بأصول الدين فإنه يساند تلك النزعة».(٣٦)

على أية حال، وجدت مصر نفسها مرة أخرى ورئيس وزرائها هو محمد محمود باشا الذى عانت من حكمة وحكومته الكثير.

أما أحمد ماهر فقد وجد نفسه فى مأزق حقيقى. خسر الوزارة التى حلم بها أو التى أرادها له أخوه، وخسر وضعه المرموق فى حزب الاغلبية الشعبية، وعلاقته الحميمة بزعيمه وزعيم الأمة مصطفى النحاس.

ولم يكن هناك بد من الاستمرار فى ذات اللعبة. فلا مفر.

ويقول أحمد ماهر «تألفت وزارة محمد محمود فأصدرت وزميلاى النقراشى باشا والدكتور حامد محمود نداءً إلى الأمة المصرية فى يوم ٤ يناير ١٩٣٨ نعلن فيه تأسيس «الهيئة السعدية» وجاء فى ختام النداء: «إيها المصريون . إن مصر تدعو أبناءها جميعاً أن يتكاتفوا ويتضافروا لدفع هذا الشر عنها، والسير بها إلى العلا قُدماً، وها نحن نقبل على ندائها ونردد دعوتها، ونمد أيدينا إلى كل من يشاطرنا الرأى، وعهدنا مبادئ الوفد، وُسنتنا سيرة سعد خالية من البدع مبرأة عن الهوى، لقد قصدنا بندائنا هذا إنقاذ السفينة من الغرق وتدارك البلاد من عواقب السياسه المدمرة التى إستمرت حكومة مكرم باشا [هنا بالطبع تعريض بالنحاس وبمكرم عبيد معا وتأكيد على فكرة أن مكرم كان يسيطر على النحاس، ولعل هذا يفسر لنا أحد دوافع أحمد ماهر للتمرد على النحاس]

فى السير عليها».(٣٧) ثم يتحول أحمد ماهر وفى ذات الخطاب إلى هجوم شديد على النحاس قائلا «ان الاساس الذى تقوم عليه سياستهم أساس رخيص، لا تسمح به كرامة رجال يدعون لأنفسهم نصيباً من الصدق والوطنية، ولولاماهم عليه الآن من ضآلة الأثر، وقلة الخطر لقلت أن سياستهم تقوم على أساس خيانة

٣٦ – المرجع السابق.

٣٧ – خطاب أحمد ماهر باشا رئيس الهيئة السعدية في إحتفال الهيئة بذكرى ١٣ نوفمبر ١٩٣٧.

وطنية كبرى».

لكن مثل هذه الخطب لم تكن تزيد أحمد ماهر إلاعزلة . ولا يزيد وضع وزارة محمد محمود إلا حرجاً.

والحقيقة أن محمد محمود كان على ذات الموعد القديم مع الوفد ومع النحاس. فتماماً كما حدث عند تشكيل وزارته الأولى وجد نفسه فى مواجهة برلمان وفدى الأغلبية.

وتقرر الترتيب لحل البرلمان، لكن المتآمرون فى القصر الملكى وجدوا أنه من الافضل الانتظار لبعض الوقت أملا فى تدبير إنتخابات تكفل لهم أغلبية ما.

وحدث ما لم يكن ثمة مهرب منه. دعى البرلمان إلى الاجتماع. وفرضت الأوضاع على رئيس مجلس النواب [أحمد ماهر باشا] ان يلعب دوراً لم يسبق له مثيل. إنعقد البرلمان فى ٢ يناير ١٩٣٨، وما أن بدأت الجلسة حتى فاجأ احمد ماهر الجميع بتلاوة مرسوم بتأجيل إنعقاد البرلمان شهراً. وتبدى الأمر كحيلة ساذجة. فالحكومة تخشى أن يصوت المجلس بسحب الثقة منها فيفقدها دستورية وجودها. لكن تقدم الحكومة بمرسوم أيا كان الهدف منه إلى المجلس دون ان يسبق ذلك حصولها على ثقة البرلمان يبدو خللا دستورياً واضحاً. «وطلب النحاس باشا الكلمة ليوضح هذه الثغرة الدستورية ، ورفض أحمد ماهر الاذن له بالحديث، فتحدث رغم ذلك، وأمر ماهر باطفاء الانوار حتى لايصدر عن البرلمان قرار بعدم الثقة بالوزارة».[٣٨]

وبرغم ذلك إستمر المجلس فى الانعقاد، وإستمر النحاس منددا بما وصفه بأنه مؤامره على الدستور «ذلك لأنه من غير الجائز أن تتلى علينا رسالة من وزارة لم نُخطر بتشكيلها، وقدم النحاس للنواب إقتراحاً بعدم الثقة بالوزارة لأنّها إستصدرت مرسوم تأجيل الجلسات من غيرأن تتقدم إليه للحصول على ثقته، وذلك كى تتمكن من حكم البلاد حكما إستبدادياً لمدة شهر. ووافقت الأغلبية الساحقة على عدم الثقة بالحكومة. كما قرر مجلس الشيوخ الاعراب عن عدم إرتياحه لسلك الحكومه وتوجه إلى الملك طالباً إليه تدارك الأمر».[٣٩]

ويروى أحمد ماهر الوقائع «طلب النحاس باشا الكلمة فمنعته لكنه أصر على الكلام فلم أجد بداً من إخراج الزوار، ومضى النحاس يتكلم فأمرت الكتبة أن يخرجوا فخرجوا، فأمر النحاس باشا بعض النواب أن يتولوا تدوين محضر الجلسة، ولم يكن هناك جلسة، والاستمرار في هذا العمل مخالفة للدستور، وإعتراض على أمر ملكى كريم، فأمرت بإطفاء النور ولكنهم إستمروا على ضوء الثقاب وغيره، فإستدعيت بوليس البرلمان فإنصرفوا إلى النادى السعدى» ولا يفوت أحمد ماهر أن يحرض الملك على النحاس قائلا «وحسبى أنه تمادى فى ذلك حتى وجه إلى مقام سام مالا يُستحب أن يوجه إليه، وكان من فضل هذا المقام السامى أن إعتبر ان هذه

٣٨ – محمد التابعى – مصر ما قبل الثورة – ص١٧٨.
٣٩ – كوكب الشرق – ٤ – ١ –١٩٣٨.
٤٠ –أبو رواع – المرجع السابق – ص١٨٣.
٤١ – كوكب الشرق – ٢٧ – ١ – ١٩٣٨.
٤٢ – البلاغ – ٢ – ٢– ١٩٣٨.

العبارات لم تصل إلى سمعه لأنه وجد أنها لا تستحق ان تكون محل نظر».[٤٠]

وحتى هذا الوقت كان أحمد ماهر يمنى نفسه بإقناع عدد كاف من النواب الوفديين لمؤازرته، ولعل قيادة الوفد كانت تراوغه وتغريه وتبعث إليه بمن يزعمون مساندتهم له ، ثم إذا بهم يخذلونه وهو أمر أحرج الأخوين ماهر أكثر من مرة.

ونقرأ «ودعا احمد ماهر إلى اجتماع لمؤيديه من أجل تأليف هيئة وفدية برئاسته على مبادئ سعد زغلول، ولم يحضر الاعدد ضئيل»[٤١] وأصبح حل البرلمان ضرورياً. وتقول البلاغ «كان السبب فى حل البرلمان أن عشرين نائبا من الذين حضروا إجتماع أحمد ماهر وأكدوا له أنهم معه، إتضح انهم حضروا إجتماع الهيئة الوفدية فى اليوم السابق».[٤٢]

وفى ذات اليوم الذى يتعين فيه إجتماع البرلمان بحكم الدستور وهو يوم ٢ فبراير ١٩٣٨، أعلن محمد محمود حل البرلمان.

وكان طبيعياً وبعد كل ما سبق أن تتسم المعركة الأنتخابية بالضراوة. لكن أخطر ما تبدى فيها هو أن الحكومة ومناصريها ورغبة منهم فى كسب أى قدر من التعاطف الجماهيرى لجأوا إلى سلاح الاسلام، وتجول الشيخ المراغى فى المهرجانات الانتخابية لمرشحى الهيئة السعدية محاولا تديين هذه المعركة، وكان ذلك أمراً غير مسبوق.

وشعر الانجليز بالقلق من ذلك «فقام لامبسون بمقابلة محمد محمود معبراً عن قلقه من إقحام الدين فى الصراع الانتخابى، فأخبره محمود أنه طلب من الشيخ المراغى إيقاف هذا المنهج، وإن المراغى أبلغه أنه لم يكن يؤمل ولا يرغب فى إقحام الدين فى السياسة»[٤٣]

وشن النحاس هجوماً شديداً على هذا المسلك وإزاء هذا الضغط المزدوج إضطر أحمد ماهر للتنصل هو أيضا من مسلك الشيخ المراغى. وفى إجتماع عقده أحمد ماهر فى البهوالفرعونى قال «ومنذ عشرين عاماً قضى الله على نغمة التفرقة المرزولة قضاءً لا رجعة فيه، وبرأت الآذان من سماع هذه النغمة الناشزة الكريهة التى فوجئت بها البلاد فى خطاب النحاس باشا فى الأسكندرية، فكانت صيحة منكرة فزعت لها القلوب، لا من خوف من أثرها فلن تدب فيها الحياة بعد أن أماتها سعد، ولكن الفزع كان من الاستخفاف بالمسئوليات، والاستهانة بأقدس مبادئ الحركة الوطنية لحد أتاح للنحاس باشا أن يتجر بها لكسب الانصار فى عراكه الاخير. فنحن جميعا نؤمن بوحدة الأمة وصيانة جميع حقوق أبنائها على إختلاف ألوانهم فى الرأى والعقائد

---

٤٣ – محمد فريد حشيش – معاهدة ١٩٣٦ وأثرها فى العلاقات المصرية البريطانية – رسالة دكتوراه غير منشورة – ص٢١٤.
٤٤ – خطاب احمد ماهر فى وفود الاقاليم فى البهو الفرعونى ٢٢ يناير ١٩٣٨.
٤٥ – المرجع السابق.

والديانات، ونجد أساس هذه العقيدة فى ديننا الذى جعل لاخواننا ما لنا وعليهم ما علينا».[٤٤]

وكان هذا الخطاب فى ٢٢ يناير ولم يكن قد بقى سوى بضعة أيام على إنتهاء مدة الشهر الذى تقرر تأجيل البرلمان خلاله. وكان النحاس يلوح فى خطبه بأن البرلمان سوف يحل وشيكاً، لكن المثير للدهشة أن أحمد ماهر قد ورط نفسه فى نفى ما شارك في فعله بعد بضعة أيام. قال ماهر «ونغمة أخرى يراد إستغلالها استغلالا غير كريم، تلك هى قولهم أن مجلس النواب سيحل على أية صورة كانت الاغلبية فيه. وهذه نغمة فاسدة لا يرضى عنها ضمير سليم وخذوا عنى ان الدستور مرعى الجانب، محترم الحدود، متبع الاحكام، وسأقاتل كل من يخرج عن الدستور، كما أفعل اليوم فى مناهضة وسائل النحاس غير الدستورية، فإن رأيتمونى قد حدت عن الدستور، وعن نصرته فاقتلونى وقاومونى»[٤٥]

وبعدها بتسعة أيام فقط تقرر حل البرلمان. صحيح أن الاجراء يبدو صحيحاً من حيث النص الدستورى، لكنه فى واقع الأمر كان ترتيباً لاجراء إنتخابات يصعب القول بأنها جرت فى نزاهة أو وفق أحكام الدستور.

وعلى أية حال أجريت الانتخابات وكانت النتائج: الحكومة ٩١ – الهيئة السعديه ٨١ – المستقلون ٦١ الوفديون ١٢ وتبقت ١٨ دائرة للاعادة.

ولم تشترك الهيئة السعدية فى الحكومة وإن منحتها تأييدها فى البرلمان وخارجه.

ثم وفى وزارة محمد محمود الثالثه [يوليو ١٩٣٨] إشترك فيها السعديون بخمسة وزراء منهم أحمد ماهر وزيراً للمالية.[٤٦]

وقد أنشأ احمد ماهر مجموعة من الضرائب الجديدة التى وجدتها الطبقة الوسطى عبئاً ثقيلا عليها، كما إشتكى منها الأثرياء [ضريبة الايرادات على رؤوس الأموال المنقولة – وضريبه الارباح التجارية والصناعية، وضريبة كسب العمل، وأيلولة التركات، ورسم الدمغة]. وبرغم هذه الشكاوى فإن أحمد ماهر نجح في أن يوفر لميزانية الدولة عده ملايين إضافية من الجنيهات.

وقبل أن نغادر هذه المرحلة يجدر بنا أن نشير إلى أن أحمد ماهر قد غير كثيراً من مواقفه، ووصل به الأمر إلى تأييد الاحكام العرفية والرقابة على الصحف وهما أمران طالما إستنكرهما فى الأيام السابقة ثم فى الأيام اللاحقة عندما أصبح خارج الحكم.

ففى ١٩٣٩ وعندما أعلنت حكومة على ماهر الاحكام العرفية وفرضت الرقابة على الصحف لم يكتف أحمد ماهر بتأييد هذه الخطوة بل أعلن شكره للحكومة على إتخاذها. وفى مجلس النواب قال «انى أشكر للحكومة

---

٤٦ – د. محمد جمال الدين المسدى – المرجع السابق – ص٤١٦.

تطبيقها لنظام الاحكام العرفية، لأننا فى الواقع لم نشعر بأثر هذا التطبيق إلا من حيث المنفعة والمصلحة، فقد حدَّت من بعض المطامع، ووضعت قيوداً تحقق المصلحة العامه، أما مسألة حرية الصحافة فإننا دون شك نطمع من الحكومه أن تخفف يد الرقيب نوعاً ما عن الصحف، لأننا لا نريد أن نقرأ جرائد من نوع واحد ومن نسخة واحدة، ولكننا نريد أن تكون مراقبة الحكومة للصحف كاملة وشديدة إذا ما وجدت أن مصلحة البلاد تقتضى ذلك»(٤٧)

هكذا كان الأمر وهو فى إطار الحكم، أما خارجه فكان بالطبع يتخذ موقفاً معاكساً.

* * *

لكننا نخطئ لو إكتفينا بلوم أحمد ماهر وحتى محمد محمود وغيرهما. فهكذا كانت الحياة السياسية المصرية، وهكذا كان السياسيون.

كان ضعف البنية الحزبية وضعف قوى الرأى العام، وسلطة الاحتلال المتسلطة ودور القصر، كان ذلك كله باعثاً يدفع الجميع إلى المناورة والمدارة وإن شئنا تسميه دقيقة فهي «التقية».

وبعد وفاة سعد، كان النحاس يزداد عناءاً فى مواجهة خصومه وأصدقائه معا. وفى لحظات معينه كان لا يعرف الموازنة بين رجاله، فيتعلق بواحد فيغضب الآخرين .. كررها عدة مرات فأغضب أحمد ماهر والنقراشى بسبب تعلقه بمكرم ثم عاد ليغضب مكرم بسبب تعلقه بالوافد الجديد فؤاد سراج الدين وهو ما سنراه لاحقاً. وكان النحاس لا يعرف حدوداً لصداقته ولا لغضبه . وكان أيضا لا يعرف متى يتراجع.. اما الاطراف الأخرى خصومه التقليديون، والمنشقون عنه فكانوا يجدون أنفسهم فى صراع غير متكافئ. فالزعامة المهيبة التى نسجوا هم أنفسهم خيوطها تحيط بهم وتفرض عليهم البحث عن نصير، ولانصير سوى القصر أو الاحتلال، أو هما معاً.

والمناورات، والمؤامرات، والاتفاقات مع خصوم الأمس، والضرب تحت الحزام إعتبرت جميعاً أسلحة مشروعة، بل وربما إعتبرت تعبيراً عن كفاءة ونضج وخبرة . لكن تمترس الثلاثى «على ماهر – المراغى – البندارى» فى القصر الملكى أضاف بعداً جديداً لخلل الحياة السياسية، إذ فتح باب التمرد على الزعامة بالاستناد إلى سلطان القصر. كما أنه هبط بمستوى الصراع السياسى إلى منحدر المؤامرات الصغيرة وضيقة الأفق والتى لا تعرف ضميراً ولا حدوداً ولا أخلاقيات. هكذا كان الأمر بين الجميع.

ولعل النحاس لم يكن بريئاً من ذلك، فلقد إستدرج ثالوث القصر الجميع إلى ساحة المناورات الصغيرة.

وكمثال.. عندما أتى القصر بمحمد محمود فى وزراته الثانيه. وكان أحمد ماهر المنشق حديثاً عن الوفد لم يزل رئيساً لمجلس النواب . كان الرهان على إمكانية أن يستقطب ماهر عدداً كافياً من نواب الوفد فيكون هذا حلاً سعيداً. يصبح أحمد ماهر رئيسا للوزراء بأغلبية وفدية معارضة للنحاس، فيتم إبعاد النحاس وتغيير طبيعة

ومحتوى ومواقف الوفد كحزب. وحاول النحاس أن يتلاعب بالمتلاعبين به. فحاول إيهام أحمد ماهر بإمكانية تحقيق ذلك، وأوعز إلى عديد من النواب الموالين له بالتقرب من أحمد ماهر وإيهامه أنهم معه، حتى يطمئن هو ويطمئن محمد محمود فيذهب إلى البرلمان طالباً الثقة، ثم، وفجأة يكشف الجميع وجوههم ويصوتون ضد الحكومة الجديدة ويرفضون منح الثقة لها. ويسقط فى يد الجميع. لكن المؤامرة لم تنطل على الطرف الآخر، فبرغم ان عشرين نائبا وفديا زاروا أحمد ماهر ووعدوه بتجميع آخرين معهم. إلا أن النحاس نسي القصر ونفوذه، ونسى أن الأمن كان يرقب تحركات الجميع وإكتشف خيوط المؤامرة.

وتتمادى المؤامرات الصغيرة. فعندما عين على ماهر رئيساً للديوان الملكى خلا مكانه في مجلس الشيوخ.

ومع تصاعد الحملة ضد دور الشيخ المراغى المحتمى بالقصر فى محاولة «أسلمة» الصراعات السياسية و«أسلمة» الدعاية الانتخابية، قرر النحاس إحراج الجميع فرشح لمقعد الشيوخ واحداً من إبرز قادة الوفد المسيحيين، وعندما إعترض القصر عارضا ترشيح عبد العزيز فهمى باشا ، إلتهبت التلميحات وربطت بين رفض القصر لترشيح فخرى بك عبد النور للتعيين فى مجلس الشيوخ، وبين دور رجل القصر الشيخ المراغى. وكان النحاس يدبر هذا الأمر سراً ليفاجئ به الجميع، ويروى فخرى عبد النور القصة فى مذكراته «قابلت ظهراً عثمان باشا محرم وزير الاشغال وعلمت منه بطريقة سرية ان النحاس باشا صرح له ولبعض زملائه الوزراء بأننى سأكون من الشيوخ المعينين قريباً»[٤٨] وحاول القصر المساومة بأن طلب من النحاس تأجيل تعيين فخرى عبد النور لفرصة أخرى، لكن النحاس رفض . فقد كان فى زمن عاش فيه النحاس حالة لا تعرف المساومة مع خصومه السياسيين.

* * *

كذلك فإنه من الضرورى ان نستعيد ما تحدثنا عنه فى المقدمة حول الفارق بين الوطن كعنصر مادى متجسد، والوطنية كعنصر متخيل لا يمكن تجسيده وانما هو عنصر نفسى. ولأنه مُتخيل فانه يمثل «وجهة نظر» قد تختلف مع وجهات نظر أخرى. وهذا طبيعى، لكن الغير طبيعى أن يلجأ كل صاحب «وجهة نظر» إلى إتهام الآخرين بالخروج عن حدود الوطنية بل وأحيانا بالخيانة الوطنية.

ولأن «الوطنية» «وجهات نظر» فقد إختلف أحمد ماهر فى كثير من المواقف مع النحاس أو مع غيره من السياسيين لكنه ظل فى نهاية الأمر قادراً على الحضور الفاعل والحى فى ساحة الوطنية.وكان أحمد ماهر يتميز بالصراحة التى تمكنه من مواجهة مخالفية، وبالشجاعة فى تحدى خصومه.

ولعل الموقفين الاكثر بروزاً، والأكثر تميزاً، والأكثر إثارة للخلاف، وربما كان هو فيهما الأكثر قرباً إلى المذاق

---

٤٨ – فخرى عبد النور – المذكرات الخطية – مذكرات يوم ١٧ نوفمبر١٩٣٧ . [والمذكرات مودعة لدى حفيده الاستاذ منير عبد النور].

الوطنى الخالص كانا موقفه من حادث ٤ فبراير، وموقفه من إعلان الحرب.

ولن نتحدث طويلا عن ملابسات الحادث – فهذا ليس مجالنا– لكننا سنكتفى بابراز الموقف المتميز احمد ماهر.

فالدبابات البريطانية التى حاصرت قصر عابدين فوجئت بإثنين من الساسه يخترقان الحصار ويدخلان إلى القصر، هذا بينما كان السياسيون الآخرون يرتجفون خوفاً من غضب الانجليز. السياسيان هما أحمد ماهر والنقراشى.

وفى محاولة للتدقيق، وللابتعاد عن الحكايات والحكايات المضادة سوف نلجأ إلى وثيقة هامه هى محضر إجتماع الزعماء السياسيين الذى عقد بعد ظهر يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ فى قصر عابدين.

«انه فى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ إجتمع بسراى عابدين العامرة، وبناء على دعوة من معالى رئيس الديوان العالى بعض ذوى الرأى من كبار رجال الدولة وهم حضرات أصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى والسعادة والعزه [ثم أورد أسماء الحاضرين] .

ثم تحدث عن دخول جلاله الملك المعظم على المجتمعين وقال لهم «اليوم طلب السفير مقابلة رئيس الديوان وأعطاه إنذاراً هذا نصه:

«إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساءً أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة، فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث» ثم مضى الملك قائلا «إننى دعوتكم لاستشيركم فى هذا الموقف، وإننى واثق أن رأيكم ستمليه الوطنية والحكمة وأنكم ستجلسون هنا كمصريين ترجون الخير والكرامة لهذا البلاد..» وتمضى الوثيقة مع قول الملك «رجائى أن تضعوا نصب أعينكم مصلحة البلاد والوطن دون سواها، فلا يعنيكم شخصى ولا مصلحتى، وإنى مستعد ان أتحمل كل مسئولية مهما عظمت فى سبيل بلادى» ثم غادر جلالته ليترك للحاضرين تداول الرأى بعد أن قال لهم أن الرد مطلوب قبل الساعة السادسة.

وبعد فترة من الصمت قال احمد ماهر «الكلمة الآن لصاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا» فقال النحاس «أننى فوجئت بالتبليغ البريطانى، ولكنى أقرر أن الذى أوصلنا لهذا الحال هو نظام العهد الحاضر وما جره على البلاد من أضرار ومفاسد»

وبعد مجادلات ومناقشات عرض إسماعيل صدقى إقتراحاً بأن يصدر المجتمعون قراراً يقول «إن فى توجيه التبليغ البريطانى إعتداء على إستقلال البلاد ومساساً بمعاهدة الصداقة، ولا يسع الملك أن يقبل ما يمس إستقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة» ووافق الجميع بما فيهم النحاس باشا. ولكن عندما الملك إستمع الى

---

٤٩ – محضر اجتماع بسراى عابدين العامرة دونه سعادة محمود حسن باشا كبير المستشارين ورئيس لجنة قلم قضايا الحكومة فى الرابع من فبراير عام ١٩٤٢م – محفوظات قصر عابدين.

القرار تحدث النحاس قائلا «إن هؤلاء الناس [الانجليز] مُحرجون، وأخشى إذا رفضت تشكيل الوزارة أن يلجأوا إلى تصرفات خطيرة قد يكون فيها ضرر كثير». فرد الملك «نحن شخصياً مستعدون لاحتمال المسئولية».[٤٩]

ونعود إلى أحمد ماهر ليكمل لنا ما حدث «وحصلت دعوة فى الساسة التاسعة من مساء ذات اليوم، وحوالى الساعة العاشرة تكامل الجميع وإنعقد الاجتماع فى جو مكهرب. ودخل جلالة الملك ثم قال:«أرجو أن تنسوا مادار بينكم من الحديث، وما قررتموه بعد ظهر اليوم، وإننى أكلف النحاس باشا بأن يشكل الوزارة، ويعرض على أسماء الوزراء لصدور الأمر بذلك، وأطلب إليه عند إنصرافه من هنا أن يمر على دار السفير البريطانى ويبلغة بأنه قد كلف بتشكيل الوزاره، لأنه طلب إلىَّ ذلك. وكل ما أرجوه من النحاس باشا أن يسير فى حكمه سيرة قوية بعيدة عن الأغراض الحزبية، وله أن يعتمد علىَّ فى تسيير الامور». وكان الوحيد الذى كسر حاجز الصمت هو أحمد ماهر «طلب أحمد ماهر باشا الكلمة فقال أظن ان النحاس باشا وهو كما يقول عن نفسه زعيم البلاد، وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال يجب أن يرفض تشكيل الوزارة، أما وقد قبلها فإنى أقول وفى هذا المكان المقدس وفى حضرة جلالة ملك البلاد وسأقولها للناس ان النحاس باشا تولى الحكم الليلة مستنداً إلى أسنه الرماح البريطانية، وقال النحاس: لست أنا الذى يستند إلى الرماح البريطانية» .فرد صدقى باشا ساخراً «لابد ان رفعتكم وصلتم إلى هنا بعد إنصراف الدبابات»[٥٠]

وإنصرف الزعماء واجمين من قصر عابدين إلا احمد ماهر الذى وقف فى ساحة قصر عابدين ليقول للصحفيين المحتشدين وبصوت عالٍ «إكتبوا على لسانى أنى قلت لمصطفى النحاس باشا فى حضرة جلالة الملك وزعماء الأمة : يا نحاس لقد جئت إلى الحكم على الدبابات وأسنة الرماح الانجليزية، إكتبوا، ولا تخافوا، فنحن لا نخاف الموت ولا نرهب أحداً إلا الله»[٥١]

ويواصل أحمد ماهر معركة إنفرد فيها بموقف شجاع بل وغاية فى الشجاعة لانه كان يواجه فيها الغرور الاحتلالى وخوف الجميع من تداعيات هذا الغرور. وفى صباح ٥ فبراير ١٩٤٢ أَرسل احمد ماهر الى السفير البريطانى الاحتجاج التالى:

«حضرة صاحب السعادة السفير البريطانى..

بمناسبة التبليغ الذى وجهتموه سعادتكم إلى حضرة صاحب الجلالة الملك بوجوب تكليف شخص بعينه إخترتموه لتشكيل الوزارة المصرية، وهو حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا، وما إقترن بهذا

---

٥٠ - أبو رواع - جـ٢ - المرجع السابق - ص٢٧.
٥١ - المرجع السابق - ص٢٨.
٥٢ - المرجع السابق.

التبليغ من التهديد المباشر بالقوه المسلحة البريطانية، أتشرف بصفتى رئيساً لمجلس النواب بأن أبلغ سعادتكم بصفتكم ممثلا لدولة بريطانيا العظمى فى مصر، شديد إحتجاجى على هذا الاعتداء الصارخ على إستقلال مصر، والذى أخل إخلالا شديداً بأحكام المعاهدة بين البلدين، ومقتضيات الصداقة بين الشعبين وعرض علاقاتهما للخطر الشديد. وإنه ليؤسفنى أن يقع هذا الاعتداء، وهذا التدخل الذى لامبرر له فى صميم شئوننا الداخلية في الوقت الذى تدافع فيه بريطانيا عن قضية الديمقراطية وحرية الأمم فى حرب هى بالنسبة لها حرب حياة أو فناء.

وإنى إذ أسجل هذا الاحتجاج أتشرف بأن أقدم لسعادتكم وافر الاحترام

رئيس مجلس النواب

احمد ماهر»[٥٢]

٥ /٢/ ١٩٤٢

ويبقى ان نتوقف قليلا لتقييم المواقف

ولابد فى البداية أن نسجل لاحمد ماهر شجاعته وصراحته، وقدرته علي مواجهة خوف الخائفين وتراجع المتراجعين أمام الضغط البريطانى الذى كان مستثيراً لخوف الآخرين.

ولابد أيضا أن نقرر أن النحاس باشا قد بالغ فى تشدده فى رفض إقتراح الملك وإقتراح الزعماء جميعاً، وهو تشكيل حكومة قومية. ولعل هذا كان سيشكل مخرجاً للجميع ولمصر، ومأزقاً للاحتلال، الذى إشترط وفقط ان يشكل النحاس وزارة لم يشر إلى تركيبها. ولعله كان يتحتم عليه أن يستعين بخبرة سعد زغلول عندما قبل المساومه وقبل حكومة قومية، بل وقبل ان يتنحى عن رئاسة الوزراء رغم إستحقاقه لها.

لكن نحاس نهايه الثلاثينيات وبداية الأربعينيات كان شديد العنف مع خصومه، ولم يكن يقبل بأية مساومة معهم. فوضع نفسه وأكثر من مرة فى مآزق صعبة، لعل أكثرها صعوبة هو حادث ٤ فبراير.

ثم نأتى إلى موقف تميز فيه أحمد ماهر عن غيره من السياسيين. وهو الموقف من الغزو الألمانى للحدود المصرية. لم يهتم أحد، ولم يعتبر أحد ان هذا الغزو لأرض مصرية أمراً يهم المصريين.

بل إن شيخ الازهر [الشيخ مصطفى المراغى] قال فى خطبة الجمعة فى جامع بيبرس وبحضور الملك «إن مصر ترفض الاشتراك فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»[٥٣]

---

٥٣ – الاهرام ٢٠ سبتمبر ١٩٤١ وأيضا: حسن يوسف – المرجع السابق – ص١١٧.

٥٤ – خطاب احمد ماهر باشا فى نادى الهيئة السعدية بالاسكندرية فى ١٦أغسطس ١٩٤٠.

٥٥ – خطاب احمد ماهر باشا بسراى الشناوى بك بالمنصورة فى ١٩ سبتمبر ١٩٤٠.

٥٦ – خطاب أحمد ماهر باشا في إحتفال الهيئة السعدية بعيد الجهاد ١٣ نوفمبر ١٩٤٠.

ورداً علي وجهة النظر هذه ،والتى سادت الجميع ماعداه قال أحمد ماهر «الحرب تضحية وشر وبلاء، ولكنها تضحية فى سبيل الشرف، وشر ندفع به شرور، وتصان به العزه القومية والكرامة الانسانية والمصلحة العامة»(٥٤).

وفى خطاب آخر قال أحمد ماهر «إن عدو مصر والمصريين إنما هو من يحاول الاعتداء على أراضيها والاعتداء على أبنائها، وعلى كرامتها ووجودها» وقال «إن العدو أغار على البلاد وتوغل فى أراضيها معتدياً على أبنائها، محاولا ان يتسلط علينا، وأن يقضى على وجودنا وإستقلالنا فأرى واجباً على كل فرد فى هذه الحالة أن يعمل للدفاع عن بلاده بغض النظر عما تملكه من قوة ومن أسلحة»(٥٥)

وكان الموقف مبدئياً إلى درجة دفعت بأحمد ماهر إلى أن ينسحب من الوزارة هو ووزراء حزبه إحتجاجاً على تردد الوزارة فى إعلان الحرب على الغزاه الألمان. يقول أحمد ماهر «استقال الوزراء السعديون لخلاف فى الرأى بين حزبنا وبين الوزارة. إذ رأينا أن واجب البلاد يحتم عليها القيام بالدفاع عن نفسها بعد أن اعتدى المغيرون عليها وتوغلوا فى أراضيها. ورأت أغلبية الوزراء أن الوقت لم يحن بعد لذلك. غير أن هذا الخلاف لم يمنعنا، ولم يصرفنا عن واجب المعاونة والنصيحة للقائمين بالأمر، ضناً بمصلحة البلاد أن تعصف بها آثار الخلاف»(٥٦)

ويمضى أحمد ماهر وحده – وبرغم غرابة الوضع –إذ يصمت الجميع إزاء غزو أجنبى، فإن الجميع ظلوا متمسكين بعبارة الشيخ المراغى وهى «ان هذه الحرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل».

«وفى ١٨ فبراير زار أيدن وزير خارجية بريطانيا وإلتقى أحمد ماهر [رئيس الوزراء] وأطلعه على مادار فى مؤتمر القرم، وبعدها زار أحمد ماهر القصر الملكى وعرض عليه ما دار فى الاجتماع، ثم عقد إجتماعاً لزعماء البلاد، ثم دعا البرلمان إلى جلسة لطرح مسأله اعلان الحرب على نواب الأمة» ويؤكد البعض «ان إعلان الحرب لم يكن يحتاج إلى موافقه البرلمان لأن الحرب دفاعية فالالمان إحتلوا أراض مصريه، وان الدستور صريح فى ذلك»(٥٧)

وعقد البرلمان جلسة مساء ٢٤ فبراير ١٩٤٥ لعرض مسأله اعلان الحرب الدفاعية ضد المحور وإجتمع المجلس في جلسة سريه، تحدث فيها أحمد ماهر سبع ساعات شارحاً ملابسات الأمر برغم أن إعلان الحرب كان تحصيل حاصل، فالنازيون هزموا فى واقع الأمر ولم يكن هناك مفر من إستسلامهم.

وفى مجلس النواب تحدث ماهر عن لقائه مع ايدن [ولعل هذا هو مبرر جعل الجلسة سرية] فقال «فى يوم

---

٥٧ – أبو رواع – المرجع السابق – ص٣٦.

٥٨ – مجلس النواب – مضبطة الجلسة السرية المنعقدة مساء يوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥.

الأحد الماضى [٨ فبراير] قابلت المستر أنتونى إيدن وزير خارجية انجلترا، وقد أبلغنى أن مؤتمر القرم قرر عقد مؤتمر دولى فى سان فرانسسكو يوم ٢٥ ابريل المقبل، كما قرر أن لا يشترك في هذا المؤتمر إلا الدول التى تكون قد أعلنت الحرب على المحور قبل أول مارس القادم. وزاد جنابة بأن إعلان الحرب يتيح لتلك الدول فوق إشتراكها فى هذا المؤتمر أن تكون من الأعضاء المؤسسين للهيئة الدولية المزمع تكوينها بعد الحرب لكى تخلف عصبة الامم»(٥٨)

وافق مجلس النواب. وأصر احمد ماهر على عرض الأمر على مجلس الشيوخ رغم عدم الحاجة إلى ذلك.

فتوجه إلى هناك عبر البهو الفرعونى. وأطلق عليه محمود العيسوى الرصاص. ورحل أحمد ماهر.

* * *

ولابد لنا من أن نشير إلى ان خالد محمد خالد كان الوحيد الذى إتهم جماعة الاخوان بتدبير هذا الاغتيال .

ولابد أيضاً أن نستشعر كثيراً من الأذى إذ نراجع مرافعة الدفاع عن المتهم، الذى صاح فى القضاه مشيراً إلى المتهم «انه يستحق وساماً لا إعداماً».

ألم نقل أن «الوطنية» جهات نظر.

المراجع

* مراجع عربية

– د. أحمد زكريا الشلق – حزب الاحرار الدستوريين ١٩٢٢ – ١٩٥٣.

– حسن يوسف – مذكرات حسن يوسف – القصر ودوره فى السياسه المصرية ١٩٢٢ - ١٩٥٢.

– د، رفعت السعيد – اليسار المصرى – ١٩٢٥ – ١٩٤٠.

– د. رفعت السعيد – حسن البنا، متى وكيف ولماذا؟

– عبد الرحمن الرافعى – في أعقاب الثورة المصرية – جزاءن.

– د. عبد العظيم رمضان – تطور الحركة الوطنية – جزاءن.

– د. ماجده حمود – المعتدلون فى السياسة المصرية – دراسة فى دور محمد محمود باشا.

– ماريوس كامل ديب – السياسة الحزبية فى مصر – الوفد وخصومه، ١٩١٩ – ١٩٣٩ .

– محمد ابراهيم أبو رواع – الشهيد أحمد ماهر – مجلدان.

– محمد التابعى – مصر ما قبل الثوره.

– محمد التابعى – من أسرار الساسه والسياسه.

- د. محمد جمال الدين المسدى - د. يونان لبيب رزق - د. عبد العظيم رمضان - مصر والحرب العالميه الثانيه.

- د. محمد حسين هيكل - مذكرات في السياسه المصرية - ثلاثة أجزاء.

* وثائق ودراسات غير منشورة ومذكرات.

- فخرى عبد النور - مذكرات خطيه.

- مجلس النواب - مضابط عام ١٩٢٧.

- مجلس النواب - مضبطة جلسة ٧ أكتوبر ١٩٣٩.

- مجلس النواب - مضبطة الجلسة السرية المنعقدة في مساء ٢٤ فبراير ١٩٤٥.

- محضر إجتماع عقد بسراى عابدين العامرة دونه سعاده محمود حسن باشا فى ٤ فبراير ١٩٤٢.

- محمد فريد حشيش - معاهدة ١٩٣٦ وأثرها فى العلاقات المصرية - البريطانية - رسالة دكتوراه غير منشورة.

- د. محمد أنيس - الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الاوربى - سلسلة محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية [غير منشوره].

- مجموعة من خطب أحمد ماهر من مصادر متعددة.

- وزاره الخارجية البريطانية - الارشيف العام بالمتحف البريطانى ملفات [٣٧١ و ٤٠٧ للفترة من ١٩٢٧ وحتى ١٩٤٥].

* دوريات:

- الاهرام - ١٩٢٥ - ١٩٣٧ - ١٩٤١.

- البلاغ - ١٩٢٥ - ١٩٣٨.

- كوكب الشرق - ١٩٢٥ - ١٩٣٨.

- الجهاد - ١٩٣٦.

مكرم عبيد
عندما يتمرد الابن البكر

- "نحن مسلمون وطناً ، مسيحيون ديناً"
- "ما أحسست طول عمرى أن الوطن قريب إلى قلبى

إلا عندما أبعدونى

إلى سيشل، فكانت أداة الفصل هى أداة الوصل.. وإذا

بالنفى والبعد اللانع هو هو القرب الجامع.

أجهد الكاتب المبدع أحمد بهاء الدين نفسه فى البحث عن عبارة موجزة يصف بها مكرم عبيد باشا، فلم يجد سوى «الفارس الذهبى للحركة الوطنية»[1]. والكثيرون الذين غضبوا من تلك العلاقة الحميمة بين النحاس ومكرم، قالوا «ان مكرم هو عقل النحاس ولسانه، وان النحاس خاضع لتوجيه مكرم، وأصبح يحمل عنه أعباء ومتاعب قيادة الوفد».[2] ولعلنا نتذكر أن الكثيرين من خصوم النحاس قد ردودا ذلك، وأن رجال النحاس الذين خاصموه [مثل النقراشى واحمد ماهر] تعللوا بنفوذ مكرم السلبى علي الحكم وعلى النحاس. بل ووصل الأمر بأحمد ماهر بأن وصف حكومة النحاس بأنها حكومة مكرم.

وقد إعتاد الانجليز وحتى المؤرخين المحايدين على وصف مكرم عبيد بأنه واحد من «الصقور» الوفديين، وكثيرا ما كانوا يعتبرون أن جماعة الصقور «مكونه من احمد ماهر – النقراشي – مكرم عبيد – حسن حسيب – سينوت حنا»[3]

وتقول الوثائق البريطانية عنه «القبطى مكرم عبيد عنيف متطرف فى عدائه للانجليز، لكنه لم يتورط في عمليات الاغتيال السياسى، وإن كان دائماً على علاقة وثيقة بأحمد ماهر والنقراشى أبطال هذه العمليات»[4] وتقول عنه ذات الوثيقة «إن حركاته المسرحية وفصاحته اللغوية كانتا تؤثران تأثيراً كبيراً على الشبان والطلاب»

لكن فصاحته فى اللغة العربية لم يضاهيها إلا إتقانه للغه الانجليزية ولهذا إستعان به سعد زغلول كثيراً [كان سعد وأغلب المثقفين المصريين يتحدثون الفرنسية وليس الانجليزية] فى كل ما يحتاج إلى معرفة متقنة باللغة الانجليزية . [لعلنا نذكر كيف عانى سعد وأعضاء الوفد من ترفع محمد محمود وتسلطه مستغلاً انه الوحيد بينهم الذى يعرف الانجليزية].

وقد أرسله سعد إلى لندن من أجل تنظيم دعاية للقضية المصرية أثناء مفاوضات عدلى هناك . وقد نجح مكرم فى المهمة نجاحاً باهراً، بما دفع سعد زغلول إلى أن يذهب بنفسه فى لفته لم تتكرر لمقابلته فى محطة مصر لدى عودته، ونظم الوفديون له استقبالاً شعبياً حافلاً، وكان سعد على رأس الحاضرين. ومن يومها أسمى مكرم «إبن سعد البكر».

وقد فعلها أيضاً مع النحاس باشا، فعندما كان محمد محمود فى انجلترا للتفاوض أرسله النحاس للدعاية ضد مبدأ المفاوضة مع حكومة لا تمثل سوى أقلية ضئيلة، ونجح أيضاً نجاحاً باهراً «ونشرت مقالات عديده

---

١ – منى مكرم عبيد – مكرم عبيد ١٨٨٩ – ١٨٨٩ – كلمات ومواقف . [١٩٩٠] ص١٧.

٢ – مكرم عبيد باشا – الكتاب الاسود – مقدمة الناشر للطبعة الثانية (١٩٨٤) ص١٢.

٣ – ماريوس كامل بيب – السياسة الحزبية في مصر – الوفد وخصومه ١٩١٩ – ١٩٣٩ – (١٩٨٧) – ص١٧٠.

4 - F.O. - 407 / 225 - NO. 3 - LEADING PERSONALITIES IN EGYPT - jan. 22- 1941.

تطالب الحكومة الانجليزية بالرجوع إلى الأمة المصرية، والتفاوض مع ممثليها الحقيقيين، ولما عاد إستقبل إستقبالاً شعبياً حاراً، وذهب النحاس – هو أيضا – إلى محطة مصر على رأس حشد شعبى منقطع النظير»[٥]

ومنذ ذلك الحين بدأ الحديث عن العلاقة الوثيقة بين النحاس ومكرم الذى عُين سكرتيراً عاماً للوفد ليحل محل النحاس الذى أصبح رئيساً. ويقول البعض أن الحلقة الضيقة التى إلتفت حول النحاس، وساهمت معه في قيادة الوفد قد أصبحت مكونة من ثلاثة أشخاص «مكرم – ماهر – النقراشى» وإمتاز مكرم بأنه الخطيب المفوه والمحامى الموهوب»[٦].

ولقد كانت صلابة مكرم وموهبته الخطابية، وقدرته علي التأثير فى الجماهير تأثيراً كبيراً سبيلا لإيمانه العميق بالجماهير وبقدرتها على رسم سياسة الوطن، وفى التأثير على الحكام. وفى سبتمبر ١٩٢٣ يعلن مكرم فى إحدى خطبة «إن الرأى العام بلغ حداً من القوة إستطاع معه أن يوجه الحركة الوطنية، وحتى أصبح لنا برلمان من جمهور الشعب، قبل أن يكون لنا برلمان نظامى»

وفى خطاب له عشية إنتخابات ١٩٢٣ –١٩٢٤ قال «إن البرلمان الشعبى ينبغى أن يواصل سيطرته على البرلمان المزمع إنتخابه طبقاً للنظام الدستورى» بل هو يصرح لأحد الصحفيين الأجانب «إن مصر ومنذ خمسة أعوام يحكمها في واقع الأمر الرأى العام المصرى، الذى يجبر الوزارات على الاستقالة، ويدفع بأخرى كى تتشكل»[٧]

والقدرة على تحريك مشاعر الجماهير، المصطحبة بالثقة فى قوة الرأى العام تربط صاحبها بطبيعة الحال بهذه الجماهير وبمصالحها ومشاعرها.

وفى المؤتمر الوفدى الكبير الذى عقد فى ١٩٣٥ حيث إحتشد عدد ضخم من الوفديين ، وكان أغلب الحاضرين من «أفندية» المدن ،ومن متوسطى ملاك الريف، صاح مكرم عبيد متجاهلا نفوذ كبار الملاك الزراعيين بالحزب «نحن فلاحون أبناء فلاحين، وان أول أهداف الوفد هو خدمة الفلاحين»[٨]

وفى هذا المؤتمر صاغ مكرم فى خطابه ما أسماه «الاغراض الاربعة للوفد» «الغرض الوطنى :إذكاء الفكرة الوطنية وما يترتب عليها من نتائج عملية سواء أكانت سياسية أو أقتصادية أو إجتماعية . الغرض السياسى: تحقيق إستقلال مصر.الغرض الدستورى العمل على عودة دستور ١٩٢٣. الغرض الاصلاحى: برنامج إصلاحى

---

٥ – منكرات مصطفى النحاس – ربع قرن من السياسه فى مصر – ١٩٢٧ – ١٩٥٢ – الكتاب الأول – دراسة وتحقيق احمد عزالدين – ص٣٨.

٦ – چورچى مهنا – سر نجاح المجاهد الكبير مكرم عبيد – ص٢٩.

٧ – احمد قاسم جوده – المكرميات – (١٩٤٤) – ص٤٥.

٨ – كوكب الشرق – ١٠ يناير ١٩٣٥.

إجتماعى اقتصادى»[٩]

ويقول احمد بهاء الدين «إن شعبية مكرم عبيد تكمن في تفكيره الشعبى وفى تقدميته، بلغة عصرنا»[١٠]

ويؤكد ابراهيم فرج ذات الفكره «ومكرم عبيد هو أول من تنبه عام ١٩٣٦ إلى تضمين الميزانية كل ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية، والحد الادنى للأجور، والعلاج الطبى للعمال، وتوازن الاجور مع الاسعار، وترتب على ذلك إنصاف العمال والموظفين والطبقات الكادحة»[١١]

وفى تقديمه لموازنة الحكومة (١٩٣٦) يقول أمام نواب المجلس الذين إستثارت دهشتهم توجهات مكرم، بل وتضمينه هذه التوجهات في صلب الموازنة الحكومية «لست أغلو باحضرات النواب، بل لعلى أدنو من الحقيقة إذا ما أكدت ان إستقلالنا السياسى لن يقام له وزن، أو يكون له أثر إذا لم يقترن باستقلالنا الاقتصادى، وأنه ما من سبيل الى الاستقلال الاقتصادى إلا إذا كان إقتصادنا شعبياً لا حكومياً كما هو حتى الآن» ودعا النواب إلى الالتفات «إلى الكارثة الاقتصادية التى يعانيها فلاحونا وعمالنا الذين يتكون منهم مجموع الشعب، أو أكثر من ٩٠٪ منه، والذين يعيشون بين ظهرانينا وفي جوارنا، وكأنهم من دار غير دارنا، ومن عصر غير عصرنا، ومن مصر غير مصرنا» ثم يقول ليزيد من دهشة النواب «والحق أننى ما مررت بقرية من قرانا ورأيت الفلاح يكاد يأكله العمل وغيره يأكل، ويلبسه العرى وغيره يرفل، ويصيبه العيش القذر، والمأوى القذر، والمرض القذر، والماء القذر، وغيره يتجمل فيجمل، حتى لكأن المسكين يخرج من الجنة لكى يدعنا ندخل إليها».[١٢]

هذا هو مكرم السياسى. فما هى بطاقته الشخصية؟ لنطالعها فى تقرير أعده السفير البريطانى عام ١٩٤١.

- و لد فى قنا ١٨٨٩.
- إلتحق بالكلية الامريكية فى أسيوط حيث أتم الدراسة الثانوية.
- إستكمل دراسته فى جامعة اكسفورد [١٩٠٥ - ١٩٠٨] حيث حصل على درجة الامتياز فى دراسة القانون.
- حصل على درجة الدكتوراه فى القانون من جامعة ليون فى فرنسا عام ١٩١٢.
- عين سكرتيراً للوقائع المصرية بوازرة العدل - ١٩١٣
- إختير سكرتيراً خاصاً للمستشار القانونى الانجليزى ، وشغل هذا المنصب طوال مدة الحرب.

---

9 - Gibb, H.A.R. - The Situation in Egypt - iternational Affairs, XV. - May 1936.

١٠ - منى مكرم عبيد - المرجع السابق - ص١٨.
١١ - المرجع السابق - ص١٤.
١٢ - مجلس النواب - مجموعة مضابط ١٩٣٦.

– كان من بين منظمى إضراب الموظفين إحتجاجاً على نفى سعد زغلول.

– عين أستاذاً بمدرسة الحقوق ١٩١٩.

– فصل من الوظيفة بسبب حضوره حفل تكريم لسعد زغلول ١٩٢١. وإنضم بعدها إلى الوفد.

– أرسله سعد الى لندن للدعاية للقضية الوطنية. وعندما عاد إستقبل استقبالا شعبياً حافلا.

– بعدها بثلاثة أيام إعتقل ونفى مع سعد إلى جزيرة سيشل، وبقى حتى يونيو ١٩٢٣.

– إنتخب فى أول برلمان مصرى بعد الاستقلال وفاز بالتزكية.

– سافر مع سعد إلى لندن ١٩٢٤ أثناء مفاوضاته مع ماكدونالد.

– فى ١٩٢٣تزوج من عايده إبنه مرقص حنا باشا.

– في نوفمبر ١٩٣٥ إنتخب نقيباً للمحامين بأغلبية كاسحة.

– ساءت العلاقة بينه وبين النقراشى بسبب تقرب كل منهما للنحاس.

– كانت سيطرة مكرم على النحاس من أهم أسباب عدم الاستقرار في الوفد، فقد إنتهز خصومه كل الفرص ليديروا حملتهم على سياسة النحاس وحكومته بدعوى أنها تأتى عبر تأثير «القبطى» مكرم عبيد.[١٣]

* * *

وعندما تحدثنا عن مكرم كزعيم أو على الاقل كعنصر بارز فى حلقة العناصر الراديكالية الاكثر تشدداً ضد الاحتلال ،فإننا لم نكن نتحدث عن مواقف طارئة أو إنفعالية، فمكرم عبيد وأحمد ماهر والنقراشى كانوا نماذج للافندية أبناء برجوازية المدينة أو كبار ومتوسطى الموظفين. كانوا شيئاً آخر غير كبار الملاك الزراعيين الذين تربعوا ومنذ بداية ثورة ١٩١٩ على قمم الفعل السياسى سواء فى الوفد أو فى الاحزاب التى ناصبته العداء.

وباختصار فإننا نتجاسر علي القول بأن الخلاف فى الموقف السياسى كان مجرد إنعكاس لتمايز إجتماعى وطبقى.

وقد إنحاز النحاس لافندية المدينة، أو لعلهم إنحازوا له، لانهم من ذات المحتوى الاجتماعى. وعندما بدأت الصراعات السياسية والاجتماعية فى التفاقم شهد حزب الوفد تحولاً هاماً. بدأ كبار الملاك الزراعيين ذوى النزعة التهادنية فى الانسحاب من الوفد، وكانوا يخرجون من الوفد بذرائع مفتعلة، وكأنهم كانوا يصطنعونها إصطناعاً.

وفى أغسطس ١٩٣٢ وقع خلاف بسيط، ويمكن أن يحدث كثيراً، بين مكرم ومحمد نجيب الغرابلى اثناء

---

13 - F.O. - 407 - 225 - NO.3. ibid.

الدفاع عن المتهمين فى قضية القنابل [وهى قضية إتهم فيها نجيب اسكندر النائب السابق وأحد قادة لجنة الوفد بشبرا وقد إتهم بالقيام بسلسلة إنفجارات بالقنابل كمحاولة لزعزعة النظام.ثم أفرج عنه فى سبتمبر ١٩٣٢][١٤] وسرعان ما قدم الغرابلى إستقالته من الوفد إحتجاجاً.[١٥] وإذ يتدخل النحاس طالبا من الغرابلى أن يسحب إستقالته، يسحبها، ولكنه يعلن للصحف أنه سحبها لأن أغلبية الوفد أيدت موقفه. وغضب مكرم وغضب النحاس، وقرر فصل الغرابلى. وسرعان ما خرج معه ثمانية من كبار الملاك الزراعيين.[١٦] ولعل هذه الواقعة تكفى وحدها لايضاح أن كبار الملاك كانوا قد أخذوا رويداً رويداً يستشعرون غربة عن مواقف الوفد التى خضعت وبشكل شبه تام لمواقف «أفندية» من المهنيين وبرجوازية المدينه والتجار، وباختصار من أبناء الطبقه الوسطى بالمدن.

وتم ضم ثمانية أعضاء جدد – إلى قيادة الوفد ولم تكن مصادفة أن يكونوا من ذات الفئة التى تحدثنا عن صعودها «فقد كانوا من المهنيين والاسر المتوسطة فى المدينة»[١٧]. ونتأمل الاسماء: محمود بسيونى [ابن مهندس زراعى أما هو فقد عمل محامياً وشغل منصب نقيب المحامين][١٨] ومحمد زغلول[مهندس] وعلى سالم [قاض] وعبد السلام فهمى جمعه [محام][١٩] وحامد محمود [طبيب] ومحمد عز العرب [قاضى شرعى] وكامل صدقى [محام] ومحمد يوسف [أزهرى ثم عمل محامياً] . وهكذا أصبحت قيادة الوفد مكونة من ١٩ عضواً ينتمى ١٤ منهم إلى أبناء الفئات الوسطى بالمدينة، وعضو من متوسطى الملاك الزراعيين، وعضو من البرجوازية الصناعية [محمد الشناوى بالمنصورة وكان يمتلك عدداً من المحالج ومضارب الارز] وهكذا أصبحت نسبة الافندية وبرجوازية المدن في قيادة الوفد ٧٩٪ بينما إنخفضت نسبة كبار ملاك الاراضى الزراعية إلى ١٥٫٧٪ [وكانت فى العشرينات ٤١٪].

وتقول وثيقة مرسله من السفارة البريطانية إلى لندن «لقد أظهر الوفد بالفعل تطوراً بإتجاه إقامه دكتاتورية برجوازية صغيره محورها النحاس ومكرم، وإستبعاد العناصر المنحدرة من العائلات شبه الارستقراطية من الوفد»[٢٠]

---

١٤ – المقطم – ٨ سبتمبر ١٩٣٢.
١٥ – عبد الرحمن الرافعى – فى أعقاب الثوره – جـ٢ – ص١٩٦.

16 - F.O.407/216 - No22 - Campell to Simon - oct.23 - 1932.

١٧ ماريوس كامل بيب – المرجع السابق – ص١٨٥.
١٨ – محمد زكى مجاهد – الأعلام الشرقية – المجلد ١ – [١٩٤٩] ص١١٣.
١٩ – محمد خليل صبحى – تاريخ الحياة النيابية فى مصر – جـ٦ (١٩٣٩) ص٩٩.

20 - 407 /221 - No.32. Kellern to Eden.Sept. 16 - 1937.

لكن الأمور لم تمض فى هذا الطريق. فسرعان ما ضاق الوفد بشكل عام بسياسة التشدد، وبدأت عملية إستبعاده من الحكم تؤرق الكثيرين، وتزايدت عليه ضغوط القصر ومؤامراته ، ثم بدأ العديد من «الافندية» فى الانشقاق [أحمد ماهر ، النقراشى، حامد محمود، ابراهيم عبد الهادى] ثم إذا بهؤلاء المنشقين وفى غمارحمى العداء للنحاس ومكرم يرتمون فى أحضان القصر ويكسبون إلى صفهم عدداً من كبار الملاك الزراعيين بما لهم من ثقل اجتماعى وانتخابى. الأمر الذى دفع النحاس إلى إعادة ترتيب أوراقه. وفى ديسمبر ١٩٣٧ تم ضم ١٥ عضواً جديداً إلى الوفد المصرى منهم ٧ من كبار الملاك. وفى ١٩٣٨ أصبحت قيادة الوفد ٢٣ عضوا منهم ٩ من كبار الملاك بنسبة ٣٩٪ [كانت ٧ر١٥٪ عام ١٩٣٢] وإنخفضت نسبه الافندية إلى ٤٨٪ [كانت ٧٩٪]. ومن بين أبناء كبار الملاك الزراعيين الذين ضمهم الوفد فى هذه الفترة شاب لعب أباه [المالك الكبير دوراً فى تأسيس حزب الشعب] هذا الشاب الذى لعب دوراً هاماً فيما بعد هو محمد فؤاد سراج الدين وقد إحتضن مكرم هذا الشاب، ودفع به إلى دائرة العناصر الفاعلة فى الحزب.[٢١]

وبعد فترة كان سراج الدين أحد أسباب التفريق بين مكرم والنحاس.

لكننا نخطئ إذا تصورنا أن الأمر كان مجرد منافسه شخصية، فعودة كبار الملاك الزراعيين إلى قيادة الوفد – كانت فى إعتقادنا – بداية نهاية الدور الفاعل والمؤثر الذى ظل مكرم يلعبه لأمد ليس بالقصير.

وقد حرص كبار الملاك على تشجيع معزوفة سيطرة مكرم على الوفد وعلى النحاس، وإستخدموا فى ذلك سبلا عديدة، منها المنشقين عن الوفد، ويروى النحاس «قابلت عدداً من أعضاء الهيئة الوفدية، وقد تحدثوا معى عن الشائعات التى تملأ الجو بأن النقراشي يدعو بعض أعضاء الهيئة الوفدية ويتحدثون علانية طاعنين فى مكرم ويتهمون النحاس بأنه متحيز لجبهة مكرم»[٢٢]

وفى البداية صعد النحاس من عدائه للقصر الذى إعتبره مصدر هذا الهجوم، ولعله قد بالغ فى إمكانياته وامكانيات مكرم.

«وفى الاسبوع الأخير من نوفمبر وإذ تأزم الموقف مع القصر، إجتمع النحاس باشا و معه مكرم عبيد بالسفير البريطانى وأبلغاه ان الملك فاروق لا يمكن التعاون معه، وأنه يلجأ إلى تصرفات غير دستورية، وأن مصلحة البلاد تتطلب عزله»[٢٣] وتطوع مكرم «فاقترح تعيين الامير محمد عبد المنعم ملكاً»[٢٤] لكن إيدن أسرع

---

٢١ – مكرم عبيد باشا – الكتاب الاسود – الطبعة الثانية – المرجع السابق – مقدمة الناشر ص١٣.
٢٢ – مذكرات مصطفى النحاس – المرجع السابق – ص١٥٩س.
٢٣ – حسن يوسف – مذكرات حسن يوسف – القصر ودوره في السياسه المصريه – ١٩٢٢ – ١٩٥٢ – ص٩١.

24 - F.O. 407 / 221 - No . 5o - Lampson to Eden - Nov - 1937.

٢٥ – مذكرات حسن يوسف – المرجع السابق ص٩٦.

بالرد على لامبسون مستهجناً فكرة عزل الملك[٢٥]

ولابد أن خبراً كهذا قد تسرب إلى الملك فإحتدمت نيران الحرب ضد النحاس، وأيضا ضد مكرم.

وإستخدمت كل الاسلحة فى هذه المعركة، وإنحدرت الاساليب إلى حد إستخدام ديانه مكرم كقبطى فى المعركة.. وفى مذكرات النحاس نقرأ«كان هناك فريق متعصب ضد الاقباط، ووزعت منشورات تصف مكرم باشا بأنه عدو الدين وعدو الملك». وشارك فى هذه الحملة حتى شخص مثل د. هيكل الذى تحدث فى خطاب إنتخابى فى شبين الكوم [١٩٣٧] قائلا «إن إلحاح وزارة الوفد فى تعيين فخرى عبد النور عضواً بمجلس الشيوخ كان مرده إلى أسباب لا أعرفها، وأنتم تعلمونها»[٢٦]

ولقد تحدثنا فى فصل سابق عن دور الشيخ المراغى فى التردى بالدعاية الانتخابية إلى حد الهجوم على مكرم «القبطى».

وبرغم الاستهجان الظاهرى من البعض فإن الملك قرر مكأفاة المراغى على هذا الانحدار غير المسبوق ومنحه رتبه الباشوية وردد الازهريون الذين حضروا الاحتفال هتافات بحياة «أمير المؤمنين فاروق».

وهكذا تكاملت المنظومة الكئيبة التى هددت الوحدة الوطنية. «المراغى، هيكل ، إتشاح الملك بمسوح دينية، تشجيع جماعتى الاخوان ومصر الفتاة، ثم إعتبار ديانه مكرم المسيحيه سبباً كافياً للهجوم عليه». هذه المنظومة كانت تستهدف تعزيز نفوذ القصر، لكنها كانت أيضا تستهدف شخصاً واحداً هو مكرم عبيد.

ومع تصاعد المنظومة الكئيبة والخالية من الخلق حاول القصر أن يوجه ضربة قاصمة لمكرم عبيد. ويروى النحاس «حضر على ماهر باشا رئيس الديوان لمقابلتى، وتحدث معى لا بإسمه بل باسم الملك، قائلا ان جلالته سمع أن بعض الوزراء يتصرفون تصرفات ضد صالح المواطنين، وانهم يحابون طائفة علي حساب طائفة. وطلبت منه ان يفصح فقال ان جلالة الملك بلغه ان وزير المالية [مكرم عبيد] يغلب العنصر القبطى على العنصر المسلم، وانه ملأ مكتبه والادارات الاخرى بكثير من الاقباط.

وإتصلت بوزير الماليه فحضر على الفور، ولماناقشه رئيس الديوان أجابه بالارقام ففى مكتبه سته موظفين منهم خمسة مسلمين وقبطى واحد هو فريد ميلاد مدير المكتب:« أما باقى المصالح فلم أعين منذ توليت الوزارة في ١٩٣٦ الا عدداً يسيراً، وان نظرة على الأسماء التى عينت يتبين منها ان نسبة الاقباط الى المسلمين هى ١ إلى ١٢. وصاح مكرم في وجه على ماهر قائلا: يا على باشا أنا لست متعصباً ولا أعرف فى هذا الوطن مسلماً أو قبطياً».[٢٧]

لكن هذا التدنى لم ينل من عزيمة مكرم فقد ظل متشدداً ضد خصومه قادراً على ردعهم وإسكاتهم وبأقسى

---

٢٦ – مذكرات مصطفى النحاس – المرجع السابق – ص٢٢١.

٢٧ – المرجع السابق – ص٢٤٢.

الكلمات وكنموذج لهذه المعارك الحادة التى خاضها مكرم مواجهته امام المحكمة مع الافوكاتو العمومى مصطفى مرعى.

وكانت جريدة المصرى قد إتهمت أحمد ماهر [وزير المالية] بأنه منح صديقة «إيلى بوليتى» مليونى جنيه كدعم للبنك التجارى المملوك له.

وقُدم النحاس باشا للمحاكمة بصفته مالكاً لجريدة المصرى وموجهاً لسياستها بتهمة القذف بحق موظف عمومى هو وزير الماليه. وكان الافوكاتو العمومى هو مصطفى مرعى الذى هاجم النحاس والوفديين قائلا «إن جماعة جئ بهم من الشوارع كان من سخرية القدر أنهم حكموا مصر أسوأ حكم، وأشاعوا فيها الفوضى والاضطراب ولم يكتفوا بهذا بل تحججوا وأهانوا الشرفاء والنزهاء».

ورد عليه مكرم عبيد قائلا « يا مصطفى مرعى لقد كنت بالأمس أفوكاتو خصوصياً مثلنا، وأصبحت اليوم لحاجة في نفس يعقوب أڤوكاتو عمومياً تلبس روب القضاء وتتشح بوشاح الاتهام، وإذ أصبحت أڤوكاتو عمومياً فقد إستبحت لنفسك دون حياء ولاخجل أن تنطق بهذه الكلمات التى لا ينطقها إلا السوقة أمثالك، فإذا كنت رجلاً حقاً فإخلع الروب الذى تحتمى به، وإطرح الوشاح الذى ترتديه، وأنزل إلى هذه القاعة وقف بيننا، عندئذ ستعلم يا مصطفى مرعى من هم أبناء الشوارع. أنحن أم أنت وأمثالك الذين جاءوا لتدنيس قدسية القضاء»[٢٨].

هكذا كان مكرم دوما قادراً على أسكات خصومه أيا كانوا.

وفى ساحة الانتخابات كان كذلك أيضا، فقد رشحه الوفد نقيباً للمحامين ورشحت الحكومة خصمه القديم نجيب الغرابلى باشا ويقول النحاس «زارنا الكثير من محامى الأقاليم وحدثونى أن الحكومه تدفع للبعض إشتراكاتهم فى النقابة، وتقدم لهم تذاكر السفر إلى القاهرة، وتعطيهم مبلغاً كبيراً من النقود وتتخذ كل الأساليب لانجاح مرشحها لمركز النقيب»[٢٩] وبرغم ذلك إكتسح مكرم خصمه وفاز بأغلبية ساحقة.

ولكن ما حيلة السياسى والسياسة إزاء الدسائس الصغيره، والمؤامرات التى تحاك من أفراد يحركهم الطموح أو ما شابه ذلك؟

المهم قاوم مكرم ضغوط القصر، والدعاوى الطائفية، وتهجمات الخصوم، وصمد وصمدت علاقته الحميمة مع النحاس. لكنها لم تصمد أمام المؤامرات الصغيرة ودسائس الصغار.

* * *

ولم يكن الأمر مجرد مؤامرات أو مناورات سياسية وإنما كان ثمنا باهظا تعين على حزب الوفد أن يدفعه إذ

---

٢٨ – المرجع السابق – ص٢٥٩.

٢٩ – المرجع السابق – ص٦٦.

جعل من نفسه – ومنذ البداية – ملتقى لقوى وفئات وطبقات اجتماعية متفاوتة بل ومتناقضة المصالح. فكان القلق الطبقى والاجتماعى يخلق مواقف وممارسات سياسية مختلفة ومتضادة، وتظل هذه المواقف تبحث وربما تصطنع لنفسها أسباباً شخصية، أو مبررات مفتعلة تتفجر من خلالها في شكل إنشقاق أو انسحاب.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن زعامة الوفد كانت ملتزمة أمام جماهيرها بمواقف شبه حاسمة إزاء الانجليز والقصر، فإن ذلك كا يستدعى بالضرورة عملا مضاداً تركز خلال الثلاثينيات والاربعينيات في ردهات القصر الملكى الذى استطاع من خلال إشخاص مثل على ماهر – المراغى – البندارى ثم أحمد حسنين أن يلعب دوراً سياسياًس هاماً، أو بالدقة ان يتلاعب بالوفد والوفديين» وأن يستدرج الغاضبين خطوة خطوة نحو الانقسام.

كذلك فقد دفع الوفد ثمن بساطة النحاس باشا فى تعامله مع زملائه في القيادة. هذه البساطة التى بدت في البداية وكأنها ميزة إيجابية، كبديل عن زعيم كسعد زغلول كان على الدوام متجهماً [حتى كبار الاعيان وكبار قاده الحزب كانوا لا يتجاسرون على الضحك أو الحديث بصوت مرتفع في حضرة الزعيم، لدرجة انهم كانوا يتحاشون الحضور فى مجلس سعد إذا دخل د. محجوب ثابت الذى كان يكثر من تصرفات قد تثير الضحك][٣٠] هذه الميزة الايجابية جعلت من قلب ومشاعر النحاس ساحة للصراع بين الحلقة المقربة من الزعيم . من يكسبه أكثر من غيره؟ وإجابة على هذا السؤال أتى الغضب والترصد، ثم يأتى ترقب رجال القصر وتحريضهم للغاضبين .. ثم يكون الانقسام.

ولعله من الضرورى ان نشير إلى أن المنشقين كانوا صنفين «الاعيان» ثم جاء الدور على «الصقور» من الافندية الذين إنتهزوا فرصة إنسحاب الاعيان ليتصارعوا على المركز الثانى فى الحزب فكان ما كان وخرجوا جميعا على دفعات. ولقد يبدو غريباً وإن كان طبيعياً فى نظرنا، أن يخرج المتشددون ليتحولوا وعلى الفور إلى ساحة الولاء للقصر وربما الخضوع للاحتلال. فهم وحدهم ضعاف ، محاصرون، معزلون وبلا جماهير ولا يكون أمامهم سوى الاستقواء بالقصر والاحتلال والاعيان.

وهناك أيضا مخطط القصر لاستبعاد الوفد من الحكم الامر الذى فرص على النحاس وبعد فترة العودة إلى سياسة التهدئة وإستعياب فئات من الأعيان،فكان مجيئ دفعة الأعيان الجديدة إلى قيادة الوفد إيذانا برحيل أفراد الجيل المخضرم من الافندية المتشددين أمثال «مكرم عبيد باشا».

فكيف كان ذلك؟ أو بالدقة كيف تحركت نوازع وذرائع ذات محتوى شخصى لتحرك النار فيما هو كامن من خلاف إجتماعى أو حتى طبقى؟

---

٣٠ – راجع: على صالح عيسى السودانى – أسرار السياسه المصرية والدكتور محجوب ثابت – جـ١.
٣١ – راجع : د. رفعت السعيد : مصطفى النحاس، السياسى والزعيم والمناضل. (١٩٧٦).
وايضا: د. رفعت السعيد – الليبرالية المصرية – المثقفون – حزب الوفد. (٢٠٠٢)

لكننا وقبل أن نجيب على السؤال نشير إلى حقيقة هامه وهى النحاس وربما تراث حزب الوفد كله لم يكن بقادر على أن يبقى فى قبضة الاعيان وحدهم، وأن يظل تحت وطأة الحمائم دون صقور تتوازن معهم . وإذ إزداد ضعف الطبقة الوسطى وفقدت الكثير من فعاليتها فى المجتمع، لجأ النحاس إلى جيل جديد من «الافندية» تمثل فى «الطليعة الوفدية» التى كانت نوعا من التداخل بين الوفد والفكر الماركسى وربما التنظيمات الماركسية[٣١]

ونعود لنحاول الاجابة على السؤال.

* كان هناك ذلك الشاب الذى يمثل - ربما أفضل تمثيل - ذلك الجيل الجديد من أبناء كبار الملاك الزراعيين،الذين تربوا في المدينة، وتعلموا في الجامعة ، وأصبحوا جاهزين لأداء دور سياسى يختلف نوعياً عن دور آبائهم الذين كانوا أكثر تهادناً وأكثر محافظة وأكثر يمينية، هذا الشاب.. فؤاد سراج الدين الذى تحمس له مكرم عبيد متصوراً أنه يمكن معه ومع أمثاله تكوين حلقة أكثر راديكالية حول النحاس، ويمكن بهم أن يقلل من تلك الحملة الضارية حول تسلطه وحده علي الوفد والنحاس معاً.

* ثم كان هناك ما أحجم المؤرخون الموضوعيون، أو بالدقة المؤرخون الحقيقيون عن الخوض فيه - وهم على حق تماماً - وهو علاقة زوجة النحاس باشا بالامر، وإن كان تغافلنا عن ذكر هذه العلاقة لا ينفى وجودها، بل لا ينفى ورودها وبكثرة في تقارير السفارة البريطانية إلى لندن بما يعنى أهميتها.

وقد تزوج النحاس باشا متأخراً. ويقال أن تعجل الزواج فى سن الثامنه والخمسين حتى يضمن لزوجته إستحقاق معاشه فى حاله وفاته - والسيدة زينب الوكيل [ابنه اسره من متوسطى الملاك الزراعيين] كانت تتأثر كثيراً بالحديث عن سيطرة مكرم على النحاس، وتستحثه دوماً على التخلص من هذه المقولة حتى ولوكانت غير صحيحة.

وفى تقرير للسفير البريطانى نقرأ «نبع الصدام بين النحاس ومعاونه القبطى [نلاحظ إصرار السفير البريطانى على تأكيد هذه الصفة الدينية فى تقاريره بما يعني أهميتها كعنصر مؤثر فى الصراعات] مكرم باشا من تلك الفترة التى ساءت فيها العلاقات بين الاخير وزوجة النحاس التى سعت جهد طاقتها إلى إعلان إستقلال زوجها عن الرجل الذى إستمر لسنوات طويلة مستشارة الرئيسى، والمدير الحقيقى للوفد»[٣٢] ويمكن القول انه فى ظل عزوف صبرى باشا ابو علم عن خوض مثل هذه المنافسات، وبسبب مرضه ثم وفاته كان فؤاد سراج الدين يستعد وبحماس وكفاءه كى يلعب دور الرجل الثانى فى الحزب.

---

32 - F.o 371/41326 - No - 1190 - Review of Political development in Egypt during the year 1942.

وربما بسبب تحالفه مع زينب هانم الوكيل – كما ردد بعض الصحفيين من خصوم الوفد – أو بسبب نمو مشاعر تستهدف وجود رجل ثان «مسلم» [!]. وقريب جداً من كبار الملاك أوبسببهما معاً إلتهبت الصراعات ضد مكرم.

* وكان مكرم الشديد العناد، والذى إعتاد على إمتلاك السطوة والحظوة لدى النحاس والحزب معا، ولم يعتد على غيرها – يسهل الأمور علي منافسيه فقد أسرع بالتصادم، ربما ليؤكد وربما ليتأكد من مدى إستمرار نفوذه.

«وعندما طلب شقيقا زينب هانم الوكيل منحهما تصاريح تصدير مواد من مصر إلى الخارج أثناء أزمة الحرب، و هى تصاريح كانت تدر أرباحاً طائلة، رفض مكرم إما نزولا على مقتضى النزاهة، أو كيداً لزينب الوكيل»[٣٣]

ثم إتسع نطاق الخلاف فقد إعترض مكرم وهو رئيس اللجنة الماليه التى لا يمكن أن تمر الاستثناءات التى يراد منحها لانصار النحاس باشا وأتباع حزبه وأقارب زعمائه الا بموافقة من هذه اللجنة. لكن اللجنة رفضت بإيعاز من رئيسها مكرم عبيد كل إستثناء طلبه النحاس. [وكان النحاس يبرر الاستثناءات بأنها رد لحقوق الوفديين الذين يضطهدون في زمن حكومات الاقلية].

ثم بدأ صراع علنى وإتخذ شكل التنافس على كسب الشعبية «وفيما كانت الوزارة تبذل جهدها لمعالجة أزمة المواد التموينية وأهمها القمح، فوجئ الجميع بتصريحات لمكرم عبيد نشرتها الصحف يقول فيها أنه بوصفه وزيراً للماليه وشئون التموين «قد حقق إنفراج ازمه القمح وتوفير الغذاء للشعب ،وكان ذلك ثمره لمجهوده الشخصى»[٣٤] وكان طبيعياً «ألا يرضى النحاس عن ذلك فأمر بنشر تصريح له في الصحف فى اليوم التالى مؤداه أنه هو صاحب الفضل فى حل أزمه القمح بالتعاون مع السلطات البريطانية »[٣٥]

ويؤكد حسن باشا يوسف وكان آنذاك أحد العاملين الفاعلين فى القصر الملكى أن هذه التصريحات المتبادله «كانت بداية الخيط الذى أمسك به أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى لتحقيق طموحه فى الاطاحة بحكومة الوفد وتحقيق إنشقاق جديد فى الحزب »[٣٦] . وهكذا إستطاع احمد حسنين أن يصطاد سمكة كبيرة، بل لعلها السمكة الأكبر التى نجح القصر فى إصطيادها من مياه حزب الوفد.

---

٣٣ – مكرم عبيد باشا – الكتاب الاسود – مقدمة الطبعة الثانية – المرجع السابق – ص٢١.
٣٤ – الاهرام، والبلاغ – ٢ مارس ١٩٤٢ [ويلاحظ ان ذلك جاء بعد شهر واحد من تشكيل الوزاره]
٣٥ – حسن يوسف – المرجع السابق – ص١٤٩.
٣٦ – المرجع السابق – ص١٣٧.
٣٧ – المرجع السابق ص١٤١ – وأيضا: الاهرام – ١٣ مارس ١٩٤٢.
٣٨ – لمزيد من التفاصيل راجع: حسن يوسف – المرجع السابق – ص١٤٢.

ونعود إلى حسن باشا يوسف الذى يروى حكاية كان هو الأقرب من معرفة فصولها «إغتنم رئيس الديوان هذه الفرصة وأخذ يعمل علي توسيع شقة الخلاف بين رئيس الوزراء [النحاس باشا] ووزير ماليته [مكرم عبيد] . ورتب مقابله لمكرم باشا مع الملك يوم ١٢ مارس ١٩٤٢، وخرج مكرم باشا بعدها مصرحاً لمندوب «الاهرام أنه لقى من الملك فاروق إرشاداً نافعاً، وإطلاعاً واسعاً، ونظرة دقيقة وعميقة إلى جوهر المسائل المعروضة رغم تباينها وبعد نواحيها» ثم « لم ألبث طويلا حتى أدركت أن مليكنا الشاب قد ملك زمام الأمور بفضل ما أوتى من رجولة مبكرة، وخبرة منوعة نادرة، قلما أتيحت لملك من الملوك»(٣٧).

وكان تعليق النحاس على هذه الزيارة [التى لم يعلم بها إلا بعد إتمامها] وعلى تصريحات مكرم للأهرام تعليقاً مترفعاً للغاية فقد قال «هذا كلام لا يليق إلا بالعبيد»(٣٨).

وما لبث النحاس أن رد على مكرم بما وسع من شقة الخلاف فقد إستصدر مرسوماً ملكياً بفصل وزاره التموين عن إختصاصات وزير المالية. وعين لها وزيراً جديداً هو أحمد حمزه باشا [١٤ مايو ١٩٤٢] . ويمكن القول أن الملك إذ وافق على ذلك، فقد فعلها ليواصل الوقيعة وتوسيع الهوة.

ويتواصل التصعيد .فقد طلب النحاس ترقية إستثنائية لثلاثة من الموظفين العاملين بوزاره الداخلية، ورفضت اللجنة المالية برئاسة مكرم عبيد، وعرض النحاس الامر على مجلس الوزراء مجتمعاً [٢١ مايو ١٩٤٢] وصمم النحاس على طلبه مؤكداً أن هؤلاء الموظفين أضيروا وإضطهدوا خلال حكومات الاقلية، ووافق جميع الوزراء ما عدا مكرم.وقد سرب مكرم إلى الأهرام نص مذكرة اللجنة بمنع الاستثناءات بين الموظفين. وهكذا تفجر الخلاف علنياً بين النحاس ومكرم.

تفرقت السبل. وطلب النحاس من الملك إقالة مكرم. ورفض الملك بحجة أن السوابق الدستورية لم تأخذ بذلك، ولعله كان يريد أن يترك الصراع ملتهباً بين النحاس ومكرم، دون أن يتصور أحد أنه يميل للنحاس باشا.

وغامر النحاس فقدم إستقالة الوزارة فى ٢٦ مايو «ويبدو أنه قد خشى أن يقبلها الملك ويكلف رئيس وزراء آخر، ولهذا فقد حرص على أن ينص فى خطاب الاستقالة : نظراً لما قام بينى وبين حضرة صاحب المعالى مكرم عبيد باشا من خلاف جوهرى طال أمده، وتعددت مظاهره، وتعذر على علاجه ، بالرغم مما بذلته من الجهود. ولما كان هذا الخلاف قد أدى إلى إستحالة إستمرار التعاون بيننا، فإننى أتشرف بأن أرفع إلى جلالتكم إستقالة الوزارة» .

ووافق الملك في ذات اليوم [ربما ليستكمل دق الاسفين] وشكلت وزارة ضمت كامل صدقى باشا وزيراً

---

٣٩ – المرجع السابق – ص١٤٣.

٤٠ – مكرم عبيد باشا – المرجع السابق – مقدمة الناشر للطبعة الثانية – ص٢٣.

للمالية[٣٩].

وبعد إخراج مكرم من الوزارة سارعت الهيئة الوفدية إلى فصله من منصب سكرتير عام الحزب [بعد أن ظل يشغله ١٥ عاما] ثم تقرر فصله من عضوية الحزب[٤٠].

وتضامن مع مكرم ثلاثة من اعضاء مجلس الشيوخ وأربعة عشر من أعضاء مجلس النواب. [وهو ما يوضح أن مكرم كان يمتلك ثقلاً هاماً]. ومن هؤلاء أعلن مكرم عبيد تشكيل حزب جديد هو «الكتلة الوفدية المستقلة».

* * *

وتكاد جميع المصادر أن تجمع على ان أحمد حسنين هو الذى أوعز إلى مكرم عبيد بإعداد عريضة يرفعها إلى الملك عن فساد حكومة النحاس ليكون ذلك مبرراً لاقالتها.

وكان مكرم عيد قد إستطاع خلال توليه وزارتى المالية والتموين أن يحصل على عديد من الوثائق، وكان يشجع الموظفين الذين يساعدوه فى ذلك، مؤكداً أن القصر يؤيد هذا الأمر[٤١].

ويروى جلال الدين الحمامصى [الذى يقول أنه أسهم مساهمة فعالة فى إعداد الكتاب الاسود] ما يؤكد هذه الرواية قائلا «كانت شهرة النحاس قائمة فى نفس الجمهور إلى يومئذ على أنه رجل نزيه طاهر اليد، وأنه ظل فقيراً، ولم يفد من الحكم شيئاً»[٤٢] ومن هنا كانت أهمية الكتاب الاسود في محاولة تشويه سمعة النحاس أمام الجماهير. ويؤكد الحمامصى «كان الملك فاروق متحمساً لفكرة الكتاب الاسود تحمساً كبيراً، وكان يتابع أنباء إعداده، ويسأل عما تم طبعه، وعن الاحتياطات التى إتخذت لمنع الحاكم العسكرى [النحاس باشا] من إفساد هذه الخطة، بل إنه قبل أن تودع صورة الكتاب وملحقاته من الوثائق فى أحد خزائن سراى عابدين إلى أن يحدد موعد تقديمه، وإذاعته على الناس»[٤٣]. ويقال أن الكتاب كان يتم إعداده في شقق مهجورة، وأماكن نائية خارج القاهرة، وفى ظل حماية مباشرة من السراى.

وعندما صدر الكتاب ووزع، وجه لوم إلى اللواء محمد ابراهيم إمام رئيس القلم السياسى لأنه لم يعرف بالأمر فأجاب «وماذا نفعل إذا كان كل شئ قد تم باشراف القصر وتدبيره»[٤٤]

المهم تم إعداد العريضة التى طلبها أحمد حسنين باشا لكنها كانت قد تضخمت حتى أصبحت كتاباً. فماذا حدث بعد ذلك؟

يقول حسن يوسف باشا «رجعت إلى مفكرتى فوجدت أول إشارة إلي الكتاب الأسود كانت بتاريخ ٢٩

---

٤١ – المرجع السابق.

٤٢ – جلال الدين الحمامصى – معركة نزاهة الحكم – فبراير ١٩٤٢ – يوليو ١٩٥٢. (١٩٥٧) – ص٦.

٤٣ – المرجع السابق – ص٣١.

٤٤ – مكرم عبيد باشا – الكتاب الاسود – مقدمه الناشر للطبعة الثانية – المرجع السابق – ص٢٤

٤٥ – حسن يوسف – المرجع السابق – ص١٤٦.

مارس ١٩٤٣ وقد ورد بها: حضر إلى الديوان مكرم عبيد باشا ومعه أعضاء الكتلة الوفدية المستقلة، وإلتمس بعد مقابلة رئيس الديوان أن يرفع عريضة مكتوبة بخط اليد [كان البروتوكول لا يسمح بتقديم أية عرائض مطبوعة أو مكتوبة بالآلة الكاتبة إلى الملك] وموقعاً عليها منه إلى المقام السامى. وأطلق على العريضة «الكتاب الأسود عن العهد الأسود» ويظهر أن العريضة [حوالى ٣٢٠ صفحة] قد طبع منها عدة نسخ ووزعت فى الخفاءعلى مصر والاقاليم،

وقد إختتمت بنداء إلى جلالة الملك لإنقاذ البلاد بإقالة الوزارة الحاضرة، وإلغاء أعمالها غير الدستورية، وتعيين هيئة قانونية مستقله لفحص جميع الاعمال غير الشرعية المنسوبة إلى الحكومة فى ظل النظام الحاضر»[٤٥].

ويقول حسن يوسف «كان هذا هو التقديم لعريضة مكرم باشا بيد أن القصة لها مقدمات إستغرقت عدة أشهر، وجرت بشأنها مقابلات ومناورات للتخلص من وزارة النحاس باشا الأمر الذى رفضه الانجليز بحزم»

ثم «فى ٦ ابريل ذهب حسنين باشا إلى السفير البريطانى، وحدثه بشأن الكتاب الاسود معرباً عن رأيه بأن البيانات المدعمة بالوثائق الملحقة بالعريضة تكفى للحكم على رئيس الوزراء . ولكن السفير صمم على أنه لا سبيل إلا إما إحالة الامر إلى القضاء، أو مناقشتها بالطريقة الدستورية فى البرلمان» [٤٦] وهكذا أسقط فى يد الملك، فبعد كل هذا التدبير فإن الأمر يعود مرة أخرى إلى الاغلبية الوفدية في البرلمان. والحقيقة ان مطالعة الكتاب الاسود تكشف عن ضآلة الاخطاء المقول بإرتكابها، وتفاهة ما قيل أنه استغلال للنفوذ. وهكذا كان الضجيج الذى صاحب الكتاب الاسود أكبر بكثير جداً من النص المكتوب، أو الوثائق المقدمة . لكن الكتاب بما صاحبه من صخب وتهليل إعلامى ومساندة ملكية قد نجح فى إثارة دخان ما علي مسلك الحكومة النحاسية.

ونعود إلى حسن يوسف باشا «سلمنى حسنين باشا النسخة الاصلية من عريضة مكرم باشا يوم ٢٩ مارس، وإحتفظت بها في مكتبى إلى يوم ١٠ ابريل [كان الكتاب الاسود يجرى توزيعه سراً منذ يوم ٣١ مارس] وفي هذا اليوم أعددنا كتاباً بإحالة العريضة إلى رئيس الحكومة، متضمناً أهميتها لأن مقدمها عضو فى البرلمان القائم، ورئيس لحزب الكتلة الوفدية، وكان وزيراً للماليه عدة مرات، كما كان نقيبا للمحامين عدة مرات. وكلفنى حسنين باشا بتسليم كتاب الديوان والعريضة إلى رئيس الحكومة. وإثباتاً لقيامى بهذه المهمة دونت في مفكرتى عن يوم ١٠ أبريل ما يلى «بأمر من معالى رئيس الديوان إتصلت بمنزل النحاس باشا، فأجابنى السكرتير ميشيل ساويرس، وأخبرته بأن عندى رسالة عاجلة من رئيس الديوان إلى رئيس الحكومة، ولذا

٤٦ - حسن يوسف - المرجع السابق - ص١٤٤.
٤٧ - المرجع السابق - ص١٤٣.
٤٨ - المرجع السابق.
٤٩ - الاهرام - البلاغ - المصرى ٢٢ ابريل ١٩٤٣.

أطلب موعداً لتقديمها. وسأل إلى متى سأكون بالمكتب فقلت حتى الثامنة والنصف. وإلى حوالى منتصف التاسعة لم يتصل بى ميشيل، [لعل هذا يوضح بما فيه الكفاية كيف كان النحاس يتعامل مع القصر، وكيف كان يترفع على رجاله، وبطبيعة الحال كان النحاس يعرف الهدف من الزيارة، فالكتاب كان قد وزع على الكثيرين]، وبعد منتصف التاسعة عاودت الاتصال بميشيل فقيل لى تفضل»[٤٧]

.. ورد النحاس الهجوم بهجوم مباغت، فأوعز إلي النواب والشيوخ بتقديم أسئلة وطلبات إحاطة حول إتهامات مكرم. وتقدم ٤٠ نائبا باسئلة عن الموضوع. وخصصت جلسه ٢١ ابريل للرد على الأسئلة[٤٨].

رد النحاس على الأسئلة مفنداً ما ورد فى الكتاب الاسود من إتهامات وموجها هجوما شديداً مكرم عبيد.[٤٩]وشعر مكرم عبيد أن الامور ستفلت من بين يديه، وأن المجلس سيمنح الحكومة ثقته، فقدم إستجواباً يوم ١٧ مايو. وحتى حسن يوسف رجل الديوان الملكى يقول ان مكرم عبيد كشف أوراقه أمام الجميع «عندما طلب تأجيل مناقشة الاستجواب يوماً واحداً لكى يحصل على بعض المستندات من الديوان الملكى»[٥٠]. «وتكلم مكرم عبيد ثلاثة أيام كاملة أمام البرلمان وأدلت الحكومة ببيانها وإنتهى الامر بموافقة ١٧٦ نائباً علي بيان الحكومة وإمتناع عشره عن التصويت [هم الوزراء] وقد غابت المعارضة عن جلسة التصويت وتقرر الانتقال لجدول الأعمال»[٥١]

ولكن ماذا قال مكرم فى عريضته للملك؟

«مولاى صاحب الجلالة

أتشرف بإسم الكتلة الوفدية المستقلة بأن أرفع إلى مقامكم السامى أحر ما تنطوى عليه أفئدتنا، بل وتعتز به مصريتنا من شعائر الولاء لعرشكم والوفاء لشخصكم » وبعد فيض من المديح المبالغ فيه « ما أحوجنا إلى مستقر كمستقر ملكك الأمين تطمئن فيه الأمة إلى مصيرها وترجع إلى ضميرها».

ثم..« يا صاحب الجلاله.

يدفعنا الواجب المرير، وهل من واجب أمر وأقسى من ذلك الذي يضطر الانسان إلى يقتطع لصالح المجموع قطعة من نفسه، ولصالح اليوم والغد بضعة من أمسه. يدفعنا الواجب العام إلى أن نعرض على جلالتكم مساوئ الحكم الحاضر والقائمين به من رجالة. وماكنا علم الله لنجد من أنفسنا دافعاً ضد قوم كانوا مناً وكنا منهم، لولا أن أداة الحكم فى البلاد قد فسدت على أيديهم إلى مدى بعيد، يكاد يبعث على اليأس من علاجها»

اما فى الختام «ها نحن أولاء وقد تبينا خطورة الحال، وسوء المآل، نهرع إلى ملاذ العرش باسم هذا الشعب

٥٠ – حسن يوسف – المرجع السابق – ص١٤٨.
٥١ – مجلس النواب – مضابط جلسات ٢١ابريل وحتى ٢٣ مايو ١٩٤٣.
٥٢ – مكرم عبيد باشا – الكتاب الاسود – المرجع السابق – ص٢٦٨.

الأمين. راجين داعين أن يأخذ الله بيدك لتأخذ بيده، وأن يحفظك زخراً ليومه وغده، فترفع عنه ما يلقى من شقاء وعناء، وتعيد الأمور إلى نصابها، فترد الحقوق إلى أصحابها، حتى يعرف المصريون مرة أخرى ماكادوا ينسونه على يد هذه الوزارة من معانى الحكم العادل، وحرية الرأى، ونزاهة اليد والنفس، ويدركوا ما كادوا يفقدونه من معانى الكرامة الوطنية والشخصية، وإلتزام الحدود، وحفظ الكرامات، ورعاية الحرمات. وليس تحقيق ذلك على حكمة جلالتكم بعزيز»(٥٢)

هذه مقدمة الكتاب، وهذه خاتمته. فماذا بعد كل هذه الكلمات الضخمة والاتهامات المبالغ فيها؟ ماذا فى الكتاب الأسود نفسه؟ أكاد أقول لاشئ. هذا رأيى الشخصى بعد أن طالعت الكتاب الأسود بتدقيق شديد.

ولكن لنترك حسن باشا يوسف وهو أحد رجال الديوان الملكى، وهو بطبيعة الحال لم يكن منحازاً للنحاس لكى يقدم لنا تقييماً واقعياً لما جاء في الكتاب الأسود «إشتمل الكتاب على سبعة أبواب تضمنت نحو مائة مسألة أغلبها أصغر من أن يذكر . فيما عدا خمسة إتهامات أوسته تستحق التسجيل إلا أن مكرم باشا قد قصر جهده عن تأييدها بما يثبت صحتها».

وقد جمع النحاس باشا إجابات الحكومة في كتاب أطلق عليه الكتاب الابيض وقدمه إلى رئيس الديوان رداً على عريضة مكرم باشا، وإعتبرت الأزمة منتهية . أو بالدقة مؤجلة إلى حين.

وهكذا فإن مكرم عبيد باشا لم يفعل بالكتاب الاسود سوى أنه أحرق أصابعه وهو يلتقط الكستناء لصالح القصر من أتون نار ملتهبة.

المرجع

* كتب

- أحمد قاسم جوده - المكرميات.

- جلال الدين الحمامصى - معركة نزاهة الحكم - فبراير ١٩٤٢ - يوليو ١٩٥٢.

- چورچى مهنا - سر نجاح المجاهد الكبير مكرم عبيد .

- حسن يوسف - مذكرات حسن يوسف - القصر ودورة في السياسة المصرية ١٩٢٢ - ١٩٥٢.

- د. رفعت السعيد - مصطفى النحاس، السياسى ، الزعيم ، المناضل.

- د. رفعت السعيد - الليبرالية المصرية، المثقفون - حزب الوفد.

- عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة - جـ٢.

- على صالح عيسى السودانى - أسرار السياسة المصرية والدكتور محجوب ثابت.

- ماريوس كامل ديب -السياسة الحزبية في مصر - الوفد وخصومه ١٩١٩ - ١٩٣٩.

- محمد زكى مجاهد - الاعلام الشرقية.

- مصطفى النحاس (مذكرات) - ربع قرن من الساسة المصرية ١٩١٩ - ١٩٣٩.

- مكرم عبيد باشا - الكتاب الاسود.

- منى مكرم عبيد - مكرم عبيد ١٨٨٩ - ١٩٨٩.

* وثائق

- مجلس النواب . مضابط ١٩٣٦.

- مجلس النواب . مضابط الفترة من ٢١ ابريل ١٩٤٣وحتى ٢٣ مايو ١٩٤٣.

- وزارة الخارجية البريطانية - المتحف البريطانى - ملف ٤٠٧ للاعوام ١٩٢٧ - ١٩٤٣.

* دوريات

- الاهرام - ١٩٤٢ - ١٩٤٣

- البلاغ - ١٩٤٢ - ١٩٤٣

- المقطم - ١٩٣٢

- كوكب الشرق - ١٩٣٥.

International Affairs, xv. May 1936 - Gibb, H.A.R. - The Situation in Egypt.

حسن البنا

من تلاعب بمن؟

القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا.

فى بداية القرن العشرين كانت مصر التى قال عنها كرومر أنها «تذوب شوقاً إلى الثورة» تتثاءب، وتتلفت باحثة عن طريق.

وكانت حيرتها وحيرة مثقفيها تتوزع بين دعاوى للتغريب بإعتبار أن التماثل مع الغرب هو السبيل للتقدم، هذا التقدم الذى يجب أن يمضى وئيداً وبلا تعجل، حتى ينضج، وتنضج معه وفى إطاره إمكانية المطالبة لمصر باستقلالها، وبين مجموعة من «الأفندية» أبناء الطبقة الوسطى أو بالدقة الفئات الدنيا منها، والذين طالبوا لمصر باستقلالها الفورى رافعين شعار «مصر للمصريين» فى مواجهة دعاة الالتصاق بالخلافة العثمانية متصورين أن «تضييع الخلافة إضاعة للاسلام» وان مصر ليست ولا يجب أن تكون للمصريين وإنما للمسلمين.

ولكن شعار «مصر للمصريين» كان يمضى قدما. فالخلافة العثمانية تتهاوى، والتحكم التركى المغلف بعباءة الخليفة «أمير المؤمنين، حامى حمى الاسلام، خاقان البرين والبحرين» يذبل، ينهار، ويرحل، ويحل محله فى الارض المصرية إحتلال بريطانى غاشم.

وفيما تتهاوى الخلافة التركية، تنمو مطامع وشهوات تحاول أن تقتنص «الخلافة» للملك فؤاد، ومن جديد تثار قضية الخلافة، وتصبح محل تنازع فكرى لعل أكثره جاء عبر معركة كتاب «الاسلام وأصول الحكم».

وبالتوازى مع هذه المعركة الفكرية الضارية التى إشتبكت فيها فئتان تتنازعان تحديد المسار المصرى الذى كان دعاة «مصر للمصرين» قد عززوا مواقعهم فيه، مؤكدين على قيام دوله مدنية علمانية. [علمانية بمعنى أنها ليست دولة دينية، وأنها دولة لجميع مواطنيها، ومهما إختلفت معتقداتهم الدينية، تتعامل معهم على قدم المساواة.] نقول بالتوازى مع هذه المعركة كانت الازمة الاقتصادية العالمية التى وضعت مجمل النظام الرأسمالى العالمى فى مأزق خطير.

وفيما كانت الرأسمالية تعانى، والدولة الاشتراكية الوحيدة محاصرة ومغلفة هى الاخرى بمعاناة شديدة تبدى الأمر وكأنه من الضرورى أن تبحث الانسانية على مسلك جديد تشق طريقها عبره.

وكانت الفاشية (ايطاليا) والنازية (المانيا) وكانت محالاوت تقليدها محلياً(مصر الفتاة). وكان هناك طريق آخر ربما كان أول من أشعل فتيله هو الاستاذ حسن البنا، طريق بناء دولة دينية، فإذا كانت النظريات الدنيوية قد ثبت فشلها فلم لا نجرب تعاليم الدين؟ أو هكذا فسر البنا دعوته.

* * *

ولكن من هو حسن البنا؟

الاسم: حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى.

تاريخ الميلاد: أكتوبر ١٩٠٦.

محل الميلاد: المحموديه – بحيره.

مهنه الوالد: مأذون الناحية وإمام مسجد القرية، وقد مارس أيضا مهنة إصلاح الساعات، ومن هنا جاء لقب «الساعاتى».

الاخوه: خمسه، وحسن هو الأكبر بينهم.

وإبتداءً نلاحظ أن كل من تحدث عن طفولة حسن البنا حرص على يضفى عليها هالات تقترب به من القداسة ، وتضفى عليه مسحة من التميز.. وقد أتى ذلك من حسن البنا نفسه ووالده، ومريدوه، ممن كتبوا عن أيامه الاولى

وعلى أيه حال فإن كانت هذه الهالات صحيحه، أو كانت مبالغاً فيها، أو هى حتى مخترعة فإنها تشى بشئ ما يحيط بالشيخ حسن البنا، أو حاول على الاقل هو وأتباعه أن يحيطوه به.

الأب يروى كيف سقط الطفل «حسن» فى ملطم للمونه، وكانت وفاته محققة، ولكن «ينجيك الله يا ولدى لأمر يدخرك له » وقد «إستيقظت أمه وهو طفل لتجده نائما وبجواره ترقد فى هدوء أفعى ضخمه لم تمسسه بسوء» ، «وجمح به فرس بما يؤدى لهلاك أى شخص لكنه نجا من الموت» .. الخ

وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كتاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهرى متشدد هو الشيخ محمد زهران.

لكن الطفل غير عادى، أو يتعين أن يبدو كذلك فيما هو محكيٌّ عنه ، فالطفل إبن الثامنه لا يقبل بوجود تمثال لامرأة شبة عارية فوق أحد زوارق النهر فى قريته فيلجأ إلى البوليس» [وهنا لابد من علامه إستفهام تسأل عن مقدرته فى هذه السن، وأي بوليس فى قرية صغيرة فى مطلع القرن الماضى؟] المهم يلجأ الطفل إلى البوليس «ويصمم على إزاله التمثال، وينجح فى ذلك»(١)

وفى الثانية عشرة ينتقل حسن البنا إلي المدرسة الابتدائية، حيث إنضم إلى جماعة مدرسية رائدها أحد المدرسين المتدينين «جمعيه السلوك الاجتماعى» وهى جمعية إستهدفت ترويض نفوس أعضائها، ودفعهم للتحلى بالاخلاق الحميدة وتعاليم الدين عامة..وكانت الغرامات المالية المرهقة لتلاميذ فقراء هى سلاح الجمعية فى إرغام أعضائها على الالتزام بتعاليمها.

وسريعا ما يصبح إبن الثانيه عشره، رئيساً لهذه الجمعيه، لكنه سرعان ما يكتشف أنها لا تفى بطموحه الدينى، وتطلعاته الأكثر شمولاً.. فيؤسس وهو فى هذه السن [وهنا علامه إستفهام أخرى] جمعية جديدة أسميت «جماعة النهى عن المنكر» كانت تستهدف [منذ هذا السن المبكر] إرهاب السكان وإرغامهم على الالتزام بتعاليم الدين عن طريق إرسال خطابات تهديد إلى من ترى أنهم لا يلتزمون بهذه التعاليم.

---

١ – المصور – ٢٩ – ٨ – ١٩٥٢ مقال بقلم [والد حسن البنا] الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، وقد أورد فيه العديد من الروايات المماثلة.

ولكن الأمر لا يستمر طويلا، ويصعد الصبى إلى سن الثالثة عشرة ومعها ينتمى إلى جماعة إسمها «إخوان الحصافيه» وهى جمعية صوفية، جذبت الفتى إلى حلقات الذكر حيث وقف يهتز فى هذه الحلقات وسط رجال يكبرونه سناً.

وفى حلقات الذكر يلتقى بشريكه الأول فى كل ما فعل فيما بعد، ثم خصمه اللدود فيما بعد أيضا.. أحمد السكرى. وإكتشف الاثنان معاً أن «التطوح» فى حلقات الذكر ليس بكاف لطموحهم الدينى، ومرة أخرى يؤسس التلميذان جمعية جديدة هى «جمعية الحصافيه» ظلت تعتبر نفسها إمتداداً للجماعة الكبيره «إخوان الحصافية» لكنها تتميز عنها بالعمل الجدى المباشر، مستهدفة الحفاظ على تعاليم الدين، ومواجهة موجة التبشير المريبة التى تسللت إلى مصر فى ذلك الحين، مثيرة أو مستثيره مشاعر العديد من المسلمين. ومرة أخرى يترأس الفتي إبن الثالثه عشره جمعية ذات طابع دينى وتستهدف العمل المباشر لتحقيق أهدافها.

هما مجرد عامان تنقل فيهما الفتي سريعا من «جماعه السلوك الاجتماعى» الى «النهى عن المنكر» عبر خطابات تهديد للمخالفين، ثم الي جماعه صوفيه ومنها إلى جماعه للعمل المباشر.

وعام آخر ويصبح الفتى طالباً بمدرسة المعلمين الأوليه في دمنهور حيث ينغمس إلي مدى أعمق فى نشاطه الدينى، ويرتاد حلقات ذكر الحصافيين ليصبح فى عام ١٩٢٢عضواً عاملا . وأخذ العهد على شيخهم.

ويجهر الفتي بتميزه الدينى عن تلاميذ مدرسته، فيرتدى لبعض الوقت عباءة بيضاء وعمامة ذات ذؤابة وهو زى الحصافيين المتشددين، لكنه لا يلبث ان يعود إلى زيه العادى بعد حين.

وخلال قراءاته الدينيه إصطدم الفتى بأول عقبة حقيقية. فقد طالع كتاب أبو حامد الغزالى «إحياء علوم الدين» حيث صدمته مواقف الغزالى التى تقول ان التعليم [بالنسبة لغير الفقهاء] يجب أن يقتصر علي ما هو ضرورى «لتحقيق الواجبات الدينية وإكتساب الرزق». ويتوقف الفتى فى حيرة من أمره، هل يواصل تعليمه مخالفاً رؤيه الامام الغزالي، أم يتوقف عن مواصلة التعليم؟

لكنه يغلب المصلحة، ويواصل التعليم وينجز دراسته فى مدرسة المعلمين الاوليه، التى أسلمته بدورها إلى «دار العلوم» ليلتحق بها عام ١٩٢٣.

هكذا يصل الفتى الذي عمد نفسه، أو عمده مريدوه شيخاً عليهم منذ طفولته، يصل الى القاهرة .. وأية قاهرة، إنها قاهرة العشرينات التي كانت تموج بصراعات حزبية، وموجات ليبرالية، ونزعات علمانية، وكانت الثورة الكماليه فى تركيا تلهم الكثيرين بالمزيد من الشجاعة فى نزعاتهم التجديدية والليبرالية والعقلانية. ورأى الفتى الشيخ فى ذلك كله إضعافاً لشأن الدين. جفل الشاب، وإنتحى هو ومن والاه من أصدقائه جانباً، وإغترب عن حياة المدينة الصاخبة. ويسجل حسن البنا هذه الفترة قائلا.. «والله وحده يعلم كم أمضينا من ليال لبحث

حال الامة، نحلل العلة، ونفكر في وسائل العلاج الممكنة ، ولقد بلغ بنا القلق درجه أوصلتنا إلى حد البكاء»[٢]

إنها الغربة التى تقود الفتى من جديد إلى الصوفية، فيعود إلى ولائه «لاخوان الحصافيه» وينصت طويلا إلى محاضرات «جمعيه مكارم الاخلاق الاسلامية».

وهنا تبدأ القناعة الحقيقية لحسن البنا فى تبلورها، لقد إكتشف أن «تطوحه» فى حلقات الذكر ، وإنصاته إلى محاضرات جمعية مكارم الاخلاق.. لا تغير شيئا مما يجرى حوله فى هذه المدينة الصاخبة، وأيقن حسن البنا أن «المسجد وحده لا يكفى، فلابد من رجال يهبون حياتهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وكون مع عدد من زملائه «جماعة» يمكن إعتبارها النواة الاولى لجماعة «الاخوان المسلمين»، كانوا يخطبون في المساجد والتجمعات الشعبية. وقد حدد البنا لنفسه ولجماعته هدفاً .. هو محاوله سد الهوة التى تفصل بين الانسان المنغمس فى هموم حياته اليومية، وبين صحيح الدين وتعاليمه، ومحاولة حث المسلم على أن يكيف حياته، وأن يخضعها فى كل تفاصيلها لهذه التعاليم.

لكن القاهرة لم تكن عبئاً فقط ، ففيها وجد المشوره والنصح ممن هم أكبر منه سناً، وأكثر خبرةً.

فتعرف فى المكتبة السلفية على مديرها محيى الدين الخطيب، وعن طريقه تعرف على الشيخ رشيد رضا وأحمد فريد وجدى وأحمد تيمور .. وجرت مناقشات عديدة حول كيفيه العمل من أجل الاسلام.

وإلتقى بالعديد من مشايخ الازهر فلم يعجبه منهم إستسلامهم أمام ما يجرى من أحداث، فما هو السبيل للتصدى لما يجرى حوله؟. ولم يجد الفتى إجابة شافية.. لا عند من قابلهم فى صحبه الشيخ محيى الدين الخطيب، ولا عند الموظفين الدينيين.

ويسجل حسن البنا حيرته وطموحه معا.. كتابةً. ففى السنه النهائيه بدار العلوم طُلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه «تحدث عن الآمال الكبيره التى تراودك بعد إتمام دراستك، وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال» قال حسن البنا فى إجابته «إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير السعادة للآخرين وبإسداء المشورة لهم» وقال فى مرارة «إننى أعتقد أن شعبى قد إبتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها، والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها، وتحت تأثير الحضارة الغربية.. والفلسفة المادية والتقاليد الافرنجية».

وحدد الشيخ طموحه بأن يكون ناصحاً ومعلماً، وأن يكرس نفسه لتعليم الاطفال نهاراً، وآبائهم ليلا.. ويختتم مقاله قائلا «هذا عهد بينى وبين ربى».

بهذه الروح ..وهذا المنطلق تخرج الطالب حسن أحمد عبد الرحمن البنا من دار العلوم عام ١٩٢٧، وعين

---

٢ – حسن البنا – رسالة المؤتمر الخامس . ص٧.

مدرساً إبتدائياً بمدينة الاسماعيلية.

وبهذا .. نصل إلى نقطه البدايه، الفتى.. أصبح مدرساً، وأصبح مدركاً لما يريد أن يفعل.وقرر أن يبدأ*

* * *

و كانت مصر قد أنجبت من إستطاع – ومنذ مطلع القرن – أن يوفق بين العلم والدين، بين العقل والايمان. وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده.الذى رفع لواء العقل، والمدنية والعلم مؤكداً، «أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولابد من إجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معاً حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الاوضاع الجديدة فى المدنية الحديثة مقتبسين منها ما يفيد وينفع، وإذا كان المسلمون لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة، فلابد لهم أن يتسلحوا بما يتسلح به غيرهم، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم»(٣)

ويبدأ الشيخ الامام محمد عبده معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذي يحاولون أن يفرضوه علي البشر فيقول «ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لاعلاهم يتناول بها أدناهم»

وكان محمد عبده مفتياً، ولكنه لم يقبع فى بيته منتظراً سائلى الافتاء ، بل تقدم فى عبقرية وشجاعة محاولا أن يرسى دعائم فهم جديد للعلاقة بين الدين ومتطلبات الحياة..وكانت الحياة تلح بأسئلة عدة عن مدى تحريم أو عدم تحريم كثير من مستحدثات العصر إبتداء من التصوير الفوتوغرافى إلى التأمين على الحياة، إلى النظام المصرفى الخ. ولقد رسم محمد عبده طريقاً جديداً يصعب أن نوفيه حقه من البحث بشكل جانبى وبتعجل، لكننا

---

* لمزيد من التفاصيل عن نشأة وحياة حسن البنا يمكن الرجوع إلى المصادر الآتية مع العلم بأنها تتضمن معلومات متقاربة نظراً لأنها تأخذ فى الاغلب عن مصدر واحد..

- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية.
- موسى إسحق الحسينى – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثة.
- مجلة الدعوة – [الأعداد الصادرة فى ذكرى وفاة حسن البنا] ١٣ – ٢ – ١٩٥١، ١٢ – ٢ – ١٩٥٢، –١٠–٢ –١٩٥٣، ١٦ – ٢ –١٩٥٤.
- المصور ٢٩ –٨ – ١٩٥٢، مقال أحمد عبد الرحمن البنا.
- أنور الجندى – قائد الدعوة: حياة رجل وتاريخ مدرسة.
- أحمد أنس الحجاجى – روح وريحان.
- محمد حبيب أحمد – نهضة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث.
- عبد الخبير الخولى – قائد الدعوه الاسلامية ، حسن البنا.
- Mitchel,R - The Society of muslim Brothers.
- Khaduri,M,-Political Trends in Arab World.

٣ – الاخبار – ٢٧ – ٢ –١٩٧٣– مقال للشيخ أحمد حسن الباقورى بعنوان «هذا الرجل لماذا يظل هدفاً للمهاجمين؟».

سنكتفى بعبارات لعلها تقدم صورة كافية عن مدى التقدم الذى أحرزته علاقة الدين بالحياة على يديه.

محمد عبده يقول « إن الاسلام لم يتعارض، ولا يمكن ان يتعارض مع العلم، فالعلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة». ويقول «إن سر تفوق أوربا يكمن فى تفوقها فى مضمار البحث العلمى، وإلى تقدم نظم التعليم فيها».

ورفض الاستاذ الامام مبدأ «التقليد» الذى دعى إليه السلفيون ومازالوا يدعون إليه، وقد أكد أن الاسلام لا يمكنه، أن يرسخ أقدامه عبر الزمان إذا ما إستمر معتمداً علي التقليد، وأكد «انه بدون إستخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين تحقيق أى تقدم أو تطور »

وتعالج فتاوى الاستاذ الامام الكثير من مشكلات العصر.. حتى مشكله الحجاب، إلى الحد الذى راجت فيه شائعات قويه أنه أسهم فى تحرير كتاب «تحرير المرأة» الذى أصدره صديقه الحميم قاسم أمين*

وإذ بلغ محمد عبده القمة، وإذ ينجح فى إسكات صوت المحافظين الرجعيين والسلفيين، إذ ينجح في إسكات ضجيج معركة مفتعلة ويلزم الجميع الصمت.. يرحل.

وبرحيله يخلو الميدان لدعاة الارتداد من جديد.

ويورد د. مجيد خضورى تفاصيل هامة عن معركة نشبت بين تلاميذ الاستاذ الامام .

ويقول «ان البعض من تلاميذ الامام قد حاول أن يطور تعاليمه ويصل بها الى نهايتها المنطقية، أي أن ينفى دور الاسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه. وكان هذا البعض يرى أن الاسلام عقيدة حية، ومن ثم يتعين لها أن تتطور بإستمرار، وان النهاية الحتمية لهذا التطور هى علمانية المجتمع الاسلامى».

ويقول خضورى « ان هذه الآراء قد رفضت بشده من جانب المحافظين من مريدى الاستاذ الامام وخاصة هؤلاء الذين كانوا – برغم ولائهم لشيخهم – يرون أنه قد قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان علي رأس هؤلاء المحافظين المتشددين الشيخ رشيد رضا».(٤)

ها هى معركة التجديد التي قادها الاستاذ الامام تحاصر.

---

* لمزيد من التفاصيل عن دور الاستاذ الامام محمد عبده فى تحديث نظرة الاسلام إلى العقل والحياه ومتطلباتها راجع:
- رشيد رضا – تاريخ الاستاذ الامام.
- د. رفعت السعيد – عمائم ليبرالية.

- Adams - Islam and Modrnism in Egypt.

- Khadduri,M, - Political Trends in Arab World.

4 - Khadduri - lbid - p 65.

ويطبق عليها الخصوم من ناحيتين.

- التقليديون والمحافظون السلفيون الذين طالما هاجمهم الامام وهاجموه.

- المحافظون من أتباع الامام من أمثال الشيخ رشيد رضا وتلاميذه.

وعلى يد رشيد رضا وتلاميذه تبدأ أخطر معارك الارتداد السلفى فى تاريخ مصر الحديث..

* * *

وقد خاض رشيد رضا معركه مزدوجه الاهداف ضد مشايخ الازهر ذوى النزعة السلفية فى التقليد، وضد دعاة التفرنج والتجديد، وكان يخوض المعركتين معا، وبنفس الحدة.

وفي كتاب «الخلافه أو الإمامه العظمى» يهاجم رشيد رضا الشيوخ «الذين إزوروا إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم، ودعاة التفرنج، ذلك انه من الجنون أن نسعى إلى إنتزاع مقومات الأمة الاسلامية الدينية والتاريخية، وإستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها»

ورويداً رويداً يتخلص رشيد رضا من تعاليم شيخه وإمامه، بل ويقترب كثيراً من معسكر خصوم الامام، ولا يلبث رشيد رضا أن يعلن أن الأمل والعمل والجهد يتركز فى شئ واحد هو « الخلافة الاسلامية فهي الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية»[٥]

بل إن «الدوله الاسلاميه الاصلية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر».[٦] ثم يواصل رضا تناقضه الحاد مع تعاليم الامام عندما يؤكد أن السيادة المطلقة فى الدولة الاسلامية «هى لأولى الامر الذين أمر الله بطاعتهم».[٧]

ويأتى حسن البنا فى هذا المناخ ليعلن «نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا».

فماذا كان حسن البنا يعنى عندما يقول «نحن سلفيون»؟ يفسر ألبرت حورانى الأمر قائلا « إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الانسان عن الماضى، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملا يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الاسلامي الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم».[٨]

.. وإذا كنا نقول أن الافغانى كان بداية سلم التجديد فى الاسلام وإن محمد عبده كان قمته، و رشيد رضا هو بداية الارتداد الحديث.فان حسن البنا ومن موقع متعال علي الجميع يقول « الافغانى كان يرى المشكلات

---

٥ - رشيد رضا - الخلافة أو الامامه العظمى - مطبعة المنار بمصر (١٣٤١هـ) - ص١١٦.

٦ - المرجع السابق - ص١٢٨.

٧ - رشيد رضا - كتاب الوحى - ص٢٣٩.

8 - Hourani Alpert - Arabic Thought in the Liberal age - P.80.

٩ - حسن البنا -مذكرات الدعوة والداعية - المرجع السابق - ص٥٨.

ويحذر منها، وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثاً» وهم جميعا «مصلحين دينيين وأخلاقيين يفتقدون الرؤية الاسلامية الشاملة»[٩]

بينما يتفوق أحد تلاميذ البنا على أستاذة فى عدم التواضع فيقول «الافغانى كان مجرد مؤذن، ورشيد رضا هو مجرد مؤرخ ..أما المرشد فهو «بنا»[١٠]

ويميز تلميذ آخر لحسن البنا شيخه على هؤلاء جميعاً معلناً أن دعوة حسن البنا تتميز عن غيرها «بأنها تعنى الجهاد والنضال والعمل، وانها ليست مجرد رساله فلسفية»[١١]

نحن إذن أمام حاله تصف أصحابها بأنهم سلفيون من أتباع رشيد رضا، بل هم أشد سلفيه من رشيد رضا، وهم أيضا ليسوا مجرد دعوة فلسفية بل جماعة جهاد ونضال وعمل.

وبهذا نقف علي عتبات «الاخوان المسلمين».

ففى هذه الاثناء تخرج الشيخ الشاب من دار العلوم، وعين مدرساً فى الاسماعيليه، وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبدأ العام الدراسى ، وتبدأ رحله الشيخ ليجتذب أنصاراً .. ومن سته من المريدين تأسست الشعبة الأولى لجماعة الاخوان. ويحدد الشيخ الشاب أسهم إتجاهه، فيقرر أن يتجه بدعوته إلى :

العلماء – مشايخ الطرق الصوفية – علية القوم – النوادى.[١٢]

وتجمع الرجال السته ليخاطبوا الشيخ فى تواضع، ويتباهى الشيخ بما قالوه إلى الدرجة التي دفعته إلى أن يسجله حرفياً فى مذكرات الدعوه والداعية «إنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين والأمه كما تعرفه أنت، وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك كل ما نملكه حتى نصبح فى حل من المسؤلية أمام الله، ولكى تصبح أنت مسؤلاً أمامه عما يجب أن نقوم به». [١٣]

* * *

وبدأت رحله جماعة الاخوان المسلمين..

* الاسم: قال حسن البنا لاتباعه «نحن إخوة فى الاسلام ومن ثم فنحن «الاخوان المسلمون»[١٤]

* تاريخ الميلاد: شهر ذى القعده عام ١٣٤٧ هجريه [ويلاحظ أن حسن البنا أورد التاريخ الميلادى المرادف له «مارس ١٩٢٨»، لكن روزنتال في مقال «الاخوان المسلمون فى مصر» المنشور فى مجله عالم الاسلام اكتوبر

---

١٠ – الدعوة – ٢٠ –٢ – ١٩٥١.

١١– أحمد أنس الحجاجي – الرجل الذى أشعل الثورة (١٩٥٢) – ص٤٣.

١٢ – حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – المرجع السابق– ص٢٢.

١٣ – المرجع السابق – ص٧٣.

١٤ – موسى إسحق الحسينى – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثه – ص١٧.

١٩٤٧ إكتشف من مقارنه التقويمين أن ذى القعدة ١٣٤٧ هـ يوافق إبريل – مايو ١٩٢٩. ونلاحظ أن الجماعه قد إحتفلت بعيد تأسيسها العاشر في يناير ١٩٢٩ لكنها عادت فاحتفلت بعيدها العشرين فى سبتمبر ١٩٤٨]

* الهيكل القيادى: مكتب الارشاد، ويعمل تحت إمره المرشد العام ، وهو بمثابة مجلس الشورى. لكن صالح عشماوى أحد قادة الجماعة يقول وهو يمتدح المرشد «عند أول عهدى بعضوية مكتب الارشاد ثار البحث هل الشورى في الاسلام ملزمه أم غير ملزمه؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الارشاد، أم إن المكتب هيئة إستشارية، له أن يأخذ برأيها أو يخالفه إن شاء ؟ وكان رأى المرشد أن الشورى غير ملزمه، وأن من حقه مخالفة رأى المكتب»[١٥] .. مره أخرى كتب عشماوى ذلك مادحاً وليس ناقداً.

* محل الميلاد: الاسماعيليه.

* الحاله الماليه: أول تبرع مالى تلقته الجماعه كان من شركه قناه السويس [الفرنسية]

وقد أكد حسن البنا ذلك وقال إن التبرع كان خمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير بمقياس هذا العصر[١٦] وعند حل الجماعة عام ١٩٤٨ إتضح انها كانت أغنى الجمعيات والاحزاب السياسية فى مصر.

* طبيعه الجماعه: حرص البنا على أن يضفى صبغة ضبابية علي الجماعة وألا يقدم تفسيراً واضحاً لأهدافها أو طبيعتها حتى يوائم بينها وبين تقلبات الاحوال.

قال البنا «أيها الاخوان: أنتم لستم جمعيه خيرية، ولا حزبا سياسياً، ولاهيئة موضوعية الأهداف محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسرى فى قلب الامه»[١٧] .. عباره مطاطه لا يمكن الامساك بأى من أطرافها

* البرنامج: لا يوجد..

سئل البنا عن البرنامج فقال «ولم البرنامج؟ إنه يفرقنا».. وإكتفى بعبارة عامة «القرآن دستورنا والرسول زعيمنا».

ولقد ظل البنا فى بداية الأمر ينكر أن لجماعته علاقه بالسياسه، لكنه ما أن قوى عود جماعته حتى أعلن على صفحات مجله النذير أن الجماعة سوف «تنتقل من دعوه الكلام وحده، إلى دعوه الكلام المصحوب بالنضال والاعمال» وتوجه إلى أتباعه متحدثا عن السياسيين جميعا قائلا «ستخاصمون هؤلاء جميعاً فى الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم».[١٨]

ولم يلبث البنا أن صارح الجميع بهدفه الاساسى، وهو أنه يطمح إلى الحكم ليقيم دولة دينية وقال «الاسلام

---

١٥ – الدعوة ١٢ – ٢ – ١٩٥٢ – مقال لصالح عشماوى.
١٦ – حسن البنا – مذكرات الدعوه والداعيه – ص٩٦.
١٧ – حسن البنا – بين الامس واليوم – ص٢١.
١٨ – النذير – العدد الاول – مايو ١٩٣٨ – الافتتاحية (بقلم حسن البنا).

الذى يؤمن به الاخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الارشاد .. والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول .. فالاسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء»[١٩]

وأيضا.. « الذين يقولون ان تعاليم الاسلام إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون.. فالاسلام عبادة وقيادة، ودين دولة، وروحانية وعمل، وصلاة وجهاد، ومصحف وسيف، لا ينفك أحدها عن الآخر»[٢٠]

وبغير ذلك لم يقل البنا. لم يقل ما موقف جماعته من مشكلات الحياة اليومية، ولا من متطلباتها، ولا من الجديد فيها.. فقط عموميات لا يمكن الامساك بشئ منها.

* العلامات المميزه:

تميزت جماعة الاخوان المسلمين عن غيرها من القوى السياسية المعاصرة بعلامتين مميزتين أساسيتين: البيعة والجهاز السرى.

أما عن البيعة فقد إستند فيها حسن البنا إلى حديثين شريفين الأول يقول «من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية» والثانى يقول «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن إستطاع، فإن جاء آخر ونازعه فإضربوا عنق الآخر».

وإستند أيضاً إلى أقوال أبو الاعلى المودودى «لا ينتخب للامارة إلامن كان المسلمون يثقون به، وبسيرته، وبطباعه، وبخلقه، فإذا إنتخبوه فهو ولى الأمر المطاع فى حكمه ولا يعصى له أمر ولا نهى».

ويقول إن الأمام أو الامير من حقه أن يملى رأيه حتى على الأغلبية «فالاسلام لا يجعل من كثرة الاصوات ميزاناً للحق والباطل، فإنه من الممكن فى نظر الاسلام أن يكون الرجل الفرد أصوب رأياً وأحد بصراً من سائر أعضاء المجلس»[٢١]

وقد بايع الاتباع إمامهم بيعة كاملة فى المنشط والمكره، وعاهدوه علي السمع والطاعه.

ولم يكن حسن البنا يخفى ذلك على الناس، فهو لم يكن يقبل منهم بأقل من السمع والطاعة، دون نقاش.

«يجب على الاخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبى أمر القائد فى أية ناحية، إن الدعوة تتطلب منا أن نكون

---

١٩ – حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص٢٨٣.

٢٠ – المرجع السابق – ص١٥١.

٢١ – ابو الأعلى المودودى – نظرية الاسلام السياسية – ص٢٩.

٢٢ – الاخوان المسلمون – (الاسبوعية). ٢٦ – ١٠ – ١٩٤٦.

٢٣ – حسن البنا – رسالة التعاليم.

جنوداً طائعين بقيادة موحدة، لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة، كل الطاعة في المنشط والمكره»[٢٢] وأيضا «يتعين على العضو الثقة بالقائد والاخلاص والسمع والطاعة في العسر واليسر»[٢٣]

ويصف البعض ولاء الاتباع قائلين «إن سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلقه وكاملة وتصل إلى درجة السحر».[٢٤] وتصف الأمر جريدة مصرية فتقول فى تهكم واضح «إذا عطس المرشد في القاهرة، قال له الاخوان فى أسوان يرحمكم الله».[٢٥] ولقد ترتب على البيعة بمفهوم البنا أنه ليس مسموحاً بالخلاف مع المرشد. بل إن كلمة «ليس مسموحا» هذه ليست أمراً معنوياً فحسب، وإنما كان العنف والارهاب المعلن والتباهى به سبيلا لفرضها.

فمنذ البداية دب الخلاف فى شعبة الاسماعيلية، وحاول البعض التمرد على البنا وأبلغوا النيابة العامة ضده فى مخالفات مالية، فكان رد فعل البنا عنيفاً، فقد جمع عدداً من أتباعه حيث «إعتدوا على المخالفين بالضرب».

ويعترف البنا بذلك ويتباهى به ويبرره بأن «المخالفين قد تلبسهم الشيطان وزين لهم ذلك، و أن من يشق عصا الجمع، فإضربوه بالسيف كائنا من كان» ويتأسف البنا على رفض البعض لضرب المخالفين وردعهم قائلا «إننا قد تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعه التى يسترونها بالفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية».[٢٦]

اما العلامة المميزة الثانية فهى الجهاز السرى الذي مارس عمليات إرهاب وقتل كانت البداية والنموذج والقدوة للارهاب المتأسلم. وقد تدرج الفكر التنظيمى لحسن البنا فى سلاسه ويسر ليصل إلى هذا الهدف غير المعلن، فبدأ «بالجوالة» بهدف تعويد الاخوان على النظام شبه العسكرى، وتدريبهم علي الطاعة التامة والتفانى المطلق. ثم كانت «كتائب أنصار الله» وهى مجموعات تضم كل منها أربعين عضواً من الاعضاء النشطين في الجماعة يلتقون معا ليله كل اسبوع حيث يقضون الليل فى العبادة والتلاوة.

والعيون اليقظة تتابع ذلك كله لتفرز منه من يصلحون للجهاز الخاص.

ولقد أنكر البنا طويلا أنه يوجد ثمة جهاز خاص، ونفى ذلك نفياً قاطعاً، بل لقد وصف القائمين بأعمال النسف والتفجير والقتل عام ٤٨ – ١٩٤٩ بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين». وظلت الجماعه علي إنكارها لوجود الجهاز الخاص حتى برغم إعترافات عشرات بل مئات من أعضائه أمام محاكم ماقبل ثوره يوليو ثم أمام محكمة الشعب، وقيل ساعتها أنها أكاذيب أمليت وترددت تحت وطأة التعذيب. ثم لا تلبث الحقيقة ان تظهر عندما يتنافس رجال الارهاب الاخوانى القدامى في كتابة مذكرات يحاول كل منهم أن ينسب إلى نفسه فيها

٢٤ – موسى اسحق الحسينى – المرجع السابق – ص٥٤.
٢٥ – نقلا عن: ابو الحسن الندوى – مذكرات سائح فى الشرق العربى – ص٢٦.
٢٦ – حسن البنا – مذكرات الدعوه والداعيه – المرجع السابق.

أكبر قدر من القتل والارهاب .. فكانت مذكرات صلاح شادى – أحمد عادل كمال – عبد المنعم عبد الرؤوف – محمود الصباغ. وقد إعترفوا جميعا بأعمال إرهابية بشكل مثير للدهشة، لأنهم تحدثوا في تباه وتمجيد للفعل الارهابى، مؤكدين إنتسابهم الى الجهاز السرى وإلتزامهم بصيغته واهدافه.

* * *

وقد ظل حسن البنا طوال عشر سنوات كامله ينكر أيه صفة سياسية لجماعته ويؤكد فى إلحاح انه لا علاقة له بالسياسة، ولكنه ما أن شعر بالقوه، وبضعف الآخرين حتى جاهر بدوره السياسى:

الدين شئ والسياسه غيره

دعوى نحاربها بكل سلاح

ثم ما لبث أن قال بصراحه «أستطيع أن أجهر بصراحة، بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً بعيد النظر فى شئون أمته مهتماً بها غيوراً عليها»[٢٧] لكن الامر لا يكون مستقيما أبداً مع الشيخ البنا. فهو يعود ليغمض القول «هل نحن طريقة صوفية، مؤسسة إجتماعية، حزب سياسى؟»

ويجيب على هذه الاسئلة بالنفى مؤكداً «نحن دعوة القرآن الحق الشامل..»[٢٨]

لكنه لا يلبث أن يعود ليؤكد «إن الاخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة ثقافية، شركه إقتصادية، فكرة إجتماعيه».[٢٩]

متى تستطيع أن تمسك بالزئبق؟ فالشيخ يعود لينفى ما قال «أيها الاخوان أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد،ولكنكم روح جديد ونور جديد، وصو ت داو»[٣٠]

ومع ذلك فإن أحداً لا ينكر أن الاخوان قد تداخلوا فى السياسية، وشاركوا فى غمارها مشاركة كاملة.

وحتى فى المبادئ الجوهرية كان الاخوان يتلاعبون تلاعب السياسيين غير المبدئيين.

فبعد أن يوجه البنا نقداً شديداً للدستور قائلا «إن فيه ما يراه الاخوان مبهماً غامضاً يدع مجالا واسعاً للتأويل والتفسير الذى تمليه الغايات والاهواء».[٣١] لكنه يعود فيتراجع تحت ضغط قيل أنه قد أتي من القصر الملكى ليعلن «إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن .. وإن ما نحتاج إلى تعديل منه يمكن أن

٢٧- الاخوان المسلمون – ١٦ – ٤ – ١٩٤٦ – حسن النبا مقال: الاسلام سياسه وحكم.
٢٨ – أنور الجندى – الاخوان المسلمون في ميزان الحق . ص١١.
٢٩ – المرجع السابق ص١٥.
٣٠ – المرجع السابق – ص٥١.
٣١ – حسن البنا – رسالة المؤتمر الخامس.
٣٢ – أنور الجندى – المرجع السابق – ص٦٢.

يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته».[٣٢]

ويؤكد «و ما كان لجماعة الاخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه، ما كان لها أن تفعل ذلك وهى جماعة مؤمنة مخلصة تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة، وأن الفتنة فى النار»[٣٣].

ولكن لعبة السياسه عند الشيخ إستمرت على هذا المنوال قول ونقيضه فى آن واحد. وإن كان الخط الثابت هو المناورة بين الجميع، والتلاعب بالجميع، غير أن الشيخ قد أدرك وإن متأخراً أن الجميع كانوا يتلاعبون به، بينما يتخيل هو انه يتلاعب بهم.

ولعبة السياسة عند الشيخ بلا مبادئ ولن نطيل وسنكتفى باشارات.

– شركة قناة السويس الاستعمارية قدمت له عوناً مالياً وقبله.

– الطاغية إسماعيل صدقى قدم له عوناً مادياً ومعنوياً كبيراً فى بداية نشأة الجماعة.

– على ماهر داهية القصر والموصوم بعلاقات مريبة خارجية كان الصديق الحميم للجماعة.

–عقد الاخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع خصيصاً للاحتفال باعتلاء «جلاله الملك العرش».

وقام الجوالة بدور المنظم في الاحتفالات الصاخبة بهذه المناسبة.[٣٤]

– عندما إختلف النحاس باشا مع الملك وخرج الوفديون فى مظاهرات تهتف «الشعب مع النحاس» فى مقابلها خرجت مظاهرات الاخوان إلى قصر عابدين تهتف « الله مع الملك».

– كتب أحد قادة البوليس تقريرا يقترح «أن تشجع الحكومة الجماعة وتعمل على تعميم فروعها فى البلاد حتى يكون فى ذلك أكبر خدمة للأمن والاصلاح» ويتباهى حسن البنا بذلك ويورده فى مذكراته.[٣٥]

– يقول ريتشارد ميتشل «منذ اكتوبر ١٩٤١ قامت علاقات بين البنا والانجليز»[٣٦]

وتؤكد جريده الاخوان «إن إتصالا قد تم مع الانجليز، وان الطرف الانجليزى قد أبدى إستعداده لتقديم عون مالى للجماعه، وتقول أن البنا قد رفض ذلك»[٣٧]

ولكن باحثاً آخر يؤكد إستناداً إلى ما أسماه مصدر إخوانى كان على علاقة بالسفارة البريطانيه «ان عونا

---

٣٣ – النذير – العدد ٣٣ – حسن البنا – مقال : الاخوان المسلمون والدستور المصرى.

34 -Mitchill,R.-The Society of muslim Brothrts - P16

٣٥ – حسن البنا – مذكرات الدعوه والداعية – ص٨٩.

36 - Mitchill - ibid.

٣٧ – الاخوان المسلمون – ٣١ – ٧ – ١٩٤٦

38 - Heyworth Dunne - Religious and Political Trends In Egypt .P41.

مالياً كبيراً قد قدم بالفعل، وخاصة فى غضون ١٩٤٧»[٣٨]

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة محيرة: يعترف البنا ان الطاغية اسماعيل صدقى قدم عرضاً بمعاونة مالية، وأن الانجليز قدموا ذات العرض، ويقول انه رفض، حسناً، ولكن لم لا نسأل أنفسنا لماذا هؤلاء بالذات يعرضون مساعدة الجماعة ؟

– وهل ننسى أحداث ١٩٤٦، وخروج الاخوان يهتفون للطاغية إسماعيل صدقى صائحين «وإذكر فى الكتاب إسماعيلا»؟

– وهل ننسى تأييد معاهدة صدقى – بيفن؟

ويورد شاهد محايد – صلاح الشاهد – الواقعة التالية «توهم صدقى أن للاخوان قاعدة شعبية ذات وزن فإستدعى المرشد بعد عودته من لندن بساعتين وأطلعه على مشروع إتفاقية صدقى – بيفن قبل أن يطلع عليه النقراشى وهيكل المشاركين له فى الحكم، وحصل على موافقته على المشروع، وعندما تصاعدت المظاهرات الشعبية ضد هذه الاتفاقية طلب صدقى باشا من المرشد أن يركب سيارة سليم زكى باشا مساعد الحكمدار المكشوفة ليعمل على تهدئه الجماهير، وإستجاب المرشد لطلب صدقى باشا»[٣٩]

وبهذا نكتفى فى مجال السياسه .. فكل الخطى متشابهه.

* * *

والعنف هو النتيجة المفترضة للخلط المتعمد بين الدين والفكر الدينى.. وبذرته الخبيثة موجوده منذ البدايات الأولى للجماعة..

فعندما أصدرت جماعة الاخوان مجلتها النذير، تعجل الشيخ عبد الرحمن الساعاتى[والدالمرشد العام حسن البنا] فى أن يجعلها نذيراً للجميع فكتب فى عددها الأول مقالاً عنوانه « إستعدوا يا جنود» يقول فيه « إستعدوا يا جنود ، وليأخذ كل منكم أهبته، ويعد سلاحه، ولا يلتفت منكم أحد، إمضوا إلى حيث تؤمرون» ثم يقول «خذوا هذه الأمه برفق فما أحوجها إلى العناية والتدليل، وصفوا لها الدواء فكم على ضفاف النيل من قلب يعانى وجسم عليل، إعكفوا على إعداده فى صيدليتكم، ولتقم على إعطائه فرقة الانقاذ منكم، فإذا الامه أبت فأوثقوا يديها بالقيود، وأثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة، وإن وجدتم فى جسمها عضواً خبيثاً فإقطعوه، أو سرطاناً خطيراً فأزيلوه .. إستعدوا ياجنود – فكثير من أبناء هذا الشعب فى آذانهم وقر، وفى عيونهم عمى».[٤٠]

---

٣٩ – صلاح الشاهد – ذكرياتى فى عهدين – ص٤٨.
٤٠ – النذير – أول المحرم – ١٣٥٧ هـ.
٤١ – النذير – رمضان – ١٣٥٧ هـ.

والعنف هنا مقصود لذاته بل هو السبيل الوحيد، فحسن البنا يقول: «وما كانت القوة إلا كالدواء المر الذى تُحمل عليه الانسانية العابثة المتهالكة حملا ليرد جماحها ويكسر جبروتها وطغيانها، وهكذا كانت نظرية السيف فى الاسلام. لم يكن السيف فى يد المسلم الا كالمشرط فى يد الجراح لحسم الداء الاجتماعى».(٤١)

بل انهم يعتبرون – وحتى أكثرهم إعتدالا – أن «القتل» سلاح فى العمل السياسى يمكن لآحاد الناس أن يوقعه متى إعتقد انه يقيم الحد. ويُسال الشيخ محمد الغزالى [أحد أكثر الاخوانيين إعتدالا] فى شهادته أمام المحكمة التى حاكمت قاتل «د.فرج فوده» ويجيب عبر الحوار التالى:

س – من الذى يملك إقامة الحد؟

جـ – المفروض أن جهاز القضاء هو الذى يقوم بهذه المهمه.

س – هل يبقى الحد على أصله من وجوب إقامته؟

جـ – حكم الله لا يلغيه أحد، والحد واجب الإيقاع.

س – ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الناس؟

جـ – يعتبر مفتئتا على السلطه، أدى ما ينبغى أن تقوم به السلطه.

س – هل هناك عقوبه للإفتئات على السلطه؟

ج – لا أذكر أية عقوبة فى الاسلام»(٤٢)

يقول هذا بقلب بارد لأن فرج فوده بالنسبه له هو النقيض و العدو، ناسياً الحديث الشريف « لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً» [أخرجه البخارى].

وناسياً روايه المقداد بن الاسود رضى الله عنه إذ قال: «قلت يا رسول الله: أرأيت إذ لقيت رجلا من الكفار فإقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف ثم لاذ منى بشجرة وقال: أسلمت لله، أأقتله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله: لا تقتله، فقلت : إنه قطع إحدى يدى ثم قال ذلك؟ فقال النبى: لا تقتله، فإن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته . أى مباح الدم» [أخرجه البخارى ومسلم وأبو دواد].

وكان فرج فوده يعارضهم بقلمه.. مجرد القلم ولم يقطع لهم يداً ولا أصبعاً، وكان فى كل يوم يقر بإسلامه، وبتمسكه بالاسلام. ونسى فضيلة الشيخ المعتدل قول أحمد بن حنبل «ومرتكب الكبيرة ليس بكافر، ولا هو في منزلة بين منزلتى الكفر والايمان، كما أنه ليس معفواً عنه، وإنما عليه أن يتوب ، وأمره إلى الله، فإن زعم أحد أنه كافر فقد زعم أن آدم كافر ، وأن إخوه يوسف حين كذبوا أباهم كفار. والحاصل أنه لا يكفر أحد من أهل التوحيد، وإن عمل الكبائر» ولسنا نعتقد أن فرج فوده بإنتقاده لافكار هؤلاء المتأسلمين قد إرتكب كبيرة أو

---

٤٢ – محضر أقوال الشيخ محمد الغزالى أمام محكمة أمن الدولة فى قضية اغتيال د. فرج فودة.

صغيرة، بل لعله كان الأقرب إلى صحيح الاسلام.

فإذا كانت هذه فتوى الأكثر إعتدالاً، فإن الاعضاء الآخرين كانوا أكثر صراحة .. وربما أكثر عنفاً.

وما من مجال لسرد كل الدعاوى الاخوانيه التى تقرر أن العنف والارهاب هو أساس الدعوة.. وجوهرها، فلقد يحتاج الأمر إلى مجلدات .. فقط أدعو القارئ إلى قراءة الكتب الآتية التى أصدرها قاده بارزون من الجماعه، بل لعلهم كانوا أبرز القادة الفعليين، فهم قادة الجهاز السرى الذى كرس الارهاب المتأسلم فى مصر.

– أحمد عادل كمال – النقط فوق الحروف .ويقول فيه: جماعة دون عنف يحميها .. تهريج.

– صلاح شادى – حصاد العمر [ويورد فى تفاخر وتباه عشرات مئات الوقائع عن إرتكاب أعمال إرهابية].

– عبد المنعم عبد الرؤوف – أرغمت فاروق على التنازل عن العرش [وفيه يؤكد أن الاخوان هم الذين حاولوا إغتيال عبد الناصر فى حادث المنشية ويورد تفاصيل الترتيبات].

– محمود عبد الحليم – الاخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ [وفيه يؤكد أن رئيس الجهاز السرى للاخوان عبد الرحمن السندى هو الذى دبر قتل نائبه سيد فايز ويقول:« وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن هذه الجريمه الأثيمه كانت بتدبير السندى»(٤٣)

وإذ يطالع القارئ هذه الكتب أو حتى واحداً منها سيجد فيضاً من المعلومات والأدله والاعترافات والاتهامات المتبادلة .. تكفى وتزيد لاقناعه بأن جماعة الاخوان كانت المصدر الأساسى للارهاب المتأسلم فى العصر الحديث.ولكن ليأذن لى القارئ أن نتوقف أمام كاتب إخوانى من قاده الجهاز السرى، نتوقف أمامه لأنه الأصرح والأوضح وربما الأفدح، إنه الاستاذ محمود الصباغ. ونقرأ: «يبدأ عضو الجهاز الخاص بالبيعه، يدخل إلى حجرة مطفأة الانوار، ويجلس على بساط في مواجهة أخ فى الاسلام مغطى جسده تماماً من قمة رأسه إلى أخمص قدمه براداء أبيض، ثم يخرج من جانبه مسدساً ويطلب من المبايع أن يتحسسه، وأن يتحسس المصحف الشريف ثم يقول له: فإن خنت العهد أو أفشيت السر، فسوف يؤدى ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك، ويكون مأواك جهنم وبئس المصير».(٤٤)

ولكن ما معنى «إخلاء سبيل الجماعة منك»؟ تأتى الاجابه فى صفحة أخرى عندما يورد الاخ الصباغ نصوص لائحة الجهاز الخاص [الجهاز السرى لجماعة الاخوان]م١٣: إن أيه خيانة، أو إفشاء سر بحسن قصد، أو بسوء قصد يعرض صاحبه للاعدام وإخلاء سبيل الجماعه منه، مهما كانت منزلته، ومهما تحصن

---

٤٣ – محمود عبد الحليم – الاخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ – جـ ٣ – ص٢٠٥.
٤٤ – محمود الصباغ – حقيقة التنظيم الخاص – ص١٣٢.
٤٥ – المرجع السابق – ص١٣٨.
٤٦ – المرجع السابق – ص٤٢٩.

بالوسائل، وإعتصم بالاسباب التى يراها كفيلة له بالحياة»[٤٥]

بل إنه يعطى لنفسه ولزملائه الحق فى القتل المباشر دون إذن من القيادة «إن أعضاء الجهاز يمتلكون – دون إذن من أحد – الحق فى إغتيال من يشاؤون من خصومهم السياسيين، فكلهم قارئ لسنه رسول الله فى إباحة إغتيال أعداء الله».[٤٦] فقط نلاحظ ان «خصومهم السياسيين» هم أعداء الله ويباح إغتيالهم.

بل إن الاستاذ الصباغ يغالى فيقول «إن قتل أعداء الله [أى الخصوم السياسيين للجماعة] غيله هو من شرائع الاسلام، ومن خدع الحرب فيها أن يسب المجاهد المسلمين وأن يضلل عدو الله بالكلام حتى يتمكن منه فيقتله»[٤٧]

فقط يبقى أن نشير إلى أن الاستاذ مصطفى مشهور مرشد الجماعة هو صاحب مقدمة هذا الكتاب.

ومادمنا فى إطار الحديث عن لائحة الجهاز الخاص وعن أساليبه، فلنطالع بعضاً من أوراقه التى تم ضبطها فى القضية الشهيرة المسماة «قضية سيارة الجيب» وقد أوردهاالاستاذ عصام حسونه الذى كان وكيل النيابه المحقق فى كتاب له. فورقه تعليمات صادرة من قيادة الجهاز لاعضائه تقول « إن كل من يحاول مناوأتهم ،أو الوقوف فى سبيلهم مهدر دمه، وان قاتلة مثاب على فعله» و «ان من سياستنا أن الاسلام يتجاوز عن قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة» و.. «إن من السياسيين من يجب إستئصاله وتطهير البلاد منه، فإن لم توجد سلطة شرعية تصدهم، فليتول ذلك من وضعوا أنفسهم للاسلام جنوداً، وأن الاسلام يتجاوز عن إحتمال قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة».[٤٨]

ومن أشكال العنف .. «الفتوى»، فالمفتى من أعضاء الجماعة يضع السم فى الشراب ويترك الآخرين ليتجرعوه. وكمثال نورد الفتوى التالية التى كانت سبباً فى موجه للاعتداء على الكنائس وإحراقها.

فى مجلة الدعوه [لسان حال الجماعه] وردت الفتوى التالية التى أفتى بها مفتى المجلة الشيخ محمد عبد الله الخطيب حول حكم بناء الكنائس فى ديار الاسلام.

«حكم بناء الكنائس فى ديار الاسلام على ثلاثة أقسام:

الأول: بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادى والعاشر من رمضان وحلوان وهذه البلاد وأمثالها لا يجوز فيها إحداث كنيسة ولا بيعة.

والثانى: ما فتحه المسلمون من البلاد بالقوه كالاسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا فهذه أيضا لا يجوز

---

٤٧ – المرجع السابق – ص١٣٨.

٤٨ – عصام حسونه – ٢٣ يوليو وعبد الناصر – ٤٦.

٤٩ – الدعوة – ديسمبر ١٩٨٠.

بناء هذه الأشياء [لاحظ كلمة هذه الاشياء] فيها، وبعض العلماء قال بوجوب الهدم لأنها بلاد مملوكه للمسلمين.

والثالث: ما فتح صلحاً بين المسلمين وبين سكانها، والمختار هو إبقاء ما وجد بها من كنائس وبيع علي ما هى عليه فى وقت الفتح، ومنع بناء وإعاده ما هدم منها،وواضح انه لا يجوز إحداث كنيسة فى دار الإسلام».[٤٩]

هذا هو الفكر الاخوانى، ولسنا نريد الخوض فى تفنيد هذا الرأى وتخطئته شرعياً، وعبر الممارسات الاسلامية على مدي التاريخ من عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وحتى الآن.، وانما فقط نشير إلى أن فتوى كهذه كانت أساساً لأن يقوم بعض الصبية الذين صدقوها وإلتزموا بها بالتعدى علي الكنائس ومحاوله إحراقها.

ولعل هذا يقودنا الى فكرة طالما نادينا بها وهى : أن الارهاب يبدأ فكراً.

* * *

.. ومنذ البدايات الأولى حاول الاستاذ حسن البنا – وإن بحذر – ان يضع اللبنات الاولى للمفارقة بين عضو الجماعة والمجتمع حكاما ومحكومين، وللمفاصلة التامة بينهما. بل ولتكفير المجتمع حكاماً ومحكومين. وإنكار ما يقوم عليه المجتمع من أسس دستورية وقانونية .

وفى رسالة التعاليم يحدد حسن البنا واجبات «الأخ المجاهد» وعددها ٣٨ واجبا، الواجب رقم ٢٥ منها يأمر العضو « أن تقاطع المحاكم الأهلية، وكل قضاء غير أسلامى، والأندية والصحف، والجماعات، والمدارس والهيئات التى تناهض فكرتك الاسلامية مقاطعة تامة»[٥٠] .. والبند رقم ٣٧ يأمره «أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة فكرتك»

وعلى نهجه سار الاستاذ عبد القادر عوده إذ قرر تكفير كل قائل بالقانون الوضعى [والغريب انه ظل وحتى آخر أيام حياته محامياً ويدير مكتباً كبيراً للمحاماة التى تعتمد وفقط على التحاكم إلى القانون الوضعى]..ويقول الاستاذ عوده «من الامثلة الظاهرة علي الكفر بالامتناع في عصرنا الحالى: الامتناع عن الحكم بالشريعة الاسلامية وتطبيق القوانين الوضعية بدلا منها» [٥١].

ويقول: «فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر عليه، فهو كافر قطعا».[٥٢] ويقول مفكر إخوانى آخر هو الاستاذ على جريشه «ولا خلاف فى جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل الشريعة. والقعود عن الجهاد تهلكة نهى الله عنها».[٥٣]

---

٥٠ – حسن البنا – رسالة التعاليم – ص١٢.
٥١ – عبد القادر عوده – التشريع الجنائى الاسلامي – جـ٢ – ص٧١٠.
٥٢ – المرجع السابق – ص٧٠٩.
٥٣ – د. على جريشة – أصول الشريعة الاسلامية – ص٤٩.

وغنى عن القول أن القول بتكفير كل من يقبل بالقانون الوضعى، هو تكفير للحكم والمجتمع والمحكومين، أما القعود عن الجهاد ضد هذا المجتمع فهو «تهلكه نهى الله عنها».

وهكذا و دون صعوبة إذن نكتشف أن جوهر فكرة التكفير ومن ثم «المفاصلة» مع المجتمع، والعنف ضده ، قديمة قدم الدعوة ذاتها، وأن الذى أرسي أساسها هو مؤسس الجماعة ذاته.. الاستاذ حسن البنا.

والذين يتصورون أن الاستاذ سيد قطب أستاذ «التكفير» والذى إنبثق من فكره كل دعاة الارهاب المحدثون [إلى درجة انهم يسمون بالقطبيين] كان شارداً عن خط الجماعة واهمون، هو فقط وضع الكلمات فى موضعها الواضح، ولم يتلاعب بالألفاظ كما فعل سابقوه.

وسيد قطب رجل لا يعرف المساومة. فيقول: «ان الاسلام لا يعرف إلا نوعين من المجتمعات: مجتمع إسلامى، ومجتمع جاهلى» والمجتمعات الجاهلية عند سيد قطب هى كل المجتمعات «الشيوعية والوثنيه واليهودية والمسيحية، والمجتمعات التى تزعم انها مسلمه».[٥٤]

وبشكل أوضح يقول: «يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى جميع المجتمعات القائمة على الارض».[٥٥]

وكما قلنا لا حل وسط فهو يقول: «فنحن وهذه الجاهلية علي مفرق الطريق فإما إسلام وإما جاهلية، وإن وظيفتنا الأولى هى إحلال التصورات والتقاليد الاسلامية فى مكان الجاهلية، ولن يكون هذا بمجاراة الجاهلية فى بعض الخطوات لأننا حين نسايرها خطوة، فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق».[٥٦]

وهو لا يعرف بإسلام المسلمين «إن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون وهم يحيون حياة الجاهلية، ليس هذا إسلاما، وليس هؤلاء مسلمين. والدعوة إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الأسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد».[٥٧] تأملوا «لتجعل منهم مسلمين من جديد». وهو لا يعتبر أن الاسلام قائم إلا فى حدود جماعته ومن ثم فهو يدعو إلى إعادة «إنشائه» قائلا «وينبغى ان يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس إعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم أولا إلى إعتناق العقيدة، حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون. فإذا دخل فى هذا الدين عصبة من الناس، فهذه العصبة

---

٥٤ – سيد قطب – معالم فى الطريق – ص١٠٦.
٥٥ – المرجع السابق – ص٨٤.
٥٦ – المرجع السابق – ص٨٥.
٥٧ – المرجع السابق – ص١٧٣.
٥٨ – المرجع السابق. ص٤٠
٥٩ – المرجع السابق – ص٥٨.
٦٠ – سيد قطب – فى ظلال القرآن –جـ١ – ص١١.
٦١ – سيد قطب – مقومات التصور الاسلامى – ٢٣.

هى التى يطلق عليها اسم المجتمع المسلم».(٥٨) وسيد قطب ينكر أية رابطة سوى رابطة الاسلام فهو لا يعترف بالوطن ولا بالوطنية «لا رابطة سوى العقيدة، ولا قبول لرابطة الجنس والارض واللون واللغة والوطن والمصالح الأرضية والحدود الأقليمية» «إن هى إلا أصنام تعبد من دون الله».(٥٩)

مـرة أخـرى انه رجل لا يعـرف المسـاومـة «لا حل وسط، ولا منهج بين بين.. إنما هناك حق وباطل، هدى وضلال، إسلام وجاهلية»(٦٠)

ومرة أخري هو يرفض كل المجتمعات «سواء كان إسمها حكم الفرد أو حكم الشعب، شيوعية أو رأسمالية، ديمقراطية أو ديكتاتورية، أو أتوقراطية أو ثيوقراطية»(٦١)

ما معنى ذلك كله؟ ما معنى تكفير المسلمين جميعا حكاماً ومحكومين؟ معناه ببساطة إنهم جميعا مرتدون. ثم الارهاب.

وهكذا فإن الارهاب يأتى منقاداً وبشكل طبيعى للفكرة الاولى الذى وضع بذرتها الاستاذ حسن البنا ومدها على إستقامتها الاستاذ سيد قطب.

ولعل وضوح وصراحة سيد قطب قد دفعت كثيراً من الاخوانيين المعتادين على «التقية» والممالأة ، والتلاعب بالكلمات إلى القول بأن سيد قطب قد تباعد عن فكر الجماعة. مستندين فى ذلك إلى كتاب «دعاة لاقضاة» الذي أصدره الاستاذ حسن الهضيبى [مرشد الاخوان آنذاك] وهو في السجن. ناسين أن الاستاذ الهضيبى كان كغيره من قادة الجماعة، يجاهر أحياناً بغير ما يعتقد، وملتجئاً إلى «التقية» ولنا على ذلك أدله عديده.

«أرسل الاستاذ الهضيبى من سجن طره الي الاخوان فى الواحات مؤكدا أن تفسير الاخ سيد قطب للقرآن هو الحق الذى لا يسع أى مسلم أن يقول بغيره».(٦٢)

ولقد يقول قائل – ولقد يكون – علي حق – أن هذه أقوال متهم قد أُجبر عليها تحت وطأة التعذيب.

فلنأت إلى شهادة أخرى، كتبت في الزمن السعيد زمن التهادن بين الاخوان والسادات.

الأخت زينب الغزالى تقول «إن فضيلة المرشد [الاستاذ الهضيبى] قد قرأ كتاب معالم فى الطريق، وأعاد قراءته قبل طبعه، ووافق عليه.. وقال أن هذا الكتاب قد حصر أمله كله فى سيد، وانه الأمل المرتجى للدعوة الآن»(٦٣)

---

٦٢ – محضر تحقيق النيابة فى القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ – أمن دوله عسكريه عليا – المتهم فيها سيد قطب وآخرون – محضر أقوال عزمى بكر محمود شافع.

٦٣ – زينب الغزالى – أيام من حياتى – ص٣٦.

٦٤ – صفوت منصور – المنهج الفكرى للعمل الاسلامى – الاخوان المسلمون – ص٩٣.

٦٥ – المرجع السابق – ص٩٨.

٦٦ – صلاح شادى – الشهيدان – حسن البنا وسيد قطب – ص٧٧.

وفى كتاب آخر أصدره واحد من مفكرى الجماعه [الاستاذ صفوت منصور] نقرأ «والاستاذ سيد قطب صاحب كتاب معالم فى الطريق يعد فى ميزان الرجال عماداً هائلا فى تجديد شباب الحركة الاسلامية، والإمتداد الفكرى والحركى لجماعة الاخوان المسلمين.(٦٤)

ويعود فيؤكد ان فكر الاستاذ سيد قطب «هو إمتداد لفكر جماعة الاخوان المسلمين، وتجديد لشبابها الفكرى والحركى».(٦٥)

وقائد إخوانى مبرز هو الاستاذ صلاح شادى يكتب كتاباً أسماه « الشهيدان – حسن البنا وسيد قطب» يقول فيه «لقد كان حسن البنا البذرة الصالحة للفكر الاسلامى، وكان سيد قطب الثمرة الناضجة لهذا الفكر».(٦٦)

* * *

والحقيقة ان حسن البنا قد وجد نفسه فى مأزق حقيقى عندما تعين ان يتحدث عن الموقف الاجتماعى لجماعته.

فهو يريد أن يكسب لجماعته جماهيرية وسط جموع الفقراء. لكنه لا يريد أن يفقد مساندة القصر وكبار الملاك فإتخذ موفقاً يمكن القول بأنه «وسط» وبأنه «مرن» وبأنه يفصل بين القول والممارسة الفعلية.

وإكتسب هذا الموقف مزيداً من المرونة أو بالدقة الغموض إذ رفض فى الواقع إعلان أي برنامج سياسى أو إقتصادى محدد وواضح وإكتفى بالعموميات مثل «القرآن دستورنا».

لكن واقع الحياة كان يفرض علي الجماعة أن تحدد موقفاً من مجمل البنية الاجتماعية والاقتصادية. فاضطرت الى ذلك وإتخذت من الوسطية والمرونة سبيلاً لتلافى أى إختيار واضح وصريح بين العمال وبين مستغليهم.

وسنحاول وبايجاز شديد تلمس الأسلوب الذى حددت به الجماعة ومفكروها «الموقف الفكرى» من القضية الاجتماعية ومن الطبقة العاملة.

يقول أحد مفكرى الجماعة الشيخ محمد الغزالى: أن الإسلام يطرح نظاما إقتصادياً يمكن تسميته بالنظام الوسيط» وهو لايتردد فى القول بأن مثل هذا النظام «قد يطبق بأشكال مختلفة باشراف الدولة على مصالح الشركات الكبرى إشرافاً مباشراً، وهو ما إعتبره وسطاً بين تعطيل مبدأ الملكية وبين إطلاقه».(٦٧)

بينما يقول مفكر آخر من مفكرى الجماعة هو سيد قطب «أن النظام الإسلامى ليس هو الرق وليس هو

---

67 - Wheellook, Kwith - New Egypt.(1960) - P3.

٦٨ – سيد قطب – فى ظلال القرآن – جـ ٣ ص١٠٧.
٦٩ – الشيخ محمد الغزالى – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – (١٩٥٢) – ص٦٨

الإقطاع وليس هو الشيوعية، أن النظام الإسلامى هو فقط النظام الأسلامى».[٦٨]

إن عبارة سيد قطب هذه نموذج دقيق لأسلوب عرض جماعة الإخوان لأفكارها خاصة فى المجال الاجتماعى فهى تكتفى بنفى صفات محددة دون أن توضح تحديداً ماذا تريد، لكننا نلاحظ أن قطب لم ينف صفة «الرأسمالية» عن النظام الإسلامى، ربما لأنهم كعادتهم لم يريدوا تصادماً مع الرأسمالية.. فالعبارة قيلت عام ١٩٥٣ حيث كان حكام يوليو ضد الإقطاع وضد الشيوعية لكنهم لم يتخذوا أى موقف ضدالرأسمالية.

وتحاول مجلة الدعوة أن تضفى ظلالاً غيبية علي موضوع الملكية ذاته «فالاسلام لا يعرف الملكية وإن كان يعرف الحيازة. إذ قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلى خالق واحد، وأنه وحده مالك الملك بما فيه من مادة وروح. فالإنسان ليس مالكاً أصيلاً لأى شئ لا لذاته أو جسده ولالزرع أو ضرع ولا أرض أو ماء أو هواء .. وإنما هو خليفة الله سبحانه في ملكه»[٦٩]

وإذا كانت «الملكية» لله وحده والإنسان مستخلف فيها: فإن الاستغلال ليس ملازما للملكية.

فالشيخ البهى الخولى الذى كلف باعداد البرنامج التثقيفى للجماعة يقول: «إن مقاومة الاستغلال لا تكون بالغاء الملكية بل بإقامة السلطة العادلة، أما الملكية ذاتها فليس من طبيعتها أن تبيح هذا العدوان، فقد يملك الأنسان ولا يظلم، وقد يملك ويكون محسناً كريماً. ومن ثم فالملكية ليست بحاجة إلي معالجة أو مقاومة، وإنما إلى تهذيب».[٧٠]

ووفق هذه المرتكزات الفكرية تقدم الجماعة أفكارها ومواقفها.

ويقول حسن البنا في رسالته المعنونة «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامى». «إن التفاوت عظيم، والبون شاسع، والفرق كبير بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع » وقد يتصور القارئ أن الجملة التالية ستكون دفاعاً عن العمال أو فقراء الفلاحين لكنها تأتى دفاعاً عن الطبقة الوسطى «فالطبقة المتوسطة تكاد أن تكون معدومة. والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليست إلا مجموعة من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين علي قاعدة بعض الضرر أهون من بعض»[٧١]

ويحدد البنا قواعد للنظام الاقتصادى فى الإسلام من بينها:

– إعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه.

---

٧٠ – البرنامج التثقيفى لجماعة الإخوان المسلمون – محاضرة التثقيف الاقتصادى إعداد البهى الخولى.

٧١ – حسن البنا – مجموعة الرسائل – ص٤٢٠.

٧٢ – نقلا عن : الدعوة – العدد الأول (١٩٥١).

73 - Beinin - and Lockman - Workers on the Nile - P.365.

٧٤ – المرجع السابق – ص٤٢٥.

- تقرير حرمة المال وإحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة.

ويستند البنا فى تأكيد تحريم مصادرة المال إلى الحديث النبوى «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله». ويمضى البناء قائلا: «لقد إمتدح الإسلام المال الصالح وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره وأشاد بمنزلة الغنى الشاكر الذى يستخدم ماله فى نفع الناس ورضاء الله»(٧٢)

ويشير أحد مؤرخى الجماعة إلى تعمدها الحديث الغامض عن مشاكل العمال وعن حلول هذه المشاكل فيقول:

«إلتزمت الجماعة بالفكر والمصطلحات الشمولية ولم تلجأ إلى التحليل الطبقى. لذلك فقد إقتصر إهتمامها بالقضايا العمالية على إظهار شعور الاستياء مما يعانيه العمال من الفقر والمرض وما يلاقونه من إضطهاد من جانب أصحاب الأعمال وإكتفت بالمطالبة بتحسين أحوالهم وتشغيل العاطلين منهم».(٧٣)

ويؤكد أحد الباحثين ان «الظروف الموضوعية للطبقة العاملة وتصرفات جماعة الإخوان المسلمين فى صفوف هذه الطبقة قد لعبت دوراً حاسماً فى فرض محدودية واضحة لدور الإسلام السياسى فى حركة العمال المصريين».

ويؤكد ذلك أيضا «ريتشارد ميتشل» قائلا.. أن عام ١٩٤٨ قد شهد تصفية شاملة لنفوذ الجماعة وسط العمال.(٧٤) لكن الإخوان وبرغم ذلك كانوا يمتلكون مقومات أخري لتحقيق تواجد ما فى صفوف العمال، فالإخوان جماعة غنية، حسنة التمويل، ومن ثم بدأت فى تأسيس العديد من المصانع التى حرصت ألا يعمل فيها إلا أعضاء فى الجماعة.. وفى سبتمبر ١٩٤٨ أسست الجماعة «مصنع الإخوان المسلمين للغزل والنسيج بشبرا الخيمة» ونظراً للأهمية البالغة لمنطقة شبرا الخيمة فقد تولى إدارة المصنع محمد شريف رئيس قسم العمال بالجماعة وكان المصنع يضم ٤٠ آلة و٦٠ عاملاً.(٧٥)

ولم يكن هذا المصنع وحده، ففى ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجماعة تمتلك الشركات التالية:

- شركة الإخوان للصحافة.
- شركة الإخوان للطباعة.
- شركة الإعلانات العربية.

---

75 - Beinin - ibid.

76 - Mitchell - ibid - P.280.

٧٧ - الإخوان المسلمون ١٣ / ٥ / ١٩٤٦.

78 - Beinin - ibid.

- شركة المعاملات الإسلامية.

- شركة العربية للمناجم والمحاجر.

- شركة التجارة والأشغال الهندسية.

- شركة التوكيلات التجارية بالسويس.

- شركة مزرعة العركى (٨٠٠ فدان)[٧٦]

وكان العاملون بهذه الشركات جميعاً يشكلون قاعدة مضمونة للجماعة. كما أن ثراء الجماعة قد مكنها من إعطاء مزايا للعمال الأعضاء فيها، وتؤكد جريدة الاخوان أن «فرع شبرا الخيمة فى قسم العمال بالجماعة كان يصرف للعمال المتعطلين من أعضاء الجماعة كامل مرتباتهم».[٧٧]

ولعل مما يثير الدهشة أن يؤكد نقابى يسارى وهو محمد متولى الشعراوى أحد قادة النشاط النقابى فى شركة مصر للغزل الرفيع بكفر الدوار «أنه في عام ١٩٤٨ وعندما بدأ نشاطه النقابى يتسبب فى تصادمه مع الشركة إنضم لجماعة الاخوان وسدد إشتراك شهرين كى يحصل على ضمانة مالية لمستقبله»[٧٨]

كذلك فقد إستخدمت الجماعة مختلف أشكال الضغط لضم العمال لصفوفها، وتنشر أحدى الصحف الوفدية «أن أحد رؤساء العمال فى شركة النيل بشبرا الخيمة وكان من الاخوان المسلمين حاول أن يضم أحدة قادة العمال للجماعة فلما رفض فصله من العمل، وهنا قام العمال بالاعتصام فى المصنع مطالبين بعودة زميلهم للعمل» . ويقرر القادة النقابيون فى شبرا الخيمة أنه فى أعقاب إسهام الإخوان فى إفشال الإضراب الكبير(١٩٤٦) بدأ أصحاب المصانع فى تعيين العديد من الاخوان كرؤساء للعمال ليضمنوا خصومتهم لاى توجه يسارى وسط العمال.. وقد مكن ذلك الجماعة من إستقطاب عدد محدود من العمال وأن كان قد أكسبها كراهية ونفوراً وسط الجموع العمالية.

ولعل أحد الادلة الهامة على ضعف النشاط العمالى للجماعة أن المذكرة التفسيرية للأمر العسكرى الصادر بحل الجماعة فى عام ١٩٤٨ تتحدث عن نشاط الجماعة تفصيلا فتشير إلى نشاطها وسط الطلبة والموظفين والفلاحين ولا إشارة واحدة للنشاط وسط العمال.. إن ثلاثة عشر بنداً تتضمنها المذكرة تفصيلا تحدد أنشطة الجماعة فى مختلف مناحى الحياة ولا إشارة واحدة للعمال.[٧٩]

ويفسر البعض ذلك بأن نشاط الجماعة وسط العمال كان دوماً فى خدمة أجهزة الأمن وبالتنسيق معها.

* * *

---

79 - Beinin - ibid P.379.

80 - Beinin - ibid.

٨١ - د. زكريا البيومى - الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية - (١٩٧٩) ص٣٠٤.

وبعد كل ذلك وفى يناير ١٩٤٨ أعلن البوليس أنه إكتشف بمحض الصدفة مجموعة من الشبان تتدرب سراً على السلاح فى منطقة جبل المقطم، وأنه بمداهمة المجموعة – التى قاومت لبعض الوقت – ضبط البوليس ١٦٥ قنبلة ومجموعات من الأسلحة.. وقال زعيم المجموعة سيد فايز (وكان إسمه جديداً تماماً على البوليس برغم أنه كان أحد القادة الأساسيين للجهاز السرى) «إن السلاح يجرى تجميعه من أجل فلسطين وأن الشباب يتدرب من أجل فلسطين» ، وقال «أنهم اشتروا السلاح من العرب (البدو) من أجل العرب (الفلسطنيين)»[٨٠] .. وتحت ضغوط ووساطات من الجماعة ومن مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى أفرج عن سيد فايز وزملائه.

لكن أنظار البوليس بدأت تتجه ناحية شباب الجماعة.

وتكون الخطوة الثانية فى ٢٢مارس ١٩٤٨ عندما يقتل إثنان من الإخوان المستشار أحمد بك الخازندار، وذلك بسبب إصداره حكماً قاسياً على عضو بالجماعة سبق أن أتهم بالهجوم على مجموعة من الجنود الإنجليز فى أحد الملاهى الليلية، ويكتشف البوليس الصلة بين الشابين و بين مجموعة المقطم، وبين جهاز سرى مسلح داخل جمعية الإخوان المسلمين. ويقبض لوقت قصير علي المرشد نفسه، ولكنه لا يلبث أن يفرج عنه لعدم توافر الأدلة.[٨١]

وإذا كان أعضاء الجماعة قد إستنكروا الحادث علنا (كعادتهم دوماً)، فلابد أن مشاعر مختلفة كانت تهتز فى داخلهم، فالجهاد حق، وهو واجب، والقتيل إرتكب جرماً فى نظرهم لأنه حكم بالسجن على شاب مسلم عضو بالجماعة لأنه هاجم مجموعة من الكفرة المحتلين أعداء الاسلام . ولعل مثل هذه المشاعر لم تكن جديدة علي مصر . فعلى أثر إنتشار موجة الاغتيالات وخاصة اغتيال أحمد ماهر، وأمين عثمان ، وغيرهما تحولت ساحات المحاكم كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى «إلى منابر لتمجيد القتل والجريمة»[٨٢]

ولم يكن هذا الحادث سوى مقدمة.

فقد كانت حرب فلسطين تشتعل ، وإذ أسهم الإخوان المسلمون فى إشعالها، فقد أسهموا أيضاً – وبقدر متزايد– فى إذكاء مشاعر عنصرية ضد اليهود المصريين، وحاولوا جهد طاقتهم تحويل المعركة من عرب ضد إستعمار وصهيونية، إلى مسلمين ضد يهود.

وكان طبيعياً أن يسهم الجهاز الخاص المدجج حتى أسنانه بالسلاح، والمستفز المشاعر، سواء بسبب تعثر مسيرة القتال وخيانة الحكومات العربية العميلة، أو بسبب القبض على «أخوة الجهاد» الذين قتلوا الخازندار . كان طبيعياً أن يسهم فى إذكاء نيران التعصب الدينى مستخدماً الديناميت.

---

٨٢ – عبد الرحمن الرافعى– فى أعقاب الثورة المصرية – جـ ٣ ، ص٢٦٧.
٨٣ – المصرى، ٢٤ – ١ – ١٩٤٨.
٨٤ – آخر ساعة، ٢٤ – ١١ – ١٩٤٨.

وفى ٢٠ يونيو ١٩٤٨ إشتعلت النيران في بعض منازل حارة اليهود، وفى ١٩ يوليو تم تفجير محلى شيكوريل وأركو وهما مملوكان لتجار من اليهود.

وإذ توقع الهدنة الأولى فى حرب فلسطين يستشعر الناس ريح الخيانة والتسليم، ويسرع الديناميت ليتكلم فى الداخل ضد اليهود المصريين، بعد أن أحبطت الجهود ضد الصهاينه في فلسطين.

ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من أغسطس هما أسبوعى الرعب بالقاهرة حيث تتوالى الانفجارات في ممتلكات اليهود وتهتز المرة تلو الأخرى شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون، وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزايون وجاتينيو وشركة الدلتا التجارية ومحطة ماركونى للتلغراف اللاسلكى.[٨٣] وفى ٢٢ سبتمبر دمرت عدة منازل في حارة اليهود ثم وقع إنفجار عنيف في مبني شركة الإعلانات الشرقية. [٨٤]

ولسنا بحاجة إلى القول بأن الضحايا كانوا كثيرين وأنهم جميعاً من الأبرياء.

وكانت أعين البوليس التى إستيقظت مؤخراً قد إكتشفت أحد أطراف الخيط، إذ ضبطت ترسانة سلاح ضخمة في عزبة بالإسماعيلية يمتلكها الشيخ محمد فرغلى قائد كتائب الإخوان في فلسطين.

وفي ١٥ نوفمبر ضبطت سيارة الجيب الشهيرة.

تقول مصادر البوليس أن ضبط السيارة تم مصادفة، ولو أن الكثيرين يستبعدون ذلك، وعلي أية حال فإن واقعة سيارة الجيب قد وضعت يد البوليس فى ضربة من ضربات الحظ على إثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السرى،وعلى وثائق وأرشيفات الجهاز بأكمله بما فيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه.[٨٥]

وكان البنا قد أمضى معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤدياً فريضة الحج، فما أن عاد حتى تعرض للقبض عليه بمقولة وجود دليل ضده فى سيارة الجيب المضبوطة، وبمقولة مسؤوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات.[٨٦]

---

٨٥ – المصرى ٢٠، ٢١، ٢٩ ، يوليو، ١ ، ٤ أغسطس ١٩٤٨.

86 - Resner,Lawrence - Eternal Stranger: The Filght of Modern jew From Bagdad to Casblanca,,New York (1951) P116.

وأيضاً قضايا الإخوان – قضية سيارة الجيب: الحيثيات ونص الحكم – دار الفكر الإسلامى – القاهرة (١٩٥١).

- Mitchell - ibid .P.64.

وخرج البنا من السجن ليبذل جهوداً لإيقاف عجلة الأحداث محاولاً إنقاذ الجماعة من الوقوع فريسة لنظام أصبح غير راض عنها، بل وراغب فى الخلاص منها.

لكن سرعة الأحداث كانت تفوق قدرة الشيخ علي الحركة. والشيخ الذى إعتاد المناورة بالسياسة والسياسيين وجد نفسه محاصراً تماماً عاجزاً عن الفعل، فالقصر والسعديون حلفاء الأمس القريب، والذين شجعوا الإخوان، ونظروا لتحركهم بإتجاه قضية فلسطين بعين الرضا بغية صرف الأنظار عن معركة الجلاء عن مصر، وعن قضايا الداخل المختلفة، بدءوا يخونون قضية فلسطين.

والبنا الذى شحن نفوس أتباعه وإلى أقصى مدى بالمشاعر الإسلامية المتوترة تجاه قضية فلسطين يجد نفسه مطالباً إما بأن يواجه القصر والحكومة وإما أن يواجه أتباعه.. وحاول أن يتخذ موقفاً وسطاً، ولعله راح ضحية هذه المحاولة.

وكان شباب الجامعة من الإخوان وغيرهم يغلى رفضاً للشروط المهينة التى خضعت لها الحكومة في إتفاقية الهدنة في فلسطين، ولعل البنا حاول أن يلعب بآخر أوراقه (نفوذه وسط طلاب الجامعة) ، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجماعة، وخرج البوليس ليردعهم كعادته هذه الأيام، ودارت معارك مسلحة أمام فناء كلية طب القصر العينى أحد مراكز القوة بالنسبة لطلاب الإخوان. وإستخدم البوليس الرصاص، وإستخدم الإخوان المتفجرات، وإذ كان حكمدار العاصمة سليم زكى يقود المعركة من سيارته (تلك السيارة التى ركبها حسن البنا منذ أقل من عام ونصف ليهدئ المتظاهرين)، سددت نحوه قنبلة أصابته إصابة مباشرة.. وإتهم بيان حكومى جماعة الإخوان المسلمين بقتله.

وعلي أثر ذلك، صدر قرار من الحاكم العسكرى، (كانت الأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين) بإيقاف صحيفة الجماعة . وحاول البنا يائساً إنقاذ الجماعة.. إتصل بكل أصدقائه وحتى خصومه، ولعب بكل أوراقه، حاول الاتصال بالملك، وبإبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى، وبعبد الرحمن عمار (صديقه الشخصى وصديق الجماعة) وكان وكيلاً لوزارة الداخلية.

ولأن الشيخ قد فقد أسباب قوته، بدأوا يتلاعبون به ،ففى الساعة العاشرة من مساء يوم ٨ ديسمبر إتصل به عبد الرحمن عمار وأكد له أن شيئاً ما سيحدث لتحسين الموقف، وإنقاذ الجماعة. وإطمأن الشيخ وقبع هو ومجموعة من أنصاره في المركز العام ينتظرون «الإنقاذ» فإذا بالراديو يذيع عليهم قرار مجلس الوزراء بحل الجماعة بناء على مذكرة أعدها عبد الرحمن عمار نفسه.

---

٨٧ – الدعوة، غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧) – تصريح سعد الدين الوليلى، السكرتير الخاص للشيخ حسن البنا بعنوان «ما هى الأسرار الحقيقية فى قضية إغتيال الشيخ حسن البنا».

وإذ حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصراً وإقتحمه البوليس ليلقى القبض على كل من فيه بإستثناء البنا الذى ترك طليقاً بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله(٨٧) وكانت حريته هذه هى عذابه ونهايته.

وإشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن طلب حل جماعة الإخوان المسلمين على قرار إتهام طويل يعيد إلى الأذهان كل أعمال العنف التى إرتكبتها الجماعة، حتى تلك التى إرتكبتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها.

فمن بين التهم الثلاث عشرة التى ساقتها المذكرة نجد:

* أن الجماعة كانت تعد للإطاحة بالنظام السياسى القائم وذلك عن طريق الإرهاب مستخدمة تشكيلات مدربة عسكرياً هى فرق الجوالة.

* مسئولية الجماعة عن مقتل أحد خصومها السياسيين (وفدى) في بور سعيد.

* مسئولية الجماعة بحيازة أسلحة ومفرقعات ومتفجرات (حادث المقطم – مستودع السلاح بعزبة الشيخ محمد فرغلى – ضبط مصنع للمتفجرات بالإسماعيلية)

* نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية.

* نسف العديد من المنشآت التجارية المملوكة لليهود.

* الاعتداء علي رجال الأمن أثناء تأدية وظيفتهم.

* إرهاب أصحاب المنشآت التجارية وتهديدهم بهدف الحصول على «تبرعات» و«إشتراكات» مدفوعة مقدماً لصحيفة الجماعة.(٨٨)

وبناء علي هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكرى العام محمود فهمى النقراشى باشا قراراً عسكرياً من تسعة مواد تنص مادته الأولى: تحل فوراً الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت، وتغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها، وتضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والأموال وعلى العموم كافة الأشياء المملوكة للجمعية.ويحظر على أعضائها والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية، وبوجه خاص عقد إجتماعات لها أو لإحدى شعبها أو تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة إليها أو جمع الإعانات، أو الاشتراكات أو الشروع في شئ من ذلك.ويعد من الاجتماعات المحظورة فى تطبيق هذا الحكم إجتماع خمسة فأكثر من الأشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة. كما يحظر على كل شخص طبيعى أو معنوى السماح باستعمال أى مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات، أو تقديم أى مساعدة أدبية أو مادية

---

٨٨ – الامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الاخوان المسلمين الصادر فى ٨ ديسمبر – المذكرة التفسيرية المقدمة من عبد الرحمن بك عمار ، وكيل وزارة الداخلية.

٨٩ – حسن البنا ، القول الفصل.

أخرى.

وتنص المادة الثالثة «على كل شخص كان عضواً فى الجمعية المنحلة أو منتمياً لها وكان مؤتمنا على أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو أشياء أن يسلمها إلى مركز البوليس المقيم فى دائرته فى خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر».

أما المادة الرابعة فتنص على تعيين «مندوب خاص مهمته إستلام جميع أموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يرى تصفيته، ويخصص الناتج للأعمال الخيرية أو الاجتماعية التى يحددها وزير الشؤون».

ودارت ماكينة العنف البوليسى ضد الاخوان ،هؤلاء الذين باركوا دورانها ضد خصومهم من الوفديين والتقدميين والشيوعيين فإذا بغول الديكتاتورية يبتلعهم هم أيضاً.

والمعتقلات التى إفتتحت فى ظل مباركة الإخوان وتهليلهم يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ (بمناسبة حرب فلسطين) لتستقبل خصومهم السياسيين أخذت تتوسع كى تستقبل الألوف من أعضاء الإخوان.

ويقول البنا انه قد تم فصل ١٥٠ موظفاً، وشرد من القاهرة وحدها إلى الوجه القبلى ٥٠٠ موظف، وأبعد عن كليات الجامعة والمدارس الثانوية نحواً من ألف طالب[٨٩].

حاول البنا جهد طاقته أن يوقف طوفان المحنة. لكنه كان عاجزاً بالفعل . فالحكومة التى هادنها وهادنته، كانت تضرب بعنف وقوة مصممة على تصفية الإخوان، ورفض النقراشى كل محاولات البنا للالتقاء به. والجماعة التى بناها الشيخ بعرقه وجهده، وشيدها بيديه لبنة لبنة عبر عشرين عاماً تنهار أمام عينيه، وجهازه السرى تنقطع خطوط إتصاله، «فقد كانت ضربة سيارة الجيب قاصمة بالنسبة لقيادات الجهاز السرى وشبكات إتصالهم، وإذ ضربت قيادة الجهاز فقد البنا إتصاله به، بل وفقد سيطرته عليه»[٩٠] أو هكذا كان التفسير الاخوانى لعجز البنا عن السيطرة على التداعيات.

وفى ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) وقعت الواقعة، وصعدت المأساة إلى أعلى قممها إذ قام طالب فى الثالثة والعشرين من عمره (عبد المجيد أحمد حسن) بإطلاق رصاصتين محكمتى التصويب على رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا. وشيع أنصار الحكومة جثمان رئيس وزرائهم هاتفين فى صراحة «الموت لحسن البنا»[٩١]

---

90 - Mitchell - ibid .P67.

٩١ – المباحث، ٢٣ – ١ – ١٩٥١.

92 - Cahiers de L’orient Contemporaine -II (1949) P.42.

93 - Mitchell - Ibid .P.67.

وأتى إبراهيم عبد الهادى ليدير ماكينة العنف الرسمى إلى أقصى مداها، ولتتسع دائرة الاعتقالات فى صفوف الإخوان فتشمل ٤٠٠٠ معتقل[٩٢]، وتعرض بعض المعتقلين لأقصى درجات التعذيب الوحشى الذى لم تعرف له مصر مثيلاً من قبل، وباختصار «كانت الستة أشهر التالية لتولى إبراهيم عبد الهادى الحكم صورة راسخة فى أذهان المصريين جميعاً للسلطة الرسمية الغاشمة. وقد إكتسب عبد الهادي لنفسه خلالها عداء كافة فئات الرأى العام المصرى».[٩٣]

وفى زنازين التعذيب الرهيبة – والتى تناولت المتهم وأسرته رجالاً ونساءً – كان أقصى ما يؤلم الإخوان قيام أجهزة الأمن بتعليق الآية الكريمة «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم».

ولعل شكوكاً كثيرة قد ساورت هؤلاء الشبان من أعضاء الجهاز السرى وهم يعانون من التعذيب الوحشى فى جدوى عملية الإرهاب ضد خصومهم، وربما فى مدى مشروعيتها.

وفى مدى إنطباق «فكرة الجهاد» علي ما إرتكبوه من أعمال، ولعل فتاوي مفتي الديار المصرية ، وبيانات شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء التى تدين أعمالهم قدأثرت فيهم وإن قليلا.

لكن الطامة الكبرى جاءت عندما إستنكر الشيخ البنا نفسه هذه الأعمال، وإتهم القائمين بها بأنهم «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين»، وهنا إنهار المتهمون جميعاً، فقد كان صمودهم وإحتمالهم للتعذيب يستمد كل صلابته من «البيعة» فى المنشط والمكره التى أقسموا بها بين يدى الشيخ أو من يمثله فى حجرة مظلمة . فاذا تخلي الشيخ عنهم، وعن فكرة «الجهاد» كما لقنها لهم .. فماذا يبقي؟

ولقد صمد عبد المجيد حسن ثلاثة أسابيع كاملة فى مواجهة تعذيب وحشى ضده وضد أسرته، لكنه ما لبث أن إنهار تماماً عندما قرأ بيان الشيخ البنا الذى نشرته الصحف. [٩٤]

والحقيقة أن نزوع الإخوان الى الأرهاب، كان خطأً فادحاً مكن الخصوم من إستخدام العنف الرسمى فى أقصى صورة ضدهم.

كذلك فقد عزلهم هذا الإرهاب عن الكثير من القوى التى إعتادت العطف عليهم، أو النظر إلى دعوتهم بعين الرضا.

ومع ماكينة التعذيب، كانت ماكينة الدعاية تدور هى الأخرى لتجرم الجماعة وشيخها ومنهجها وجهازها

---

94 - Mitchell - ibid .P.68

٩٥ – جرائم عصابة الإخوان – مجموعة كتاب – ص١٩٣.

٩٦ – المرجع السابق – ص١٩٣.

السرى.

* فتوى مفتى الديار المصرية تدين أفعال الجماعة وتتهم القائمين بها بالكفر.

* وبيان من هيئة كبار العلماء.

* وبيان ثالث من شيخ الأزهر.

* وساهم فى حملة الإدانة لأعمال العنف والإرهاب الإخوانية مفكرون وكتاب يتمتعون باحترام جمهور الشعب العريض.

* د. طه حسين يقول: «ما هذه الأسلحة وما هذه الذخيرة التى تدخر فى بيوت الأحياء وفى قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذى يكمن، وما هذه الخطط التى تدبر، وما هذا الكيد الذي يكاد، ولم كل هذا الشر، ولم كل هذه النكر، ولم رخصت حياة المصريين .. يقال أنها إنما رخصت بأمر الإسلام الذى لم يحرم شيئاً كما حرم القتل، ولم ينه عن شئ كما نهى عن التعاون علي الإثم والعدوان»(٩٥)

* وكامل الشناوى يقول «إننى حزين أن يوجد إنسان واحد، لا جماعة منظمة، يصنع الموت للناس ويحترف التخريب والتدمير، وإن قلبى ليقطر حزناً إذ كانت هذه الجماعة ترتكب جرائمها باسم الاسلام، وتجد من يصدقون دعواها. إن الإسلام الذى يقول كتابه الكريم «وجادلهم بالتى هى أحسن» لا يقر الجدل بالمسدسات والمدافع والمتفجرات»(٩٦)

لكن إستنكار الجهاز السرى وجرائمه لم يأت من خارج الجماعة فقط، بل لعله أتى أكثر ما أتى من داخلها، بل من شيخها ومنشئها ومؤسس الجهاز السرى نفسه هو وعدد من قادة الاخوان . أو هكذا فعلوا على سبيل «التقية» عندما وقعت الواقعة ووجدوا أنفسهم فى المأزق.

يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام فى إعترافاته أمام المحكمة «..شفت الأستاذ حسن بعدما حصلت حادثة الخازندار، وكان مرهقاً ومتعباً جداً من الحكاية دى، وقال لى الإخوان قاموا بارتكاب الحادثة دى إزاى؟ دى جريمة بشعة .وبهذه المناسبة شكا لى من أن الفكرة من إنشاء أو تكوين الجهاز كانت تفهيم الإخوان معنى الجهاد فى نفوسهم ولكن بعض الأفراد إنحرفوا، وقال أن هذه الحوادث حصلت من غير ما يعلم بها، وكان فى غاية الألم».

ويقاطعه رئيس المحكمة «إحنا ما بنكلمش عن الأستاذ البنا وأنه كان فى غاية الألم، ألم تتكلم معاه فى أن

---

٩٧ - محكمة الشعب جـ٢ - محاكمة حسن الهضيبى (شهادة منير الدلة) ص١٢٣٦ - ١٢٣٧.

٩٨ -محضر تحقيق النيابة فى قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١ - ١٩٥٢) جلسة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ - (شهادة السيدة ميرة عامر) ص٢٥٩ وما بعدها.

٩٩ - محكمة الشعب - جـ ٤ - محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة حسن الهضيبى) . ص٧٨٨.

الجهاز ده يتبع مين؟».

ويجيب الشاهد «معنى الكلام ده إن الجهاز المفروض أنه يكون خاضع له، ولكن هو ما كانش خاضع له، وانه إرتكب الحوادث اللى إرتكبها من غير أمره. وفى فترة الحل تجددت شكواه (البنا) ثانى مرة، وقال على حد تعبيره: الحمد الله إللى إتحلت الجماعة علشان نخلص من البلوى دى ونصفيها»(٩٧)

وإذ نترك هذه الشهادة الخطيرة .. بما فيها من معلومات تثير الدهشة معلقة على كاهل و مسؤولية قائلها، فإننا نلاحظ أن ثمة شهادة أخرى، وهى شهادة السيدة منيرة عامر حرم صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين والصديق الشخصى لحسن البنا.. ففى شهادتها أمام المحقق فى قضية إغتيال حسن البنا بجلسة ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ تقول «الشيخ البنا كان يحضر لمقابلة صالح حرب باشا لكي يتفق مع الحكومة، وكان الواسطة بين الطرفين الأستاذ مصطفى مرعى، وأنا كنت أسمع أن الأستاذ البنا متألم، وسألته قال أنه بعد قتل الخازندار الأمور خرجت من أيده وقال: وأنا عاوز أمسكهم ولكن مش قادر».(٩٨)

ونمضى لنتابع مواقف بقية قادة الجماعة من أعمال الإرهاب.

يقول حسن الهضيبى خليفة حسن البنا فى إعترافاته أمام المحكمة «لما جيت فى الإخوان المسلمين فى سنة ١٩٥١ تبين لى أن عندهم شئ إسمه النظام الخاص، فأنا سألت إيه الغرض من هذا النظام. وإيه مرماه؟ وتعملوا بيه إيه ؟ خصوصاً بعد ما ثبت أنه إرتكب جرائم قبل ذلك فى السنوات ٤٦ – ٤٧ – ٤٨، وكل هذه الجرائم إرتكبت طبعاً فى إنحراف أو خروج عن الغرض الأصلى».(٩٩)

وقائد ثالث من الإخوان – محمد عبد المعز محمد عبد الله – يقول فى شهادته أمام المحكمة:

«– الدفاع: قتل النقراشى حلال؟

– الشاهد: جريمة.

– الدفاع: وقتل الخازندار حرام؟

– الشاهد: أيوه؟

– الدفاع: إسلام أو كفر؟

– الشاهد: كفر

– الدفاع: وقاتله؟

– الشاهد: يدخل النار.

– الدفاع: فى عهد من قتل الخازندار؟

---

١٠٠ – محكمة الشعب – جـ ٢ – محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة محمد عبد المعز محمد عبد الله).

١٠١ – المرجع السابق – شهادة محمود الحواتكى . ص٢٥٤.

– الشاهد : فى عهد حسن البنا.

– الدفاع: والنقراشى؟

– الشاهد: في عهد حسن البنا.

– الدفاع : ومن يقر القتل كافر أو مسلم؟

الشاهد: ....»[١٠٠]

وقائد آخر من قادة الجماعة هو محمود الحواتكى يتكلم أمام المحكمة.

«– الدفاع: هل إغتيال الخازندار من ضمن الأخطاء؟

– الشاهد: نعم.

– الدفاع: والذين إرتكبوا هذه الأخطاء مسلمين أو غير مسلمين؟

الشاهد: إنخلعت عنهم ربقة الإيمان.

– الدفاع : هل تعتقد أن الذين يقرونهم ويوافقون على هذه الجرائم مسلمين أو غير مسلمين؟

– الشاهد: غير مسلمين؟

ومضى الشاهد فى إعترافاته مؤكداً أنه فى أيام حسن البنا كان الذى يخرج على الجهاز السرى يقتل»[١٠١]

أما الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فيجيب أمام ذات المحكمة على سؤال عن نشاط الجهاز السرى قائلاً:

«– الرئيس : وده صح؟

– الشاهد: غلط

– الرئيس : غلط؟

– الشاهد : نعم

– الرئيس : يفهم من كده أن جماعة الإخوان المسلمين غلط؟

– الشاهد: إلى أبعد حدود الغلط».

ويسأله الرئيس هل تعتبر عمل محمود عبد اللطيف (الذى حاول إغتيال جمال عبد الناصر) من الأعمال المضادة للجهادية.. الإجرامية مثلاً؟

ويجيب وكيل جماعة الإخوان: «أناأعتبر أن عمل محمود عبد اللطيف عمل إجرامى»[١٠٢]

ونترك هذا الحديث إذ بإمكانه أن يطول بغير حد. فسلسلة إعترافات الإخوان أمام المحاكم لا تنتهى. فقط

---

١٠٢ – محكمة الشعب – جـ٣ – (شهادة خميس حميدة) ص٦٨٠.

أردنا منه أن نثبت أن مقولة «الجهاد» التى قام على أساسها الجهاز السرى لم تكن واضحة وضوحاً كافياً،ولا مستقرة إستقراراً كافياً، ولا مقبولة قبولاً كافياً من كوادر الجماعة وقادتها.وعندما جاءت ردود الافعال الحكومية، وحانت ساعة العقاب، وعندما إنطفأ الزهو، وواجه الإخوان مصيرهم أمام سلطة البطش، إنهار الكثيرون مدلين باعترافات كاملة. كان أخطرها تطوعهم بإدانة فكرة الجهاز السرى وتكفير القائمين عليه.

نترك ذلك .. ونعود إلى الشيخ حسن فى محنته القاسية.

كان الشيخ حسن البنا يعانى أكثر ما يعانى من حريته المفروضة عليه. وأكثر من مرة طالب خصومه بأن يضعوه فى المعتقل ولكنهم رفضوا، فقد إختمرت لديهم فكرة تصفية الشيخ. تصفيته سياسياً، أولاً وبعدها يصفى جسدياً.

وقد كان.

وفى حريته كان الشيخ أكثر عذاباً من أتباعه المسجونين، فقد تركوه محاصراً، عاجزاً، ضعيفاً، لقد إنفرط عقد الجماعة، والجهاز السرى تقطعت خطوطه، والبناء الشامخ ينهار، «ورهبان الليل وفرسان النهار» يتساقطون تحت آلة التعذيب ليدلوا باعترافات متكاملة تجر إلى الزنازين المزيد والمزيد من الإخوان.

والشيخ الذى كان ملء السمع والبصر، أصبح يستجدى مقابلة رئيس الوزراء مقدماً كل ما يستطيع من تنازلات، ويأبى رئيس الوزراء أن يقابله.

وبالنسبة لرجل كحسن البنا، يكون وضع كهذا هو قمة المأساة.

وتحرك الشيخ المهيض الجناح في إتجاهين. أن يسجل دفاعه عن نفسه وعن جماعته كتابة، وأن يحاول لعبة الوساطة والتنازل لعله ينقذ شيئاً من تحت أنقاض الجماعة.

وكتب الشيخ آخر رسائله «القول الفصل» وشتان بينها وبين رسائله الأولى.

يبدأ البنا «القول الفصل» قائلاً: «لقد سمع الرأى العام المصرى والعربى والإسلامى قضية الإخوان المسلمين من جانب واحد، جانب الحكومة التى إعتدت على الهيئة بإصدار أمر عسكرى بحلها، وهو الجانب الذى يملك كل وسائل الدعاية من الصحف الخاضعة للرقابة كل الخضوع، ومن الإذاعة التى تديرها وتهيمن عليها القلة، ومن الخطباء فى المساجد الذين هم موظفون حكوميون. لكن الرأى العام لم يسمع من الطرف الآخر، لم يسمع من الإخوان الذين حرموا كل وسائل الدفاع عن أنفسهم فصودرت صحفهم وعطلت أقلامهم وكممت أفواههم، وإعتقل كل خطيب لهم وإعتبر إجتماع كل خمسة منهم فى أي مكان جريمة أقل عقوبة لها السجن ستة أشهر.

---

١٠٣ – محكمة الشعب – جـ ٣ – (شهادة خميس حميدة) ص٦٨٠.

ولهذا كان من الواجب أن نتقدم بهذا البيان للرأى العام المصرى والعربى والإسلامى وللضمير الإنسانى العالمى حتى لا يقع فى خطأ ما، ويظلم فى الحكم، ويحكم بسماع خصم واحد، وقد قيل : إذا جاءك خصم وعينه مقلوعة فلا تحكم له حتى ترى خصمه فقد تكون عيناه الاثنتان مقلوعتين»[١٠٣]

أما الأسلحة فقد كرر الشيخ مقولة انها «للمجاهدين من الإخوان المسلمين والفلسطينيين والهيئة العربية العليا الفلسطينية، والحكومة نفسها تعرف ذلك».

وإتهم البنا الحكومة أنها أصدرت قرار حل الجماعة تحت ضغط مذكرة ثلاثية تقدمت بها كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبعد إجتماع لمثليها الدبلوماسيين بفايد فى ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨. وطالبت المذكرة بحل الجماعة.

وبعد أن سرد البنا أسباباً عديدة أخرى منها ستر الفشل فى فلسطين والإعداد لمفاوضات جديدة مع الانجليز، عاد ليركز على ما أسماه بالأصابع الخفية والدسائس «من ذوى الغايات الذين خاصموا الدعوة من أول يوم وتربصوا بها، كاليهودية العالمية والشيوعية الدولية والاستعمار وأنصار الإلحاد والإباحية».وفي ختام «القول الفصل» قال البنا:« وسنجاهد فى سبيل حقنا ما وسعنا الجهاد، فإن أعوزتنا الحياة الشريفة العزيزة فلن يعوزنا الموت الكريم المجيد».

لكن «القول الفصل» بقى مخطوطاً. ولم ير النور إلا بعد وفاة الشيخ.

قلنا أن الشيخ قد لجأ إلى الوساطة . والصحيح أنه قد وقع فى مصيدة الوساطة . لقد إستدرجوه خطوة خطوة، ليقدم تنازلاً أثر تنازل وفى النهاية إغتالوه.

وقد رفض عبد الهادى مقابلة الشيخ، ثم أحال الأمر إلى إثنين من أخلص أعوانه ليراوغا الشيخ ويستدرجاه أولاً إلى مصيدة التصفية السياسية.

ولنلق نظرة على الصائدين..و على المصيدة.

وكانت المصيدة هى إستدارج الشيخ إلى إصدار بيانات وإتخاذ مواقف تدمر سمعته السياسية وتظهره بمظهر الضعيف أمام أتباعه وجماهيره، وتؤدى إلى تدمير معنويات الإخوان المحتجزين، ثم فى النهاية تصفيته جسدياً بعد أن يصفى سياسياً.

يقول المدعى نائب الأحكام أثناء محاكمة إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة بتهم من بينها تدبير اغتيال حسن البنا:«ولم يكن المتهم (عبد الهادى) مطمئناً إلى أنه بما أجراه من اعتقالات قد عزل المجنى عليه (حسن البنا) من أنصاره عزلاً تاماً، بل ساوره الاعتقاد بإحتمال أن يكون لفريسته أنصار آخرون لم يتيسر لرجاله

---

١٠٤ – محاكمات الثورة – الكتاب الأول ٠محاكمة ابراهيم عبد الهادى) ص١٨١.

الكشف عنهم ، ومن ثم فقد دس عليه بعض وزرائه فى صورة من يفاوضونه لإعادة جماعته سيرتها الأولى في مقابل أن يكشف له عن كل رجالها توطئة لاعتقالهم .فلما لم يؤد هذا البحث إلى إثبات وجود أنصار آخرين للمجنى عليه إطمأن المتهم إلى أن الفرصة واتته ليجهز على فريسته وهى مجردة من كل نصير»(١٠٤)

لكن كيف كانت تجرى المفاوضات بين «الصائد» و«الصيد»؟ وكيف كان الشيخ المقصوص الأجنحة يجر جراً إلى المصيدة؟

لنستمع إلى شهادة أقرب المقربين إلي حسن البنا، «أخو خديجة» كما أسماه يوماً ما. صهره عبد الكريم منصور، إنه يستخدم نفس التعبير – بل لعلنا إستعرناه منه.. «علاوة على ذلك إستخدمت الحكومة الأستاذ مصطفى مرعى كأداة صيد. لأن مصطفى مرعى إتصل بصالح حرب وقال له أنا عاوز أفاوض الإمام الشهيد، وأخذ الأستاذ مصطفى مرعى بأساليب ملتوية ممقوتة يعمل على إبقاء الإمام الشهيد بالقاهرة موهماً إياه بأسلوب بهلوانى بأن الحكومة ستلغى أمر الحل وتتصالح مع الإخوان وتعود الأمور إلى ماكانت عليه».

ويسأله رئيس المحكمة : قلت فى كلامك أنه إتبع طرق ملتوية، فإية الطرق الملتوية دى؟

ويجيب الشاهد: «أيوه حاقول لكم يا أفندم. فهو كان بيوهم الإمام الشهيد أنهم جادون فى أن يعيدوا الإخوان المسلمين، ولكنه كان بيقول له بس لو سمحت تكتب لى بيان يثبت حسن نيتكم، وكان مصطفى مرعى يقول ألفاظ للأمام الشهيد، وكان الأمام الشهيد يعارض فى ألفاظ ملتوية كان يكتبها أويمليها مصطفى مرعى فيقوم يقول له.. دى مسألة بسيطة إذا كان ده ثمن إعادة الإخوان، وإذا كان ثمن التفاهم مع الحكومة فإيه المانع من كتابته؟ وبمجرد ما كتب هذا البيان أخذه مصطفى مرعى وأعطاه لرئيس الحكومة وعدل فيه وجابه للأمام الشهيد وقعد يقول له اللفظ ده يدخل واللفظ ده لايدخل . وهكذا قعد يعدل فى البيان . وبعد ذلك، بمجرد ما أخذ البيان منه أعطاه لقاتل النقراشى وقال له شوف الشيخ حسن البنا أهو أصدر بيان ضدك، وقعد يستثير به المتهم القاتل، وكان من نتيجة هذا الأسلوب الذى إتخذه مصطفى مرعى أن قاتل النقراشى قعد يتكلم كلام كثير، وأصبح أداة مطواعة فى يد التحقيق يقول ما يمليه عليه المحقق ورجال البوليس السياسى»(١٠٥)

وهكذا فعندما يتردى السياسى فى هاوية التنازلات، فلاعاصم. وقع البنا بياناً بعنوان «بيان للناس» إستنكر فيها الشيخ أعمال رجاله ورفاق طريقه، ودمغها بالإرهاب والخروج علي تعاليم الإسلام.

وكان البنا يلح على ضرورة الإفراج عن بعض رجاله معلناً أنه «لا يستطيع أن ينكر الأخطاء التى إرتكبها

---

١٠٥ – المرجع السابق ، ص١٢٥.

١٠٦ – حسن البنا – القول الفصل.

١٠٧ – موسى إسحاق الحسينى، المرجع السابق، ص٣٦.

١٠٨ – محضر تحقيق النيابة فى قضية حسن البنا – المرجع السابق – محضر أقوال محمد يوسف الليثى ، ص٤٤.

الإخوان وأنها قد هزته، إلى درجة أنه هو نفسه قد شعر بضرورة حل الجماعة»[١٠٦]. وقال أن التحكم فى سير الأحداث يحتاج إلى رجال معينين يمكن للشيخ من خلالهم السيطرة على الموقف . لكن عبد الهادى لم يقتنع بمنطق الشيخ ولم يكتف بالبيان الذى أصدره، وأخذ مصطفى مرعى يلح علي ضرورة تسليم محطة الإذاعة السرية للإخوان وكل ما بقى لدى الإخوان من أسلحة»[١٠٧]

وبعد يومين من صدور «بيان للناس» قبض علي أحد قادة الجهاز السرى وهو يحاول نسف محكمة إستئناف مصر. ولنترك الحديث للشاهد الأول في قضية إغتيال البنا الاستاذ محمد يوسف الليثى والذي كان في هذا الوقت مقربا من البوليس السياسي ومكلفاً بمتابعة تحركات حسن البنا وهوأيضاً الذى رتب معه الموعد يوم اغتياله .. يقول الشاهد «.. وحصل حادث نسف محكمة الاستئناف وأنا قابلت الشيخ البنا، وكان متأثراً جداً من هذا الحادث، وكان معتقداً أن الإخوان مش هم اللى عملوا الحادث، ولما عرف أنهم هم اللى عملوا الحادث زعل خالص وبكى وقال أنه لا تهمه الحكومة، وإنما يهمه الشعب الذى قد يصدق أن الأخوان المسلمين إرهابيون، وقال أنه إستعجب كيف حصل هذا الحادث؟ وحصلت بعد كده مفاوضات بينه وبين مصطفى مرعى بخصوص المعتقلين ، وصالح حرب باشا إتصل بمرعى بيه علشان يجتمعوا بالشيخ البنا. ومرعى بيه قال للشيخ البنا تعمل بيان كما قلت لك فى الأول وأنت رفضت، ولذلك لازم تعمل بيان وإتفاهموا على إصدار بيان بعنوان «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين» ثم إستمرت الاتصالات».[١٠٨]

وعندما يدخل الصيد إلى المصيدة .. تكون التصرفات غير محسوبة . ولنقرأ ما خطه الشيخ البنا بيده: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

«وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة النائب العام، وذكرت الجرائد أن مرتكبه كان من الإخوان المسلمين فشعرت بأن من الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكن أن يكون من الإخوان ولا من المسلمين لأن الإسلام يحرمها والإخوة تأباها وترفضها .ومن المرجح بل من المحقق أنه أراد به أن يتحدى الكلمة التى نشرت قبل ذلك بيومين تحت عنوان «بيان للناس» ولكن مصر الآمنة لن تروعها هذه المحاولات الأثيمة، وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مع حكومته الحريصة على أمنه وطمأنينته فى ظل جلالة الملك المعظم على القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة.

وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التى يبعثون بها إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحداً منهم إلا شعوراً بواجبه وحرصاً تاماً علي أدائه . فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفوا إلى خدمة

---

109 - Mitchell - Ibid P.69.

بلادهم كل فى حدود عمله، إن كانوا يستطيعون عمل شئ نافع مفيد.وإنى لأعلن أننى منذ اليوم سأعتبر أى حادث من هذه الحوادث يقع من أى فرد سبق له إتصال بجماعة الإخوان موجها إلى شخصى. ولا يسعنى إزاءه إلا أن أقدم نفسى للقصاص وأطلب إلى جهات الاختصاص تجريدى من جنسيتى المصرية التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق ولا شك عن الأصيل والدخيل، ولله عاقبة الأمور.

«حسن البنا»

وهكذا إمتص المفاوضون البرتقالة إلى آخر قطرة.

والشيخ الذى يعيش فى قفص الحرية يعانى أكثر من رجاله فى السجن.

ويتعرض لضغوط مريرة عنيفة .. آلاف الأسر بلا عائل، إخوانه فى السجن، وهو بلا حول ولا طول.

وبيانه الأول أثار إستياء أعضاء الجماعة بالسجون ويقال أنهم وجهوا له رسالة إنذار يقولون فيها أنهم يعتقدون «أن البيان مدسوس فإن كان صحيحاً فإن يوم الحساب آت بعد الإفراج عنا».(١٠٩)

ويكون تحدى من بقى بالخارج لبيان الشيخ محاولة نسف محكمة الاستئناف. الرجل بين فكى كسارة البندق سجين ضغوط خصومه، وضغوط رجاله، لكنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

وماذا بقى من الشيخ..

رجاله فى السجون يبعثون له يهددونه، ومن بقى خارج السجن يتمرد عليه، وهو يتهم أخلص خلصائه الذين أقسموا له على المصحف والمسدس يمين الطاعة التامة فى المنشط والمكره.. يتهم «رهبان الليل وفرسان النهار» بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

بل ويتردى إلى مديح الحكومة التى تعذب رجاله أشد العذاب، ويقول أنها حريصة علي أمن الشعب وطمأنينته «فى ظل جلالة الملك المعظم».. بل ويحرض الشعب علي التعاون مع الحكومة «للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة».

«رهبان الليل وفرسان النهار» أصبحوا فى آخر بيان للشيخ «أولئك الصغار من العابثين» وجهادهم أصبح «سفاسف».

ولا يبقى للشيخ ما يقوله سوى أنه سيطلب تجريده من جنسيته المصرية «التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء»؟

وقرر القتلة أن يطلقوا الرصاص علي جثته.

---

١١٠ – الدعوة – غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧) . ص٣٨.

سحبوا منه سيارته ثم مسدسه المرخص ثم سحبوا الحراسة المحيطة به، وإستدرجوه إلى جلسة مفاوضات أخرى أوأخيرة.. وأطلقوا عليه الرصاص.

ويبقى معلقاً للبحث الدقيق .. التاريخ الحقيقى لوفاة الإمام الشهيد المرشد العام الشيخ حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى.

هل هو يوم ١٢ فبراير١٩٤٩. كما هو مثبت فى شهادة الوفاة؟

أم هو يوم أصدر الشيخ بيانه «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين»؟

أم هو يوم أصدر«بيان للناس»؟

أم قبل ذلك بكثير.. يوم سمح لنفسه أن يدخل ميدان السياسة من باب الموالاة للقصر ومخاصمة الشعب.؟

وقد أثبت التحقيق أن المدبر الأساسى لمقتل الشيخ حسن البنا كان الملك فاروق.

وأكد الإخوان أنفسهم أكثر من مرة أن الشيخ «قد أغتيل فى يوم ١٢ فبراير١٩٤٩ - الموافق ١٤ ربيع ثانى سنة ١٣٦٨ هجرية.. يوم عيد ميلاد الملك السابق فاروق أحمد فؤاد فكان إغتياله هدية عيد ميلاد ملك جلب الدمار لشعبه».(١١٠)

بل لقد وصل الأمر بالجماعة إلى أنها طلبت رسمياً من المحكمة التي عقدت فى أعقاب ثورة يوليو لمحاكمة قتلة الشيخ حسن البنا، تقديم متهمين جدد على رأسهم الملك السابق فاروق وذلك باعتباره محرضاً وفاعلاً أصلياً.

ولأن القاتل الحقيقى كان فاروق على الاقل فى نظر الجماعة.. فإن الباحث لا يستطيع أن يكتم دهشته - بل ما هو أكثر من الدهشة - إذ يجد فى سجل تشريفات قصر عابدين يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥١ أسماء عديد من قادة الإخوان، أتوا إلى أبواب قصر الملك، ليعربوا - مرة أخرى - لقاتل شيخهم، ربما عن ولائهم ، وربما عن نسيانهم لدم شهيدهم. والتوقيعات ذات دلالة.

خليفة الشيخ البنا.. المرشد الجديد حسن إسماعيل الهضيبى.

أقارب الشيخ البنا.. شقيقه عبد الرحمن البنا عضو مكتب الإرشاد العام.

وصهره عبد الحكيم عابدين سكرتير عام الجماعة.

وأقرب المقربين إليه من رجاله:

- صالح عشماوى.
- عبد القادر عودة.
- حسين كمال الدين.
- محمد الغزالى.

- عبد العزيز كامل.

وكلهم أعضاء فى مكتب الإرشاد العام.

وحتى السكرتير الخاص للإمام الشهيد وكاتم أسراره ورفيق رحلته الطويلة سعد الدين الوليلى أتوا به معهم ليوقع هو أيضاً معرباً عن ولائه للملك فاروق.

وطوال رحلتنا مع هذه الدراسة، تراكمت علامات إستفهام وعلامات تعجب كثيرة، وتكون علامة التعجب الأخيرة مثاراً لما هو أكثر من الدهشة. وتساؤلاً حول مدى وفاء هؤلاء الموقعين لذكرى شيخهم وإمامهم ومرشدهم . وحول مدى صدق ما يصيغون من تراتيل الوفاء لشيخ نسوا ذكراه على عتبات قصر قاتله.

* مراجع عربية:
- ابو الأعلى المورودى - نظرية الاسلام السياسية.
- ابو الحسن الندوى - مذكرات سائح فى الشرق العربى.
- أحمد حسن الحجاجى - روح وريحان.
- أحمد حسن الحجاجى - الرجل الذى أشعل الثورة.
- أنور الجندى - الاخوان المسلمون فى ميزان الحق.
- انور الجندى - قائد الدعوة ، حياة رجل وتاريخ مدرسة.
- جمال سليم - البوليس السياسى يحكم مصر.
- جرائم عصابة الاخوان - مجموعة كتاب.
- حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية.
- حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس.
- حسن البنا - مجموعة الرسائل.
- حسن البنا - رسالة التعاليم
- حسن البنا - بين الامس واليوم.
- حسن البنا - القول الفصل.
- د. زكريا البيومي - الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية.
- زينب الغزالى - أيام من حياتى.
- رشيد رضا - كتاب الوحى.
- رشيد رضا - الخلافة أو الامامة العظمى.
- رشيد رضا - تفسير القرآن الكريم.
- رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام.
- د. رفعت السعيد - حسن البنا، متى وكيف ولماذا؟
- سيد قطب - معالم فى الطريق.
- سيد قطب - فى ظلال القرآن.

- سيد قطب – مقومات التصور الاسلامى.
- صلاح الشاهد – ذكرياتى فى عهدين.
- صلاح شادى – الشهيدان ، حسن البنا وسيد قطب.
- صفوت منصور – المنهج الفكرى للعمل الاسلامي – الاخوان المسلمون.
- عبد الرحمن الرافعى – فى أعقاب الثورة المصرية.
- عبد الخبير الخولى – قائد الدعوة الاسلامية، حسن البنا.
- عبد القادر عودة – التشريع الجنائى الاسلامي.
- د. على جريشة – أصول الشريعة الاسلامية.
- عصام حسونة – ٢٣ يوليو وعبد الناصر.
- محمد حبيب أحمد – نهضة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث.
- الشيخ محمد الغزالى – الاسلام والأوضاع الاقتصادية.
- موسى اسحق الحسينى – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثه.
- محمود عبد الحليم – الاخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ.
- محمود الصباغ – حقيقة التنظيم الخاص.

* دوريات :

- الاخبار – ١٩٧٣.
- آخر ساعة – ١٩٤٨.
- الأخوان المسلمون – ١٩٤٦.
- الدعوة – ١٩٥١ – ١٩٥٢ – ١٩٥٤ – ١٩٧٧ – ١٩٨٠.
- المسلمون – ١٩٥٣.
- المصرى – ١٩٤٨.
- المصور – ١٩٥٢.
- الوفد المصرى – ١٩٤٦.
- النذير – ١٣٥٧ هجرية

* وثائق ، وأوراق قضائية.

– الأمر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الاخوان المسلمين الصادر فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨

– المذكرة التفسيرية المقدمة من عبد الرحمن بك عمار وكيل وزارة الداخلية.

– البرنامج التثقيفى لجماعة الاخوان المسلمين.

– قضايا الاخوان – قضية سيارة الجيب – الحيثيات ونص الحكم.

– محضر أقوال الشيخ محمد الغزالى أمام محكمة أمن الدولة فى قضية إغتيال د. فرج فوده.

– محضر تحقيق النيابة فى القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ – أمن دولة عسكرية عليا، المتهم فيها سيد قطب وآخرون.

– محكمة الشعب – محاضر المحاكمات.

– محضر تحقيق النيابة فى قضية الجناية رقم ١٠٧١ لسنة ١٩٥٢ [قضية مقتل حسن البنا].

– محاكمات الثورة – الكتاب الاول – محاكمة ابراهيم عبد الهادى.

* مراجع اجنبية:

- Adams - Islam and Modernism in Egypt.

- Benin and Lockman - Workers On the Nile.

- Cahiers de L'orient ContemPoraine . 1949.

- Heyworth Dunne - Religious and Political Trends in Egypt.- Hourani, Albert - Arabic Thought in the Libral age.

- Khaduri, .M - Political Trends in Arab World.

- Mitchel, R. - The Society Of muslim Brothers.

Resner , lawrance - Eternal Stranger; The Filght of modern Jew From bagdad To Casablanca.